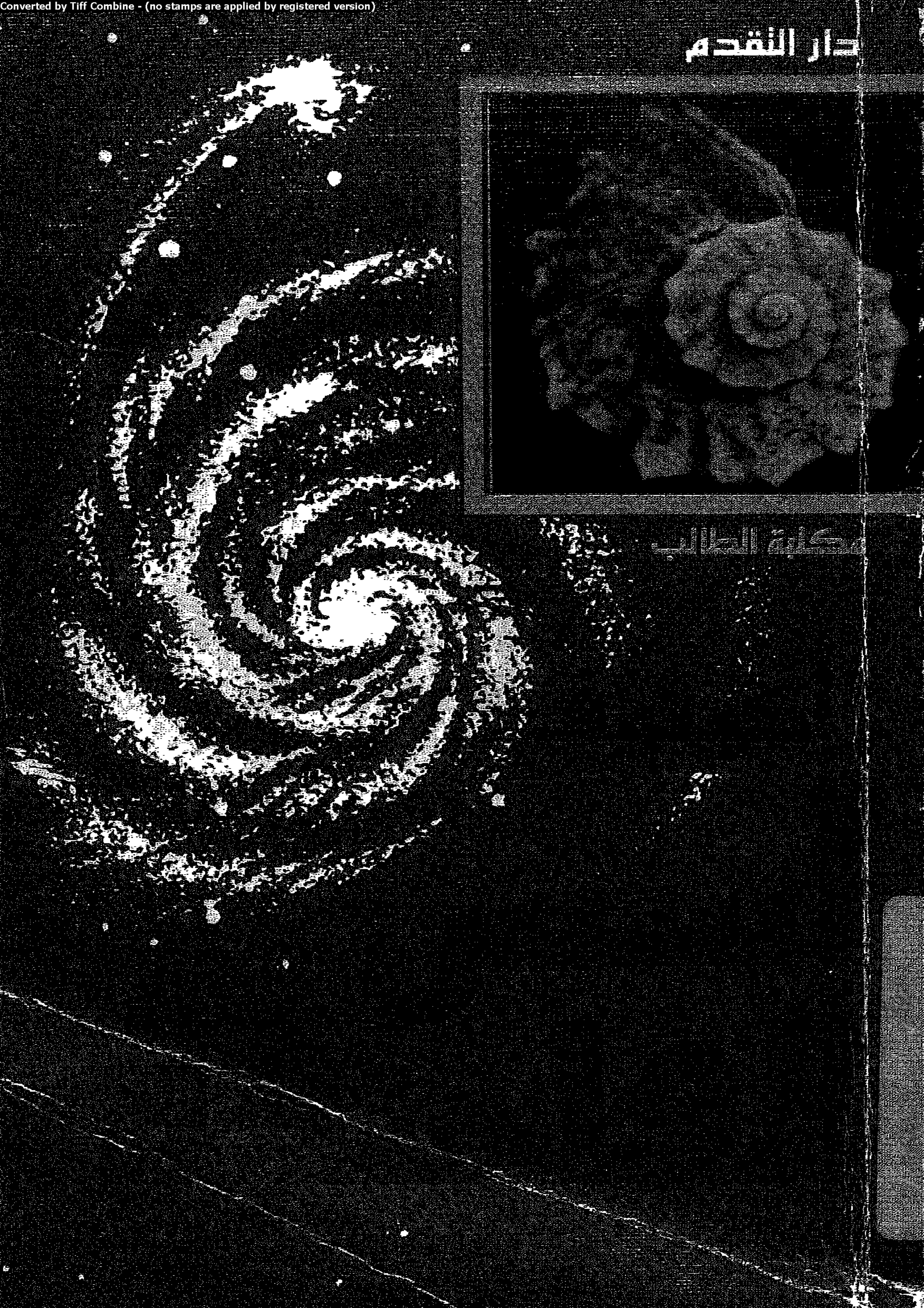
Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

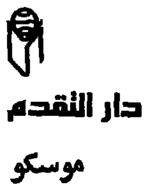



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مكتبة الطالب

راكيتوف

اسس الفلسفة



دار التقدم

موسكو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ترجمة موفق الدليمي

БИБЛИОТЕКА СТУДЕНТА

هيئة تحرير السلسلـة : فولكوف (رئيسا) ، غوبسكي (نائبا للرئيس) ، افاناسييف ، زوتوف ، توفيـق ابراهيم ، ظفار امام ، كـــون ، كريفوغوز ، بيتروفسكي ، بوبوف ، مؤنس رضا ، رومانوفسكي ، تومانوف .

А. Ракитов

ОСНОВЫ ФИЛОСОФИИ

На арабском языке

© Политиздат, 1986 г.

© الترجمة الى اللغة العربية مع التعديلات ، دار التقدم ، ١٩٨٩ طبع فى الاتحاد السوفييتي

P $\frac{0301000000—100}{014(01)—90}$ 182—90

ISBN 5-01-002-141-2

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طريقة الافادة من هذا الكتاب

بنية الكتاب الـــذى بين يدى القارئ تراعى تيسيـــر مطالعة المادة التى يتضمنها ومعالجة هذه المادة بتسلســـل يختلف تبعا للاهداف والمهمات الماثلة امام القراء . فالمدخل الموسوم «ما هى الفلسفة ؟» يقدم معلومات اساسية عـــن الفلسفة وموضوعها ومنهجها ومسألتها الاساسية ، وما يميزها عن العلوم الاخرى ، ومكانتها فى منظومة الماركسية اللينينية . ويتضمن المدخل كذلك معلومات عن ظهور الفلسفة ومراحـل تطورها الرئيسيـــة ، كما يجرى فيه تعييـــن المشكلات الاساسية التى سيجرى بحثها لاحقا . وفى الفصول التاليـــة يجرى بحث هذه المشكلات بمزيد مـــن التفصيل ، علما بان مادة البحث موزعة حسب مستوى تنامى صعوبتها . وكل فصل من الفصول التالية يعتمد على ما قبله . ولاجل تمكين القراء على افضل وجه من استيعاب الادلة والبراهين التى يمكـــن بواسطتها اثبات تفوق المادية عـــلى المثالية ، والجدليـــة (الديالكتيك) على الميتافيزيقا ، والفلسفة الماركسية اللينينية على سائر المدارس والتيارات الفلسفية ، جـرى تضمين نص الكتاب محاورات او مداخلات تجرى بين اشخاص رمزييـــن يعبرون عن وجهات نظر مختلفة . وينبغى ان يولى لدراســـة هذه المحاورات نفس الاهتمام الذى يولى للنص الاساسى .

على مدى فصول الكتاب كافة يجرى مرارا تدقيق الاحكام والتعاريف والمسائل الاساسية واخضاعها للمناقشة ، فـــى سبيل تأمين استيعاب افضل لمادة الكتاب . علاوة على ذلك ،

ان العديد من هـــذه الاحكام والمسائل يرتبط بمواضيـــع مختلفة ، ولا يمكن من خلال مناقشة واحدة استيعابها بشكـل عميق وصائب . على سبيــــل المثال تجرى مناقشة قضيـــة الايديولوجيا والصراع الايديولوجى فى مدخل الكتاب ، وفى الفصول الثانى والثالث والرابع والسادس ، ويجرى بحـــث ومناقشة مبادئ التحزب فى الفلسفة ، والصفة الماديـــــة للعالم وامكانية معرفتـــــه ، والتطور ، والتحويل الثورى للمجتمع فى جميع الفصول ، رغم اختـــلاف حجم ما يخصص لهذه المبادئ من اهتمام فى مختلف الفصول : مثلا ، يعتبـر مبدأ التطور محورا للفصل الرابع ، ومبدأ امكانية معرفـــــة العالم محورا للفصل الخامس ، وهلمجرا .

لا يحتوى هذا الكتاب على فصل ينفـرد خصيصا بمقولات الجدلية المادية . بيد ان هذا لا يعنـــى بتاتا ان المقولات لا تحظى بالاهتمام المطلوب . عـــــلى العكس ، ان اهم وابرز المقولات الفلسفية ، ومنها – مثـلا – «المادة» ، «الوعى» ، «السبب» ، «الضرورة» ، «الوجود الاجتماعى» ، «الوعـــــى الاجتماعى» ، «الحرية» ، «القانون» ، وغيرها ، يجرى بحثهـا باستفاضة فى الفصول ذات العلاقة ، تبعا لمناقشـــة هذه او تلك من المشكلات الفلسفية .

لقد زودت فصول الكتاب كافـــــة برموز رقمية تبتدئ بصفر (٠) (المدخل) وتنتهى بـ٦ (الفصـــــل الختامى) . وجرى تقسيم كل فصل الى فقرات صغيرة لكـــل منها رقم ثلاثى ، مثلا : ٠٠١ و٣١١ و٥٠٦ وهلمجرا . فمرتبة المئات تعنى رقم الفصل ، والمرتبتان الاخريان (الاحاد والعشرات) ترمزان لرقم الفقرة التسلسلى داخل الفصل . على سبيل المثال ، ان الرقم ٠٠١ يعنى الفقرة ١ من المدخل ، والرقم ٣١١ يعنى الفقرة ١١ من الفصل الثالث ، والرقم ٥٠٦ يعنى الفقرة ٦ من الفصـــل الخامس . وتفرد مجموعة الفقرات المتعلقة بموضوع مشترك داخل الفصل فى باب خاص له تسميته الخاصة .

وتتضمن جميع الفقـــرات اسانيد الى الفقرات والابواب الاخرى تحتوى على المعلـــومات الـــلازمة لاستيعاب المادة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخاضعة للدرس استيعابا جيدا . وهذه الاسانيد عبارة عن ارقام ثلاثية محصورة بين قوسيـــــن . فعلى القارئ الذى يصادف ، مثلا ، الاسناد (٥٠٦) او (٣١١) ان يراجع الفقرة ٦ من الفصل الخامس او الفقرة ١١ من الفصل الثالث . واذا تضمن الاسناد عدة ارقام اقتضى الامر مراجعـة مضمون عدة فقرات ، مع ايلاء اهتمام خاص للمقاطع المبرّزة فى النص . وتعطى الاسانيـــد الى ابواب النص السالفـــة والتالية على السواء ، مما ييسر تبيـــان الروابط الداخليـــة بين مختلف ابواب الفلسفة ويتيح رؤية وحدتها الباطنية .

ان منظومة الاسانيد تيسر العمل مع الكتاب ايضا عنـــد مطالعته بالتسلسل ، ذلك انها تتيح بسرعة ويسر استذكار المادة المقروءة ولكن غير المستوعبة بما يكفى من الرسوخ . وهى تساعد كذلك على فهم صلة الفقـــرة موضوعة الدرس بابواب الكتاب وفقراته التالية .

ويعتبر التقيد بالارشادات المذكورة هنا شرطا مهمـــا لاستيعاب اصول الفلسفة الماركسية اللينينية الواردة فـــى هذا الكتاب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مدخل

ما هى الفلسفة ؟

الفلسفة : لمن ولاى غرض

٠٠١

الانسان فى العالم المعاصر . نحن نحيا فى عالم معقد وسريع التغير . ففى غضون قرن واحد وقعت حربان عالميتان ، وانفرط عقد نظام الرأسمالية الذى كان موحدا فى عهد سالف ، وتحولت الاشتراكية التى اصبحت بادئ ذى بدء واقعا فى الاتحاد السوفييتى الى منظومة عالمية ، وتشكلت اسرة الدول الاشتراكية المضطلعة ببناء النظام الاشتراكى ، وبرزت على مسرح التاريخ مجموعة كبيرة من الاقطار النامية المتحررة من التبعية الاستعمارية والسائرة على طريق تطورها الذاتى . وثمة علاقات وتناقضات معقدة بين مختلف الانظمة الاقتصادية الاجتماعية ، اكثرها عمقا هو التناقض بين الرأسمالية والاشتراكية الذى يعين سمة عصرنا ، كونه عصر الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية فالشيوعية . الى جانب ذلك ، يشهد العالم فى الوقت ذاته تقدما علميا تقنيا منقطع النظير . فقد خرج الانسان الى الفضاء الكونى ، وهو يتوغل كل يوم اعمق فأعمق فى خفايا الطبيعة . وبات بمقدور العلم والتقنية منذ الآن تامين مستوى حياة رفيع لمعظم البشر . بيد ان التقدم العلمى التقنى يسفر عن نتائج مختلفة باختلاف الظروف . فالبلدان الغنية المتطورة صناعيا تغدو اكثر ثراء . وثمة جملة من الاقطار التى تخلفت فى تطورها او تطورت ببطء باتت تعانى مزيدا من التبعية لتلك البلدان الغنية . واصبح الجوع والفقر من نصيب عشرات الملايين من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البشر فى الكثير من الاقطار النامية . ويجرى استنزاف الموارد الطبيعية وتلوث البيئة بصورة لا تخضع لرقابة او تحكم . ولا يزال السلاح النووى الذى صنع بفضل منجزات العلم والتقنية العصرية يشكل خطر وقوع كارثة نووية حرارية عالمية تهدد بالهلاك البشرية جمعاء . لهذا اصبحت صيانة السلام وتفادى الكارثة النووية التى قد تبيد الحياة على الارض ، ولاول مرة فى التاريخ ، قضية تمس مصالح البشر قاطبة .

فى هذه الظروف تبرز امام كل انسان تساؤلات هى : ما هى مكانته فى العالم المعاصر ، وما هو بوجه عام هدف الحياة الانسانية ومغزاها وقيمتها ، وما هى آفاق تطور البشرية ، وماذا ينبغى ويمكن لها ان تفعل فى سبيل حل اشد واصعب تناقضات هذا العصر ، وتسخير منجزات العلم والتقنية لما فيه خير الانسان ؟ وفيم يتمثل هذا الخير تحديدا ؟ ان ليس باستطاعة اى انسان نشيط وواع ان يتهرب من البحث عن اجوبة لهذه التساؤلات . فالعلم والتقنية بحد ذاتهما لا يستطيعان الاجابة عنها . ثم ان القضية لا تنحصر فى العثور مرة والى الابد على اجوبة صالحة وحفظها جيدا . فالامر الاكثر اهمية هو حيازة طرق ايجاد هذه الاجوبة فى العالم المعاصر السريع التغير والقدرة على التأكد من صحتها وتعلم العمل بموجبها . ان معارف كهذه يقدمها فرع علمى متميز هو الفلسفة .

٠٠٢

«خلاصة العصر الروحية» . ظهرت الفلسفة في بلاد اليونان القديمة . وكلمة «فلسفة» تعني فى اللغة اليونانية حرفيا «محبة الحكمة» . بيد اننا فى الوقت الراهن نضفى على مفهوم «الفلسفة» ، مغزى آخر . فما هو هذا المغزى ؟

هناك العديد من المدارس والاتجاهات الفلسفية المختلفة . اما الفلسفة الماركسية اللينينية فهى تجسد كل ما يعد من انفس واثمن ما انجز خلال ٢٥٠٠ سنة من تطور الفلسفة . ولهذا ينبغى لنا كى نفهم ما هى الفلسفة ان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نستطلع قبل كل شيء كيف كان يفهمها مؤسسو الماركسية اللينينية . يقول ماركس : «نظرا لكون كل فلسفة حقة هي الخلاصة الروحية لعصرها ، يحل بالضرورة وقت تغدو خلاله الفلسفة لا من الناحية الداخلية ، اى من حيث مضمونها فحسب ، بل ومن الناحية الظاهرية ، اى من حيث تجليها ، على تماس وتفاعل مع عالم عصرها الواقعي . آنذئذ تكف الفلسفة عن ان تكون منظومة معينة نسبة الى المنظومات المعينة الاخرى ، وتغدو فلسفة بوجه عام نسبة الى العالم ، تغدو فلسفة العالم المعاصر» * .

في هذا القول يجب ان تفهم كلمة «خلاصة» على انها «اساس» او «جوهر» . على هذا النحو ، يفرد ماركس الفلسفة كمنظومة معارف عن الواقع بأكمله ، اى كمعرفة متميزة عن العالم المحيط بنا .

ان هذا العالم يضم الطبيعة والمجتمع معا . فمنظومات المعارف الاخرى ، مثلا المعارف الاعتيادية القائمة على التجربة الحياتية ، والمعارف السياسية والعلمية والتقنية وما الى ذلك ، تعكس جوانب متفرقة من الواقع ، وهي ضرورية لحل مهمات محددة تماما تبرز فى الحياة اليومية ، فى حقلي الانتاج والصراع السياسى ، في غضون عملية معرفة الطبيعة وهلمجرا . الى جانب ذلك ، يطرح كل عصر وكل فترة في تطور البشرية مهمات ومسائل تمس مشاكل الحياة الجذرية ، وعلى حل هذه المشاكل يتوقف فى الكثير ايضا مصير البشرية بوجه عام ، ومصير كل فرد . وليس من اليسير البتة فهم هذه المهمات التى تعبر عن مصالح الشعب الجذرية وادراكها واعطاء صيغة صحيحة لها . والامر الاكثر صعوبة هو تعيين السبل والوسائل الصحيحة لتنفيذ هذه المهام ، فهو يتطلب تبحرا كبيرا فى معرفة منجزات مختلف العلوم ، واعطاء صيغة

---

* ماركس ، انجلس . المجلد ١ ، ص ١٠٥ . (من الآن فصاعدا نورد موضع الاقتباس في الطبعة الروسية الخامسة من «المؤلفات الكاملة» للينين ، ومن «المؤلفات» لماركس وانجلس — المترجم .)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صحيحة للسمـــــات والخصائص التى تميـــز بالذات العصر المقصود . وواضح ان هذا يقتضى توفر منظومة معارف خاصة تمتاز عن سائر المنظومات سواها بأنها تبحـــث لا فى بعض جوانب ومعضلات الواقع ، بل تبحث فى الواقع بأسره ، اى انها «تغدو على مساس . . . بعالم عصرها الواقعى» ، علما بان مركز هذا الواقع يشغله الانسان بطموحاته وآمالـــه وشكوكه وتساؤلاته ، وبكل تناقضاته الداخلية واكتشافاته واوهامه .

اذن ، فالفلسفة كونها «الخلاصـــة الروحية لعصرها» ، وبصفتها «فلسفة العالم المعاصر» هى منظومة معارف خاصـة عن مكانة الانسان فى العالم ، وعن موقفه من العالم المحيط . انها تسعى الى استجلاء اصول النشاط الانسانى وما يلازمه من سنن (قوانين) . وكما نرى فـــــأن المهام الماثلة امام الفلسفة معقدة جدا . ولا يتسنى وضع معارف فلسفية عميقة وجادة الا للفلاسفة المتخصصين الجيـــدى الاعداد ، بيد ان هذه المعارف لا تستطيع اداء دور الاساس الروحى للعالـــم المعاصر ، الا اذا كان بامكانها – تعبيرا عن مصالح عصرهــــا الجذرية – ان تغـــدو ملكا للجميع ولكـــل فرد ، ويجرى استيعابها وادراجها فى اساس النشـــاط الواعى والهادف . فكيف تغدو المعارف الفلسفية ملكا للجماهير الواسعة مـــن البشر ، وكيف تمارس تأثيرها فـــــى حياتهم ونشاطهم ؟ ان الاجابة عن هذه الاسئلة تقتضى تبيان الترابط بين الفلسفة والعقيدة .

٣٠٠

الفلسفة والعقيدة . كيف يمكن للمرء تمضية امسية شاغرة ؟ أيذهب لمشاهدة لعبة فـــى كرة القدم ، ام يجلس امـــام التلفزيون ، ام يطالع رواية ممتعة ام يزور زميلا له ليثرثر معه ؟ عند معالجة مثل هذه المسائل يسترشد المرء بمزاجه الآنى وعاداته المألوفة وامكانيات يومه . بيد ان ثمة قضايا فى الحياة تتطلب معالجتها توافر قناعات ونظـــرة واسعة الى العالم وفهما واضحـــا لاهداف ومغزى الحياة الانسانية . ان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مجموع القناعات الاساسية والنظرات الى العالم وبنيته ومنشأه ، والى مغزى الحياة الانسانية والغرض منها ، والى مكانة الانسان فى الواقع المعاصر يسمى بالعقيدة .

من خلال معالجة المذهب عن موقف الانسان من العالم المحيط تصبح الفلسفة فى مركز المسائل العقائدية كافة . ويشارك فى تكوين العقيدة – عدا عن الفلسفة – العلم والفن والدين والتعاليم السياسية المختلفة والتجربة التاريخية للشعب المعنى وما الى ذلك . ويترك بصماته على طابع العقيدة نمط الحياة ونشاط البشر المعيشى والانتاجى . غير ان الفلسفة تشغل مكانة خاصة فى منظومة العقيدة . ففيم تتمثل هذه الخاصية ؟

ان الفلسفة لا تصدق ما ترى بلا براهين . فمنذ نشوئها كان الفلاسفة يسعون دوما الى اثبات ما يطرحونه من احكام . فتراهم يوردون الأدلة دفاعا عنها ، ويضعون التعاليم عن البراهين الدقيقة وغير القابلة للدحض ويحرصون على اضفاء صفة منطقية ونظام معين على المعارف الفلسفية وترتيبها فى منظومة ما . وفى الوقت ذاته كان الفلاسفة يعكفون – دحضا لاراء خصومهم – على وضع قواعد للطروحات النقدية . اذ لم يكونوا يكتفون برفض هذه او تلك من الاراء ، بل يسوقون حججا معللة غير متناقضة تدحض هذه الاراء . على هذا النحو نجد التعليم الفلسفى ، حين يبرهن على هذه او تلك من النظرات الى العالم ومكانة الانسان فيه ، يقوم بتعليل عقيدة مناسبة . وفى نتيجة ذلك تغدو الفلسفة بمثابة **اساس نظرى** لهذه العقيدة .

ان كل عصر تاريخى ينتج عقيدته . ويرتهن مضمون هذه العقيدة وشكلها (١١١) بمستوى تطور المجتمع والعلم والتقنية والثقافة عموما . ومع نشوء الطبقات والتناقضات الطبقية (٢٠٦) تكتسب العقيدة هى الاخرى صبغة طبقية . فالعبيد وارباب العبيد والاقنان والملاكون العقاريون والعمال والرأسماليون يتبنون نظرات مختلفة الى العالم ، ويفهمون فهما مختلفا دور الانسان ومغزى وجوده . وفى مجرى الصراع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطبقى تسعى كل طبقة الى الذود عن عقيدتهـــا ودحض آراء الطبقات المعادية لها . وعقيدة طبقات المجتمع التقدمية ، كونها الاكثر طليعية بالنسبة للعصر التاريخى المقصود تحتاج هى الاخرى الى تعليل واثبات . فيقوم الفلاسفـــة المدافعون عن مصالح هذه الطبقة بوضع اصول عقيدة مناسبة لها ، وايراد حجج لصالحها ، ويشحذون أدلة نقدية لمكافحة الآراء الغريبة والمعادية . وهذا ما يتجلى فيـــه الدور المهم للفلسفـــة او وظيفتها .

يتألف الاساس النظرى للعقيدة البرجوازية من مختلف مدارس واتجاهات الفلسفة البرجوازية . اما الاساس النظرى للعقيدة العلمية التقدمية فهو الفلسفة الماركسية اللينينية . وهى التى تضع وتعلل اهم الاحكام العقائدية ، ومن يمتلك ناصية الفلسفة الماركسية اللينينيـــــة بعمق وجدية وابداع يتبنى هذه العقيدة لا بحكم الايمان الاعمى ، بل بحكم القناعة القائمة على الادلة والبراهين العلمية .

٠٠٤

الفلسفة والمنهجية العامة للنشاط والمعرفة . ان ابرز سمة تميز الانسان عن سائر المخلوقات هى ان نشاط الانسان (٢٠٢) موافق لاغراضه . بطبيعة الحال ، ان ليس كل فرد ، وليس دائما ، يتصور نتائج نشاطه القصية . بيد ان الاهداف القريبة التى نقوم لاجلها بهذا الفعل او ذاك تكون عادة واضحة ومفهومة لكل فرد منا . وحين يتصرف المرء بهذا الشكل او ذاك انما يعتمد على معارف معينة . والعكس بالعكس ، ففى سيرورة نشاطه يقوم بتعديل وتصويب معارفه المختلفة ، كما يقوم بوضع اخرى جديدة . وكما نرى فأن المعارف والنشاط يترابطان ترابطا وثيقا . فبفضل ماذا يجرى هذا الترابط ؟ انه يجرى بمساعدة قواعد تملى افعالا معينة فى ظروف معينة وتبين بأى تعاقب ينبغى اداء هذه الافعال فى سبيل بلوغ الهدف المرسوم . **ومجموع القواعد الثابتة المرتكزة على التجربة الحياتية او المعارف العلمية يسمى بالمنهج .**

واذا كان المنهج صحيحا فان النشاط المشيد عليه يفضى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ايضا الى الهدف المنشود . ولهذا جرت العادة فى السياسة وفى الانتاج وفى العلم سواء بسواء على ايلاء اهتمام كبير لوضع وتعليل واختيار مناهج امينة . ففى الرياضات نجد مناهج حسابات مختلفة ، ويقوم علم التربية بوضع مناهج للتعليم والتربية ، وتقوم العلوم الهندسية والتقنية بوضع مناهج لانشاء المبانى والجسور وتصميم المكائن وخطوط الانتاج الاوتوماتيكية وهلمجرا . **يسمى علم مناهج النشاط والمعرفة بالمنهجية (الميثودولوجيا)** . فلكل علم ولكل ميدان خاص من ميادين النشاط الانسانى منهجيته الخاصة التى تضع وتعلل المناهج الصالحة لمعالجة دائرة محدودة من المسائل. فالمنهجية الفيزيائية تعلل مناهج اجراء التجارب على مسرعات الجزيئات البسيطة ، والمنهجية الطبية تعلل مناهج تشخيص وعلاج الامراض ، الخ .

غير ان الناس لا ينشغلون بحل المسائل اليومية الخاصة فحسب ، بل يتوجب عليهم اتخاذ قرارات على الصعيد الانسانى العام الاكثر اتساعا . على سبيل المثال ، يبرز امام الانسان السؤال التالى : هل يعتبر بلوغ اهدافه مبررا لتخريب الطبيعة ، وهل يتوجب عليه ان يسعى فى نشاطه الى حفظ العالم القائم كما هو ، دون تغيير ، ام ينبغى ان يقوم بتحويله على نحو معين ؟ على الانسان ان يضع لنفسه استراتيجية سلوك واسعة ، وهذا يقتضى ان تتوفر لديه بعض الاحكام والقواعد الحياتية التى تبين كيف ينبغى التعامل مع الجماعة ومع الفرد ، مع المصالح الاجتماعية والخاصة ، واى موقف ينبغى تبنيه فى الصراع الطبقى ابان الحرب وفى فترة العمل السلمى . ان حل جميع هذه المعضلات يتطلب توفر مناهج خاصة ومنهجية خاصة . وهذه المنهجية لم تعد ترتهن ببعض منظومات المعارف الخاصة ، ولا ببعض العلوم ، انما بالعقيدة عموما . لهذا السبب تسمى بالمنهجية العامة .

لاجل تبيان كيف ترتبط العقيدة بوضع المنهجية العامة للنشاط والمعرفة سوف نتناول مثالا من تاريخ العلم .

كانت عقيدة قدماء الاغريق تتسم بتأليه الطبيعة . وكان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكل شجرة ولكل جدول او تل اله خاص . لهذا كانت فلسفة بلاد الاغريق القديمة تعلل اصولا واحكاما تتطلب الركوع امام الطبيعة وتقيض الاهتمام بها ، لكنها فى الوقت ذاته كانت تحرم تغيير شيء فيها بشكل جوهرى ، وتحظر اجراء التجارب بوجه عام ، ذلــك ان ليس من حق الانسان تغيير الظواهر الالهية . وقد ادى هذا الحكم العام الى الحيلولة دون تطور الطبيعيات التجريبية فى العلوم اليونانية القديمـــة . وعلى العكس ، كانت العقيدة البرجوازية فى فترة نمو الرأسمالية الصناعية تتسم بنظرات مغايرة الى الطبيعة والانسان . فقد كان الانسان هو وحده الذى يعتبر حائز القوة الروحية ، اما الطبيعة ، بما فيها الاحياء ، فقد كانت تعتبر بلا روح . وبحكم ذلك ازيلت القيود التى تحظر تغيير الطبيعة واخضاعهـــا للتجارب . وطرح المفكرون البرجوازيون — تعبيرا عن مصالح الانتاج الرأسمالى — مطلب الاستيلاء على الطبيعة والتسلط عليها فى سبيل انماء الصناعة والتجارة . وساعد هذا الحكم المنهجى العام على نشوء علم الطبيعيات التجريبى ، لكنه اسفر الى جانب ذلك عن نتائج وخيمـــة تمثلت بمرور الوقت فى اشتداد استثمار البيئة وتلويثها وتخريبها . وكما نرى ، فان الاحكام والقواعد المنهجية العامة تؤثر تأثيرا ملحوظا فى طابع المعرفة والنشاط الانسانى ، عن طريق التحكـــم بسلوك الانسان وموقفه من العالم الخارجى .

فما هى العلاقة بين الفلسفة والمنهجية العامة للمعرفة والنشاط ؟ ان الفلسفة ، كما نعلم الآن ، هى اساس العقيدة (٣٠٠) . فعن طريق تعليـــل المبادىء التى تتحكم بموقف الانسان من العالم ومن الآخرين ومن المجتمع عموما ، تعلل الفلسفة فى نفس الوقت وتوضح الاهداف التى تضعها البشرية امامها فى كل مرحلة من وجودها ، كما انها — اى الفلسفة — تضع وتعلل وتبرر الاصول والقواعد العامة التى يجب على الانسان الاسترشاد بها فى نشاطه الرامى الى بلوغ هذه الاهداف . وكل علم خاص يضع منهجيته الخاصة لدراســة الطبيعة تجريبيا . فالتجربة على الحيوانات توضع بصورة مغايرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وترمى الى اهداف تختلف عن الاهداف التى تنشدها الدراسة التجريبية لسطح القمر باستخدام المركبة القمرية . بيد ان كل هذه التجارب والمنهجيات الخاصة التى تعللها وتتحكم بها ما كان لها ان تكون لو لم يكن هناك حكم منهجى فلسفى عام يؤكد ان معرفة العالم على اساس المراقبات السلبية وحدها امر متعذر ، وان هذه المعرفة تتطلب تجربة علمية نشيطة (٥١١) . اذن ، **فالفلسفة تؤدى وظيفة مهمة اخرى هى الوظيفة المنهجية ، وتعتبر اساسا للمنهجية العامة للنشاط والمعرفة .** وهذا الدور لا يمكن ان يؤديه اى علم آخر . ان الفلسفة ، باعتبارها اساسا للعقيدة والمنهجية العامة ، تؤثر بشكل معين فى عملية تعيين اهداف البشرية فى كل مرحلة من تطورها ، وفى طابع النشاط الرامى الى بلوغ هذه الاهداف .

٠٠٥

الفلسفة والايديولوجيا . الناس مخلوقات اجتماعية . ولاجل بلوغ اهدافهم نراهم يتوحدون فى مختلف المجموعات والمنظمات . وبوسع كل انسان ان ينتمى فى وقت واحد الى عدة من هذه المجموعات والمنظمات . فبالامكان ، مثلا ، ان يكون المرء فى وقت واحد لاعبا فى فريق لكرة السلة وعاملا فى مصنع ، عضوا فى جمعية رياضية وعضوا فى جمعية هواة الطوابع ، وهلمجرا . ولكن لا يجوز الانتماء فى وقت واحد الى طبقتين اجتماعيتين مختلفتين (كأن يكون المرء قنا وملاكا عقاريا ، عاملا ورأسماليا) والدفاع عن مصالح طبقية مختلفة (٢٠٦) . ففى المجتمعات الطبقية تكون الاهداف والمصالح الطبقية متعارضة ومتضاربة وغير متهادنة .

ومنذ ان انقسم المجتمع الى طبقات متعارضة — الى مستغِلين (بالكسر) ومستغَلين (بالفتح) — اصبحت التناقضات الطبقية اعمق تناقضات اجتماعية . لهذا يختلف فهم العالم والنظرة الى الانسان وهدف حياته ومغزاها لدى ممثلى الطبقات المختلفة . وهم يقومون تقويما مختلفا ايضا كل واقعة من وقائع الحياة الاجتماعية وكل حدث او تصرف يؤثر فى مصير ومكانة الطبقة المعنية . وعليه فان **مجموع التعاليم**

والنظريات والتقويمات المتعلقة بظواهر الحياة الاجتماعية ، والمعطاة من مواقع طبقة معينة وتعبر عن اهدافها ومصالحها الجذرية وتوطد مواقعها الاجتماعية يسمى بالايديولوجيا (٢٢٤).
وبمساعدة الايديولوجيا يجرى استيعاء موقف الناس من الواقع الاجتماعى ومن بعضهم البعض ، وفيها تنعكس المشاكـــل والتناقضات الاجتماعية ، وكذلك برامج النشاط الرامـــى الى حفظ وتنمية او تغيير العلاقات الاجتماعية القائمة . وتتجسد الايديولوجيا فى معتقدات مناسبة ، قانونية وسياسية ومعنوية وفنية ودينية واقتصادية (٢٢٦-٢٣١) . ومثلما لا يجوز فى وقت واحد الانتماء الى طبقتين مختلفتين ، لا يجوز ايضا تبنى آراء ايديولوجية مختلفة . ويعتبر ادراك هذا مهما بصفة خاصة فى عصرنـــا الراهن ، حين بلغت التناقضـــات بين النظامين العالميين - الرأسمالية والاشتراكية ، بين العمل والرأسمال ، بين البلدان التى تحررت مؤخرا مـــن الاستعمار والبلدان الرأسمالية الغنية درجة هائلة من الشدة . وفى نتيجـــة ذلك يستمر تصادم الاهداف والمصالح الاجتماعية والسياسية . ولكن من الخطأ الاعتقاد بان المجابهة الايديولوجية تعنى الغياب التام للمصالح المشتركة لدى مختلف الطبقات او عدم وجود مصالح مشتركة بالنسبة للبشرية جمعاء . وفى ظروف الخطر المميت المحدق بالبشرية جراء صنع وانتـــاج السلاح النووى باتت صيانة السلام ونزع السلاح النووى والتعايش السلمى بين الدول ذات الانظمة الاجتماعية المختلفة وخفض مستوى المجابهة الحربية تشكل مصلحة مشتركة وقيمة رئيسة بالنسبة للبشرية جمعاء .

ان الطبقات المسيطرة تسعى دومـــا الى فرض وجهات نظرها وايديولوجيتها وعقيدتها على طبقات وشرائح المجتمـــع الخاضعة للاستغلال . فايديولوجيا الطبقة المسيطرة هـــى الايديولوجيا السائدة . ومرد ذلك هو ان الطبقـــة المسيطرة التى تشكـــل الاقلية على الدوام تحتـــاج لغرض الاحتفاظ بالسلطة الى الاعتماد لا على الجيش والبوليس والموظفيـــن فحسب ، بل وعلى الايديولوجيا التى يتسنى بواسطتها اقحام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاراء والتقويمات والافكار والتصورات التى تبرر وتعزز هذه السيطرة فى وعى الطبقات الاخرى . فمن دون امتلاك وعـــى الجماهير وبالاعتماد على القوة المسلحة والبيروقراطية فحسب ، ما كان بامكان اية طبقة مسيطرة ان تحتفظ بالسلطة . لهذا السبب يعتبر الصراع مع ايديولوجيا الطبقـــات المسيطرة والتحرر من نفوذها من ابرز واهم ممهدات الثورة الاجتماعية (٢١٤) وبناء المجتمع الجديد .

لقد وصف ماركس وانجلس الايديولوجيا بانها «وعـــى كاذب» . ولكن لماذا ؟ وما هو المغزى الذى اودعاه فى هذه العبارة ؟ لقد كانت الطبقات المستغِلة (بالكسر) تسعى دوما الى تصوير مصالحهـــا وكأنها المصالح الوحيدة العادلـــة والممكنة ، الابدية والثابتة . وعندما جاءت هذه الطبقات الى السلطة بذلت كل ما فى وسعها من اجل تخليدها ، فحرمت نفسها جراء ذلك من فهم الحتمية التاريخية للتغييرات التـــى تفضى عاجلا او آجلا الى نظام اجتماعـــى جديد . اما الطبقات التى كانت مجردة من السلطة وتشغل موقع الخضوع فكانـت تسعى هى الاخرى ، عند تكوين تصوراتها عن العدالة والنظام الاجتماعى المنشود ، الى اضفـــاء صبغة الحقائق الازليـــة والراسخة على آرائها فوقعت بدورها فى اضلولة تمخض عنها عدم فهم حقيقة ان كل مجتمع طبقى وكل ايديولوجيا طبقيـــة يجب عاجـــلا او آجلا ان يختفيا ليحل محلهمـــا المجتمـــع اللاطبقى .

أيمكن ان تكون هناك ايديولوجيا حقة تعكس الواقـــع عكسا صحيحا ، وتضع اهدافا تليق بالانسان وتعطى تقويمات لاحداثها الذاتية فى صالح البشرية جمعاء ؟ انه ، بلا شك ، امر ممكن . ففى بادئ الامر تتكون كأيديولوجيا للطبقـــة العاملة . انها الطبقة الوحيدة التى تسعى الى الغاء كل اشكال الاستغلال واقامة المجتمع اللاطبقى ، والتى تعى الطابع العابر تاريخيا لمهامها واهدافها . كما ان ايديولوجيتها لا تسعى الى تحليل نظام ما اجتماعى كونه ازليا وغير قابل للتغير . ففى المجتمع الاشتراكى تغدو ايديولوجيا الطبقة العاملة — مـــع

اختفاء الطبقات المستغلة – ايديولوجيا للكادحين كافة ، تعبر عن اهدافهم ومصالحهم الجذرية . وتتمثل توجهاتها وقيمها الرئيسة فى الانسان المتحرر والمتطور تطورا شاملا ، وفى العدالة الاجتماعية والديمقراطية الحقيقية . وتكتسب هذه الايديولوجيا قيما انسانية عامة كالسلام فى العالم اجمع والعلاقات المتكافئة والمتبادلة النفع بين البلدان والتعايش السلمى بين الدول ذات الانظمة الاجتماعية المختلفة وحماية حقوق الانسان . لذا فهى موجهة ضد ايديولوجيا الامبريالية والروح العسكرية ، وضد محاولات الرجعية المعاصرة ، الرامية الى مقاومة تحويل المجتمع باتجاه العدالة الاجتماعية والديمقراطية والانسانية . اما بشأن الحياة الداخلية للمجتمع الاشتراكى الذى لا يخلو من مختلف التناقضات الحادة فى بعض الاحيان ، فالخلافات الايديولوجية تتجلى فيه بشكل مداخلات صريحة ومناقشات علنية للاستراتيجية السياسية والتكتيك الذى يرسم لاجل بلوغ المصالح والاهداف العامة . فالاشتراكية المتنامية لا تمت بصلة الى «الثكنة الايديولوجية» او «الدير» ، حيث يبدو الجميع متشابهين ويتبنون وجهات نظر متشابهة وليس لديهم اراء شخصية فى المسائل المهمة حيويا بالنسبة للمجتمع . ان الفوارق فى وجهات النظر ازاء هذه او تلك من المسائل لا تعنى التخلى عن مبادئ الاشتراكية ولا الخروج على اطر الايديولوجيا الاشتراكية . فالاشتراكية لا تلغى تعددية الرأى التى تؤمن البحث عن حلول جديدة .

فى ظروف البيريسترويكا الثورية الجارية فى الاتحاد السوفييتى من اجل تخطى نزعات الركود التى ارتسمت معالمها خلال العقدين المنصرمين ، لا محيص من بيريسترويكا ايضا فى الايديولوجيا نفسها . ففى فترة الركود كانت اللامبالاة والموقف غير النقدى ازاء النواقص والنزعة المحافظة وبعض من النزعة الذاتية فى اتخاذ القرارات توضع فى احيان غير نادرة فى مصاف المبادئ الايديولوجية . ويتطلب تخطى الركود تطبيق اصلاح اقتصادى جذرى واشاعة الديمقراطية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى المجتمع . وهذا يثير نوعا من المقاومة لدى من ليس له استعداد للاقدام على مثـــل هذه التحويـــلات . لذا تقتضى ايديولوجيا التجديد تجديدا للايديولوجيا نفسها . فعليها ان تعطى تقويما دقيقا لاسباب الركود ولكل انتهاكات العدالـــة الاجتماعية والانحرافات عن الديمقراطيـــة الاشتراكية واعمال القمع غير المبررة التى نفذها ستالين وحاشيته . وعليهـــا ايضا ان تعلل ضرورة البيريسترويكا الثورية للمجتمع . فى هذه الحالة فقط تكتسب الايديولوجيا الجاذبية لدى اوســـع اوساط الكادحين ولدى المواطنين كافة ، وتنال كامل الثقـة من السكان قاطبة . وكلما كانت الايديولوجيا اكثر تعليـــلا وثباتا ، وكلما كانت حججها مدروسة اكثر ، تقوى تأثيرهـــا فى وعى الناس وسلوكهم . والفلسفة التى تبحث فى اهـــم واخطر قضايا العصر من حيث اهميتها الانسانية العامة ، وفى تأثير هذه القضايا على الوجود البشرى (١٠٢) ، انمـا ترسى بذلك الاساس اللازم لتعليل الايديولوجيا وما يشكلها من قيم واهداف . واذ تتيح الفلسفـــة ملاحظة تناقضات الواقـــع وجوانبه السلبية ومن ثم تجاوزها ، انما تساعد بذلك عـلى تطوير الايديولوجيا . وهـــذا ما تتجـــلى فيه الوظيفـــة الايديولوجية للفلسفة .

٠٠٦

المهمة الرئيسة للفلسفة الماركسية اللينينية . على منظومـة الاراء والتعاليم الفلسفية ، كيما تكون فلسفة العصر الحقيقية بالفعل ، ان تصوغ صياغة صائبـــة المهمة الرئيسة التى يحددها مضمون العصر التاريخى المعنى . وهذا يتطلب منا ان نعرف ما هو مضمون العصر التاريخى .

ان المضمون الاساس لعصرنا هو الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، اى التطلع الى تغيير بناء العالم اجتماعيا على اسس العدالة . وهذا يعنى توفير فرص متكافئة امام الجميع ، وبلوغ الرخاء المادى ، وتأمين الضمانات الاجتماعية وتطبيق حقوق الانسان بما فيها حقه فى العمل ونيل التعليم ، وتحقيق الديمقراطية الحقيقيـــة والعلنية التامـــة (الغلاسنوست)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمجاهرة فى اتخاذ القرارات المهمة اجتماعيا وصيانة البيئة السليمة لنا ولاحفادنا ، واحترام الكرامة الشخصية والحرية الشخصية لكل عضو من اعضاء المجتمع ، واخيرا الغاء استغلال الانسان للانسان . وهذه عملية معقدة وطويلة يشارك فيها مئات ملايين البشر ، وتتزعمها الطبقة العاملة وطليعتها السياسية – الاحزاب الشيوعية والعمالية .

ويمس الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية كل جوانب حياة البشر الاجتماعية والشخصية . فهو يرتبط بهدم المبادئ والتصورات البالية ، وباعادة بناء مجمل العقيدة ، وبالصراع الايديولوجى الحاد ، ويؤدى الى تغيرات جذرية فى حياة المجتمع الاقتصادية والسياسية والروحية .

كان البشر يحلمون دوما بحياة افضل ، وبالتخلص من الويلات والفاقة والاستغلال والجور وغياب الحقوق . بيد ان الاحلام شيء والواقع شيء آخر تماما . ولا يجوز القول ان ذوى البصيرة والتبحر من مفكرى الماضى قد صرفوا انتباههم عن هذه الاحلام والتطلعات . بيد انهم كانوا خلال تناولهم ومناقشتهم لها يكتفون فى التحصيل الاخير بتفسير واقع الاشياء القائم ، وذهبوا الى ان جذوره تكمن فى طبيعة الانسان ذاتها ، وفى تعذر الغاء الفقر والغنى والتسلط والانصياع . وقد كتب ماركس منوها بهذه الخاصية التى اتسمت بها كل الفلسفة السالفة : «لم يكن الفلاسفة يفعلون سوى **تفسير** العالم على هذا النحو او ذاك ، اما بيت القصيد فهو **تغييره**» * . هكذا جرى بشكل جديد ، ولاول مرة فى التاريخ ، طرح وصياغة مهمة الفلسفة . فما هو مغزى كلمات ماركس هذه ، وعن اى تغيير للعالم يدور الحديث ؟

ليس صحيحا ، بالطبع ، الاعتقاد بان البشر لم يغيروا العالم المحيط بهم فى نشاطهم على مدى الالوف المنصرمة من السنين . فقد قاموا بتغيير طبيعة وتضاريس مناطق سكناهم ، وبقطع الغابات وشق الاقنية وانشاء المدن وتشييد منشآت

---

* ماركس ، انجلس . المجلد ٤٢ ، ص ٢٦٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم يسبق لها مثيل . غير ان كل هذه التغييرات كانت تجرى ، عادة ، بصورة عشوائية وكان من المتعذر التنبؤ بتبعاتها البعيدة . وعلى مدى الـوف عديدة من السنين اختفت دول وظهرت اخرى ، وانصرف وجاء غزاة مختلفون ، وذهب نظام اجتماعى وحل محلـه آخر . ولكن لم يختف فقر وضيم الكادحين ، كما استمر استغلال الانسان للانسان . ولم تظهر لاول مرة فرصة فعلية لتغيير كامل بنيـة الحياة الاجتماعية تغييرا جذريا ، وليس فقط جوانب معينة من معيشة ونشاط البشر الا فى عصرنا بفضل التطور المنقطع النظير الذى شهده العلم والتقنية ، وبفضل ظهور الطبقة العاملة الصناعية الاكثر تنظيما ووعيا من سائر الطبقات المستغَلـة . وهذا التغيير بالذات هـو المقصود فى قول ماركس ، وعليـه ان يحل التناقضات الجذرية ومشاكل العصر الاكثر التهابا ، وان يغير موقف البشر من الطبيعة ومن المجتمع ومن بعضهم البعض .

اذن ، تتلخص **المهمة الرئيسة للفلسفـة الماركسيـة اللينينية** ، كونها فلسفة العصر الراهن الحقيقيـة ، فى **اعطاء تعليل علمى لامكانيـة وضرورة التحويلات الجذرية للحيـاة الاجتماعية باسرها** ، تلك التحـويلات التى تفضى الى القضاء على الاستغلال واقامة المجتمع الشيوعى الذى يوفر الفرصة لتحقيق الرفاهية والمساواة الحقيقية والتطور الروحى والبدنى الشامل لكل فرد . وما من منظومـة فلسفيـة اخرى وضعت امامها مثل هذه المهمة . وكان طرحها يقتضى اجمال وتعميم تجربة كل العلوم العالميـة ، ووضع عقيدة علمية جديدة ، ومعرفة قوانين التطور الاجتماعى وتبيان حقيقة كونها تقود المجتمع بالضرورة الى الشيوعية ، ورسم ايديولوجيا ثورية جديدة ومنهجية للنشاط تتيح القيام بتحويل العالم .

كان فلاسفـة الماضى ، شأن الفلاسفـة البرجوازيين المعاصرين ، يخصصون مؤلفاتهم ، عادة ، لدائرة محدودة من ممثلى الطبقة المسيطرة . وكانت مؤلفاتهم غير متاحة لاوساط واسعة من الكادحين . ولهذا نشأ عن الفلسفة نفسها ايضا رأى يفيد بأنها حقل غامض يستعصى فهمه على الانسان البسيط .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ان هذا التقويم مرفوض تماما بالنسبة للفلسفة الماركسية اللينينية التى هى الفلسفة الحقيقية للعالم المعاصر ، والتى تستجيب بنشاط وحيوية لكل مسائله الملتهبة ، وتعبر عن المصالح الجذرية والعميقة لجماهير الكادحين الواسعة . لقد كتب ماركس : «مثلما تجد الفلسفة فى البروليتاريا سلاحها **المادى** ، تجد البروليتاريا فى الفلسفة سلاحها **الروحى** . . .» *

المسالة الاساسية للفلسفة وموضوعها ومنهجها

٠٠٧

المسألة الاساسية للفلسفة . لكل علـــم مسألته الاساسية وموضوعه ، اى دائرة ما يدرسه من ظواهر وعمليات ، وله — اخيرا — مناهج خاصة للبحث . اذن ، لاجل ان نفهم بمزيد من العمق ما هى الفلسفة ينبغى لنا تحديد مسألتها الاساسية وموضوعها ومنهجها .

ان تنفيذ المهمـــة الرئيسة للفلسفة (٠٠٦) يستوعب بالدرجة الاولى الاجابـة عن سؤال : **ما هو موقف الانسان من العالم المحيط** (او علاقة الانسان بالعالم المحيط) ، وهل بامكان الانسان ان يعرفه ويحوله ؟ وهذا هو جوهر المسألة الاساسية للفلسفـــة . ولان البشر كانوا منذ القدم يرون خاصيتهم الرئيسة فى كونهم — بخلاف كل المخلوقات الاخرى — مخلوقات مفكرة ، عاقلة وواعية ، فان مسألة علاقة الانسان بالعالـم كانت تصاغ هى الاخرى عادة كمسألة **علاقة الوعى والفكر بالوجود ، بالواقع المحيط او المادة** .

ان هذه المسألة لا تعتبر الاساسية فحسب ، بل وتعتبر المسألة الخاصة للفلسفـة . فالعلوم كالفيزيـــاء والفلك والبيولوجيا تحاول الاجابة عن اسئلة ما هى قوانين حركـة الجزيئات البسيطة او انتشار الضوء او ما هى بنيـة الكون وما هى الحياة . اما العلـوم الاجتماعية كالتاريخ والاقتصاد السياسى فتسعى الى اعطـــاء اجوبة عن مسائل تتناول كيفية نشوء البشر ، وما هى قوانين الانتاج الاجتماعى وما الى ذلك .

* ماركس ، انجلس . المجلد ١ ، ص ٤٢٨ .

وثمة علوم خاصة عن التفكير والنشاط النفساني كعلم النفس والمنطق . وهي تحاول الاجابة عن مسائل تتقصى كيف تنشأ تصوراتنا وتخيلاتنـــا الحسية ، وما هو الغضب والفــرح ، الابتهاج والحزن ، وما هي القواعد التي يجب ان يسترشد بها الانسان كي لا تقوده طروحاتـــه وبراهينه الى استنتاجات خاطئة ، وهلمجرا . ولكن ما من علم من هذه العلوم يتناول مسألة علاقة الانسان بالعالم عموما ، اى علاقة الفكر بالمادة بينما تعتبر الاجابة عن هذا السؤال مهمة لا بالنسبة لعلمـاء الطبيعيات والاجتماع فحسب ، بل وبالنسبة لرجال السياسة وللحياة العملية . فالعالم ، مثلا ، بحاجة الى ان يعرف هل يعطي وعينا وتفكيرنـــا معلومات صائبة عن قوانين حركـة الجزيئات وانتشار الضوء ، وهل نستطيع بمساعدة تفكيرنا ان نعرف الماضي التاريخي وندرس اصول النشاط الاقتصادى . كما ان رجل الدولة والزعيم السياسي الساعي الى تغيير الحياة الاجتماعية وتحسينهـــا بحاجة الى ان يعرف مم ينبغي البدء بالتحويلات الاجتماعية : من تغيير وعي الناس ام من تغيير الوجود الاجتماعي المادى . هكذا يتضح ان الاجابة عن المسألة الاساسية للفلسفة تسترعي عاجلا او اجلا اهتمام العلمـــاء ورجال المجتمع ومن يزاول التأملات النظريـــة ومن ينصرف كليا الى مزاولة النشاط التطبيقي الفعال ، سواء بسواء .

لم يجر فورا فهم الصلة العميقة التي تربط المسألـــة الاساسية للفلسفة بكل انواع وجوانب النشاط الانساني . وهي لم تغد واضحة وبادية للعيان الا في العصر الجديد ، حينما اتاح التطور السريع للعلـــم وتعاظم نضال الكادحين الثورى الكشف باوفى وجه عن اهمية هذه المسألة بالنسبة للعلم والممارسة الاجتماعية . لذا تكتسب دراسة علاقة الفكر بالمادة ، الوعي بالوجود ، اهمية خاصة بالنسبة للفلسفـــة المعاصرة ، اى بالنسبة للفلسفة الماركسية .

وللمسألة الاساسية للفلسفة جانبان . ولاجل التعمق في فهم اهمية ومغزى التعريف الذى اعطاه انجلس ينبغي لنا ان نناقش بالتفصيل كلا منهما .

٠٠٨

الجانب الاول من المسألة الاساسية للفلسفة . المثالية والمادية . عند تأمل علاقة المادة بالفكر يحق لنا ان نتساءل : لمن الاولوية ، اى لمن السبق فى الزمن ، — للعالم المادى ، اى الاشياء المحيطة بنا ام للفكر والوعى ؟ هذا بالذات هو الذى يشكل الجانب الاول من المسألة الاساسية فى الفلسفة . وتبلغنا تجربتنا الحياتية بان من اليسير الاجابة عن هذا السؤال فى كل حالة بعينها . مثلا ، كان القمر موجودا قبل انبثاق مفهوم (فكرة) القمر وصور القمر الشعرية بوقت طويل . اذن ، كان الشىء المادى — القمر — سابقا لصورته العلمية او الشعرية ، اى سابقا لفكرة ومفهوم القمر . وبالمقابل ، قبل ان تحط مركبة لونوخود السوفييتية ، وقبل ان يهبط رواد الفضاء الامريكان على القمر ، كان يجب ان تنبثق وتتطور لدى المصممين والمخترعين والعلماء والمهندسين فكرة المحركات النفاثة ونظام ادارة التحليق وما الى ذلك . وبعد ذلك فقط ، اى بعد ان جرى تجسيد هذه الفكرة فى اجهزة ومعدات تقنية معينة ، تسنى القيام برحلة الى القمر . هنا كان الفكر التصميمى والعلمى سابقا لصنع الاشياء المادية بهيئة صاروخ ناقل ومختبر قمرى اوتوماتيكى . ولو كان المقصود هو مثل هذه الحالات فقط ، لكان حل الجانب الاول من المسألة الاساسية فى الفلسفة على ما يكفى من البساطة . بيد ان الفلسفة لا تتناول حالات على هذا القدر من البساطة ، بل تتناول علاقة الانسان بالعالم عموما . لهذا يتضح لنا ان الفهم الصحيح للجانب الاول من المسألة الاساسية فى الفلسفة ليس بالامر اليسير هو الآخر . فالمطلوب هنا من حيث الجوهر هو استيضاح ما الذى يعتبر سابقا وحاسما على صعيد تطور الكون التاريخى باكمله — الفكر ام العالم المادى — وما الذى يعتبر حاسما فى نشاط الانسان باى شكل من اشكاله — الوعى ام الوجود المادى . فى هذه الاطر فقط يكون ثمة مغزى لهذه المسألة (١٢٧) . وتبعا لاجابة الفلاسفة عن هذه المسألة انقسموا الى معسكرين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

او اتجاهين كبيرين هما **المادية والمثالية** . فالماديون يؤكدون ان الاولي والحاسم هو المادة ، والثانوى والمحسوم هــو الوعى . والمثاليون يذهبون الى ان الفكر ، الوعى هو السابق والاولي ، اما الثانوى فهو المادة .

وتنقسم المثاليــة كاتجاه فلسفــى معين الى تيارين اساسيين اولهما يعطى الاولوية لفكرة او مثال او وعي يدعى انه كان موجودا منذ الازل ، قبل نشوء المادة والانسان . ويسمى هذا التيار **بالمثالية الموضوعية** . ولا يقر التيــار الثانى المسمى **بالمثالية الذاتية** الا بوجود الوعى الانسانــى الفردى ، اى وعى الذات المعنية . اما باقى العالم المادى فيوصف ببساطة انه غير موجود ، بل متخيل .

وشهد تاريخ الفلسفة كذلك مفكرين حاولوا اتخاذ موقف بينى ، وسطى . اذ كانوا اشبــــه بمن يعتــرف بتوازى واستقلالية وتكافؤ مبدأى العالم : المادة والوعى . ويسمى هؤلاء المفكرون بالثنويين . ولم يكن للمذهب الثنوى اهمية مستقلة ، كما لم يكن له تأثير كبير فى تطور العلم ، ذلك ان اكبر واصلب ممثليه كانوا ينتقلون عاجلا او آجلا اما الى مواقع المثالية واما الى مواقع المادية .

فى الحياة اليومية تعتبر الاغلبية الساحقة من البشر اشخاصا ماديين عفويين على غير وعى منهم . لهذا كثيرا مــا يبرز السؤال التالى الذى ينم عن الاستغراب : كيف يمكن بوجه عام الذهاب الى المثالية ، الى التصور القائل بان الافكار والوعى تسبق فى تطورها العالم المادى وتحدد مجمل نشاط البشر ؟ ولكن لا غرابة بتاتا فى وجود المثالية . لقد املت ظهورها ظروف اجتماعية تاريخيــة . فالتعاليم الفلسفية الاولى التى ظهرت فى قديم الزمان تكونت فى حين كان تأثير الدين لا يزال قويا جدا . وبموجب معظم التعاليم الدينية ، المعاصرة والقديمة ، ان الذى خلق العالم هو الله او الالهة ، اى كائنات غير مادية ، تنتصب فوق الطبيعة ، وقادرة على كل شىء . وكان لهذه المعتقدات تأثير معين فى جملة من التعاليم الفلسفية التى تبنت التفسير المثالى الدينى للعالم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فلماذا يستمر وجود المثالية فى ايامنا هذه ، حين يقدم تطور العلم والتقنية عددا غفيرا من البراهين التى لا تدحض على صواب المادية ؟ القضية هى ان للمثالية جذورا معينة فى التفكير البشرى بحد ذاته ، وفى ظروف الحياة الاجتماعية . وسنتناول لاحقا هذه الجذور بمزيد من التفصيل (٥٠٦) ، اما الآن فنكتفى بالقول ان المثالية ترتبط ارتباطا وثيقا بعقيدة وايديولوجيا الطبقات المسيطرة ، وتعود بالنفع على بعض القوى الاجتماعية ، لانها تقدم حججا تشهد لصالح سرمدية ورسوخ نظام العالم القائم . علما بانها لا تستند الى هيبة الدين فحسب ، بل وتسوق ادلة معينة دفاعا عن موقفها . لهذا لا يستطيع الماديون المعاصرون ان يرفضوا المثالية بسهولة وان ينبذوا حججها كأمر لا قيمة له . انهم ملزمون بتحليلها واثبات بطلانها والرد عليها ببراهينهم القائمة على كل منجزات العلم المعاصر والممارسة الاجتماعية السياسية . وآنئذ فقط تغدو مزايا الفلسفة المادية اكيدة لا جدال فيها .

٠٠٩

حوار المادى مع المثالى . لننظر ما هى الحجج التى يستطيع التقدم بها الشخص المادى والشخص المثالى دفاعا عن وجهات نظرهما . لو افترضنا شخصين احدهما مادى والآخر مثالى موضوعى ، لكان جدلهما على النحو التالى تقريبا :

المادى (م) : انت تزعم ان الافكار لها الاولوية ، وهى تسبق الاشياء المادية .

المثالى الموضوعى (م . م) : هذا صحيح .

م : انا اخالفك الرأى . فنحن محاطون باشياء مادية قابلة للاستشعار بالحواس ، اشياء استطيع رؤيتها ولمسها وشمها وتذوقها ، لكننى لم اصادف قط مفاهيم وصورا ذهنية مستقلة لا علاقة لها بالاشياء ولا تعتبر انعكاسا لها . لهذا لا اعتقد ان بمقدور الافكار ان تسبق الاشياء وان يكون لها وجود بدونها . ناهيك عن ان تكون موجودة قبلها .

م . م : حاول متابعة طروحاتى بانتباه ، وآمل ان يتسنى لى اقناعك بان الافكار تسبق الاشياء المادية وبامكانها ان توجد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بمعزل عنها وقبلها وبصورة مستقلة عنها .

م : انا جاهز .

م . م : قل لي ، من فضلك ، من اين جاءت بدلتك والمقعد الذي تجلس عليه ؟

م : بدلتي صنعها الخياط ، والمقعد صنعه النجار .

م . م : حسنا ، ولكن صنع البدلة او المقعد يفترض ان تكون لدى الخياط والنجار فكرة اولية ، اذ يتوجب عليهما التفكير بفصال البدلة او بشكل المقعد قبل البدء بالخياطة او نشر الخشب بوقت طويل .

م : هذا صحيح ، ولكن ماذا بعد ؟

م . م : قبل البدء حتى بصنع ابسط حاجة ، يتوجب على صانعها ان يبتكر ويعي ما يعتزم صنعه ، اي ان الفكرة تسبق الحاجة المصنوعة .

م : وما الذي يمكن استنتاجه من هذا القول ؟

م . م : ان العالم معقد جدا ، ولا يسع المرء الا التعجب لتعدد وجوهه وتناسق اجزائه . انظر كيف يبدو كل شيء متوافقا فيه . في العالم ترى النحل الذي يجمع الرحيق الحاوي للعسل بالضبط في الوقت الذي تقتضي الضرورة تلقيح النباتات . وهناك الانهار والامطار التي تحتاج الطبيعة الى مياهها . وهناك تعاقب الليل والنهار الذي لا وجود بدونه للكثير من الكائنات الحية . وتحيط بعالمنا الارضي كميات كافية من ثاني اوكسيد الكاربون الضروري للنباتات ومن الاوكسجين الضروري للاحياء .

م : وما الذي تثبته هذه الامثلة ؟

م . م : سوف انظم طروحاتي الآن في سياق واحد . اذا كان لا بد لاحد من ان يقوم بصنع حتى الشيء البسيط كالبدلة او المقعد ، فكيف كان من الممكن ان ينشأ تلقائيا عالم معقد ومنظم كالذي يحيط بنا ؟ اذا كان صنع البدلة والمقعد يتطلب وجود فكرة لدى الخياط والنجار ، فان خلق العالم كان يتطلب وجود فكرة سابقة له اعقد واكبر مرات عديدة من فكرة الخياط او النجار .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

م : من صاحب هذه الفكرة ؟

م . م : اود القول بان فكرة معقـــدة كهذه تراعى كـــل ترابطات الحيوانات والنباتات والهواء والماء لا يمكن ان تكون فكرة شخص بمفرده ، مهما كان عبقريا . انها فكرة قائمـــة بذاتها . الناس المتدينون يطلقون عليها تحت الله ، لكننى فيلسوف وافضل تسميتها بالعقل العالمى او الفكرة الاولية . والقضية ليست فى التسمية ، بل فى الاقرار بان خلق هذا العالم المعقد والمتنوع والمتسم بهذا القدر من الكمال كان يقتضى ان تسبقه فكرة ، علمـــا بانها يجب ان تكون فكرة سرمدية وعظيمة . على هذا النحو اخلص الى ان الفكرة اولية والمادة ثانوية .

م : انت تزعم ان كل العالم المادى قد خلق وفق فكرة اولية ما خفية . ولكن لمن هذه الفكرة ؟ ان كل فرد من البشر سبق له ان رأى النجار والخياط ، لكن «فكرتك الاولية» او «العقل العالمى» ليست لاحد . فأين ذلك الرأس الذى ابتكرها ؟ ان كل طروحاتك تقوم على كونك تلاحظ جانبا واحدا فقط من القضية ، وتتقصد التزام الصمت بشأن الجانب الآخر . ان كل الوقائع التى تحدثت عنها يفسرها العلم المعاصر دون ان يلجأ الى معونة الرب او العقل العالمى او الفكرة السرمدية . وقد اظهرت الكيمياء البيولوجية ان الكائنات الحية يمكن فى ظروف معينة ان تنشأ من المادة غير الحية (الجماد) . والاوكسجين فى غلاف الارض الجوى نتيجة للنشاط الحيوى للنباتات التى تفرزه تحت تأثير ضوء الشمس ، وغاز الكاربون نتيجة نشاط الحيوانات الحيوى . عدا عن ذلك ، اثبت العلم ان الانسان نفسه ثمرة التطور التاريخى الطويل ، والفكر والوعى ثمرة نشاط دماغ الانسان (١٢٠-١٢٤) . علاوة على ذلك ، ان العالم ليس متوافقا بالصورة التى تتحدث عنهـــا حين تنسب ترتيب بنيته الى عقل الهى . ففى العالم امراض معدية وحروب وآلام بشرية ومـــا الى ذلـــك . ونحن نعلم انه يمكن ويجب مكافحتها . ولو كان كل هذا نتيجة فكرة اولية الهية لكان من المتعذر ان تكون هناك اية مقاومة لقوى الطبيعة الغاشمة

وللجور الاجتماعي . بينما يمكن التغلب على هذا وذاك بواسطة العلم والجهود البشرية . وعليه فان نظرتـــك تعتبر وحيدة الجانب . انها تناقض العلم المعاصر وتناقض تلك المنجزات العظيمة فى التطور الاجتماعى الذى تعتبر من المشاركين فيه وشهود عيانه .

هنا يشترك فى الحوار شخص جديد مفترض هو المثالى الذاتى ليعبر عن وجهة نظره .

المثالى الذاتى (م . ذ) : انـــا اختلف مع الماديين ومع المثاليين الموضوعيين على السواء . فانا اوكد ان المادة عموما لا وجود لها ، وان من المستحيل اثبات وجودها ، وان الاشياء المادية المنفردة تتراءى لنا فقط . انها مجرد عادة لنا .

م : كيف تبرهن على صحة ارائك ؟

م . ذ : هل لك ان تبلغنى من اين لك ان تعرف ان ثمة تفاحة على الطاولة التى امامك ؟

م : اننى ارى على الطاولة التى امامى شيئا كرويا ، احد جوانبه احمر والآخر يميل الى الخضرة ، وتفوح منه رائحة زكية وله طعم حامض حلو . وانا اطلق على هذا الشىء نعت التفاحة ، واؤكد انه موجود لاننى اراه واشمه والمسه واتذوقه .

م . ذ : على هذا النحو ، تجد ان «التفاحة» ليست سوى تسمية لاحاسيسك : لشىء حامض حلو ، كروى ، احمر من جانب ومائل الى الخضرة من جانب آخر ، تفوح منه رائحـــة عطرة . وعندما تلفظ كلمة «تفاحة» ، انمـــا تريد ان تقول ببساطة انك تحس بحواس البصر والذوق واللمس والشم .

م : وماذا نستنتج من هذا القول ؟

م . ذ : نستنتج ان ليس هناك اى شىء مادى لا علاقة له بنا ، بل هناك توليفة ، نسق من الاحاسيس المعينة ، علما بانها احاسيسنا نحن ، الملازمة لتفكيرنا ووعينا ، او بايجاز للـ«انا» التى تخصنا . ونحن نسمى توليفـــة الاحاسيس هذه بكلمة «تفاحة» . وبنفس الصورة يمكن القول ان الطاولـــة والبدلة والمقعد ليست سوى تسميات لتوليفات معينـــة من الاحاسيس البصرية واللمسية وغيرها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

م : ولكن عليك ، والحالة هذه ، ان العالم كلـــه ليس سوى توليفة لاحاسيسنا ، وان العالم لا وجود له اصلا .

م . ذ : هذا ما اقصده بالضبط ، عندما اقول ان المادة لا وجود لها . فكلمة «مادة» هي ايضا تسمية لحشد كبير من الاحاسيس التى اعتدنا الظن بانها انعكاس للاشياء . اما انا فأجزم بان ليس هناك ايما اشياء ، لكننا اعتدنا فقط التحدث عن الاشياء : فليس هناك فى واقع الحال سوى تفكيرى ، ليس هناك سوى ال«انا» التى تخصنى بكل ما يلازمها من احاسيس . وما العالم المادى الا عالم يتراءى لنا ، ما هو الا طريقة معينة للتحدث عن احاسيسنا .

م (مبتسما بتهكم) : انت فى هذه الحالة تدخل حتما فى تناقض مع نفسك .

م . ذ : وما هذا التناقض فى اعتقادك ؟

م : انت تتكلم معى . ولكنك لا تعلم اننى موجود الا من خلال احاسيسك . ومن وجهة نظرك اننى ايضا لست ســوى توليفة من الاحاسيس ، ولست انسانا ماديا واقعيا حيا .

م . ذ : وماذا فى ذلك ؟

م : من ذلك نستنتج اننى لست موجودا لذاتى بــل انا توليفة من احاسيسك ، وانك توجه كل طروحاتك الى احاسيسك الذاتية ، اى انك فى واقع الحال تتكلم مع نفسك وتبرهن لنفسك على وجهات نظرك ، وتحاول اقناع نفسك بصحـــة آرائك . ولئن توخينا المنطق فسوف نجد ان ليس هناك بشر آخرون ما خلاك وما خلا ال«انا» التى تخصك . معنى هذا ان ليس هناك احد سواك ، ولا وجود فى هذا العالم لايما بشر آخرين .

م . ذ (بوجوم) : انا لم اكن راغبا فى قول ذلك ، ولكن لعلك محق ، فحججى ليست على ما يرام .

سوف يتسنى لنا لاحقا غير مرة التعرض بالنقد للمثالية الموضوعية والذاتية على السواء . اما هنـــا فيكفى ان ننوه بالسمة التى كان الشخص المادى مصيبا فى تشخيصها ضمن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا الحوار ، وهى ان المثالية الذاتية الثابتة الرأى تفضى الى مذهب وحدانية الذات ، اى نكران وجود سائر البشر ما خلا الشخص الذى يدلى بوجهة النظر المثالية .

ان مجمل تاريخ صراع المادية مع المثالية الذاتيـــــة والموضوعية يرينا ان كلا هذين التيارين يتعارض مع العلم ويناقض كل استنتاجاته . لكننا نجد آراء المثاليين الذاتيين والموضوعيين فى الواقع مموهة ، عادة ، وليست صريحة كما فى المحاورات التى اوردناها ، لذا يتوجب على الماديين بذل مجهود نقدى كبير للكشف عن الحجج الحقيقيـــة للمثالية ، وتوظيف قدر لا يستهان به من الجهود لدحضها دحضا منطقيا معللا علميا .

صحيح ان المادية لا تتهادن مع اى شكـــل من اشكال المثالية ، بيد ان المادى الجاد لا يستطيع نبذ حجج المثالى ببساطة . اذ لا يجوز دحض المثالية بالادلة الكلامية وحدها . فالمادية تبنى براهينهـــا على تعميم نتائج تطور كل العلوم الطبيعية والتقنية ودراسة الفكر البشرى ، ومـــا الى ذلك . واسترشادا بهذه الاعتبارات بالذات سوف نتصرف ونكرس جملة من الابواب الخاصة لمناقشة موقف المادية الفلسفية ، ولا سيما شكلها الاسمى الراهن ، اى الماديـــة الجدلية . وسنتناول فيها بالتفصيل ليس فقط نقد المثالية الذاتيـــة والموضوعية ، بل وكل المضمون الايجابى للفلسفة المادية فى ضوء نتائج ومنجزات العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعيـــة والتقنية المعاصرة .

٠١٠

الجانب الثانى من المسالة الاساسية للفلسفة . عند تناول علاقة الفكر بالمادة ، علاقة الوعـــى بالوجود ، يمكن طرح السؤال التالى : هل بمقدور فكرنا ان يعرف معرفة صحيحة العالم المحيط بنا ، وهل بامكاننا وضع مفاهيم صحيحة عن الظواهر والعمليات المحيطة بنا ، وهل نستطيع ان ندلى بآراء صائبة عنها ونحكم عليها حكما صحيحا ونتصرف بنجاح استنادا الى طروحاتنا وآرائنا هذه ؟ ان سؤال **هل من الممكن معرفة**

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العالم ، واذا كان ذلك ممكنا فالى اى مدى يستطيع الانسان ان يعرف ويدرك ويدرس الواقع المحيط به بشكل صائب ، او قريب من الصواب فى اقل تقدير ، هو الذى يشكل الجانب الثانى من المسألة الاساسية فى الفلسفة .

وتبعا للموقف الذى اتخذه هؤلاء او اولئك من الفلاسفة فى حل السؤال عن امكانية معرفة العالم ، انقسموا الى اتجاهين . وينتمى الى الاتجاه الاول القائلون بامكانية معرفة العالم (الماديون وجزء كبير من المثاليين الموضوعيين) ، بينما ينتسب الى الاتجاه الثانى القائلون بعدم امكانية معرفة العالم ، ممن يذهب الى ان العالم كليا او جزئيا غير قابل للمعرفة (هؤلاء هم ، عادة ، المثاليون الذاتيون) . ويسمى الذين ينكرون امكانية معرفة العالم ، عادة ، باللاأدريين . وليس من الصعب ادراك ان لمسألة امكانية معرفة العالم وطرائق التأكد من صحة معارفنا أهمية بالغة الخطورة فى الظروف الراهنة . فلاجل التأكد من صواب موقفنا علينا ان نكون واثقين بان من الممكن معرفة العالم ، وبان عقيدتنا وايديولوجيتنا تقدمان نظرة صائبة الى العالم وتقويما صحيحا لما يجرى من احداث . لذا فان اللاأدرية لا تقوض اسس العلم فحسب ، بل واصول العقيدة العلمية والايديولوجيا التقدمية . ولا غرابة فى ان اللاأدرية تعتبر سلاحا فى الصراع الايديولوجى يستخدمه خصوم الطبقات التقدمية فى المجتمع المعاصر . فبنكران امكانية معرفة العالم تجردنا اللاأدرية من بوصلة هادية فى العالم . ويعمد اشياعها الى طرائق خبيثة ومتفننة للدفاع عن وجهات نظرهم . وعليه فان الصراع معهم يشكل احدى ابرز مهام المادية الفلسفية المعاصرة .

•١١

حوار حول امكانية معرفة العالم . كيف يدافع اشياع اللاأدرية وانصار امكانية معرفة العالم عن وجهات نظرهم ؟ بالنظر لكون اتباع اللاأدرية هم بالدرجة الرئيسية المثاليون الذاتيون ، ولكون الماديين ينتمون الى انصار امكانية معرفة العالم ، فسوف يشارك فى الجدل حول امكانية معرفة العالم نفس الشخصين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اللذين افترضناهما (٠٠٩) ، اى المادى (م) والمثالى الذاتى (م . ذ) .

م : يصعب علينا حتى ان نتصور انسانــا عاديا ينكر امكانية معرفة العالم . فتجربتنا الحياتية باسرها تنبئنـــا بامكانية معرفة العالم .

م . ذ : ان العكس بالضبط هو الصحيح . ان تجربتنا الحياتية اليومية ترتكز على مراقبة الاشياء المحيطة بنا وعلى تلقيها الحسى بواسطة حواس البصر والسمع واللمس ، الخ . ، وهى مصدر معارف لا يؤتمن .

م : لماذا ؟

م . ذ : هذا قلم فى يدى ، يبدو للناظر اليه مستقيما . والآن ساغمر نصفه فى قدح ماء . فكيف تراه الآن ؟

م : ارى القلم منحرفا بزاوية صغيرة .

م . ذ : على هذا النحو تبلغنا حاســة البصر بان القلم مستقيم تارة ومنحرف تارة اخرى . فأيهما نصدق ؟ كيف يمكن بعد ذلك ان نزعم اننا نعرف شيئا يعول عليه حتى بخصوص شيء بسيط كهذا ؟

م : المثال الذى اوردته غير مقنع . هنالك عدة طرق لان نتأكد اى الانطباعات البصرية صحيحة وايها خاطئة . اولا ، يمكن ان نمرر اصبعنا على القلم دون ان نخرجه من الماء كيما نتيقن من ان الانحراف يتراءى لنا فحسب . ثانيا ، يمكننا ان نغمر القلم بكامله فى الماء ، ففى حالة انغماره التام يكون مستقيما ، كما هو فى الهواء . ثالثا ، يمكن صنع علبة ضيقة منحرفة بزاوية صغيرة على غرار القلم المغمـــور نصفه فى العلبة دون ان نخرجه من الماء ، فنتأكد انه امر متعذر .

م . ذ : وماذا يستنتج من ذلك ؟

م : ان المراقبة وحدها لا تكفى للتأكد من صحة المعارف ومعرفة الصائب والحقيقى منها ، اى ما يناسب الواقع ، بل تقتضى الضرورة ان نجرى ، على الاقل ، ابسط تجربة ، اى ان نقوم بنشاط معين مع القلم وقدح الماء ، كى يتسنى لنا تمييز خداع البصر عن واقع الاشياء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

م . ذ (مواصلا عناده) : هناك ايضا حجج اخرى للشك في صحة المعرفة .

م : ما هي هذه الحجج ؟

م . ذ : في القرن الماضي كان العلماء يعتقـــــدون ان الذرات غير قابلة للتجزئة . بعد ذلك خلصوا بفضل التجارب الى ان الذرات تتألف مـن نوى وجزيئات بسيطة لا يمكـن المضي بتجزئتها هي الالكترونات . وفي السنوات الاخيرة يميل العلماء الى الظن بان الجزيئات البسيطة نفسها تتكون من عناصر فيزيائية خاصة . على هذا النحو نجد ان ما كان يعتبر حقيقة ثابتة في اواخر القرن التاسع عشر اصبح خاطئا فـــي اوائل القرن العشرين ، وان ما كان يعتبر حقيقة ثابتة في اوائـــل القرن العشرين بات يعتبر الآن خاطئا . فكيف يمكن القـــول بصحة معرفة العالم ؟

م : انت لا تراعي سنن تطور العلم . ان جوهر القضية هو اننا مع تعمق معارفنا لا نكتفي بنبذ الآراء المغلوطـــة السالفة ، بل ندققها ونجعلها اوفى واصوب . بتعبير آخر ان المعرفة ليست «قطاعا» معزولا ، بل هي حلزون يتكون من عدد لا نهاية له من الاستدارات . لذا فنحن نواجه عملية معرفة تسير خلالها طوال الوقت الى الامام ، نحو معرفة اصوب واتم للعالم . وما المثال الذي اوردته الا توكيـــد لكون الفيزياء المعاصرة تعرف بنية الذرات افضل ممـــا قبل ٥٠ او ١٠٠ سنة . وهذا لا يؤكد وجهة نظرك ، بل وجهة نظري ، وهي ان بالامكان معرفة العالم ، وهذه المعرفة لا حدود لها .

من الحوار الذي اوردناه نخلص الى استنتاجين مهمين .

١ – ان الشخص اللاأدري يستخدم لاثبات وجهات نظره خداع الحواس (وهو في مثالنا خداع البصر) ولا يعتمد الا على المراقبات السلبية ، علما بانه يتناول كل مراقبة بمعزل عن سواها . اما المادي القائل بامكانية معرفة العالم ، فلاجل دحض وجهات نظر اللاأدري يلجأ الى التجربة التي تعتبر جزءا مهما من

الممارسة ، اى من نشاط البشر الاجتماعـــى الانتاجـــى . فالممارسة هى التى تتيح لنا اثبات امكانية معرفة العالم .

٢ – ان اللاأدرى يتناول المراحل المختلفة من تطور العلم دونما ترابط فيما بينها . وهو لا يلاحظ وحدتها الداخليـــة وترابطها ، ولا يلاحظ تطور العلم ، ولذا لا يتمكن من معرفة ان كل مرحلة فى عملية التطور تتمـــم الاخرى ، وان بعض المعارف تعمق وتدقق المعارف الاخرى . اذن ، فالمعرفة بحد ذاتها تتطور وبالتالى فنحن نتعرف على العالم المحيط بنا بشكل اوفى فاوفى .

ان كل علم خاص يدرس موضوعه ومجالـــه الخاص من الواقع . فعلماء الفيزياء يدرسون حركة وتفاعـــل الحقول والاجسام المادية . ويستكشف علماء الكيميـــاء كيف تتألف الجزيئات من الذرات ويسعى علماء البيولوجيا الى فهم ما هى الحياة ، وما هى قوانينها وهلمجرا . ولكن ما من علم من هذه العلوم يستكشف كيف يتعرف الانسان على العالم المحيط ، وكيف وبأية طريقة يتأكد من صحة معرفته . هذه المهمة لا يضطلع بها سوى الفلسفة عندما تناقش الجانب الثانى من مسألتها الاساسية . ويسمى ذلك الفصل من الفلسفة الذى يدرس عملية المعرفة وطرق التأكد من صحتها بنظريـــــة المعرفة . ولذا فلاجل تأكيد اهمية نظرية المعرفة بالنسبـــة لفهم جوهر الفلسفة نستطيع وصف مسألتهـــا الاساسيـــة بالمسألة المعرفية . ومن خلال معالجـــة التعليم المتعلـــق بالمعرفة ومصادرها وتطورها وطرائق التأكد من صحتها ، وتمييز المعرفة الصحيحة ، اى الحقيقية ، عن المعرفة الخاطئة ، اى الكاذبة تحل الفلسفة مسائل مهمة لا يحلها اى علم آخر . وهذه وظيفة اخرى مهمـــة من وظائفهـــا هى **الوظيفة المعرفية** . وسنتناولها بالتفصيل فى الباب الخامس من هذا الكتاب .

٠١٢

منهج الفلسفة والمفهوم التمهيدى للجدلية والميتافيزيقا . فى الحوار الذى اوردناه كانت النتائج والاستنتاجات التى توصل اليها المتحاوران متعارضة تماما . وهذا أمر مرهون الى درجة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كبيرة بكونهما يستخدمـــان مناهج مختلفـــة فى الطروحات والبراهين . فالمنهج الذى يستخدمه المادى فى هذا الحوار يسمى بالمنهج الجدلى (الديالكتيكى) .

يتطلب المنهج الجدلى للمعرفـــة تناول كل الظواهر فـــى العالم المحيط بنا فى ترابطها وتفاعلها وتطورهـــا الدائم . وينطلق هذا المنهج من ان الانسان لا يستطيع معرفة العالم المحيط ومعرفة ذاته الا بشرط كونه سيتناول ويدرس كل الظواهر فى حركتها وتغيراتها الدائمة ، وبالانتباه قبل كل شىء الى الانتقالات المتبادلة للظواهر وتحول بعضها الى بعض . ويسعى المنهج الجدلى خلال ذلك الى العثور (ويعثر بالفعل) على المصدر الداخلى للتطور فى كل شكل من اشكال الحركة ، وفى كل واقعة من وقائع التغير . وهذا المصدر هو التناقضات الداخلية الموجودة فى كل ظاهرة وفى كل عملية ، وصراع هذه التناقضات وحسمها . فالتطور بحد ذاته لا يفهم كتكرار او حركة دائرية ، بل كظهور دائم للجديد ، شريطة ان يبدو فى الظواهر الجديدة نوعيا بعض جوانبها ومواصفاتها وكأنه يكرر ما كان فى المراحل السالفة . وفى عملية التطور يجرى دائما تهدم وتلاشى القديم وانبثاق الجديد ، مع بقاء كل ما هو قيم وحيوى فى هذه العملية .

والمنهج الذى يتعارض مع المنهج الجـــــدلى يدعـــــى بالميتافيزيقى . ويتناول المنهج الميتافيزيقى كـــل ظاهـــرة بصورة منفردة وبمعزل عن ترابط وتفاعل الظواهر فيما بينها . ولئن جرت مراعاة هذا الترابط والتفاعل ، فان ذلك يجرى بصورة سطحية وغير عميقة . **وعند تناول التغير والحركة يغفل المنهج الميتافيزيقى عن التطور الحقيقى ، ولذا فهـــــو لا يقر بامكانية بروز ظواهر وعمليات جديدة مبدئيا فى الطبيعـــة والمجتمع وفكر الانسان** . فمن وجهة النظر الميتافيزيقية ان كل شىء فى العالم يتكرر عاجلا او اجلا ، ويبـــــدو كل شىء وكأنه يتحرك فى دائرة ، ومصادر الحركة والتغير لا تكمن فى داخل الاشياء والظواهر ، لا فى تناقضاتها الداخلية ، بل فى دافع خارجى ، فى قوى خارجة على الظاهرة المعنية . ولا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقر المنهج الميتافيزيقى بالتحولات النوعية الجذرية والتغيرات الثورية فى العالم المحيط بنا ، بل يحاول تصوير كل شىء بهيئة ارتقاء انسيابى وتغيرات كمية ضئيلة الاهمية .

ان المنهجين الجدلى والميتافيزيقى يتعارضان تعارضا جذريا . ففى عصرنا العاصف ، فى عصر التغيرات الثورية العميقة والتطور السريع للعلاقات الاجتماعية والاقتصاد والعلم والتقنية والثقافة عموما ، لا يتسنى الا للتعليم الفلسفى الذى يعتمد على المنهج الجدلى ويستخدمه فى حل معضلاته ان يؤدى بنجاح دور «الخلاصة الروحية لعصره» (٠٠٢) .

ولكلمتى «الديالكتيك» و«الميتافيزيقا» اصل يونانى قديم . اذ كانت الاولى تعنى بادئ ذى بدء فن او قاعدة التوصل الى الحقيقة من خلال الجدل * عن طريق مقارنة الآراء المتعارضة . والكلمة الثانية (التى تعنى حرفيا «ما بعد الفيزيا») استخدمها الفيلسوف اليونانى القديم البارز ارسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق . م .) عنوانا لمؤلفه الفلسفى الرئيس . واحتراما له كانت الميتافيزيقا تسمى على مدى قرون عديدة بالفلسفة عموما . بيد ان مغزى هاتين الكلمتين تغير منذ ذلك الحين تغيرا جذريا ، ولسوف نستخدمهما نحن ايضا ، مقتفين آثار ماركس وانجلس ولينين ، بالمغزى الذى تستخدمان به فى هذه الفقرة . وسنتناول بالتفصيل جوهر المنهج الجدلى فى الباب الرابع من هذا الكتاب .

٠١٣

موضوع الفلسفة الماركسية اللينينية . الماركسية اللينينية علم عن التحويل الثورى للمجتمع وبناء الاشتراكية والشيوعية . ومكوناته هى : نظرية الشيوعية العلمية التى تدرس سنن الثورة الاشتراكية والبناء الاشتراكى والشيوعى ، والاقتصاد السياسى الذى يدرس قوانين الانتاج الاجتماعى ونشاط البشر الاقتصادى ، وفلسفة الماركسية اللينينية . وبالنسبة لنظرية الشيوعية العلمية والاقتصاد السياسى تعتبر الفلسفة الماركسية

* لذا ارتأينا استخدام «الجدلية» عوضا عن «الديالكتيك» — المترجم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اللينينية اساسا عقائديا وايديولوجيا ومنهجيا ، وهى تقوم بوضع المناهج والمبادئ النظرية للمعرفـــة العلمية التى يستخدمانها فى معالجة مسائلهما . وتترابط مكونات الماركسية اللينينية فيما بينها ترابطا لا ينفصم ، وتتحد اتحادا وثيقا .

والتسمية العلمية للفلسفة الماركسية اللينينية هـــى المادية الجدلية والتاريخية .

ان تسمية «المادية الجدلية» تدل على ان التعليم الفلسفى يعطى جوابا ماديا عن المسألة الاساسية فى الفلسفة ويستخدم المنهج الجدلى فى مناقشة وحل كل المعضلات الفلسفيـــة والعقائدية والمنهجية والايديولوجية والمعرفية المعقدة . وبذا يختلف هذا التعليم اختلافا جذريا عن سائر اشكال وانواع الفلسفة السالفة ، كذلك عن باقى التعاليـــم الفلسفية غير الماركسية الموجودة فى هذا العصر :

لقد نشأت الفلسفة المادية منذ عهـــد سحيق . بيد ان المادية لم تكن تشمل سوى فهم ترابط الطبيعة والفكر . اما الآراء المتعلقة بالمجتمع فقد كانت تسودها الآراء المثالية حتى بروز المادية الجدلية . اذ كان مفكرو الماضى ، بغض النظر عن كيفية معالجتهم للمسألة الاساسية فى الفلسفة عموما ، يجمعون على ان العامل الحاسم فى الحياة الاجتماعية هو الافكار ، الوعى ، هذه او تلك من آراء الناس ، امـــا الواقع المادى والعلاقات الاجتماعية وانتاج الخيرات المادية فترتهن كليـــا بهذه الافكار والآراء ، وليست سوى وسيلة لتطبيقها . ولهذا السبب بالذات كانت الشخصيات والفئات الاجتماعية الساعية الى تغيير النظام الاجتماعى الجائر تسعى الى الشروع فى تطبيق تحويلاتها من تغيير الافكار والوعى وآراء الناس ، وكانت خلال ذلك تمنى كل مرة بالهزيمة . ولكون المهمة الرئيسة للفلسفة الماركسية اللينينية هى ليست مجرد تفسير العالم ، بل تعليل سبل تغييره ، فقد راعى مؤسسا هذه الفلسفـــة ماركس وانجلس تجربة اسلافهم الفاشلة ، وسلكا سبيلا مغايرا ، وهو انهما نشرا الفهم المادى لا على الطبيعة والفكر فحسب ، انما ايضا على مجمل تاريخ المجتمع البشرى ، وعلى كـــل اشكال

النشاط الاجتماعي . لهذا تعتبر المادية الجدلية الى جانب ذلك مادية تاريخية ايضا . ويتلخص اختلافها الجذرى عن سائر التعاليم المادية السالفة فى كونها «استكملت بناء» المادية وصولا الى الفهم المادى للتاريخ والحياة الاجتماعية . اذن ، ليس صحيحا الظن بان المادية الجدلية والتاريخية منظومتان فلسفيتان مختلفتان او فصلان مستقلان فى الفلسفة الماركسية اللينينية . ان فلسفتنا واحدة هى المادية الجدلية لانها تضع وتستخدم منهج المعرفة الجدلى ، وتجيب ماديا عن المسألة الاساسية للفلسفة . وهى الى جانب ذلك مادية تاريخية لانها تعمم المادية على المجتمع ، وترى ان الوجود الاجتماعى المادى يحدد الوعى الاجتماعى ، وتعتبر التاريخ عملية جدلية متنامية .

على هذا النحو نجد ان **الفلسفة الماركسية اللينينية تبحث فى اعم علاقات الانسان بالعالم وتكشف عن الروابط والقوانين العامة فى تطور الطبيعة والمجتمع والفكر** . وهذا هو ما يشكل موضوع الفلسفة الماركسية اللينينية التى هى الاساس النظرى للايديولوجيا الثورية والعقيدة العلمية الاكثر تقدمية فى العصر الراهن .

•١٤

مبدأ التحزب فى الفلسفة . بامكان الناس الذين يعتنقون آراء مختلفة ان يتوصلوا فى الحياة اليومية ، او حتى فى السياسة ، الى اتفاق او ان يجدوا حلا وسط بشأن هذه او تلك من المسائل . اما حين يتعلق الامر بالاصول الفلسفية للعقيدة ، التى تعبر عن وجهة نظر مثالية او مادية ، فان مثل هذا الاتفاق او الحل الوسط يغدو متعذرا . وقد شهد تاريخ الفلسفة قدرا غير قليل من المحاولات الرامية الى التوفيق بين هذه النظرات المتعارضة الى العالم . بيد ان الجوهر الحقيقى لمثل هذه المحاولات كان واحدا على الدوام ، وهو اخضاع المادية للمثالية وانتزاع التنازلات من الاولى لصالح الثانية . لهذا كان الماديون والمثاليون الثابتون يخوضون منذ اقدم العهود صراعا حادا لا هوادة فيه . وقد اطلق لينين اسم المادى اليونانى القديم ديمقريطس (زهاء ٤٦٠ – حوالى ٣٧٠ ق . م) والمثالى

الموضوعى افلاطـــون (زهاء ٤٢٧-٣٤٧ ق . م) على هذين الاتجاهين فأسماهما خطى ديمقريطس وافلاطون ، مؤكدا انهما يشكلان حزبين لا يتهادنان فى الفلسفة . والاقرار باللاتهادن بين المثالية والمادية هو السمة المهمة الاولى لمبدأ التحزب الماركسى فى الفلسفـــة . ويكمن هذا اللاتهادن فى الحيـــاة الاجتماعية ذاتها .

لقد كانت الفلسفة منذ ظهورها حتى الآن ولا تزال تعبر عن المصالح والاحتياجات الروحية والعقائدية والايديولوجية لقوى وفئات وطبقات اجتماعية معينة . بيد ان مؤسسى مختلف التعاليم الفلسفية كانوا يسعون دوما الى تصوير وجهات نظرهم وكأنها تعبر عن المصالح الانسانية العامة ، والى تمويه جوهرها الطبقى واتجاهها الايديولوجى .

وبخلاف جميع التعاليم السالفة تجاهر المادية الجدليـــة صراحة بأنها تعليم فلسفى يعلل عقيدة وايديولوجيا الطبقة العاملة وجماهير الكادحين الذين تقودهم . والاقرار الصريح بترابط العقائد والتعاليم الفلسفية بمصالح الطبقات والصراع الطبقى هو السمة المهمة الاخرى لمبدأ التحزب فى الفلسفة .

ولا ينبغى التماهى كليا بين مبدأ التحزب فى الفلسفة والتحزب بالمغزى السياسى الذى يعنى الانتماء الى منظمـــة سياسية معينة ، او الى هذا الحزب السياسى او ذاك . فالمادية الجدلية هى الاساس الفلسفى لعقيدة الاحزاب الشيوعيـــة والعمالية وايديولوجيتها ومنهجية نشاطها . غير ان هذا لا يلغى انتشار المادية الجدلية على نطاق واسع ايضا بين الذين يعتنقون آراء سياسية واجتماعية تقدمية لكنهم ليسوا اعضاء فى هذه الاحزاب .

ان ارتباط مختلف التعاليم الفلسفية بالمصالح الطبقية والصراع الطبقى ليس بسيطا ولا مباشرا . لهذا يجب فى كل حالة معينة ان تجرى دراسة دقيقة للآراء الفلسفيـــة ذات العلاقة ، بعدئذ فقط يمكن القول بكل تحديد مـا هى القوى الاجتماعية وما هى الاهداف والمصالح التى تخدمها هذه الآراء . على هذا النحو ، يعتبر مبدأ التحزب وسيلـــة مهمة لتعيين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المواقف الاجتماعية التى يتبناهـــا كل فيلسوف او عالم او شخصية اجتماعية تتبنى هذه او تلك من العقائد الفلسفيـــة وتستخدمها فى نشاطها . وسنعتمد بثبات هذا المبدأ فى جميع فصول هذا الكتاب .

نشوء وتطور الفلسفة

١٥٠

فلسفة العهود القديمة . ظهرت اولى التعاليم الفلسفية خلال القرنين ٧-٦ ق . م ، فى الصين والهند واليونان القديمة . وجاء ظهور الفلسفة مواكبا للانتقال من النظام المشاعـــى البدائى الى مجتمع العبودية الطبقـــى . ورافق هذه الفترة الانتقالية صراع حاد بين المالكين والمعدمين وانبثـــاق كيان الدولة ومبادئ المعارف العلمية ، الامر الذى حدد ايضا طابع التعاليم الفلسفية الاساسية التى عللت النظام الاجتماعـــى الجديد . وللخط الذى يمتد من الفلسفة اليونانية القديمة جل الاهمية بالنسبة لفهم الفلسفة المعاصرة .

لقد جرت العادة على تسمية كل ما يتعلق بتاريخ بـلاد اليونان وروما القديمة بالعهد القديم . وقد نشأت الفلسفة القديمة على اساس من المعارف العلمية التى ظهرت فى ذلك العهد . ومنذ البداية كانت الفلسفة تناقض وتعارض فـى الكثير العقيدة الميثولوجيـة الدينية التى نشأت فى فتـــرة متأخرة من النظام المشاعى البدائى اللاطبقى . وكان العلـم الناشىء ، وبالدرجة الاولى الرياضيات ، يعتمد على البرهان لا على الايمان . وقد لعبت البراهين دورا كبيرا فى الحياة الاجتماعية السياسية للمدن - الدول اليونانية القديمة . ودخلت الفلسفة التى قامت بوضع قواعد تصنيف المعارف وتعليلها وبراهينها فى تناقض مع الميثولوجيا القائمة على الايمان والمفتقرة الى التصنيف والبراهين .

وكانت الفلسفة بادئ ذى بدء تشمل كل المعارف وكـل الحكمة . وكان مركز الفلسفة القديمة تشغله مسألة كيف

تبدو بنية العالم ، وهل يمكن تفسير العالم «من داخله» ، وهل بامكان الانسان ان ينال الطمأنينة والغبطة حين يعرف بنية العالم . ومنذ البداية ارتسم فى الفلسفة اتجاهان مادى ومثالى . وكان ممثلو الاتجاه الاول يذهبون الى ان صلب (او جوهر) العالم تؤلفه العناصر المادية التى نصادفها فى حياتنا اليومية وهى الماء والهواء والنار والتراب . وفى وقت لاحق تقدم ديمقريطس بتعليم عن الجزيئات المادية غير القابلة للانقسام هى الذرات باعتبارها اصل العالم . وكان ماديو الماضى انصارا عفويين عن غير وعى لمقولة ان الاولوية للعالم المادى ويعتقدون بانه كان موجودا حتى قبل الآلهة . وعلى العكس ، كان المثاليون — فيثاغورس (حوالى ٥٧٠ — حوالى ٥٠٠ ق . م) واتباعه الفيثاغورسيون وافلاطون — يعتقدون بان اصل العالم هو اشكال الوعى ، الارقام (حسب فيثاغورس) او الافكار (حسب افلاطون) .

كان المفكرون اليونانيون فى نظرتهم الى العالم يتلقونه كليا بمثابة كون واحد كل شىء فيه يجرى ويتغير ويتلاشى وينبثق . وكانت هذه النظرة ساذجة بعد ، لكنها الى جانب ذلك نظرة جدلية . وارتقى مفكرو الماضى الى ادراك ان مصدر حركة وتغير الظواهر المتفرقة هو — كما ينبغى الاعتقاد — التناقضات الداخلية الملازمة لها . بيد ان فهمهم للتطور كان محدودا ، اذ كان الاعتقاد السائد هو ان كل شىء فى الكون يتكرر عاجلا او آجلا ، ولا جديد اطلاقا . وكانت دراسة تغيرات وحركة وبنية الكون المعضلة المركزية فى العلم والفلسفة اليونانيين ، اللذين بلغا ذروتهما فى مؤلفات ارسطو ، حيث قام بتصنيف كل المعارف المتاحة له فى مجال الفيزياء والبيولوجيا والاخلاق وعلم المجتمع ، فوضع اول تعليم مصنف عن البراهين . وقد تعرض ارسطو بالنقد لآراء معلمه افلاطون المثالية ، لكنه لم يتخلص نهائيا من المثالية . اذ كان يعتقد — تحديدا — ان حركة العالم نتجت عن دافع خارجى ، او المحرك الاول . وكان لآراء ارسطو تأثير كبير فى تطور الفلسفة اللاحق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٦ ـ فلسفة الشرق . لقد اسهمت التعاليم الفلسفية لفلاسفة الصين والهند وشعوب المشرق العربى اسهاما كبيرا فى تطور الثقافة العالمية . وتطورت هذه التعاليم على يد الكثير من المدارس والمفكرين على امتداد مجمل تاريخ هذه الـــدول وانتشرت خارج حدودها فى جملة من بلدان المنطقة الاسيوية . وتتمثل السمة المميزة للتعاليم الدينية الفلسفية الشرقية خلال العهدين القديم والوسيط فى غلبة توجهها نحو العالم الداخلى للانسان . فالكونفوشية ، مثلا ، تتسم بالترابط الوثيق ، بل وحتـى باندماج التعاليم الدينية الخلقية والاجتماعية السياسية التـى تداخلت فيها تداخلا وثيقا معضلات الكمال الشخصى بالتعاليم المتعلقة بالاسرة والادارة السياسية والعمل واحترام المسنين وما الى ذلك . وتتسم مدارس الهند الدينية الفلسفية بعمق وحدة الاصل الكونى والشخصانى . فبالاعتماد على التعاليـم الدينية الفلسفيـــة كان مفكرو الهند فى العهدين القـــديم والوسيط يولون اهتماما كبيرا لقضيـــــة التوازن الروحى والتحرر من المعاناة والالم وبلوغ وحدة الانسان بالعالم ، بجوهره الاولي . واتاح الاهتمام العميق بعالم الانســـان الداخلى ، النفسى الذاتى للفلاسفة الهنود تعليل ضرورة سعى الانسان الدائم الى الكمال الذاتى . والسمة الاخرى المهمة مبدئيا للفكر الفلسفى الهندى هى تعليل السلوك المسالـم والتصرفات الخالية من العنف والسعى الـى تخليص النفس والآخرين من المعاناة والالم والتحرر من الاهواء الدنيويـــة والشهوات الجسدية .

وجرى ضمن اطار التعاليم الاخلاقية الفلسفية للهنـــد والصين القديمتين وضع آليات مبدئيـة وتطبيقية للتهـذيب الذاتى وتمرين الارادة والوعى ، وتقنيات كبح الاهواء وتنشئة ثقافة عاطفية معينة . ولتقنيات تركيز الفكر والتمرين الذاتى التى وضعت وصقلت على هذا الطريق اهمية لا ريب فيهـا بالنسبة للعلم العصرى المتعلق بدراسة الانسان .

لقد كان العديد من رجال السياسة الافذاذ فى الهند ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ممن وهب كل قواه للنضال فى سبيل استقلال وطنه وحريته ، ومن اجل مثل العدالة والتعايش السلمى بين الـــدول ذات الانظمة الاجتماعية السياسية المختلفة ، وعمل على انماء هيبة الهند ، من امثال غاندى ونهرو وردها كرشنان من كبــار العارفين بالفلسفة الهندية ، وقد اكدوا مرارا دورها فـــى تكوين عقيدتهم وآرائهم السياسية .

وبعد ظهور الاسلام ابان القرن السابع نشأت فى اقطار العالم العربى واخـــذت تتطور سريعا الفلسفة العربيـــة . واستوعب المفكرون العرب استيعابا عميقا تراث اليونـــان القديمة ، واسهموا اسهاما كبيرا فى تطوير الرياضيات وعلم الفلك والطب وعلم الاخلاق . ووضع ابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧) وابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨) مؤلفات موسوعية نـوقشت فيها معضلات علم الكونيات والمنطق والرياضيات وطائفـــة كاملة من المشاكل الفلسفية البالغة التعقيد . وكان لمؤلفات المفكرين العرب تأثير عظيم فى الفلسفة الاوربيـــة ابـــان القرون الوسيطة ، كما انهم صانوا تــراث الماضى الفلسفى وجعلوه متاحا امام علماء القرون الوسطى الاوروبيين . ويمكن القول دون مبالغة ان الفلسفة العربية ساهمت الى حد معين فى التحضير للتطورات الثقافية العميقة التى شهدتها فلسفة عصر النهضة .

على هذا النحو ، مارست منجزات الفكر الفلسفى الشرقى ولا تزال تمارس دورا جوهريا فى انماء الثقافة العالمية .

١٧ .

فلسفة القرون الوسطى . ادى انحطاط المجتمع القديم الناجم عن تناقضاته الداخلية الى ظهور النظام الاقطاعى . وتكونت الثقافة الاقطاعية القروسطية الجديدة . وبات يشغل موقـــع السيطرة فيها الدين المسيحى والكنيسة . فالرب ورسلـــه وملائكته فى السماء يقابلهم الملوك والدوقات والبارونـــات على الارض . وغدا الدين المسيحى الذى اصبح الدين السائد يعبر اوفى تعبير عـــن مصالح الطبقة المسيطرة ويعلـــل ايديولوجيتها . ولاجل تبرير وتوكيد مصداقية الدين المسيحى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اضطر علماء اللاهوت فى القرون الوسطى الى مراجعة تــراث الماضى الفلسفى ، فاستخدموا خلال ذلك آراء افلاطون المثالية وتعاليم ارسطو عن البراهين المنطقية التى جرى تكييفها طوال فترة القرون الوسطى (من القرن الخامس الى القرن الــرابع عشر تقريبا) لخدمة احتياجات المسيحية ، فاصبحت الفلسفة خلال هذه الفترة خادما للاهوت . وبات فى مركز اهتمامهــا الرب وعلاقة الانسان بــــه . وبوشر بدراسة الفلسفة فــــى المدارس الكلامية وبات مدرسوها يسمون بالكلاميين . وفى غضون وضع براهين الوجود الالهى البالغة التعقيد ، ما لبث الكلاميون ان فقدوا كل صلة بالحياة وبمستلزمات التطـــور الاجتماعى التطبيقية . ومنذ ذلك الحين باتت الفلسفة المعزولة عن الحياة والمتشابكة المدلولات والبالغة التعقيد عن قصد تسمى بالكلامية .

ولكن حتى فى القرون الوسطى لم يختف التقليد المادى ، وان كان ضعيفا للغاية . فبسبب التعرض لملاحقات الكنيسة والمدرسة الكلامية حاول الفلاسفة المتمسكون بالتقليـــــد المادى اثبات ان تفكير الانسان ، ولا سيما اللغة (الكلام) ، وسيلة لوصف ومعرفة الاشياء الموجودة فعلا . بيـــــد ان المدرسة الكلامية استنفدت نفسها كليا فى اواخـــــر عصر النهضة ، وباتت عائقا يعترض طريق علــــم العصر الجديـــد الحديث الولادة ، ويعرقل تطور الثقافة الجديدة والمجتمــــع الجديد .

١٨ .

فلسفة وثقافة عصر النهضة . فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر اخذت تنشأ فى ايطاليا بادئ ذى بدء ، ومن ثم فــــى البلدان الاوربية الاخرى العلاقات الاجتماعية البرجوازية . وكانت الطبقة الاجتماعية الجديدة – البرجوازية – تسعــى باندفاع الى السلطة . وفى خضم الصراع مع الايديولوجيــا القديمة والدين الذى كان يقـدس النظام الاقطاعى اخـذت تتكون الثقافة البرجوازية الجديدة التى سميت بثقافـة عصر النهضة . اذ كان مؤدلجو البرجوازية الناهضة يدعون الى احياء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(انهاض) الثقافة والعلم والفلسفة الهيلينية . وكان فنانو هذا العصر ونحاتوه وفلاسفته وشعراؤه وعلماؤه يقوضون ، من حيث الجوهر ، صرح المدرسة الكلامية وما يرتبط بها من ثقافة القرون الوسطى الراكدة والفاقدة لحيويتها .

كانت المسيحية تعلم الناس ان خالق العالم هو الله ، اما الانسان فهو مخلوق سلبي يرضخ لمشيئة الرب ، وان وهبت له الروح . وما العالم باسره الا مسرح يحيا عليه الانسان وفق سيناريو وضعه الرب . اما فلسفة عصر النهضة ، فعلى العكس ، كانت تعتبر الانسان صانعا لمصيره . لذا كانت تطرح فى المقام الاول شخصية الانسان – الخالق الشجاعة الباهرة ، شخصية انسان عصره النشيط . وتجسد هذا التصور عن الانسان فى التصوير الزيتي والنحت والادب المنتمى الى عصر النهضة ، ولا سيما فى نتاجات ميكيل انجلو وليوناردو دافنشي ورفائيل وبتراركا ودانتي وغيرهم . وكان مفكرو عصر النهضة عند الحديث عن الشخصية الانسانية الفعالة يضعون الانسان فى مركز الكون ويعتقدون صادقين بأنهم يدافعون عن مصالح البشر العامة فى جميع العصور . اما فى الواقع فقد كانوا يعبرون عن مصالح البرجوازية الحديثة الولادة ويتغنون بمثالها الانسانى الا وهو الشخصية القوية الفعالة ، الانسان الفردى السائر الى اهدافه رغم كل العقبات التى تضعها على طريقه العلاقات الاقطاعية الفئوية والافكار القديمة الباطلة ، والدولة والقانون . وهذا ما تجلت فيه بوضوح الصلة العميقة بين الفلسفة وعقيدة العصر التاريخي المعنى .

١٩ .

فلسفة المجتمع البرجوازي . فى القرنين السابع عشر والثامن عشر حدثت فى بلدان اوربا الاكثر تطورا ثورات برجوازية اسفرت عن استيلاء البرجوازية على السلطة ، فشغلت بذلك مركز السيادة فى المجتمع الرأسمالى الجديد .

ولعبت التعاليم الفلسفية المعبرة عن مصالح واحتياجات الطبقة الحاكمة الجديدة دورا مزدوجا . ففى فترة التحضير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للثورات البرجوازية كانت تزعزع الاسس الايديولوجية والعقائدية للنظام الاقطاعى القديم وتبرر وتعلل اطماع البرجوازية بقيادة المجتمع . وهذا ما تجلى فيه دورها التقدمى والنقدى . وبعد مجيء البرجوازية الى السلطة اصبحت مهمة العقيدة والايديولوجيا البرجوازية تتمثل فى اثبات رسوخ وديمومة النظام القائم وابدية سيطرة الرأسمال . ولكن لا ينبغى الظن ان وظائف الفلسفة الجديدة كانت تنحصر فى ذلك فحسب . ذلك ان نمو الانتاج الرأسمالى كان مقترنا بنمو سريع فى المعارف العلمية . ولم يكن تطور الابحاث العلمية الناجح ممكنا الا بالاستناد الى منهجية جديدة للمعرفة ، لذا كان كبار الفلاسفة البرجوازيين فى القرون السابع عشر — التاسع عشر يعيرون الكثير من الاهتمام لوضع منهجية ونظرية عامة للمعرفة وللقضايا المعرفية التى اصبحت تطرح الى جانب مسائل التقدم الاجتماعى فى المقام الاول من جميع التعاليم الفلسفية تقريبا .

لقد وضع الفلاسفة الماديون الانجليز منهجية تجريبية للمعرفة تبين كيف تبرز القوانين والنظريات العلمية على اساس الاختبار والتجريب . واقام ماديو القرن الثامن عشر الفرنسيون تعاونا وثيقا مع علماء عصرهم . ففى غضون صراعهم النشيط مع الدين والكنيسة تقدموا ، ولا سيما ديدرو (١٧١٣ — ١٧٨٤) ، بتعليم عن منشأ الوعى والفكر من الطبيعة اللاعضوية ، غير الحية . وفى وقت لاحق سمى هذا التعليم بنظرية الانعكاس التى طورها لينين على اساس جديد مبدئيا .

فى القرنين السابع عشر والثامن عشر تطورت العلوم الطبيعية ، ولا سيما الفيزياء والفلك والميكانيك ، تطورا عاصفا . واصبحت الفلسفة المادية المرتبطة بها ميكانيكية هى الاخرى ، ذلك انها اخذت تحصر مادتها فى المادة الفيزيائية ، وتحصر انواع الحركة المعقدة فى الانتقال الميكانيكى البسيط فى المكان . ومن ذرى ايامنا هذه تبدو مادية القرنين السابع عشر والثامن عشر الميكانيكية الميتافيزيقية محدودة ومبسطة ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكنها كانت بالنسبة لعصرها ظاهرة تقدمية وضرورية تاريخيا ، وقد لعبت دورا ايجابيا فى محاربة المثالية ، ولا سيمـــا الذاتية منها .

وشهدت الفلسفة قبل الماركسية ارقى درجة من التطور فى الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ، وبالدرجة الرئيسة لدى كانط (١٧٢٤ – ١٨٠٤) وهيغل (١٧٧٠ – ١٨٣١) . وكان ممثلو هذا الاتجاه مثاليين وعقلانيين ، ويولون الاولوية فى الاهتمام لدراسة قوانين الفكر والعقل ، وقد حققوا نتائـــج مهمة فى هذا المضمار . فعلى وجه التحديد تسنـــى لكانط وهيغل ادراك وصياغة جملة من الاحكام المهمة فى منهـــج المعرفة الجدلى . وكانت جدليتهم تتفوق تفوقا كبيرا على جدلية العهد القديم الساذجة . اذ كانوا يدركون ادراكا عميقا الطابع العميق المتناقض داخليا لعملية التطور المطرد . لكنهـــم ، وبسبب كونهم مثاليين ، كانوا يقتصرون على تناول جدليـــة الفكر وجدلية العقل ، ولا يقرون بان التطور سمة ملازمـــة ايضا للعالم المادى الموضوعى . لهذا ظل منهجهم الجـــدلى مثاليا ولم يجد استخداما له فى العلوم الطبيعية فى ذلـــك العصر . وتجلت محدودية الجدلية المثالية ايضا فى انهـــا اختتمت تطور المجتمع ، خدمة لبعض المصالح الطبقية ، ولا سيما فى طروحات هيغل ، بظهور كيان الدولة البرجـــوازى فحرمت البشرية بذلك من آفاق التطور اللاحق .

باتت نواقص الفلسفة الكلاسيكية الالمانية والجدليـــة المثالية التى وضعت صيغتها ضمن اطار هذه الفلسفة ملحوظة بصفة خاصة فى ثلاثينات واربعينات القرن التاسع عشر . وفى نتيجة ذلك نبذ فورباخ (١٨٠٤ – ١٨٧٢) الذى كان فى وقت سابق تلميذا لهيغل الآراء المثالية لاسلافه وانتقل الى مواقع المادية . غير ان ماديته كانت ميتافيزيقية ، اى منافيـــة للجدلية ، ولم تكن تشمل الحياة الاجتماعية . لقد ظل فورباخ ، شأن اسلافه ، مثاليا فى فهم المجتمع والتاريـــخ البشرى . فعندما ارتقى الى ادراك جور المجتمع البرجوازى كان يرى المخرج لا فى التغيير العملى لهذا المجتمع ، لا فى النضال الثورى ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بل فى حب الانسان للانسان حبا عاما وشاملا . وكانت علة ذلك هى الصفة الانثروبولوجية لفلسفة فورباخ . اذ كان يركز اهتمامه على الانسان المجرد المنفرد الذى ترتهن آراؤه ورغباته ونواياه وغاياته بطبيعته البيولوجية ، وتعتبر واحدة بالنسبة لكل العصور والشعوب . وقد اعاق هذا فورباخ عن فهم الجوهر الاجتماعى للانسان ، ومنعه من ادراك ان بالامكان تحرير الانسان وتحقيق انتصار العدالة الاجتماعية لا عن طريق تغيير طبيعته ، بل عن طريق التحويلات الاجتماعية الجذرية .

٢٠ .

الممهدات الفلسفية والاجتماعية والعلمية للفلسفة الماركسية .

ظهرت الفلسفة الماركسية فى النصف الاول من القرن التاسع عشر . وكانت عملية ظهورها وتطورها قد اعد لها وقيضها مجمل سير الحياة الاجتماعية . **اما مجموع الظروف التى ادت الى وضع التعليم الفلسفى الجديد فقد جرت العادة على تسميته بممهدات هذا التعليم .**

كانت اهم ممهدة اجتماعية لظهور الفلسفة الماركسية هى نمو الطبقة العاملة الصناعية الذى اقترن بنمو ثوريتها . ففى ثلاثينات واربعينات القرن الماضى اظهرت النضالات الثورية للطبقة العاملة فى اكثر بلدان اوربا الرأسمالية تطورا ان هذه الطبقة تتقدم بثقة الى مقدمة مسرح التاريخ العالمى . وكانت الطبقة العاملة فى ظروف الرأسمالية الصناعية الصاعدة هى القوة الاجتماعية الاكثر تلاحما وتنظيما . وكان هذا يرتبط بنفس طابع الانتاج الصناعى الذى نظم ورص صفوف جماهير كبيرة من الكادحين . وبخلاف سائر الطبقات الخاضعة للاستغلال تنفرد **الطبقة العاملة برسالة تاريخية** خاصة . فالعبيد واقنان القرون الوسطى وحرفيو الورشات لم يضعوا امام اعينهم قط ، خلال نضالهم ضد الاضطهاد والاستغلال ، هدف القضاء على الاستغلال عموما واقامة المجتمع اللاطبقى . كما لم تكن لمثل هذه المطالب ظروف تاريخية موضوعية . وعلى العكس ، فان الطبقة العاملة ملزمة — من اجل تحرير نفسها — بالقضاء على استغلال الانسان للانسان وتحرير كل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكادحين وكل البشر من تسلط الاقلية ومن الجور الاجتماعى والاقتصادى والاضطهاد السياسى . ولاجل ذلك يتـوجب عليها **ان تغير كل العلاقات الاجتماعية تغييرا جذريا** . فما بذل فى الماضى من محاولات تغيير العالم قد منى بالفشل لانـه كان ينطلق من السعى بالدرجة الاولى الى تغيير الوعـى الاجتماعى والافكار واخلاقية البشر . اما حركة البروليتاريين الثورية فقد طرحت موضوعيا مهمة وضع ايديولوجيا وعقيدة من شأنهما ان توجها الانظار الى اولوية تغيير الوجود الاجتماعى والعلاقات الاقتصادية الاجتماعية . لهذا كانت رسالة الطبقة العاملة التاريخية بحد ذاتها تقتضى باصرار وضع فهم مادى للتاريخ ، وفهم جديد لاهداف الفلسفـة كمنهجية (٠٠٤) لتحويل المجتمع ثوريا . بعبارة اخرى ، انها افضت الـى ضرورة توحيد العقيدة المادية بالايديولوجيا الثورية والمنهج الجدلى للمعرفة والنشاط .

وكانت الممهدة الثانية ترتبط بخصائص تطور العلم فى اواسط النصف الثانى من القرن التاسع عشر . فقد كان العلم فى القرنين السابع عشر والثامن عشر مفعما بروح النزعـة الميكانيكية (٠١٩) . وشهد القرن التاسع عشر اكتشافـات عظيمة افضت الى ادراك ان كل الظواهر فى الطبيعة ، كما فى المجتمع ، مترابطة وهى تتطور تطورا لا يتوقف ينشأ خلاله الجديد بأستمرار ويفنى القديم . اما اكتشاف حقيقـة ان اجسام الكائنات الحية تتألف من خلايا مجهرية فقد اظهر وحدة الانسان وبنيته مع الطبيعة الحية بأسرها خلافا لما جاء بـه الكتاب المقدس ولاهوتية القرون الوسطى . واثبت اكتشاف قانون حفظ الطاقة والبرهنة عليه تجريبيا ان حركة المـادة سرمدية وغير قابلة للفناء : فبعض اشكال الحركة والطاقة قد تتحول الى سواها ، لكنها لا يمكن ان تفنى . وقـد اثبت هذا ، من جهة ، وحدة العالم المادية ، كما اثبت ، من جهـة اخرى ، تنوع اشكال وجوده وحركته . واظهر اكتشاف نظرية الارتقاء البيولوجى على يد داروين ان مصدر تطور الطبيعة الحية هو الصراع الدائر بين الانواع وداخل النوع الواحد . وافضى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا الى الفكرة القائلة بان التطور ، ايا كان ، يجرى لا بحكم دافع خارجى ، بل فى نتيجة حل التناقضات الداخلية . ولم تعد المادية الميتافيزيقية والميكانيكية القديمة تناسب المعطيات العلمية الجديدة . وبات العلم يتطلب باصرار الجمع بين المادية ومنهج المعرفة الجدلى . واظهر اكتشاف مندلييف لجدول قانون العناصر الكيميائية ان مفعول قوانين التطور الجدلى العامة يسرى فى العالم اللاعضوى ايضا ، فاضفى بذلك طابعا علميا عاما على هذا المطلب .

والممهدة الثالثة تسمى ، عادة ، بالممهدة الفلسفية . ومجمل القول ان الظروف اللازمة لظهور فلسفة المادية الجدلية قد تهيأت فى غضون تطور التعاليم الفلسفية السالفة بحد ذاته .

لقد جرى فى مؤلفات هيغل واسلافه وضع منهج المعرفة الجدلى . وهذا هو ما يحدد الاسهام الكبير لجدلية هيغل فى التحضير الفكرى للفلسفة الماركسية . بيد ان جدليته كانت تعانى ثلاثة نواقص كبيرة : ١ - انها كانت تقوم على اساس من المثالية ، اى انها لم تكن تركز سوى على دراسة تطور اشكال الفكر ، ٢ - انها كانت تعتبر المادة سلبية ، وبالتالى كانت تنكر التطور فى الطبيعة ، مما يناقض اكتشافات العلم الحديث ، ٣ - انها كانت تزعم ان التطور الاجتماعى لم يجر الا فى الماضى ، وانه قد اكتمل فى الدولة البرجوازية الالمانية ، حيث بلغ المجتمع البرجوازى درجة الكمال ، وبالتالى ليس من الممكن حدوث تطور لاحق واقامة المجتمع اللاطبقى الاكثر عدالة .

وكما اسلفنا فان فورباخ قد نبذ المثالية الهيغلية ، لكنه نبذ مع المثالية الجدلية ايضا . لهذا كانت ماديته ميتافيزيقية ، تنتقص من دور الصراع الطبقى والتناقضات الاجتماعية كونها مصدرا للتطور ، ولم تكن تشمل فهم الحياة الاجتماعية .

ولكن جدلية هيغل ومادية فورباخ ، على الرغم من محدوديتهما التاريخية ، كانتا من اكبر منجزات الفلسفة ما قبل الماركسية ، وقد انتفع منهما ماركس وانجلس فى وضع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فلسفتهما الثورية الجديدة . وبطبيعة الحال ، كان من غير الجائز اخذ جدلية هيغل المثالية ومادية فورباخ الميتافيزيقية بشكل جاهز ، وجمعهما بشكل ميكانيكي وساذج ، واستخدامهما في معالجة المسائل الاجتماعية الجديدة المتعلقة بالتغيير الثوري للمجتمع . كانت جدلية هيغل ، على حد تعبير ماركس ، تقف على رأسها ، لذا اقتضى الامر قلبها رأسا على عقب . وكانت مادية فورباخ محدودة وغير ثابتة ، لذا كانت تقتضي هي الاخرى تحويلا جذريا . ومن خلال اكتشاف البذرة العقلانية والعناصر التقدمية في مؤلفات هذين المفكرين ، كذلك من خلال تعميم احدث منجزات العلم والتحليل الدقيق لدروس الحركة العمالية الثورية تمكن ماركس وانجلس من وضع ايديولوجيا جديدة وعقيدة جديدة مبدئيا وفلسفة تعللهما هي فلسفة المادية الجدلية .

٢١ .

ظهور المادية الجدلية انقلاب جذري في تطور الفلسفة . كان ظهور المادية الجدلية انقلابا جذريا في تاريخ الفلسفة . ويتلخص جوهر هذا الانقلاب فيما يلي :

١ – لاول مرة في تاريخ الفلسفة جرى ربط المادية الفلسفية الواعية بالجدلية الموضوعة بشكل علمي . فالتعليم الفلسفي الجديد ، اذ يعطي جوابا ماديا عن المسألة الاساسية للفلسفة ، انما يقتضي تناول كل الاحداث والاشياء والعمليات الجارية في الطبيعة والمجتمع والفكر من خلال تطورها وحركتها وترابطها وتحولاتها المتبادلة . وهو يؤكد ضرورة التعمق في دراسة قوانين نشوء كل ما هو جديد ، ومصادر التطور وسبل حل التناقضات الداخلية في الظواهر موضوعة البحث .

٢ – جرى لاول مرة تعميم المادية لتشمل فهم حياة المجتمع والعملية التاريخية . فالفهم المادي للتاريخ نتيجة ثورية حقا لنشوء وتطور الفلسفة الماركسية .

٣ – من خلال الاقرار بامكانية معرفة العالم اظهرت المادية الجدلية لاول مرة ان اساس ومعيار ومصدر المعرفة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العلمية الصحيحة هو بالدرجة الاولى نشاط البشر الانتاجي الاجتماعى ، اى الممارسة .

٤ — بخلاف التعاليم والمدارس والاتجاهات الفلسفية الاخرى لا تقتصر المادية الجدلية على تفسير العالم ، بل ترى مهمتها الرئيسة فى وضع اصول وسنن تحويله ثوريا بالاستناد الى العدالة الاجتماعية ومساواة وحرية البشر كافة .

٥ — تعتبر المادية الجدلية نفسها جزءا من الماركسية اللينينية واساسا للايديولوجيا البروليتارية والعقيدة العلمية ، وهى تعلن وتدافع صراحة عن مبدأ التحزب فى الفلسفة (١٤٠) ، وتقر بعدم تهادن المثالية والمادية .

٦ — تبنى المادية الجدلية كل استنتاجاتها وبراهينها على اساس من منجزات العلم الطليعى المعاصر .

٧ — اذ تجمع المادية الجدلية فى صلبها الصفة العلمية والثورية ، تقوم بوضع الاصول النظرية والمنهجية للشيوعية العلمية ، وتعتبر اداة مهمة فى الصراع الايديولوجى وانماء الثقافة الروحية للمجتمع الاشتراكى ، وتساعد بشتى السبل على تطوير ممارسة البناء الاشتراكى .

الى جانب ذلك لا تعتبر المادية الجدلية تعليما طائفيا ضيقا . فقد اكد لينين مرارا ان الماركسية لم تنشأ بمعزل عن الطريق العام لتطور الحضارة العالمية . ان الفلسفة الماركسية هى امتداد مباشر لاكثر تعاليم الماضى تقدمية . فالمادية الجدلية اذ تعالج نقديا منجزات الفكر الفلسفى السالف ، انما تستوعب كل ما هو قيم وضرورى ومفيد لحل اعقد مسائل العصر ، وهى بهذا المعنى تصون وتطور افضل منجزات وتقاليد ثقافة الماضى ، وتسعى الى ربطها بثقافة عصرنا الاشتراكية التقدمية .

٢٢ .

المرحلة الجديدة من تطور الفلسفة الماركسية . فى اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ، حين انتقلت الرأسمالية الى مرحلتها الاخيرة — مرحلة الامبريالية المقترنة بالنزاعات الاجتماعية الملتهبة ، وبانهيار منظومة الرأسمالية

الموحدة ، وبالثورات الاشتراكية وظهور الدول الاشتراكية ، حلت ايضا مرحلة جديدة فى تطور المادية الجدلية . وقد جرى التحضير لها ايضا بفعل الاكتشافات الثورية الجديدة فى العلوم الطبيعية : اكتشاف النشاط الاشعاعى الطبيعى ، وقابلية الذرة للانشطار ، ووضع النظرية النسبية وميكانيك الكمّ وما الى ذلك . وترتبط هذه المرحلة ارتباطا وثيقا بالنشاط الفلسفى العلمى والثورى الذى مارسه لينين وانصاره واتباعه ، ولذا فهى تسمى بالمرحلة اللينينية .

كان النضال من اجل قضية الطبقة العاملة والتحويل الاشتراكى للمجتمع ، الرامى الى بناء الاشتراكية والشيوعية يشغل مكانة مركزية فى حياة لينين ونشاطه . ولينين هو مؤسس الحزب الشيوعى ، الحزب الثورى الجديد الطراز ، ومؤسس اول دولة اشتراكية فى العالم . وكان قد اشرف على منابع المجتمع الاشتراكى الجديد ، كما كان اكبر شخصية سياسية وابرز مفكر اجتماعى فى عصرنا . وكانت ابرز واهم سمة لمجمل نشاطه هى موقفه الابداعى من حل المعضلات التى كانت تمثل امام الحزب والدولة ، ذلك الموقف الذى تجسد بالدرجة الاولى فى قدرته على رصد كل ما هو جديد واسناده فى محاربة قوى الرجعية ، وفى سعيه الدائم الى ربط النظرية بمهام الحياة العملية والاقتصادية والسياسية ، وفى فهمه العميق لمصالح الشعب الجذرية . وتجلت هذه السمات بحجمها الكامل ايضا فى نشاطه المتعلق بمواصلة وضع وتطوير الفلسفة الماركسية .

لقد خاض لينين صراعا لا هوادة فيه مع المثالية الذاتية واللاأدرية . فقد حاول هذان الاتجاهان فى الفكر الفلسفى استغلال الثورة التى شهدتها العلوم الطبيعية فى تخوم القرنين ١٩ - ٢٠ لتوطيد مواقعهما عن طريق التأويل غير الصحيح والتفسير الوحيد الجانب لمنجزات الفيزياء . وقد صاغ لينين صياغة دقيقة مبدأ التحزب (٠١٤) واشار الى ان اتحاد الفلاسفة الماديين مع علماء الطبيعيات التجريبيين وعلماء الاختصاصات الاخرى هو وحده الذى يستطيع - من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جهة - ضمان التعليل والتطوير اللازم لنظريـــة الانعكاس (١١٨) والجدلية ، ومن جهة اخرى يستطيع تسليح العلـم بعقيدة مادية راسخة وعميقة . وكان لينين يؤكد باصرار ان العلم الفلسفى عن الفكر والبراهين وعن منهج المعرفة ، اى المنطق ، يجب فى ظروف العالم المعاصر المعقدة والسريعـة التغير ان يتحد مع الجدلية ونظرية المعرفة المادية ، اى ان يغدو منطقا جدليا .

واسهم لينين اسهاما مهما للغاية فى التعليم المتعلـق بالفهم المادى للمجتمع والتاريخ . فقد ابان الطابع المنطقى والمشروع لانتصار الثورة الاشتراكية فى روسيا ، وعلـل ضرورة دكتاتوريـــة البروليتاريا خلال الفترة الانتقالية مـن الرأسمالية الى الاشتراكية ، وقدم تعليلا فلسفيا لاشكـال كيان الدولة الاشتراكية الجديدة .

وفى الصراع مع الشعبية الرجعية (النارودنيتشيستفو) ، ومع التحريفيين والاصلاحيين دافع لينين عن التعليم المتعلق بالتشكيلات الاقتصادية الاجتماعية ، وبالعملية المنطقيـــة لتعاقب مراحل تطور المجتمع ، وطور هذا التعليم ورفعه الى مستوى جديد .

وفى الصراع مـع الانتهازية فى الحركة العمالية كـــان لينين يربط باستمـرار معالجة القضايا الفلسفية بمهمـــات الممارسة الثورية . وقد اشار خلال ذلك مرارا الى ان انفصال النظرية الفلسفية عن الممارسة يؤدى بالحتم الى النزعـــة الكلامية والدوغمائية وتشويه الماركسية . وفى السنـــوات الاولى لبناء الاشتراكية فى روسيا قام لينين ، عن طريـق تعميم الخبرة الثرة للجماهير الشعبية والحركة الثوريـــــة والعمالية العالمية ، بوضع تعليم جدلى عن تنوع اشكـــال الثورة الاشتراكية بالاستناد الى السنن الموضوعية العامة للتطور الاجتماعى . وكان يؤكد باستمرار اهمية وضـــــع الاصول الفلسفية والنظرية العامة لنشوء الوعى الاشتراكى والشيوعى والتربية الشيوعية للكادحين وتنشئة الانســـان الجديد . فالاهتمام العميق بقضية الانسان وتطوره الشامـل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتوفير الظروف المادية والروحية المناسبة لذلك هو الذى يجعل اللينينية ذروة للنزعة الانسانية .

ولا تزال المرحلة اللينينية مـــن تطور المادية الجدلية مستمرة حتى هذا اليوم . فاللينينية المعاصرة هي اسمى انجاز للماركسية . ويتلخص تفرد اللينينية العميق ومغزاها التاريخى العالمى فى كونها ترتبط اوثق ارتباط بحل المهمات التطبيقية الملموسة التى تطرحها الحياة . ويعزى اليها بالدرجة الاولى : تطوير المجتمع الاشتراكى والنضال من اجل الســـلام ودرء الكارثة النووية ، ومن اجل انماء وتعميق العملية الثوريـــة العالمية ، وما الى ذلك . وتتسم المرحلة اللينينية من تطور الفلسفة الماركسية بالمعالجة النشيطة والمكثفة للاصـــول المنهجية التى تخص حل ما تطرحه الحياة من معضلات تطبيقية ، وبتعليل ضرورة التفكيـر الجديد بالنسبة لحل المشكـــلات الدولية وتنفيذ المهام الاجتماعية التى تطرحها المرحلة الراهنة من تطور البشرية .

ولماركسيى البلدان الاخرى دور ملحوظ فى مواصلـة انماء الفلسفة الاجتماعية للماركسية والفهم المادى للتاريخ ، وفى تطوير المنهج الجدلى . ففى عقدى العشرينات والثلاثينات نشأ فى اوربا الغربية وضع اقتضى استخداما ابداعيا للجدلية فى سبيل فهم اعمق لآفاق الحركة العمالية وتعليل استراتيجية وتكتيك الاحزاب الشيوعية والعمالية . وثمة اسهام كبير فى تطبيق هذه المهمات لانطونيو غرامشى الذى كان يشيـــد بمؤلفات لينين ويدرس بانتباه تجربة الثورة الاشتراكية فى روسيا . فالمفهوم الذى طرحه بشأن نضال الطبقة العاملـة الموقعى ، وضرورة الرد المرن والجدلى على الموقف الجديـد داخل البلدان الرأسمالية المتطورة فى اوربا الغربيـة ، لا يزال يحتفظ بأهميته حتى ايامنا هذه ويؤثر تأثيرا ملحوظا فى معالجة احكام النظرية الماركسية فى المرحلة الراهنة .

لقد دشن تطور المجتمع السوفييتى فى الوقت الراهـن مرحلة خاصة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ العالمى . فبعد اعمار الاقتصاد الوطنى الذى الحقت به الحرب العالمية الثانية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اضرارا جسيمة شرع الاتحاد السوفييتي فى مسيرة اقتصادية واجتماعية سريعة مطورا قواه المنتجة ومؤمنا ازدهار العلم والثقافة . بيد ان وتائـر التنمية الاقتصادية والاجتماعيـة والثقافية انخفضت منذ اواسط السبعينات انخفاضا ملحوظا وارتسمت بوادر نزعات الركود السلبية فى حياة المجتمع . واصاب الوهن نشاط العديد من المؤسسات الديمقراطيـة وتقلص نشاط الكادحين الابداعى .

يعلم التاريخ بان انخفاض وتائر التنمية الاجتماعية وتعوق التقدم ، ناهيك عن الركود فى ميدان الانتاج المادى والحياة الروحية كانا يفضيان عاجلا او آجلا الى كوارث اجتماعيـة محتومة لم يتسن تفاديها لا لمجتمع العبودية القديـم ولا للمجتمع الاقطاعى فى القرون الوسطى ولا للمجتمع الرأسمالى.

بيد ان الخاصية المميزة للاشتراكية بأعتبارها نظامـا اجتماعيا جديدا تتمثـل بالذات فى انها تخلو من القـوى الاجتماعية التى يمكن ، بحكم وضعها الموضوعى وفى سبيل الاحتفاظ بسلطتها السياسية ، ان تكون معنية بتعويق التقدم العلمى التقنى والاجتماعى ، وباضعاف الديمقراطيـة وخفض مستوى العلنية (الغلاسنوست) واعلام المجتمـع . فالعكس بالضبط هو الصحيح . ان المجتمع السوفييتى معنى بالتنمية السريعة والشاملة ، وهذا يتطلب تخطى نزعات الركـود وتطبيق التغيير الجذرى (البيريسترويكا) فى الاقتصاد والحياة الاجتماعية ، وبث طاقات وقوى جديدة فى الديمقراطيـة الاشتراكية ، والتعرض بالنقد الشديد للنواقص والاخطـاء والهفوات الذاتية وتخطيها وايجاد السبيل الاكثر فاعليـة واستقامة لازالة الصعاب القائمة وتسريع التنمية الاقتصادية الاجتماعية .

لأجل تنفيذ كل هذه المهام يجب القاء نظرة جديدة على دور الانسان والعامل البشرى فى الحياة الاجتماعية المعاصرة ، وفى تطور التقنية وادارة شؤون الدولة . وتقتضى الضرورة التعمق فى فهم حوافز نشاط الوعى البشرى ، وكيفية تخطى النزوع المحافظ ، وما الذى ينبغى القيام به كى يتسنـى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للمجتمع الاشتراكى ، بخلاف سائر الانظمة الاجتماعية ، تأمين تحقيق العدالة الاجتماعية فى ظل التقدم الاقتصادى الاجتماعى السريع ، وضمان ازدهار وتعمق الديمقراطية وتأمين الحرية الحقيقية وظروف الحياة اللائقة بكل فرد .

ان تطبيق كل هذه المهام يتطلب اجراء بيريسترويكا خاصة ، عميقة ، ثورية من حيث الجوهر ، وهى بدورها امر يتعذر القيام به من دون ادراك فلسفى عميق لموقف الانسان المعاصر من عالم اليوم السريع التغير ، ومن دون وضع منهجية جديدة للتحويلات الثورية العميقة ، ومن غير استيعاء لصلة الاحكام المتعلقة بالقيم والمبادئ الخلقية بالظروف الموضوعية وسنن تطور المجتمع التاريخية . وهذا ما يفسر لماذا يتنامى فى الظروف الراهنة بشكل خاص الاهتمام بالفلسفة التى يطلب منها ارتباط اوثق بالحياة وتغلغل اعمق فى الواقع الاجتماعى ، فى جوهر الوجود والوعى الفردى والاجتماعى . لهذا السبب بالذات لا يسمح بانفصال الفلسفة عن الحياة ، ولهذا ايضا نرى الزعماء السياسيين للمجتمع السوفييتى وقادة الحزب يعودون مجددا ، فى اثناء مناقشة القضايا الاجتماعية والسياسية البالغة التعقيد ، وفى اثناء اتخاذهم لاهم القرارات ، وقيامهم بوضع الاستراتيجية الجديدة للتسريع الاقتصادى الاجتماعى واستراتيجية النضال من اجل السلام ونزع السلاح والوجود السلمى للبشرية ، الى اصول العقيدة الماركسية اللينينية ، والى افكار ومبادئ الفلسفة السياسية الاجتماعية . وهم يؤكدون ضرورة تطويرها بشكل ابداعى وربطها الوثيق بمستلزمات العصر باصعب ما فيه من معضلات صعبة وملتهبة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الاول

المادة والوعى

سوف نباشر بشرح اصـــول الفلسفة الماركسيـــة اللينينية من مناقشة الجانب الاول للمسألة الاساسية فـــى الفلسفة (٠٠٧ ، ٠٠٨) . وهذا يقتضى أن نتناول بالتفصيـل أهم المفاهيم الفلسفية : «المـــادة» و«الوعى» ، «الحركة» ، «الزمان» ، «المكان» وغيرها .

المادة ولوحة العالم

١٠١

المفهوم والمقولة . عندما يناقش الناس احداثا ما من الحياة الشخصية او الاجتماعية ، وعندما يتأملون هذه او تلك مـن القضايا ، انما يعبرون عن نواياهم ورغباتهم وافكارهـــــم بواسطة المفاهيم . ونحن نستعمل فى حياتنا مقاهيم مثـــل «طفـل» و«شقة» و«متجر» و«حذاء» و«تلفزيون» وما الى ذلك . وفى حقل الانتاج تستخدم مفاهيم مثل «الماكنة» ، «انتاجيـــة العمل» ، «المنتوج» وهلمجرا . وهناك مفاهيم علمية خاصة مثل «الالكترون» و«التفاعل الكيميائى» وغير ذلك .

ويجرى التعبير عن كل مفهوم بواسطة مفردة او مجموعة مفردات تدلل على هذه او تلك من الاشياء والعمليات فـــى العالم المحيط بنا . وهذه الاشياء والعمليات تشكـل مدلول المفهوم . اما تلك المعالم التى تصف أهم وابرز سمات هذه الاشياء والظواهر ، والتى نستطيع بواسطتها أن نميزها عن سواها من الظواهر فتشكل مغزى المفاهيم . فمدلـول مفهوم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«الانسان» هو كل مجموع البشر الاحياء ، اما مغزاه فيعبر عنه بالعبارة التالية : كائن اجتماعـــى عاقل ، قادر على انتاج ادوات العمل والاشياء المختلفة بواسطة ادوات عمل أخرى .

وتستخدم الفلسفة كذلك مفاهيم خـــاصة بها تسمـــى **بالمقولات الفلسفية أو بمجرد المقولات** .ويتمثـــــل فارق المقولات الرئيسى عن سائر المفاهيم العلمية ، مثلما عـــن سائر مفاهيم الحياة العادية ، فى أن للمقولات مدلولا واسعا للغاية . فالمقولات الفلسفية تعزى الى كل ظواهر العالـــم المحيط بنا . وبما أن **المقولات من حيث مدلولها تعتبـــر المفاهيم الاوسع والاشمل والاعم التى تعبر عن الشروط العامة لوجود وحركة وتطور الظواهر فى الطبيعة والمجتمع والفكر** ، فأن على جميع العلوم الخاصة التى تبحث فى ميادينها الخاصة أو فى اقسام معينة مـــن الطبيعة او الحياة الاجتماعية او النشاط الفكرى أن تعتمد عند وضع مفاهيمها الخاصة على المقولات الفلسفية . وهذا ما يفسر لماذا تستطيع الفلسفـــة أداء دور المنهجية العامة للمعرفة والنشاط (٠٠٤) .

واذا لم يجر تعريف هذه او تلك من المفاهيم بشكـــل دقيق ، أو أذا جرى تعريفها بشكل ضيق جدا أو واســـع جدا ، واذا كان مغزاها فضفاضا او مبهما ، فلا يمكن ايضـا تعيين مدلولها . ومن غير الجائز استخدام مثل هذه المفاهيم فى النشاط العلمى والتطبيقى والاجتماعى ، لأن هذا سيؤدى الى حدوث بلبلة واخطاء . لذا فأن الفهم العميق والصائـــب للفلسفة نفسها ، وبالدرجة الاولى المادية الجديدة ، يتطلب قبل كل شيء تحديد وتدقيق مقولاتها . أن اهم واوسع هذه المقولات هى «المادة» و«الوعـــى» اللذان تتكون وتحـــل بمساعدتهما المسألة الاساسية للفلسفة .

١٠٢

ما هى المادة ؟ ما هو مدلول مفهوم او مقولة «المادة» وما هو مغزاه الفلسفى ؟

أن الانسان محاط بجم غفير مـــن الاشياء والعمليات المختلفة : الحيوانات والنباتـــات ، المكائـــن والادوات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المختلفة ، المركبات الكيميائية ، نتاجات الفن ، ظواهـــــر الطبيعة ، الخ . ونحن نعلم أن جميع الاشياء تتكون مـــــن . جزيئات وذرات ، ويعلمنا علم الفلـــك المعاصر بأن الكون المرئى يتألف من مليارات النجوم والمجرات والسدم . وقد يبدو كل ذلك للوهلـــة الاولى تراكما زاهيـــا من الاشياء والظواهر غير المترابطة فيما بينها . لهذا لا يندر أن يبدو العالم للبشر ضربا من الفوضى وتشابكا من الاشياء والظواهر الطارئة يتراءى الانسان بينها ذرة رمــــل ضائعة فى هذا العالم . بيد أن لجميع الاشياء والظواهر ، رغم كل تنوعها ، سمة مميزة عامة هى **انها موجودة خارج وعى الانسان وبصورة مستقلة عنه** . بعبارة اخرى ، أن الاشياء والعمليات المحيطة بنا هى عبارة عن واقع موضوعى .

على هذا النحو ينبغى تمييز الواقع الموضوعى الموجود خارج الانسان وبصورة مستقلة عنه ، خارج وعيه ، والمقولة الفلسفية المناسبة له ، أى المفهوم الخاص الذى يعكس ويدلل على هذا الواقع . ولا يجوز الخلط بينهمـــا ، مثلما لا يجوز الخلط بين السيارة الفعلية ومفهـــوم «السيارة» . فالسيارة الفعلية يمكن التنقل بها ، اما المفهوم الذى فى عقل الانسان فلا يمكن التنقل به .

كان وضع التعريف العلمى حقا لمقولة «المادة» الفلسفية انجازا فذا للمادية الجدلية . وهذا هو التعريف الذى اعطاه لينين : «المادة مقولة فلسفية تدل على الواقع الموضوعـــى المعطى للانسان فى احاسيسه ، والـــذى ينتسخ ، يتصور وينعكس فى احاسيسنا ، مع انه موجود بصورة مستقلـــة عنها» * . ويستدل من هذا التعريف : ١ — أن مدلول مقولة «المادة» يشكل كل العالـــم المحيط بالانسان ، أى كل ما لا يعتبر وعيا ويقع خارجه ؛ ٢ — أن مغزى هذه المقولـــة يتلخص فى أن السمة الاساسية الوحيدة والاكثر اهمية لاى شىء مادى أو خاصية او علاقـــة او عملية هى سمتهـــا

---

* لينين . المجلد ١٨ ، ص ١٣١ .

الموضوعية واستقلاليتها عن الوعى ؛ ٣ – أن مقولة «المادة» يمكن استخدامها لا فيما يتعلق بظواهر الطبيعة فحسب ، بل وفيما يتعلق بالمجتمع والعمليات الاجتماعية والعلاقات الجارية والموجودة خارج وعى الانسان وبصورة مستقلة عنه ؛ ٤ – أن كل الظواهر والعمليات المادية يدركها الانسان أو تنعكس فى وعيه على اساس احاسيسه وتلقيه الحسى . والمقصود هنا ليس فقط تلك الاشياء والظواهر التى يمكن تلقيها بصورة مباشرة ، أى عن طريق حاسة السمع أو البصر او اللمس أو الشم ، بل وتلك التى تستخدم لاجل تلقيها اعقد الاجهزة العصرية كالتلسكوب والميكروسكوب والرادار وغيرها من الاجهزة التى تبدو وكأنها تزيد من قوة حواس الانسان .

ان المثالية الذاتية تنكر عموما وجود العالم المادى (٠٠٩) . اما بخصوص المثالية الموضوعية فهى تقر بوجود المادة خارج الوعى البشرى وبصورة مستقلة عنه (٠٠٩) ، لكنها تدعى خلال ذلك أن المادة ثانوية ومشتقة نسبة الى الفكرة المطلقة ، الى الروح العالمى أو الفكرة الالهية التى خلقت العالم المادى . ويتلخص الفارق المبدئى بين الفهم المادى الجدلى للمادة عن الفهم المثالى فى أن الاول يقر بوجود المادة خارج الوعى البشرى وبصورة مستقلة عنه ، وبأنها سرمدية غير مخلوقة ، غير قابلة للفناء ولانهائية فى الزمان والمكان . ولهذا السبب بالذات يرتهن الوعى الذى لا يعتبر أزليا بالمادة ، فى حين لا ترتهن المادة بالوعى . وبهذا المعنى يكون الوعى ثانويا ومشتقا .

ولاجل أن نفهم مدى الاهمية الكبيرة التى تسم تعريف لينين للمادة ومدى كونه انجازا فذا فى تاريخ الفلسفة ينبغى لنا أن نقارنه بتلك التصورات عن المادة والعالم المادى التى كانت موجودة قبل ظهور المادية الجدلية .

١٠٣

كيف تطورت الآراء بشأن المادة . كان البشر منذ عهود سحيقة يعملون الفكر فى مسألة مم تتكون الاشياء المحيطة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بهم وهل لها أصل واحد . وكـــان أقدم فلاسفة تلك العهود (١٥٠) يشيدون تصوراتهم على تجربتهم وملاحظاتهم اليومية . فمـــن خلال ملاحظة أن الماء ضروري للحيوانات والبشر ، وأن البحر يحد سواحل اليابسة وأن المعصرة تعتصر سوائـل من الاعناب ، اعلـــن فاليس (حوالى ٦٢٥-٥٤٧ ق . م) أن الماء هو أصل الاشياء كافة . وذهـــب تلميذه اناكسيمين (زهاء ٥٨٨-٥٢٥ ق . م) الى أن اصلها هو الهواء . امـــا هيراقليطس الشهير (زهاء ٥٢٠-٤٦٠ ق . م) فقد رأى هذا الاصل متمثلا فى النار ، لأنه كان يعتقد بأن الشمس هـــى نار السماء . وفي وقت لاحق اضيف التراب الى هذه العناصر . وساد رأى مفاده أن كل الاشياء تتألـــف من هذه العناصر الاربعة . وهذه هى المادة . غير انها - فـى رأى أرسطو - سلبية ، عديمة الشكل ، وبالتالى لا بد من توفر قوة تضفى عليها الشكل ، مثل النحات الـــذى يصنع تمثالا من كتلة لا شكل لها من النحاس .

وكـــان لوقيبـــوس (حـــوالى ٥٠٠-٤٤٠ ق . م) وديموقريطس وتلميذهما ابيقـــور (٣٤١-٢٧٠ ق . م) يعتقدون بأن أصل العالم ذرات غير مرئية . ولكن من أيـن يعلم الناس بوجودها ؟ أن المعرفة الفلسفية تقوم عـــلى البراهين . لهذا كانت طروحات ديمقريطس الرامية الى اثبات فرضيته عن الذرات كما يلى : نحن عادة لا نرى دقائق الغبار فى هواء الغرفة . اما أذا قمنا بتعتيم الغرفة ، وذلك باسدال ستار ، تاركين شقا ضيقا ، فسوف يكون بمقدورنا أن نرى فى شعاع الشمس المتسرب الى الغرفة مليارات من دقائـــق الغبار المتحركة دون ايما دافع خارجى . وليس بالامكان ايضا أن نرى الذرات ، لكننا نستطيـــع تصورها بواسطة «البصر الذهنى» او العقل . انها موجودة منـــذ الازل ، ولها سمة لا تنفصل عنها هى الحركة المتواصلة بـــلا أنقطاع . بيد أن طروحات الفلاسفة القدماء هذه ظلت مجرد فرضية حتى حلول هذا القرن .

كانت فلسفة القرون الوسطى (١٦٠) تعتبر العالم المادى

منتوج خلق الهى ، وترى كل ما هـــو مادى وضيعا ومعفرا بالخطيئة ، وبالتالى لا يستحق الاهتمام .

ولم تصبح مسألة العالم المادى محط اهتمام الفلسفـــة من جديد الا مع تطور العلم فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . وبما أن الموضوع العلمى الرائد فى ذلك العهد هـــو الميكانيك ، فقد اصبحت النظرة الميكانيكية الى المادة هـــى السائدة . وكان الفيلسوف الفرنسى ديكارت (١٥٩٦–١٦٥٠) وعالم الفيزياء الانجليزى نيوتن (١٦٤٣–١٧٢٧) والعالـــم الروسى لومونوسوف (١٧١١–١٧٦٥) يـــرون اصل المادة متمثلا فى دقائق متحركة شبيهـــــة بكريات دقيقة صلبة . وبالنظر لكون الميكانيك يبحث فى تنقل وتفاعل مختلـــف الاجسام المتحركة بخطوط معينة فى المكان (الفضاء) ، فقـد جرت مماهاة تامة بين مفهـــوم «المادة» ومفهوم «الجسم» . وبما أن للجسم كتلة ثابتة وشكلا هندسيا ، ويتحرك بخطوط معينة ، وهو محدود فى المكان ، فقد اخذوا ينسبـون هذه الخصائص ايضا الى المادة كلها . وتلكم هى نظرة الماديـــة الميتافيزيقية والميكانيكية الى المادة فى القرنين ١٧–١٨ . وفى اواخر القرن التاسع عشر – اوائل القرن العشريـــن شهدت العلوم الطبيعية ، ولاسيما الفيزياء ، ثورة احدثـــت انقلابا فى فهم المادة . فقد جرى اكتشاف ظواهر جديدة تماما لم يكن للعلم سابق معرفة بها هى الحقول الفيزيائية . وفى الوقت الراهن اصبحنا نعرف الحقول الكهرمغناطيسية وحقول الجاذبية والحقول النووية وغيرها . وتسنى بمساعدتها تفسير الكثير من الظواهر التى كانـــت تبدو مبعثرة . فقد تبين ، مثلا ، أن الموجات اللاسلكيـــة والضوء المرئى ليست سوى سيول من الحقول الكهرمغناطيسية الحاوية لطاقات مختلفة ، وأن بعض الجزيئـــات كالنيترونات العديمة الشحنـــة والبروتونات المشحونة تحتفظ بوحدتها داخـــل نوى الذرات بفعل الحقول القوية التى تؤثر فى مسافات مجهرية القصر . وطاقة هذه الحقول هى التى تتحرر عند التفجيرات الذرية او عند العمليات النووية الخاضعة للتحكم والمستخدمة للاغراض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السلمية . وبفعل حقول الجاذبية يجرى تجاذب الكواكب والشمس وسائر الاجرام الارضية والسماوية .

وليس للحقول الفيزيائية كتلة سكون ، شأن جزيئات الاجسام ، وليس لها شكل هندسى ومقاسات نهائية ، كما أنها لا تتحرك على مسارات محددة . ولذا فهى لا تدخل ضمن مفهوم المادة الميكانيكى القديم . وبعد أن تم فى القرن العشرين اثبات ان الجزيئات البسيطة يمكن أن تتحول فى ظروف معينة الى حقول اخذ العديد من الفلاسفة المثاليين وبعض علماء الفيزياء الميالين الى المثالية الذاتية يدعون أن المادة تفنى وتتحول الى طاقة ، والطاقة فى رأيهم ليست مادية ، لانها غير متجسمة . وكان لينين قد أبان منذ مطلع هذا القرن ان المقصود فى الواقع هو ليس أن المادة تفنى ، بل هو أن مفهوم المادة الميتافيزيقى القديم بات ضيقا جدا . ذلك انه كان وثيق الارتباط بالتصور المحدود تاريخيا عن بنية العالم الفيزيائية . وبالنظر لكون مفهوم «المادة» قد جرت مماهاته بمفهوم «الجسم» ، فقد اعاق هذا ادراك أن الحقول الفيزيائية نوع خاص من انواع المادة . فعلى الرغم من خصائصها المدهشة ، توجد هذه الحقول ، شأنها شأن الذرات والجزيئات البسيطة ، خارج وعى الانسان وبصورة مستقلة عنه . وهذا بالذات هو الذى يعتبر السمة الوحيدة ، والحاسمة فى آن واحد ، التى تتيح الاجابة عن سؤال ما هو المادى وما غير المادى ، أى المثالى . فلعمود التلغراف كتلة ، وهو لا يمرر الضوء ، الخ . اما ظله فليس له كتلة ، ولا ينطبق عليه مفهوم قابلية تمرير الضوء . رغم ذلك يعتبر العمود وظله على السواء ماديين لانهما موجودان موضوعيا .

وكان مفهوما المادة الميتافيزيقى والميكانيكى محدودين ومغلوطين ايضا ، لانه لم يكن بالمقدور استخدامهما خارج حدود الميكانيك والفيزياء . فالمجتمع البشرى والعلاقات البشرية لا يمكن وصفهما بواسطة صفات كالكتلة والمسار والشكل الهندسى وانعدام قابلية تمرير الضوء وما الى ذلك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لهذا لم يكن بالمقدور سحب المفاهيم السالفة عن المادة والمادية السالفة على المجتمع والعمليات الاجتماعية ، وبالتالى لم تكن تسمح بتوفير فهم مادى للتاريخ . بينما المجتمع والحياة الاجتماعية هما اللذان يعنيان الانسان بالدرجة الاولى ، ولاسيما فى عصر التحويلات الثورية العظيمة ، عندما تبرز بحدة مسألة : مم يجب الشروع فيها : من العلاقات الاجتماعية المادية أم من ظواهر الحياة الروحية . لهذا السبب نجد التعريف اللينينى للمادة الذى يمكن استخدامه فيما يتعلق بظواهر الطبيعة والحياة الاجتماعية على السواء قد اكتسب فى عصرنا الراهن لا اهمية علمية وفلسفية فحسب ، بل وسياسية اجتماعية ايضا .

١٠٤

لوحة العالم العلمية المعاصرة . ترتبط التعاليم الفلسفية عن المادة ، كما نرى ، ارتباطا وثيقا بذلك المستوى من معرفة العالم ، الذى بلغه علم ذلك العصر . ومع تغير هذا المستوى فى نتيجة الاكتشافات الجديدة قد تتغير التصورات العلمية . وعندما اخذ المثاليون الذاتيون يتحدثون عن فناء المادة فى اواخر القرن التاسع عشر — اوائل القرن العشرين تحت تأثير الاكتشافات الثورية فى الفيزياء (اكتشاف النشاط الاشعاعى الطبيعى والاشعة السينية وقابلية الذرة للانشطار ، الخ .) ، أشار لينين معارضا لهم الى أن المادة لا تفنى ، بل يتغير ذلك الحد الذى بلغه البشر سابقا فى معرفتها .

أن كل عصر تاريخى يصوغ تبعا لمستوى تطور العلم تصوراته عن بنية العالم المادى ، وهى ما يسمى بالتصورات العلمية الطبيعية عن بنية المادة ، والتى تتكون منها **لوحة العالم** الاكثر عمومية . و«لوحة العالم» مقولة فلسفية مهمة يجرى بواسطتها تعليل عقيدة العصر المناسبة . وتفضى لوحة العالم المثالية التى تتمثل شخصيتها المركزية فى الرب ، خالق العالم ، الى العقيدة المثالية . اما لوحة العالم المادية التى تعتمد على منجزات العلم ، وبالدرجة الاولى الفيزياء ، فتعتبر المادة سرمدية لم تخلق وغير قابلة للفناء ، وهى

تنضى الى العقيدة المادية . فما هى لوحة العالم العلميـــــة المعاصرة ؟

ان العلم المعاصر يقسم كل الظواهر الى مستويين همـا المستوى الاصغر الذى تعزى اليه الذرات وما يسمى الدقائق البسيطة ، والمستوى الاكبر الذى تعزى اليه الجزيئات وما يتألف منها من اجسام اكبر . ولم تعد الفيزياء فى هذا العصر تبحث عن لبنات العقيدة الفائقة الدقة وغير القابلة للتجزئة فمنذ بداية القرن العشرين اكتشف أن الذرات تتألف مـــن نواة ودقائق فائقة الصغر هـــى الالكترونات . وقد شهدت العقود الاخيرة ما يؤكد ذلك فعليا . فعدا عـــن الالكترونات اكتشفت مئات من الدقائق البسيطـــة الاخرى كالنيترونات والبروتونات والنيترينو والهيبيرونات والميزونات وغيرها . ولبعض منها شحنـــة كهربائيـــة وليس لبعضها الآخر هـــذه الشحنة . وتختلف الدقائق فيما بينها بالحجم والكتلة ووجود أو غياب العزم الكهرمغناطيسى وهلمجرا . بعضها مستقـــر ويدوم مليارات السنين ، وبعضها يدوم لواحد بالمليار من الثانية ، وينشأ ويتهدم باستمرار . وقد طرحت فى السنوات الاخيرة فرضية يجرى التحقق منها بدقة مقادها أن الدقائق تتألف من كواركات ذات شحنة كهربائية متناهية فى الدقة . ونالت هذه الفرضية اليوم توكيـــدا تجريبيا جيدا . على هذا النحو تتعقد التصورات عن بنية المادة تعقدا لامتناهيا .

يؤدى اتحاد الذرات بمساعدة مختلف الحقـول والروابط الفيزيائية الى تشكل جزيئات مستقرة نسبيا . وتضم الجزيئات العضوية ، وبالدرجة الاولى الجزيئات البوليميرية العملاقـــة مئات ، بل وحتى الوفا من ذرات مختلف العناصر الفيزيائية ، ويمكن أن تكون كبيرة جدا . ويتألف من جزيئات مختلفة ما يحيط بنا من اجسام عالم الجماد وعالم الاحياء ، بما فى ذلك النباتات والحيوانات والانسان . واثبتت الابحاث التى تناولت القمر والزهرة والمريخ والكواكـــب الاخرى بواسطة الاقمار الصناعية اثباتا تاما أنها جميعا تتألف من اجسام تتألـــــف بدورها من جزيئات العناصر الكيميائيـــة التى تضمنها جدول

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مندلييف الشهير . ويـــــدل التحليل الطيفى لعوالم النجوم والسدم الاخرى على الوحدة الفيزيائية الكيميائية لبنية الكون المعروف لدينا بأكمله .

لقد وسع علم الفلك المعاصر من معلوماتنا عن العالـــم المحيط . ويضم الكون عددا عملاقا من النجوم والمجرات التى يضم كـل منها مليارات النجوم . وبظهـــور التلسكـوبات العصرية تسنى اثبات أن النجوم والمجرات يتناءى بعضها عن بعض بلا أنقطاع . ومع تطور التقنية الفلكية اصبحنا نعرف المزيد والمزيد عن أقصى اقاصى الكون ، مما يتيح الاعتقاد بأن الكون لامتناه عمليا .

والكون فى تطور مستمر . وليس ثمة مسوغات للظن ، كما يفعل بعض المثاليين ، بأن طاقة النجوم بأسرها سوف تستنفد عاجلا أو آجــلا ، فيحل أجـل الكون أى «موتـــه الحرارى» . وتعتمد فكرة موت الكـــون حراريا على القانون الثانى لعلم الحركة الحرارية والذى يفيد بأن الحرارة تنتقل من الاجسام الاكثر سخونـــة الى الاقل سخونة ، مما يؤدى الى توازن وسكون كل المنظومة . بيد أن هذا القانون فى الواقع لا يصح الا بالنسبـــــة للمنظومات المحدودة والمعزولـــة والمنغلقة على ذاتها ، ولا ينطبق على الكون عموما .

على هذا النحو نجد أن لوحة العالم الفيزيائية الفلكيـــــة بالغة التعقيد ، وبطبيعة الحال ، سوف تتغير وتتطور وتزداد تعقيدا مع ما سيظهر من اكتشافات فلكية وفيزيائية جديدة ، لكنها لا تدع مجالا لادنى شك فى الصفـــة المادية للعالم . وينبغى خلال ذلك أن ندرك بوضـــوح أن تصورات العلوم الطبيعية عن بنية العالم ولوحة العالم العامة القائمة على اساس هذه التصورات لا تطابق مفهوم المادة الفلسفى . فمقولـــة «المادة» تعبر عن الصفات العامـــة للواقع الموضوعى ، أى وجوده خارج الوعى وبصورة مستقلة عنه ، وهى لا تتغير مع كل اكتشاف جديد ، فى حين تظهر على لوحة العالم مع كـــل اكتشاف كهـــذا لمسات وتفصيلات جديـــدة ، وخصائص جديدة . ومقولتا «لوحة العالم» و«المادة» تترابطان ترابطـــا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وثيقا ويتمم بعضهما بعضا ، ولكن لا يجدر الخلط بينهما ، لانهما لا تؤديان الدور ذاته فى صياغة النظرة الى العالم ، أى العقيدة .

١٠٥

وحدة العالم المادية . عند تناول تطور وتغير لوحة العالم يمكننا بالاعتماد على التعريف اللينينى للمادة (١٠٢) أن نصوغ الاستنتاخ العقائدى والمنهجى المهم التالى : **الوحدة صفة ملازمة للعالم** . فما معنى هذا ؟ أنه يعنى قبل كل شيء أن بالامكان القول ، استنادا الى تصورات العلوم الطبيعية عن صفات الاشياء المحيطة بنا على الارض وخارج حدودها ، أى فى الكون ، أن لها جميعا بنيـة فيزيائية كيميائية واحدة . بعبارة اخرى أن كل الظواهر والعمليات المادية تتألف من جزيئات وذرات ودقائق بسيطة والانواع الاخرى من مكونات المادة ، وكذلك من شتى انواع الحقول الفيزيائية . ويترتب على ذلك أن كل الظواهر المادية يمكن للانسان أن يدرسها ويصفها ويدركها بالاستناد الى العلم والتجربة والتطبيق دون اللجوء الى ايما مرتكزات مثالية أو قوى خفية أو خارقة .

أن العقيدة المسيحية تقول هى الاخرى بأن العالم واحد ، غير انها ترى وحدة العالم فى كونه من خلق الرب ، وفق فكرة اولية واحدة ليس متاحا للانسان أن يدركها . اما فى الواقع فأن **وحدة العالم الحقيقية تكمن فى صفته المادية** . وبناء على ذلك فأن العالم الموضوعى الواحد هو كل مترابط يتطور حسب قوانينه الذاتية . كان انسان العهود الماضية يعتبر العالم مستعصيا على المعرفة ومتسما بالفوضى والخفايا والغموض ، ذلك أنه كان ضعيفا فى مواجهة قوى الطبيعة العمياء . اما الانسان المعاصر ، المسلح باحدث المعدات والاجهزة والادوات التقنية العلمية ، فلم يعد يعتبر العالم متسما بالغموض والفوضى . فبامكان الانسان أن يعرف كنه العالم المادى ككل مترابط واحد ، وبمقدوره أن يتفاعل معه ويغيره .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٠٦

المنظومة ، البنية ، العنصر . حين نقـــول أن العالم المادى واحد ، انما نقصد بذلك أن جميع اجزائه – من الجماد الى الكائنات الحية ، ومن الاجرام السماوية الى المجتمع البشرى – مترابطة بهذا الشكل أو ذاك . **وكل ما يترابط فيما بينـــه بشكل معين ويخضع لقوانين معينة يسمى بالمنظومة .**

منذ اقدم العصور كان المفكرون يضعون مفهوم «الكل» او «المنظومة» نقيضا لمفهـــوم «الفوضى» او «العشوائية» . وتستخدم هذه المفاهيم على نطاق واسع جدا فى الحياة اليومية وفى التقنية والعلم على السواء . فاكوام الآجر وتلال الاسمنت والاخشاب فـــى مواقع البناء يمكـــن أن تكدس بصورة عشوائية . اما المبنى المشيد منها ، والذى ترتبط كل آجرة فيه ارتباطا متينا بسواها ، وكل عارضة تشغل مكانها المحدد بصرامة ، فلم يعد فوضى ، انما هو منظومة معينة . والمنظومة ايضا هى كل حيوان ، وكل اعضائه المترابطة والمتفاعلة فيما بينها ، والتى تؤمن نشاطه الحيوى فهى منظومات ثانوية ، أو اجزاء من جسم الكائن الحى . ولئن جرى فصم هذا الترابط وابطال هذا التفاعل ، فسوف يهلك الكائن الحى . والمنظومة كذلك نجدها متمثلة فى المصنع الكبير ، اما ورشاتـــــه وقطاعاته الانتاجية فهى منظومات ثانوية ، فى حين تشكـــل مكائن الانتاج والعمال عناصر منظومـــة المصنع . ولئن جرى تعطيل الاتصـــالات والعلاقات والتفالات بيـــن الورشـــات والقطاعات ، فســـوف يحدث انقطاع فى نشاط مجمـــل المنظومة . ويعتبر منظومة عملاقة معقدة كذلك كل المجتمـــع المعاصر ، ومنظوماته الثانوية هى الطبقات والفئات الاجتماعية المندرجة فى علاقات مختلفة كعلاقات الصراع الطبقى مثلا (فى ظل الرأسمالية) أو التعاون (فى ظل الاشتراكية) .

ويمكن أن تكون هناك علاقات وروابط وتفاعلات مختلفـة بين اجزاء هـــذه المنظومة ومنظوماتها الثانوية . **وتسمى العلاقات والروابط والتفاعلات المستقرة المتشابهة والوحيدة النمط بالبنية** . وبما أنه من المحتمل ان يكون هناك الكثير

من الروابط والعلاقات المختلفة داخل نفس المنظومة ، لاسيما اذا كانت كبيرة ومعقدة (مثلا ، داخل منظومة الاتصالات الهاتفية أو المواصلات أو المنظومة الاجتماعية ، الخ) ، فأن بالامكان أن نشخص فيها جملة كاملة من البنى . وتسمى مثل هذه المنظومات بالمتعددة البنى . على سبيل المثال ، يمكننا أن نشخص في جسم الحيوانات اللبونة بنية جهاز الهضم وبنية الجهاز العصبي وبنية الجهاز الحركي وهلمجرا .

والخلية «الاخيرة» من كل منظومة ، أي «الآجرة» غير القابلة للتجزئة هي العناصر . ولكل منظومة عناصرها . ومن الاهمية بمكان أن نفهم أن الظاهرة الجاري تناولها كعنصر ، أي كوحدة غير قابلة للتجزئة ، في منظومة ما ، يمكن في حالة تناول مغاير لها أن تغدو بحد ذاتها منظومة معقدة لها عناصرها . مثلا ، يمكن اعتبار ماكنة الانتاج عنصرا من منظومة المصنع ، وكل جزء من الماكنة نفسها عنصرا منها ، ولكن لا يجوز اعتباره عنصرا من عناصر المصنع . كذلك الحال بالنسبة للانسان ، فهو يعتبر عنصرا من المنظومة الاجتماعية . وعلى صعيد آخر ، عندما نتناول الانسان كمنظومة بامكاننا أن نعتبر اعضاء جسمه أو خلاياه عناصر له . ولكن من الخطأ الشديد اعتبار هذه الاعضاء او الخلايا عناصر للمجتمع .

لقد انتشرت مفاهيم «المنظومة» و«البنية» و«العنصر» انتشارا واسعا بصفة خاصة منذ اواسط هذا القرن . ومرد ذلك هو أن العلم والتقنية اصطدما بمعضلات تصميم مختلف المنظومات الهائلة التعقيد وبمشاكل التحكم بها . وتضم مثل هذه المنظومات احيانا مليارات العناصر ، وتتطلب دراستها والتحكم بها مناهج عصرية ومعقدة جدا . واتضح أن هذه المناهج قابلة للاستخدام لا في مجال التقنية فحسب ، بل اخذت تستخدم على نطاق واسع في مجال ادارة الانتاج ، والرحلات الفضائية ، والادارة العلمية لشؤون المجتمع ، ودراسة منظومات الاتصال وهلمجرا . واكتشف أن مفاهيم «المنظومة» و«البنية» و«العنصر» تعتبر واسعة جدا ، ومتعددة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاغراض عمليا ، مما يتيح عزوها الى عداد أهم المفاهيم العلمية العامة والمقولات الفلسفية .

أن العالم المادى عموما هو عبارة عن منظومة عملاقة خارقة التعقيد ، وهى فى تغير وحركة وتطور مستمر يخضع لبعض القوانين الموضوعية العامة . وهذه القوانين هى ما تدرسه الفلسفة ، ذلك أنها العلم الوحيد الذى يتناول علاقة الانسان بالعالم عموما (۰۰۷ ، ۰۱۳) . اما العلوم الاخرى فتبحث فى بعض من منظومات العالم الثانوية كالسدم النجمية والطبيعة الحية والمجتمع ، الخ ، وما يتحكم بها من قوانين . ولاجل تبيان ترابط ما تدرسه هذه العلوم من منظومات ثانوية فيما بينها وتحديد مكانها فى منظومة العالم ، يكون لزاما على هذه العلوم ان تعتمد على المعارف الفلسفية عن العالم والمادة وقوانينها . اما فهم ماهية القوانين الموضوعية ، اى القوانين التى تتحكم بتغير وحركة وتطور العالم المادى ككل متكامل ومنظوماته الثانوية المنفردة فيغدو على هذا النحو أهم شرط لمعرفة العالم علميا . وبغير ذلك لا يجوز ايضا تنظيم نشاط البشر الواعى . ولاجل فهم ما هو القانون ينبغى لنا أن ننظر فى اهم مقولات المادية الجدلية ، الا وهى «الضرورة» و«المصادفة» .

۱۰۷

الضرورة والمصادفة . أذا كان هبوب الريح القوية يقتلع بذور الهندباء البرية فسوف تنتشر هذه البذور باتجاهات مختلفة ، وليس بوسع احد أن يعرف بالضبط أين ستستقر . فى حالة كهذه يقولون أن مكان استقرارها كان محض مصادفة . فى الوقت ذاته يعتبر انتشار بذور الهندباء شرطا ضروريا لوجودها . ولو لم يحدث ذلك لانقرض هذا النوع من النبات . وبالامكان سوق عدد كبير من الامثلة المشابهة . وفى العالم المحيط بنا نستطيع بيسر أن نشخص **روابط وتفاعلات قصيرة الاجل ، واهية ، خارجية ، غير** مستقرة ، سريعة الاختفاء ، **ومن دونها تستطيع الظاهرة التى نرصدها أن تبقى وتتطور** . وهذه الروابط والتفاعلات هى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التى تسمى **بالطارئة أو وليدة المصادفة** . بيد ان فى كل منظومة ، وفى كل ظاهرة ، روابط وتفاعلات وعلاقات ، وعناصر ومنظومات ثانوية ، **لا تستطيع الظاهرة المعنية بدونها أن تبقى وتتطور** ، وهى تسمى **بالضرورية** .

أن مفهومى «الضرورة» و«المصادفة» مقولتان بالغتا الاهمية فى المادية الجدلية . وهما تسمان الصفات الموضوعية لكل المنظومات المادية . وبما أن فى العالم عددا لا نهاية له من المرصودات المتفاعلة المختلفة ، فليس صحيحا أن نقول ، كما يفعل العديد من المثاليين والميتافيزيقيين ، بوجود ضرورة ما واحدة لا غير . أن العدد الغفير من الضرورات المختلفة فى الطبيعة والمجتمع يتقاطع ويتفاعل باستمرار . وهذا التقاطع والتفاعل هو بالضبط ما يسفر عن المصادفة . وعليه فأن فصل «الضرورة» عن «المصادفة» ، ناهيك عن اعتبار احداهما نقيضا للاخرى ليس صحيحا ، وليس جدليا . فالمصادفة موضوعية وقائمة خارج وعى الانسان ، شأنها شأن الضرورة . وثمة صلة داخلية عميقة بين هاتين المقولتين . وفى سيرورة تطور وحركة المادة قد تتحول الضرورة والمصادفة احداهما الى أخرى ، وكأنهما تتبادلان بالاماكن . فما هو مصادفة فى علاقة ما وفى منظومة ما قد يغدو ضرورة فى علاقة اخرى وفى منظومة اخرى ، وبالعكس . على هذا النحو تشق الضرورة الطريق لنفسها دوما وتتجلى عبر المصادفة ، كما أن كل مصادفة تنطوى فى صلبها على قدر معين من الضرورة .

يفصل المنهج الميتافيزيقى بين عمليتى المصادفة والضرورة ويضع بعضها نقيضا للآخر . اما المنهج الجدلى فيؤكد استنادا الى العلم المعاصر أنه لا بد من دراسة ترابطهما . وهذا المنهج هو وحده الذى يتيح فهم ومعرفة كنه الطبيعة والمجتمع بشكل صائب .

لهذا ليس صحيحا الاعتقاد بأن العلم عدو المصادفة . فالعالم الذى يدرس بانتباه كل ظاهرة طارئة هو وحده القادر على اكتشاف الروابط الضرورية المستقرة والعميقة الكامنة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وراء ركام من المصادفات . ولتوضيح هذه الفكرة نسوق حوارا بين عالم ومعاونه يكشف عن التعامل العلمى حقا مع الظواهر وليدة المصادفة .

العالم (وهو يتفحص فى دورق شفاف سائلا غذائيا لتربية جراثيم الاستربتوكوك) : يخيل الى أن الدورق لم يغلق جيدا ، فتسرب اليه شيء ما .

المعاون : عفوا ، استاذ ، هذه محض مصادفة . سوف اصلح الخطأ .

العالم : انا أرى فى المحلول الاصفر بعض القطرات الفاتحة اللون . يبدو أن الجراثيم قد ماتت فيها .

المعاون : لنسكب هذا المحلول ، ونستبدل به غيره . فهذه القطرات مصادفة محضة .

العالم : ليست فى العالم ، يا صديقى ، مصادفات محضة . ينبغى فحص هذه القطرات تحت المجهر لمعرفة منشأها (يفحص القطرات تحت المجهر) .

المعاون : ماذا ترى ؟

العالم : لقد تسربت الى المحلول بزيرات الفطر الرشاش الذى يفرز مادة تقتل جراثيم الاستربتوكوك .

المعاون : وما العمل الآن ؟

العالم : علينا أن ندرس هذه الظاهرة باكبر قدر ممكن من الانتباه ، واذا أتضح أن هذه المادة يفرزها الفطر الرشاش بالضرورة ، فربما سنتمكن من ابتكار دواء جديد لمكافحة الامراض التى تسببها مثل هذه الجراثيم .

وهذا ما حدث بالفعل . كان تسرب بزيرات الفطر الرشاش الى المحلول الحاوى للجراثيم مصادفة ، غير أن افراز هدا الفطر لمواد خاصة تقتل الجراثيم كان نتيجة ضرورية املاها النشاط الحيوى لهذا الفطر . هكذا تم اكتشاف البنسلين ، وهو الاول فى جملة الكثير من مضادات الحيويات المستخدمة الآن على نطاق واسع فى الطب . والذى يهمنا هنا هو أن الاحداث التى تعتبر مصادفة فى حالة ما تنطوى على ضرورة فى حالة اخرى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تلعب جدلية الضرورة والمصادفة دورا عظيما فى تطور المجتمع . فمن حيث العملية التاريخية العالمية تعتبر الثورة الاشتراكية ضرورة ، لانه يتعذر بدونها تطور المجتمع . بيد أن موعدها ، يوم حدوثها بالضبط يعتبر من وجهة النظر هذه مصادفة تاريخية ، ذلك أنه يرتهن بتقاطع وتفاعل العديد من الظروف الضرورية التى لا يتسنى دائما احتسابها كليا . ولكن فى ظروف الواقع الروسى الملموسة التى ترتبت فى اكتوبر ١٩١٧ استطاع لينين أن يجزم بأن اختيار توقيت الانتفاضة المسلحة الذى يعنى بدء الثورة الاشتراكية ليس مصادفة ، بل املته ظروف معينة ، واملاه اصطفاف القوى الطبقية الملموس فى ذلك الظرف الزمنى . لهذا ذكر فى رسالة بعث بها الى اعضاء اللجنة المركزية لحزب العمال الاشتراكى-الديمقراطى فى روسيا بتاريخ ٢٤ اكتوبر ١٩١٧ أن البدء بالانتفاضة يجب أن يجرى بالضبط ليلة ٢٥ اكتوبر ، والا سيفوت الاوان * . ان اختيار توقيت الانتفاضة الذى يعد مصادفة من وجهة نظر العملية التاريخية العالمية كان ضرورة من حيث الظروف التاريخية الملموسة فى ذلك الحين . وعليه فأن الفهم الصحيح لترابط المصادفة والضرورة فى التطور الاجتماعى يعد احد أهم شروط نشاط البشر الواعى والقيادة العلمية للمجتمع .

أن من ينكر كل دور للمصادفة فى تطور الطبيعة والمجتمع يسمى بالجبرى . اما من يفعل العكس ، أى ينكر كل ضرورة ويقر بأن العالم ما هو الا مملكة مصادفات وفوضى فيسمى باللاحتمى . فاللاحتمية تنكر أى وجود للروابط والعلاقات المستقرة والدائمة والمشيعة للنظام ، وتجعل الانسان عاجزا امام الاحداث الجارية حوله . وتعكس الجبرية واللاحتمية بشكل مبسط وخاطئ الواقع الموضوعى ، لانهما تقتطعان بعض جوانبه وتضعانها نقيضا لجوانبه

---

* لينين . المجلد ٣٤ ، ص ٤٣٥-٤٣٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاخرى . لهذا فكلتاهما يتعارضان جذريا مع المادية الجدلية ومع المنهج الجدلى .

بعد أن اوضحنا ما هى الضرورة والمصادفة ، نستطيع الانتقال الآن الى مناقشة مقولة «القانون» .

١٠٨

قانون العالم الموضوعى . لكلمة «قانون» مدلولات عديدة . ففى العلوم القانونية يقصد بالقانون القواعد والاصول الخاصة التى تقرها الدولة وتحدد ما يسمح وما يحظر القيام به فى المجتمع المعنى ، وما يتخذ من تدابير العقاب بحق المخلين بهذه القواعد والاصول . ويجرى الحديث كذلك عن قوانين العلم وقوانين العالم الموضوعى . وسنخوض فى قوانين العلم عندما سنبحث فى نظرية المعرفة (٥١٠) ، اما قوانين العالم الموضوعى فيجدر بحثها الآن .

أن قوانين العالم الموضوعى هى الروابط والتفاعلات الداخلية المستقرة والضرورية بين مختلف ظواهر وعمليات العالم المادى . ولهذه الروابط حضور فى الطبيعة وفى المجتمع على السواء . وسنتناول مثالين .

من خلال دراسة خواص الغازات لاحظ علماء الفيزياء أن حجم الغاز يتغير تبعا لدرجة حرارته . ومن خلال اجراء التجارب على مختلف الغازات فى مختلف الظروف اكتشفوا أنه كلما أرتفعت درجة الحرارة أزداد حجم الغاز ، اما اذا جرى ضغط الغاز فسوف ترتفع حرارته . وقد تسنى التعبير عن هذا الترابط بصيغة معادلة رياضية تستخدم الآن على نطاق واسع فى العلم والتقنية . أن درجة حرارة المنظومة الفيزيائية ، أى الغاز ، وحجمه لا يبدوان مترابطين للوهلة الاولى . ولكن تسنى تجريبيا أثبات أن ثمة ترابطا داخليا عميقا فيما بينهما ، أى صلة ضرورية مستقرة . وهذا هو القانون الموضوعى لهذه المنظومة الفيزيائية .

لقد أدرك المؤرخون البرجوازيون منذ مستهل القرن العشرين أن تطور المجتمع وتاريخه يرتبطان أرتباطا وثيقا بالصراع الطبقى . وحاولوا خلال ذلك تصوير الامر وكأن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصراع الطبقى «سوء فهم مؤسف» : أذ يكفى أن يفهم البشر «عدم جدواه» حتى يكفون عن خوضـــــه . وتنتشر مثل هذه الآراء على نطاق واسع بين اوساط المؤدلجين البرجوازييـن حتى الآن . ويزعم اتباع هذه الآراء أن التقدم العلمى التقنى والتقنية الالكترونية الحديثة يوفران الظروف اللازمة لمجتمع الرخاء العام الذى يستمر فيــــه المستغلون والمستغلون (بالكسر والفتح على التوالى) ، بينما يختفى الصراع فيمـــا بينهم . غير أن ماركس وانجلس قــــد اظهرا أن الصراع الطبقى قانون موضوعى للمجتمع الرأسمالى . فهو نتيجـــة موضوعية للاستغلال الرأسمالى وشرط ضرورى بنفس القدر لاستمرار تطور المجتمع . وسيختفى هذا الصراع كذلـــك بصورة منطقية وبالضرورة ، ولكن فى ظل المجتمع الاشتراكى فقط ، اى عندما تنشأ منظومة اجتماعية أخرى ويتـم القضاء على استغلال الانسان للانسان . أذن ، فقانون الصراع الطبقى السارى فى ظل المنظومة الرأسمالية لا يفقد مفعوله الا مـع اختفاء هذه المنظومة بحـــد ذاتها . اما المنظومة الاخرى ، الاشتراكية ، فتتسم بقوانين أخرى وعلاقات اخرى بيـــن الطبقات والفئات الاجتماعية .

نحن نرى ، على هذا النحو ، أن القوانين تلازم موضوعيا المنظومات المادية بحد ذاتهـــا سواء فى الطبيعة أو فـــى المجتمع .

فهل هناك قوانين يخضع لها وعينا وتفكيرنا ؟ أن المادية الجدلية تجيب عن هذا السؤال بالايجاب . فالتفكير ثانوى ، وهو – بخلاف المادة – ليس ذا وجود سرمدى ، لكنه ما دام قد انبثق وراح يتطور حسب قوانين معينة ، فهو «يعمل» وفق قوانينه الخاصة . وهذه القوانين هى ما يدرسه المنطـــق والجدلية ونظرية المعرفة (انظر الفصل الخامس) . فما يفكر به الانسان وما يقوم بدراسته ومناقشته من اشياء وظواهر ، انما يرتهن الى درجة معينة باختياره وارادته ورغباته ، الا أن القوانين التى يخضع لها نشاطه المعرفى وتفكيره لا ترتهن بأرادته . فهى موضوعية وواحدة عموما بالنسبـــة للبشر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اجمعين ، ذلك انها ذاتها ناتج للتطور التاريخى . ولو كانت الحال على غير ذلك ، لما كان بمقدور البشر أن يتفاهموا فيما بينهم ، ولما كان بامكانهم أن يتفاعلوا ويعرفوا العالم ، لان كلا منهم فى تلك الحالة سيسترشد بقوانينه للتفكير والمعرفة ، وبالتالى لن يكون لنتائج نشاطه ايما أهمية او مغزى بالنسبة للآخرين . ولكن بالنظر لكون قوانين الطبيعة والمجتمع والتفكير موضوعية ، فهى تحرز سمات عامة متشابهة . والسمة العامة التى تتسم بها هذه القوانين هى ما تدرسه الفلسفة . ويترتب على ذلك أننا ، اذ ننشد بوصلة هادية فى العالم المحيط بنا ، انما يتوجب علينا بالدرجة الاولى أن نبحث تحت الروابط الخارجية الطارئة والعابرة عما هو ضرورى ومستقر ودائم ، أى عن روابط منطقية للمنظومة التى نحن بصددها . لهذا يحق لنا أن نعتقد بأن مقولة «القانون» تعكس ما هو مستقر ، «ساكن» فى الظواهر . وما المعرفة واستخدام مقولات مثل «الضرورة» و«القانون» الا نتيجة لتطور البشرية التاريخى الطويل . يقول لينين : «. . . أن مفهوم **القانون** هو **احدى** مراتب معرفة الانسان **لوحدة وتواصل** العملية العالمية وترابطها واكتمالها» * . ويقود نكران الطابع المنطقى للعالم المادى على الفور الى اللاأدرية والمثالية الذاتية . اذ لا يتبقى لمن ينكر سنن العالم الموضوعية ، كونها أهم سمة للمنظومات المادية كافة ، سوى الظن بأن الطروحات بشأن القوانين الموضوعية ليست سوى نتاج الـ«أنا» الذاتية ، وهذا ليس ببعيد عن مذهب وحدانية الذات (٠٠٩) ، وعن النكران التام لوجود ايما نظام فى العالم ، بل حتى لوجود هذا العالم بحد ذاته .

ألا يعنى الاقرار بالقوانين الموضوعية أن الانسان عاجز عن أن يغير شيئا فى الطبيعة المحيطة به وفى المجتمع ؟ أولا يعنى هذا الاقرار بسلبية الانسان ؟ كلا ، بتاتا . ففى العالم تنوع لامحدود لمختلف الظواهر والعمليات . وكلها تخضع

---

* لينين . المجلد ٢٩ ، ص ١٣٥ .

لمختلف القوانين والسنن الموضوعية . وليس فى مقدور البشر أن يغيروا أو «يلغوا» هذه القوانين بمحض ارادتهم ، لكنهم قادرون دون شك على معرفتها وفهـــم الظروف التى يسرى مفعولها فيها ، وعلى تغيير هذه الظروف بهذا القدر أو ذاك استنادا الى ما عرفوه من قوانين . علما بأن فى مقدور البشر مقاومة بعض القوانين ، او بالادق مقاومة عواقبها بالارتكاز على قوانين اخرى . مثلا ، كان من المفترض حسب قانون الجاذبية الارضية أن تسقط الطائرات التى هى اثقـــل من الهواء على الارض ، ولكن بالاعتماد على ما عرف من قوانين الميكانيك والايروديناميك تعلم البشر لا التحليق على الطائرات فحسب ، بل واطلاق المركبات الفضائية . وقد جرى ذلك لا لأن بعض القوانين قد الغيت ، بل – على العكس – لأن البشر عرفوا هذه القوانين وسخروها لاغراضهم . ويجرى الامر ذاته مع قوانين الطبيعة وقوانين الحياة الاجتماعية على السواء . ويجدر أن نأخذ بالاعتبار أن مفعول قوانين التطور الاجتماعى لا يسرى الا فى ظل توافر الظروف المناسبة ، كمـــا أن تجلياتها تختلف بأختلاف الظروف . ومن بين هذه الظروف توجيه نشاط البشر ذى القيمة الاجتماعية . وبما أن الحياة الاجتماعية تشهد دوما نـــزعات مختلفة تتحكـــم بها قـــوانين مختلفـة ، فأن مسألة النزعة التى ستكون لها الغلبة فـــى الموقف التاريخى الملموس المحدد تبقى مرهونـــة بتناسب القوى الاجتماعية ، وبمستوى استيعاء القوانين المعنية ، والقدرة بالاستناد اليها على تغيير الموقف المعنى بهذا الاتجـــاه أو ذاك . لذا فمن الخطأ الانتقاص من مراعاة العامل الذاتى فى سريان مفعول القوانين الاجتماعية والاتكال على انها ستشق طريقها تلقائيا ، وبصورة مستقلة عن ارادة الناس ووعيهم .

ان معرفة قوانين العالم الموضوعى هى الهدف الاسمى للعلم والفلسفة الماركسية اللينينيـــة . فنشاط الانسان الابداعى الفعال والواعى فيما يتعلق بتغيير العالم لا يمكن أن يكون ناجحا الا شريطة أن يكون مرتكزا على معرفة قوانينه الموضوعية . لهذا السبب يرتبط التعليم عن مادية العالم وعن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

موقف الانسان منه ارتباطا لا ينفصم بالتعليم عن القوانين الموضوعية والطابع المنطقى والمشروع لما يجرى فيه من التغيرات والانواع المختلفة من الحركة والتطور .

الحركة والزمان والمكان

١٠٩

المادة والحركة . عندما نقوم بمختلف الافعال ونراقب العالم المحيط بنا ، نلاحظ أن بعض الاشياء تتغير وتنتقل فى المكان ، ويتبدل لونها وطعمها وشكلها وتركيبها الكيميائى ، الخ . اما بعضها الآخر فيبقى ساكنا ، ثابتا ، محتفظا بشكله ولونه وتركيبه الداخلى . لهذا أعرب فلاسفة الماضى القديم (١٥٠) عن وجهتى نظر متعارضتين . احداهما تفيد بأن الحركة صفة لصيقة بالعالم عموما . فقد اكد هيراقليطس : «أن كل شيء يجرى وكل شيء يتغير» وعليه «لا يمكن ولوج نفس النهر مرتين» . ومضى تلميذه كراتيليس (اواخر القرن الخامس — اوائل القرن الرابع ق . م) بهذا الرأى الى حدوده القصوى حين قال : «أن من غير الممكن ولوج نفس النهر حتى ولا مرة واحدة» . وكان يذهب الى أن العالم متحرك ومتقلب الى درجة ، بحيث لا يستطيع الانسان أن يعتمد فى نشاطه ومعرفته على أى شيء متين ومستقر . ومن هذا الرأى استخلص المثاليون الذاتيون فى العهود القديمة وفى العصر الراهن على السواء الاستنتاج القائل بأن معارف البشر عن العالم الخارجى لا يعول عليها ، وما العالم الخارجى نفسه سوى وهم من اوهامنا ، ذلك أن ما ليس هو مستقر وما يتغير ويتحول طوال الوقت الى شيء آخر سواه لا يمكن أن يكون له وجود موضوعى .

وكان اشياع وجهة النظر الاخرى الذين يقرون بأن العالم الخارجى والحركة مجرد وهم يدعون أن ثمة عالما موضوعيا ، سرمديا ، لا يتغير ولا يتحرك ولا يرتهن بالانسان . وكان أصل هذا العالم بالنسبة للمثاليين الذين انضموا الى افلاطون هو مملكة أزلية من الافكار الثابتة . فأصل العالم الثابت والساكن بالنسبة للايليين كان يتمثل فى وجود سرمدى ثابت مكافىء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لذاته . وكانت كلتا وجهتى النظر تلتقيان فى امر واحد هو انهما فصلتا الحركة فصلا كاملا عن السكون ، وجعلتا احدهما نقيضا للآخر ، فحرمتا الانسان من امكانية الاجابة عن سؤال : هل بامكانه أن يعتمد فى نشاطه ، وهو يصطدم بأشياء متحركة ومتغيرة ، على أمر مـــا متين وأمين ، كأن يكون — مثلا — قوانين العالم المادى الموضوعية ؟ أن فصل الحركـــة عن السكون وجعل احدهمـــا معارضا للآخر هو السمة الاساس للمنهج الميتافيزيقى . ومن يتبنى هذا المنهج لا بد من أن يخلص عاجلا او آجلا الى أن المادة بحد ذاتها لا وجود لها . وهذا الاستنتاج هو ما خلص اليه فى اواخر القرن ١٩ ومستهل القرن ٢٠ المثاليون الذاتيون الذين اطلق عليهم أسم الماخيون (من أسم الفيلسوف وعالم الفيزياء النمساوى ماخ (١٨٣٨—١٩١٦) ، مؤسس هذا الاتجاه) ، وقد ادعوا أن المادة تفنى عندما تتحول الى طاقة ، والطاقة هى حركة محضة بلا ايمـــا مادة . وقد تعرض لينين بنقد شديـــد للماخيين فأبان أن الطاقة مادية هى الاخرى كالعناصر الاخرى (١٠٢ ، ١٠٤) ، وهى موجودة موضوعيا ، خارج وعى الانسان . وليس ثمة مادة بلا حركة ، ولا حركة بلا مادة . ووجد هذا الاستنتاج مـــا يؤكده تماما فى تطور الفيزياء المعاصرة ، ذلـــك أن تحول الطاقة والمادة احداهما الى الاخرى قد اثبت الحكم القائل بوحدة وترابط المادة والحركة . فما هى الحركة يا ترى ؟

أن مقولة «الحركة» تعكس كل التغيرات الجارية بالدرجة الاولى فى العالم الموضوعى .

وبخلاف المادية الميكانيكية التى كانت تفهم الحركة فهما ضيقا جدا ، كونها تنقلا بسيطا للاجسام فى المكان ، تقصد المادية الجدلية بالحركة لا التنقـــل فحسب ، بل والتغيرات الكيميائية والفيزيائية وعمليات النمو والتمثيـــل الغذائى فى اجسام الكائنات الحيـــة ، والعمليات الاجتماعيـــة كالصراع الطبقى ، والتغيرات الاقتصاديـــة ، وسائر انواع النشاط البشرى . ويعكس وعينا هذه التغيرات بواسطة مفاهيم خاصة ، اهمها واكثرها عمومية وتعددا للاغراض هو مقولة «الحركة»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المستخدمة فيما يتعلق بالطبيعة والمجتمـــع والفكر سواء بسواء .

ولكن اذا كان كل شيء فى العالم يتحرك ويتغير ، فما العمل مع النظرات المعارضة الى الحركة والسكون ، التى سبق أن تطرقنا اليها ؟ ربما يكون الحق مع المفكرين الذين كانوا يعتقدون بأن الاقرار بالحركة العامـــة لن يقدم للمرء اسسا متينة يستطيع الارتكاز عليها فى نشاطه ، ولا يسمح لـــه بمعرفة القوانين الموضوعية ، نظرا لكون هذه القوانين عبارة عن روابط ضروريـــة ومستقرة ودائمة فى المنظومـــات المادية ؟

١١٠

حوار حول الحركة والسكون . يناقش هذه المسائـــل المادى الجدلى والمادى الميتافيزيقى .

المادى الميتافيزيقى (م . م) : كلانا يقر بأن العالـــم مادى ، وموجود موضوعيا ولا يعتبر من ثمار مخيلتنا .

المادى الجدلى (م . ج) : هذا صحيح تماما .

م . م : لكننى اصر على أن بعض الاشياء والظواهر فى العالم تتحرك : مثلا ، الاجرام السماوية تدور ، وامواج البحر تمور ، والغيوم تسبح فى السماء . اما بعضها الآخر فثابت : منذ الوف السنين والاهرام المصرية لا تتحرك ، كذلك الارائك التى نجلس واياك عليها ، كما أننا شخصيا لم نتغير عما كنا عليه البارحة .

م . ج : انت تفصل السكون عن الحركة فصلا تاما ، وهذا هو الخطأ الرئيسى الذى ترتكبه .

م . م : هل لك أن تثبت ذلك ؟

م . ج : انا اؤكد أن كل شيء فى العالم يتغير باستمرار ، وهو حركة أزلية وغير قابلة للفناء . . .

م . م (مقاطعا) : ولكن ماذا بشأن الاشياء الساكنة ؟

م . ج : السكون موجود هو الآخر موضوعيا ، ولكن هذا يجب أن يفهم فهما صحيحا : أن الحركـــة مطلقـــة وتجرى باستمرار وفى كل مكان ، اما السكون فنسبى .

م . م : ما معنى هذا القول ؟

م . ج : أن نسبيـــة السكون تعنى أن احدى الظواهر ساكنة نسبة الى أخرى سواها ، وأن احد التغيرات لا يلحظ بالمقارنة مع تغير آخر . والسكون لا يمكن ان يكون ابديا ، بمعنى انه موجود ، ولكن بصورة موقتة فقط ، بصورة نسبية كلحظة ، كحالة من حالات العالم السرمدى الحركة . وهذا هو المغزى الرئيسى لما اقوله .

م . م : اوضح ذلك بمثال .

م . ج : يبدو للوهلة الاولى فقط أن الحركة والسكون متعارضان وغير قابلين للترابط ، لكن الامر ليس كذلك . اذا رأينا غيمتين تسبحان فى السماء وتسوقهما ريح واحدة والمسافة بينما لا تتغير ، فهما ساكنتان بالنسبة لبعضهما البعض ، لكنهما تتحركان بالنسبة للارض . والاهرام المصرية ، كذلك أرائكنا تعتبر ساكنة بالنسبة للارض ، لكنها تدور معها حول محور الارض وحول الشمس . وفى جسم الانسان تجرى تغيرات دائمة : اذ يجرى التمثيل الغذائى ويستهلك الاوكسجين ويلفظ ثانى اوكسيد الكاربون ، وتجرى الدماء فى الاوعية وتنقسم خلايا الجسم ، وينشأ الجديد منها ، وفى الذرات تدور الالكترونات باستمرار حول النواة الساكنة . والذرات نفسها اما تتحرك فى المكان حركة طليقة ، واما تراوح قرب موضع وسطى اذا كانت تندرج ضمن تركيبة جزيئـــة او بلورة . والشمس التى تعتبر مركزا ثابتا لمنظومتنا الشمسية تبدو بهذا المعنى ساكنة ، لكنها هى الاخرى تدور على مدار معين ضمن مجرتنا ، والمجرة تتحرك على صعيد الكون . والاشجار الثابتة فى مكان واحد تنمو فى الوقت ذاته وتهتز اوراقهـــا واغصانها مع هبوب الريح وتزهر وتذبل أزهارها وهلمجرا .

م . م : وما الذى تستنتجه ؟

م . ج : الاستنتاج واضح وهو أن الحركـــة والسكون متعارضان ، لكنهما مترابطان فى عين الوقت . فالحركة مطلقة والسكون نسبى ، السكون موضوعى ، شأنه شأن الحركة ، ولهذا يتسنى لنا فى أية منظومة ، وفى أية عملية مهمة ولو

قدرا ضئيلا من الاهمية ، أن نشخص روابط وعلاقات ضرورية مستقرة ودائمة نسبيا تحدد وتشكل اساس كل التغيرات وتبيح لنا القول بوجود القوانين الموضوعية للعالم المادى (١٠٨) . لهذا أعتبر الفصل الميتافيزيقى بين الحركة والسكون وجعل احدهما نقيضا للآخر ليس فقط امرا مغلوطا ، بل وضارا .

١١١

الشكل والمضمون . أذن ، أن العالم المحيط بنا فى حركة مستمرة بلا انقطاع . وهذه الحركة تجرى باشكال مختلفة . ونحن كثيرا ما نتحدث عن الشكل والمضمون فى الادب الروائى وفى المؤلفات الموسيقية ، وعن اشكال ومضمون العمل السياسى الجماهيرى وما الى ذلك . ويندر فى الحياة اليومية أن يستقصى الناس المغزى العلمى الدقيق لهاتين المفردتين . بيد انه امر ضرورى عند مناقشة المسائل الفلسفية العلمية .

فما هو الشكل والمضمون ؟ أن الظواهر المحيطة بنا معقدة جدا وهى – كما أسلفنا – تتألف من عدد غفير من الاجزاء والعناصر التى توجد بينها علاقات وروابط مستقرة او تفاعلات تسمى بالبنى (١٠٦) . وهذه البنى تبدو وكأن لها جانبين داخليا وخارجيا . **الجانب الخارجى للبنية يسمى بالشكل ، والجانب الداخلى مع ما يشمله من عناصر وعمليات يسمى بالمضمون** . ومن هنا يتأتى أن شكل ومضمون كل ظاهرة يترابطان ترابطا وثيقا ، رغم عدم تطابقهما . وهما خلال ذلك لا ينفصمان . ان كل الاشياء تتفاعل فيما بينها ومع الانسان بجانبها الخارجى ، ان جاز القول . اما الجانب الداخلى للاشياء ، أى المضمون ، فلا يتكشف مباشرة ، بل عبر الجانب الخارجى ، أى الشكل . وما دام الشكل والمضمون لا ينفصمان ، فأن الشكل ينطوى دوما على المضمون والمضمون على الشكل . وبالنظر لكون القوانين الموضوعية تشمل دوما مضمون الظواهر ، فأن العلم حين ينتقل من الشكل الى المضمون ويتوغل فى عمق الظواهر المحيطة ، انما يتوصل الى معرفة روابطها الضرورية والمتكررة الاكثر استقرارا ، أى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قوانينها . بعد ذلك يستطيع العلم ، ما أن يدرس المضمون ويفهم القوانين ، أن يفسر تفسيرا اعمق وأصوب الشكل ، أى التفاعلات الخارجية التى يتلقاها الانسان بحواسه .

على هذا النحو نجد أن مقولات «المضمون» و«الضرورة» و«القانون» هى مفاهيم مـــن فئة واحدة . فهى تميز صفات الظواهر الباطنية الاكثر أهمية واستقرارا .

وقد يتجسد نفس المضمون فى اشكال مختلفة . على سبيل المثال ، قد تغدو علاقة الحب بين شاب وشابة وما يرتبط بها من احداث مضمونا لنتاجات مختلفة من حيث الشكـــل الادبى الوجدانى : رواية ، مسرحية ، قصيدة عاطفية ، الخ . وبالعكس ، فقد يعبر نفس الشكل الادبى الواحد ، الرواية مثلا ، عن عقائد وانفعالات ومواقف من الحياة مختلفـــة من حيث المضمون .

والمضمون هو الجانب الحاسم لكل ظاهرة او عمليـــة . وبتطوره ضمن اطار الشكل القديم يدخل المضمون الجديـــد عاجلا أو آجلا فى تناقض معه فيمهد لحلول شكل جديـــد محله . ويؤثر الشكل الجديد تأثيرا ايجابيا فى تطور المضمون ويدعمه ، لكن المضمون يبقى فى جميع الحالات هو الجانب الحاسم . ولجدلية الشكل والمضمون ، أى تفاعلهما وتحولهما المتبادل اهمية كبرى بالنسبة لمعرفة الظواهر الاجتماعية ، ولسوف نعود مستقبلا غير مرة الى استخدام هاتين المقولتين (٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٢٧-٢٣٢ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩) . ولنعد الآن الى مسألة ترابط وتغير اشكال حركة المادة .

١١٢

اشكال حركة المادة . للتغيرات الجارية فى العالم المحيط بنا مضامين واشكال مختلفة . فمضمونهـــا يرتهن بنوع المادة وبخواص هذه او تلك من الاشياء والعمليات المادية . اما الشكل فيتوقف على طابع تفاعل هذه الاشياء والعمليات ومـــا يجرى لها من تحولات . ولذا فكل نوع من انواع المادة تناسبه اشكال معينة بهذا القدر او ذاك من الحركة .

لقد شخص انجلس قبل مائة عام تبعـــا لمستوى تطور

العلم المعاصر له ستة اشكال لحركة المادة . اذ ربط شكل الحركة الميكانيكى بتنقل وتفاعل الاجسام الصلبة والغازيــة والسائلة فى المكان . وشمل الشكل الفيزيائى للحركة تفاعل الجزيئات والعمليات الكهرمغناطيسية ، وانتشار وتحول الطاقة الحرارية ، وما الى ذلك . وشمل الشكل الكيميائى عمليات تكون الجزيئات من الذرات وتحول بعض المواد الكيميائية الى سواها ، وشمل الشكل البيولوجى كل انواع النشاط الحيوى للنباتات والحيوانات . وأعتبر الشكل الاجتماعى للحركــة بمثابة نسق لكل انواع نشاط البشر الاجتماعــى . واعتبر التفكير ، هو الآخر ، شكلا خاصا لحركة المادة ، رغــم أن التفكير بحد ذاته ليس ماديا ، بل مثالى . وسنتوقف بمزيد من التفصيل عند خاصية التفكير هذه فى الاقسام التالية من هذا الفصل .

فى غضون السنوات المائة المنصرمــة طرأت تغيرات عملاقة على التصورات العلميــة عن بنيــة العالم (١٠٤) . واصبحنا نعرف الآن عددا غفيرا من الاشكال الجديدة لحركة المادة يرتبط بالعمليات الجارية داخل الذرة وبتفاعل الكواركات والحقول الفيزيائية المتنوعة والجزيئات البسيطة ، وكذلك بانواع أخرى من المادة تنشأ فى تخوم الطبيعة الحية والطبيعة غير الحية (الجماد) ، وفى العمليات الكونية المعقدة ، والخ . . وستبقى التصورات العلميــة عن الانواع الجديدة من المادة واشكال حركة هذه الانواع تولد باستمرار . لهذا ينال السؤال المتعلق بعدد ما يتوفر من اشكال حركة المادة ، وما هى هذه الاشكال جوابا جديدا فى كل مرة تبعا للمستوى المحقق من المعرفة العلمية للعالم . اما من وجهة نظر الفلسفة فينبغى التنويه بالاهمية القصوى لفكرة انجلس بحد ذاتها ، والقائلة بأن عملية تطور العالم المادى تشهد نشوء انواع جديدة من الاشياء والعمليات المادية ، أى انواع جديدة من المادة ، وبالتالى نشوء اشكال جديدة ايضا من الحركة . كما أن الاشياء والعمليات الاكثر تعقيدا يناسبها شكل اكثر تعقيدا لحركتها . فكلما كان النوع المعنى من المادة اكثر تعقيدا ، اصبحت اكثر

تنوعا اشكال الحركة التى تتخذهـــا المادة فى عين الوقت . فالكائنات الحية ، مثلا ، اكثر تعقيدا من أى كيان فيزيائى يتألف من جزيئات او بلورات ومـــا الى ذلك . فهى تتسم بالشكل البيولوجى للحركة ، لكنها فى الوقت ذاته تخضـــع كذلك للقوانين الفيزيائية ، مثلا لقوانين الجاذبية ، وللقوانين الكيميائية التى تتحكم باتحاد الجزيئات التى تتألف منها اعضاء الحيوانات او النباتات ، الخ . . ويندرج الانسان فى شكل الحركة الاجتماعى ، لكنه يندرج فى نفس الوقت ، باعتباره كائنا حيا ، ضمن الشكل البيولوجى للحركة ، وهلمجرا . كذلك الحال بالنسبة لكواكب المنظومة الشمسية . فهى تندرج فى اشكال كوكبية خاصة من الحركة (الارض ، مثلا ، تندرج فى الشكـــــل الجيولوجى) . الى جانب ذلك ، هى عبارة عن منظومات بالغة التعقيد تندرج اجزاؤها وعناصرها فى الشكل الفيزيائى والشكل الكيميائى وغيرهما من اشكال الحركة .

وتضم اشكال الحركة الارقى والاكثر تعقيدا اشكالا ابسط نشأت خلال مراحل التطور السالفة . ولا يجوز خلال ذلك عزو الاشكال الاعقد الى الاشكال الابسط . مثلا ، لا يجوز ان نعزو المجتمع ، كونه شكلا خاصا للحركة ، الى شكـــل الحركـــة البيولوجى . فمن شأن مثل هذه المحاولة أن تعنى هدم المجتمع وتحويل البشر الى حيوانات . فلكل شكل من اشكال حركة المادة قوانينه الموضوعية الخاصة . ومثلما لا تجوز احالة اشكال حركة المادة الاكثر تعقيدا الى اشكالها الابسط ، كذلك لا تجوز احالة قوانين اشكال الحركة الاكثر تعقيدا الى قوانين الاشكال الابسط . ولكن من الخطأ الظن بأن ليس ثمة صلة داخلية بين هذه القوانين . ذلك أن هذه الصلة تنشأ خلال سيرورة التطور ، ودراستها تعتبر مهمة كبيرة الشأن من مهمات الجدلية الماركسية (انظر الفصل الرابع) .

والحركة تجرى فى الزمان والمكان . لهذا يقتضى الاستمرار بمناقشة مسألة المادة وقوانين الحركة والتطور جوابـــا عن سؤال بالغ الاهمية بالانسبة للعلم والفلسفة ، الا وهو : ما هو الزمان والمكان ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١١٣
الزمان والمكان . تؤكد المادية الجدلية بالاعتماد الكامل على العلم المعاصر أن الزمان والمكان موجودان موضوعيا . وهما لا ينفصلان عن المادة ، شأن الحركة .

ينبغى أن نميز الزمان والمكان بوضوح ، كونهما طريقتى وجود وصفتين موضوعيتين للمادة المتحركـــة ، عن مقولتى «الزمان» و«المكان» الفلسفيتين ، وكذلـــك عن التصورات العادية والعلمية عن الزمان والمكان ، التى كانت تسم كل عصر من العصور التاريخية .

أن الزمان والمكان الموضوعيين ماديان بحد ذاتهما ، أى انهما موجودان خارج وعى الانسان وبصورة مستقلـــة عن ارادته . ومقولتا «الزمان» و«المكان» الفلسفيتان تعكسان أهم المواصفات الشاملة للزمان الموضوعى والمكان الموضوعى .

تعكس مقولة «الزمان» وجود تغيرات غير ارتدادية بهذا القدر أو ذاك فى جميع اشكال حركة المادة ، وكذلك وجود تتابع معين لاحداث العالم الموضوعى ، أى كونها تجرى حسب تسلسل معين ، الواحد اثر الآخر . ويستدل من ذلك أن للزمان اتجاها معينا وأن من المستحيـــل التحرك فى الزمان بالاتجاه المعاكس . فجميع المحاولات التجريبية الراميـــة الى الكشف عن اتجاه عكسى للزمان لم تتكلل بالنجاح .

وتعكس مقولة «المكان» خاصية اخرى للمادة المتحركـــة تتمثل فى حقيقة أن كل حدث وشىء وعملية وظاهرة معينـــة ترافقها وتجاورها فى عين الوقت احداث وأشيـــاء وعمليات وظواهر اخرى . والتغيرات المكانية ، أى التنقلات ، أرتدادية . يقال عادة أن لكل شىء مادى ثلاثة ابعاد هى الطول والعرض والارتفاع . والحركة الارتدادية ممكنة فى كل من هذه الابعاد : الى الامام — الى الوراء ، الى اليمين — الى الشمال ، الى الاعلى — الى الاسفل .

ترتبط التغيرات فى الزمان والمكان ارتباطا وثيقا ، وتتسم بالوحدة . ولا تعكس مقولتا «الزمان» و«المكان» سوى جوانب مختلفة ، «مقاطع» مختلفة من عملية الحركة الموحدة . وهاتان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المقولتان تعكسان من حيث الجوهر حقيقة أن ثمة فى الطبيعة والمجتمع والفكر ما يمكن أن يتكرر وما لا يمكن أن يتكرر ، أى أن هناك عمليات ارتدادية وغير ارتدادية .

قد يُعترض على هذا القول بأن بعض الظواهر قد تتكرر فى الزمان ايضا . ففى ظروف مختلفة من الزمان يمكن استخدام نفس الاشياء ، ويمكن للمرء أن يشاهد فيلما سينمائيا عدة مرات ، أو أن يقوم بتشغيل ماكنة انتاج واحدة طوال سنوات عديدة وهلمجرا . أن هذا الاعتراض يجانب الصواب . فكل شيء — مهما بدا ثابتا — يتغير فى الزمان ، رغم أن هذه التغيرات قد تكون غير ملحوظة تقريبا . فجدران الوعاء الذى تستعمله مرارا تنحف وترق ، والشريط السينمائى يبلى ، وماكنة الانتاج تندثر . وللتغيرات الزمنية غير الارتدادية أهمية عظيمة لا فى الطبيعة فحسب ، بل وفى المجتمع . اذ ترتبط بها الصفة اللاارتدادية للعملية التاريخية . صحيح أن بعض ظواهر الحياة الاجتماعية قد تتكرر ، بيد أن هذه التكررات لا تكون دقيقة دقة مطلقة . لهذا ترتدى قضية الزمان اهمية اجتماعية كبيرة . فالمجتمع الذى شهد تغيرات جذرية فى الزمان ، كأن تكون ثورة اجتماعية ، لم يعد بمقدوره أن يعود الى الوراء وأن يكرر بالضبط ما سبق أن قطعه من مراحل التطور التاريخى . وما دامت العمليات الزمنية غير ارتدادية ، فأن قضية الزمان مهمة بالنسبة لتنظيم مجمل الحياة الاجتماعية : الانتاج ، الادارة ، التربية ، الخ . لهذا تولى الفلسفة التى تدرس علاقة الانسان بالعالم المحيط هذا القدر الكبير من الاهتمام لمناقشة ما هو الزمان والمكان ، وكيف تتغير وتتكون التصورات عنهما .

١١٤

اللاتهادن بين الفهم المثالى والفهم المادى للزمان والمكان .

فى التعليم المتعلق بالزمان والمكان تشغل المادية والمثالية موقفين متعارضين . فالآراء المثالية فى الزمان والمكان منتوج عصر معين ، ذلك أنها تنشأ على أساس من التأويل غير الصحيح للفهم الميكانيكى للزمان .

لقد ذهب عالم الفيزياء الانجليزى نيوتن ، مؤسس علم الميكانيك الكلاسيكى ، الى ان الزمان والمكان شرطان خارجيان لحركة الاجسام الميكانيكية . فالمكان أشبه بعلبة فارغة عملاقة يستطيع الجسم أن يتحرك داخلها ذهابا وايابا على كل بعد من الابعاد الثلاثة . والزمان يبدو له اشبه بشريط ينبسط برتابة . كان الزمان والمكان والاجسام المتنقلة فيهما تبدو لنيوتن موجودة خارج وعى الانسان . الزمان يقاس بالساعات والمكان بالمسطرة . وبوجه عام كانت هذه الآراء مادية . ولكن بسبب صفتها الميكانيكية كانت تنطوى على احتمال المثالية . ففيم كان يتلخص هذا الاحتمال ؟ بما أن الزمان والمكان كانا يعتبران شرطين خارجيين لتحرك الاجسام لا يرتبطان بصفاتها المادية ، بل هما مستقلان عنها ، فقد برز السؤال التالى : بم يرتهن الزمان والمكان ؟ اذا كانا لا يرتهنان بالاجسام المادية ويعتبران خارجيين نسبة اليها ، فثمة جواب يفرض نفسه هو انهما لا يرتهنان الا بالانسان – الذات المتلقية للمعرفة .

هذا الجواب المثالى الذاتى هو الذى اقترحه الفيلسوف الالمانى الكبير كانط (١٧٢٤–١٨٠٤) ، منطلقا من أن الزمان والمكان ليسا من صفات الظواهر المادية ، بل هما شرطان لتلقيها من قبل الانسان . فبتفاعلنا مع الاشياء ، حسب كانط ، نتلقى سيلا من الاحاسيس . ويساعدنا الزمان والمكان على ترتيب هذه الاحاسيس فى نظام معين . فالزمان «يرتب» الاحاسيس واحدا بعد الآخر ، بينما «يرتبها» المكان الواحد جنب الآخر . على هذا النحو يكون الزمان والمكان اشبه بمخطط ملازم لاحساسنا ، لقدرتنا على التلقى ، نشيع بواسطته النظام فى سيل احاسيسنا ومتلقياتنا العشوائية . اما الحديث عن نظام موضوعى فى العالم المحيط ، فهو فى نظر كانط واتباعه امر لا طائل تحته .

ويذهب المثاليون الموضوعيون الى أن الزمان والمكان من صنع عقل عالمى ، روح مطلق ، ويعتبران صفتين اساسيتين له ، وليسا شكلين لوجود المادة . وعليه فان الزمان والمكان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يمكن أن يوجدا قبل نشوء المادة وبصورة مستقلة عنها .

يتضمن كتاب لينين «المادية ومذهب نقد التجريبية» اعتراضات حازمة على الآراء المثالية فى الزمان والمكان . فالعلم المعاصر يقدم ادلة دامغة تشهد لصالح الفهم المادى للزمان والمكان . فالمجرة موجودة منذ قرابة ١٠ مليارات سنة ، والارض زهاء ٥ مليارات سنة ، وقد ظهرت اولى الكائنات الحية عليها منذ حوالى ٣ مليارات سنة . اما اجداد الانسان المباشرون فقد ظهروا قبل حوالى ٥,٥ مليون سنة . معنى هذا أن الارض والمجرة كانتا موجودتين فى المكان ، وتتطوران فى الزمان قبل ظهور الانسان العاقل وتصوراته عن الزمان والمكان . على هذا النحو نرى أن الزمان والمكان موجودان خارج الانسان وبصورة مستقلة عنه . وتدل احدث الاكتشافات فى العلم الراديوفلكى والفيزياء الفلكية على أن العالم يشهد دوما عمليات نشوء مجرات جديدة واختفاء اخرى قديمة . وليس ثمة من مسوغات للاعتقاد بأن لهذه العمليات بداية ونهاية فى الزمان او هى محدودة فى المكان . لهذا تؤكد المادية الجدلية بالاستناد الى معطيات العلم المعاصر **أن الزمان والمكان لا ينفصمان عن المادة المتحركة ، وهى سرمدية زمانيا ومكانيا .**

١١٥

تصورات العلوم الطبيعية المعاصرة عن الزمان والمكان . كانت الآراء الميكانيكية تقوم من بين ما تقوم على تصور مفاده أن الزمان والمكان لا يرتهنان بصفات الاجسام المادية وخواص حركتها . ولاجل وصف كل التنقلات الميكانيكية استخدمت هندسة اقليدس التى وضعت اسسها فى بلاد اليونان القديمة . وبموجبها لا يمكن أن يمر عبر كل نقطة على سطح معين سوى خط واحد يوازى الخط المرسوم على هذا السطح ، وأن مجموع الزوايا الداخلية لكل مثلث يساوى ١٨٠ درجة ، ولا علاقة له بابعاد المثلث ، وأن كل المكان ملء بمستويات عملاقة غير مرئية يمكن عبر كل نقطتين عليها تمرير خط مستقيم منتهى الاستقامة . بيد أن عالم الرياضيات الروسى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لوباتشيفسكى (١٧٩٢-١٨٥٦) اكتشف منذ النصف الاول من القرن التاسع عشر هندسة جديدة غير هندسة اقليدس ، وافاد بأن من الممكن أن يكون هناك بناء مجسم يمكن ابانه أن نمرر عبر نقطة تقع خارج المستقيم المرسوم حزمة من الخطوط المستقيمة التى لا تتقاطع معه ، وأن مجموع زوايا المثلث يرتهن بابعاده وقد يكون اقل من ١٨٠ درجة ، بمعنى ان هذا المكان يبدو كما لو كان «ملتويا» .

وساد لفترة من الوقت اعتقاد مفاده أن هندسة لوباتشيفسكى لا تمت بصلة الى الواقع الموضوعى . وفى بداية القرن العشرين وضعت نظريتا النسبية الخاصة والعامة . وبموجب هاتين النظريتين يعتبر الزمان والمكان والحركة امورا موضوعية ومترابطة ترابطا لا ينفصم . وترابطها لا يكاد يلحظ فى حالة سرع الحركة الاعتيادية التى يتعامل معها الانسان فى حياته اليومية . ولكن فى حالة السرع التى تقترب من سرعة الضوء (وهى تعادل ٣٠٠ الف كلم/ثا) تتقلص حجوم الاجسام المتحركة ويتباطأ الزمن . وقد جرى التأكد من هذه الحقائق تجريبيا على المسرعات العصرية للدقائق البسيطة . عدا عن ذلك يتغير طابع المكان تبعا لكتلة الجسم : فكلما كانت الكتلة اكبر ، ازداد انحراف المكان عن هندسة اقليدس واكتسب الصفات الموصوفة فى النظرية الجديدة . ومع «انحراف» المكان يتغير مجرى الزمان ايضا . ووجدت هذه النتائج ما يؤكدها تجريبيا وتطبيقيا . وبمساعدتها جرى حساب وتعيين مسارات المختبرات الفضائية السوفييتية التى اطلقت الى الزهرة وهبطت على سطحها بدقة .

ويترابط المكان والزمان والحركة ترابطا وثيقا لا ينفصل عن الظواهر المادية الى درجة جعلت علماء الفيزياء يستخدمون فى احيان كثيرة مصطلح الزمكان ويقيسون الحركة لا بالاحداثيات الثلاثة المعروفة ، بل بأربعة ، مضيفين اليها الاحداثى الزمنى (البعد الرابع) . ومن هنا نشأ التصور عن المكان الرباعى الابعاد . على هذا النحو نجد الزمان والمكان صفتين موضوعيتين للمادة ترتهنان بطابع حركتها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقدم الفهم العلمي لترابط الحركة والزمان والمكان تعليلا راسخا للجواب المادي عن المسألة الاساسية للفلسفة ، ويتيح امكانية تقديم برهان قاطع على ما تؤكده المادية الفلسفية بأن الوعي ثانوي ويعد ناتجا للتطور الطويل وازدياد تعقد المادة المتحركة .

١١٦

السبب والنتيجة . ان جميع الظواهر او الاحداث او العمليات في الطبيعة والمجتمع والفكر تسببها او تقيضها ظواهر واحداث وعمليات اخرى ، أي انها ناجمة عن اسباب (علل) معينة بهذا القدرة او ذاك . **والظاهرة (العملية ، الحدث) يسمى سببا (علة) لظاهرة (عملية ، حدث) اخرى اذا : ١ - كانت الاولى تسبق الثانية زمنيا ، ٢ - كانت الاولى ممهدة ضرورية أو اساسا لنشوء أو تغير او تطور الثانية** . بعبارة اخرى أن الاولى تسبب الثانية ، أي تتمخض عنها .

أن السبب (العلة) والنتيجة (المعلول) موجودان موضوعيا والعلاقات فيما بينهما تسمى بعلاقة السبب والنتيجة . وتعكس مقولتا «السبب» و«النتيجة» الفلسفيتان علاقات السبب والنتيجة التي لها اهمية متعددة الاغراض ، ولها حضور في جميع اشكال حركة المادة . ودراسة هذه العلاقات تعتبر مهمة بالغة الخطورة في العلوم الطبيعية والاجتماعية والتقنية .

ولكل ظاهرة سببها . وبالعكس : فكل تغير في العالم المادي يسفر عن هذه النتيجة أو تلك . بيد أن هذا لا يعني أن بعض الظواهر لا تعتبر الا سببا والاخرى لا تعتبر الا نتيجة . فالجدلية المادية تقر استنادا الى التجربة ، والى ممارسة البشر التاريخية ، والى منجزات العلم ، بأن ظاهرة معينة كتجمع البخار في السحب ، كونها نتيجة لظاهرة اخرى هي تبخر المياه من على سطح الارض ، قد تكون هي ذاتها سببا لظاهرة جديدة هي المطر . بهذا المعنى يمكن القول أن السبب والنتيجة يبدوان وكأنهما يتبادلان بالمواقع : فما يعتبر نتيجة في هذا الظرف قد يغدو في الظرف التالي سببا لظاهرة اخرى . ولهذه الموضوعة اهمية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كبيرة فى حياة الانسان ونشاطه الاجتماعى . على سبيل المثال ، أن ارتفاع المستوى التعليمى وسعة الاطلاع والاعداد المهنى يتيح للانسان فرصة العمل الافضل والترقى الوظيفى ، ويفضى عادة الى ارتفاع مستوى رفاهيته . تلكم هى النتيجة الاكثر احتمالا لارتفاع المستوى التعليمى والاعداد المهنى . بيد أن ارتفاع مستوى الرفاهية يتيح للانسان ايضا بدوره أن يزاول رفع مستواه المهنى والتعليمى وسعة اطلاعه ، وهذا يوفر مرة اخرى فرصا جديدة فى الحياة الشخصية والاجتماعية وهلمجرا .

وترتبط مقولتا «السبب» و«النتيجة» ارتباطا وثيقا بمقولة «الشرط» . **فالشرط هو مجموع مختلف العمليات والظواهر المادية الذى لا يستطيع السبب المعنى بدونها ان يسفر عن النتيجة المعنية** . الى جانب ذلك ، لا تلعب الشروط (الظروف) دورا فعالا وحاسما فى نشوء النتيجة المعنية .

أن فعلا بعينه يؤدى الى نتائج مختلفة باختلاف الشروط . مثلا ، قد تؤدى كيمأة الانتاج ايضا الى صنع عقاقير فعالة وزيادة غلة الارض وصنع مواد صناعية جديدة ، ولكن قد تكون لها نتيجة اخرى هى تلوث البيئة والمياه والجو وما الى ذلك . وعلى صعيد آخر قد تنجم نتيجة بعينها عن اسباب مختلفة . مثلا قد ينجم نمو غلة الارض عن استعمال انواع وفيرة المنتوج من البذور ، وعن تسميد التربة وتحسين اساليب فلاحة الارض وهلمجرا . وفى الظروف الاجتماعية المختلفة تحت ظل النظامين الرأسمالى والاشتراكى يؤدى التقدم العلمى التقنى المعاصر (٣١٢) الى نتائج مختلفة تماما : الى البطالة واشتداد الاستغلال فى المجتمع الاول ، والى التطور الشامل للمجتمع تحت ظل النظام الثانى . لهذا من الاهمية بمكان أن نفهم ترابط الظروف والاسباب والنتائج كى يتسنى لنا أن نقوم تقويما صائبا الظواهر المحيطة بنا ، وبالدرجة الاولى الظواهر الاجتماعية ، خاصة اذا اخذنا بالاعتبار أن الظواهر المحيطة بنا تنجم عادة لا عن سبب واحد فحسب ، بل عن جملة كاملة من الاسباب .

يتبنى المثاليون والماديون ، الميتافيزيقيون والجدليون ، نظرات متعارضة الى علاقات السبب والنتيجـــة . اذ يذهب الميتافيزيقيون الى أن لكل ظاهرة سببها الخاص ، وبالعكس ، أن كل سبب يتمخض عن نتيجة محددة بصرامة . أن وجهة النظر هذه التى تسمى بالحتمية الميكانيكيـة تميز الماديين الميتافيزيقيين ، فى حين يتبنى اللاأدريـــون والمثاليـــون الذاتيون وجهات نظر مخالفـة ، وتبدو طروحاتهم على النحو التالى : لا يمكن للمرء مطلقا أن يجزم هل ستنمو نبتة من هذه البذرة ، أم أن هذه البـــذرة ستموت بحكم عدم ملاءمـــة الظروف . وفى بعض الحالات يقود الصراع الطبقى الى صدام مسلح ، بينما يكتسب فى حالات اخرى اشكالا سلميـــة . وهم يمضون الى القول بأن العلم المعاصر غالبا ما يبحث فى منظومـــات معقدة ذات عدد غفير من الظواهر والعمليـات المترابطة التى يؤثر بعضها فى بعض بحيث يتعذر على المرء أن يجزم أى منها هو المتسبب فى الظاهرة الجديدة المعنية . لهذا يميل انصار وجهة النظر هذه الى الادعاء بأن هناك ظواهر بلا أسباب تنشأ تلقائيا ، ولم تتمخض عنها ، لم تسببهـا بالضرورة ايما ظواهر او عمليات اخرى . وهذا الموقف يسمى باللاحتمية .

أن الحتمية الميكانيكية محدودة للغاية . ففى الواقـع ليست ثمة رابطة صارمـــة ووحيدة المدلول بين الاسباب والنتائج . وتبرهن المادية الجدلية على أن الاسباب والنتائج تتبادل بالمواقع فى سياق التطور . فكل ظاهرة قد تنشأ عن جملة كاملة من شتى الاسباب تبعا لاختلاف الظروف . وبنفس الصورة تماما قد يؤدى سبب بعينه الى نتائج مختلفة . لذا فنحن نتبنى وجهة نظر يمكن وصفها بالحتمية الجدلية ، وهى تراعى مدى تعقد العلاقـات والروابط السببية وتغيرهـــا وتطورها الدائمين .

ويمعن فى الخطأ اتباع مذهب اللاحتمية . اذ يرينا العلم المعاصر ، ولاسيما فيزياء الكمّ ، أن التفاعلات السببية فى عالم الدقائق البسيطة والظواهر الجارية داخل الذرة ترتدى

طابعا متعدد المدلولات ، وليس طابعا وحيد المدلول بشكل صارم . ومن الصعوبة بمكان التنبؤ بنتيجة كل سبب منفرد تنبؤا قاطعا . وعند وصف مثل هذه الظواهر يضطر العلماء الى استخدام نظرية الاحتمالات التى تساعد على تقدير مستوى هذا الغموض . لكن هذا يعنى أن السببية فى عالم الفيزياء الذرية تحمل طابعا احتماليا او احصائيا ، وليس القضية هنا فى غياب الروابط السببية . ولو كان الامر كذلك لما استطاع العلماء عموما التنبؤ بالظواهر الجديدة واكتشاف الدقائق الجديدة ، ناهيك عن التحكم بعمليات الطاقة الذرية وغيرها .

عندما سنتناول فى المستقبل مسألة نشوء الوعى وتطور المجتمع وأسباب الثورات الاجتماعية وسنن البناء الاشتراكى ، سوف يتسنى لنا غير مرة أن نرى أى دور كبير تمارسه مقولتا «السبب» و«النتيجة» .

الانعكاس كصفة عامة للمادة

١١٧

المسألة الاساسية للفلسفة فى «عصر» الكمبيوتر . قبل بضع سنوات جرى لاجل القيام بتجربة علمية تشييد متاهة صغيرة ، لكنها موهمة كفاية . وراحوا يطلقون فيها حسب الدور فئران اصطناعية الكترونية مزودة بحواس صناعية وعقل صناعى . وكان باستطاعة هذه الاجهزة اداء مهمات معينة وتصحيح ما يرتكب من اخطاء . وكان هدف الفئران الالكترونية هو الخروج من المتاهة . والفائزة من هذه الفئران هى التى تنفق اقل قدر من الوقت وترتكب اقل عدد ممكن من الاخطاء . ولدهشة الجميع كانت الفائزة هى ابسط هذه «الفئران» واكثرها بدائية .

أن مثل هذه التجارب ترغم المرء على إعمال الفكر فى الاسئلة التالية : ما هو الوعى ، ما هو الفكر ، وهل تحوزه الآلة الحاسبة ، وهل بامكانها أن تحل محل العقل البشرى محل الذهن ؟

منذ بضعة عقود وكل هذه المسائل موضع مناقشة عاصفة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى الادبيات العلمية والفلسفيـــة . صحيح أن الكثير من العمليات الذهنيـــة تؤديه فى الوقت الراهن الحاسبـــات الالكترونية (الكمبيوترات) التى تغدو جيلا بعـد جيل اصغر حجما واسرع اداء . ويستخلص اتبـــاع مختلف المدارس والتعاليم المثالية من هذه الحقيقة أن الوعى والفكر يمكن أن يوجدا بصورة مستقلة عن الانسان . وبلغ الامر ببعضهم حتى الى القول بأن الله او العقل المطلق ما هو الا برنامج آلى متعدد الاغراض يسبق خلق العالم ، اما الكون ومنظومتنـــا الشمسية بل والانسان نفسه ان هى الا جهـــاز يطبق هذا البرنامج .

فى عصر التحويلات الاجتماعية العظيمة والثورة العلميـــة التقنية المرتبطة بصنع الحاسبات الخارقة القدرة ، تكتسب المسألة الفلسفية القديمة عن العلاقة بين الوعى والمادة ، على هذا النحو ، نغمة جديدة ومغزى اجتماعيا جديدا وأهميـــة عقائدية ومنهجية خاصة . ويتوقف على حل هذه المسألة فهم المشاكل الاجتماعية وتعيين اتجاهات الابحاث العلمية . فما هو الموقف الذى تتخذه المادية الجدلية من كل هذه المسائل ، وما هو جوابها عنها ؟

١١٨

ما هو الانعكاس ؟ منذ القـرن الثامن عشر احتدم الجدل فى الفلسفة حول سؤال : هل يمكن أن يوجد الوعى بغير المادة ، والذهن بغير حامله المادى ، واذا كان الرد بالنفى فمن أين يأتى الوعـــى ؟ اعتراضا على مزاعـم الاسقف الانجليـــزى ج . بيركلى (١٦٨٥-١٧٥٣) بأن العالم المادى الخارجى ليس سوى مجموعة احاسيسنا ولا وجود له الا فى مخيلتنا (٠٠٩) ، قارن المـادى الفرنسى د . ديدرو (١٧١٣-١٧٨٤) المثاليين الذاتيين بـ«المعزف المجنـــون» . فالمعزف (الانسان) يبعث الاصوات ويستحضر موسيقى متناسقـة (الاحاسيس والفكر) عندما يلامس مفاتيحه (الحواس) عازف البيانو (الطبيعة) . اما المعزف المجنون (أى المثالى الذاتى) فيعتقد بأنه هو الذى يولد كل الاصوات وكل الموسيقى . وردا على سؤال المثاليين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذاتيين ، من أين يأتى الوعى ، اذا كانت المادة جمادا (عديمة الروح) ، ادلى ديدرو بفكرة حدسية مفادها أن أساس المادة يتسم بصفة خاصة تشبه الاحاسيس من حيث الجوهر . ومن هذه الصفة تنبثق القدرة على الاحساس ، ومن ثم على التفكير . ولاثبات هذه الفكرة ساق ديدرو مثال البيضة والكتكوت . فالبيضة ليس لها القدرة على الاحساس وتلقى العالم ، فى حين يحوز الكتكوت الحى هذه القدرة . اذن ، فالقدرة على الاحساس ، حسب طروحات ديدرو ، تنشأ من الجماد . وبما أن العلم فى القرن الثامن عشر لم يكن بحوزته — مقارنة بعصرنا — سوى حجم ضئيل من المعلومات عن منشأ الحياة والوعى ، فلم يكن بمقدور ديدرو أن يضع نظرية فلسفية مكتملة ومعللة عن رابطة المادة والوعى .

هذه النظرية قام بوضعها وصياغتها على اساس المعارف العلمية المعاصرة فلاديمير لينين الذى استند الى ديدرو باعتباره قد سبقه الى ذلك واطلق عليها اسم نظرية الانعكاس .

الانعكاس هو صفة موضوعية ، عامة ، أساسية ، وغير قابلة للفصل من صفات المادة . وهى صفة موضوعية ، شأن صفاتها الاخرى كالحركة والزمان والمكان . علاوة على ذلك ، أن الانعكاس أمر متعذر من دون حركة الظواهر المادية فى الزمان والمكان . فما هو الانعكاس ؟ **أن الانعكاس هو صفة خاصة لكل شيء مادى (ذات او معمول الانعكاس) فى الرد بشكل معين على تأثير الاشياء المادية الاخرى المتفاعلة معه (موضوع او عامل الانعكاس)** . وتؤدى هذه الصفة فى سياق التطور الطويل للعالم المادى وتعقد اشكال حركة المادة فى المطاف الاخير الى نشوء الوعى والتفكير لدى الانسان .أن **الوعى هو اسمى شكل للانعكاس** .

ويرتبط فى نظرية الانعكاس ارتباطا وثيقا لا ينفصم التعليم المتعلق بمادية العالم وتطوره الجدلى . ويعجز المثاليون ، شأن الميتافيزيقيين ، عن فهم هذه الرابطة ، ولذا لا يستطيعون اعطاء جواب صحيح ينسجم مع العلم المعاصر عن مسألة منشأ الوعى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الانعكاس فى العالم اللاعضوى . أن ابسط نوع للانعكاس هو الانعكاس فى العالم اللاعضوى ، الذى يشمل الشكل الميكانيكى والفيزيائى والكيميائى وبعض الاشكال الاخرى لحركة المادة . ولكى نفهم فيم تتلخص خاصية هذا النوع من الانعكاس ، سوف نتناول أربعة امثلة .

١ – عندما تضرب كرة البليارد بالعصا تتدحرج باتجاه معين تعيينا صارما ، وبسرعة تكتسبها بفعل قوة الضربة ، ولمسافة معينة .

٢ – عندما تصطدم اثنتان من الدقائق الفيزيائية البسيطة ، هما الالكترون المشحون بشحنة سلبية والبوزترون ذو الشحنة الموجبة ، فى ظروف معينة تتحولان الى فوتونين ، أى كمين ضوئيين .

٣ – عندما يلامس الماء سطح قطعة حديد غير مطلى بمانع الصدأ يصدأ هذا السطح نتيجة عملية التأكسد الكيميائية .

٤ – تحت تأثير الشمس والماء والريح التى تحمل ذرات رمل واحجارا صغيرة ، كذلك بفعل المواد الحامضية والقاعدية الطبيعية نرى حتى الصخور الصلدة المؤلفة من خامات معدنية تتهدم تدريجيا وتتشقق وتتآكل (ظاهرة التحات) فتتحول الى شظايا صغيرة ، ومن ثم الى ذرات رملية .

نصادف فى هذه الامثلة اشكالا مختلفة لحركة المادة هى الشكل الميكانيكى والفيزيائى والكيميائى ، وما يسمى بالشكل الجيولوجى الذى هو عبارة عن اتحاد الاشكال الثلاثة السالفة . ففى الحالة الاولى تنتقل الكرة انتقالا بسيطا فى المكان . وذات الانعكاس (الكرة) نفسها لا تتغير خلال ذلك . وفى الامثلة الثلاثة الاخرى نجد ذات التأثير الخارجى (احدى الدقائق البسيطة ، قطعة الحديد ، الصخرة) لم تتأثر تأثرا معينا بالعوامل الموضوعية فحسب ، بل وتتهدم تحت تأثيرها فتتحول الى شىء آخر (فوتون ، صدأ ، رمل) . وفى جميع الحالات تتأثر ذات الانعكاس بالمؤثرات الخارجية بشكل محدد تماما . والتغير الذى يجرى معها يناسب طابع المؤثر الخارجى .

مثلا ، لو ضربت قطعة الحديد بعصا البليارد ، لما علاهــا الصدأ . ولو صب الماء على كرة البليارد ، لمـا تحركت من مكانهـا . وترتهن كيفيــة تأثر ذات الانعكاس بالمؤثرات الخارجية لا بطبيعة موضوع الانعكاس فحسب ، بل وبخواص ذات الانعكاس ، بخصائصها الفيزيائية والميكانيكية والكيميائية . ومن وجهة نظر العلوم المختلفة تطالعنا فى الامثلة المذكورة تجليات لهذه او تلك من اشكال حركة المادة . ومن وجهة النظر الفلسفية تجمع بين كل هذه الامثلة سمة واحدة ، هى بالتحديد أن الذات ترد بشكل معين على تأثير الموضوع ، اى انها تساهم فى عملية الانعكاس . وهى خلال ذلك أمـا تغير مكانها (المثال الاول) واما تغدو عرضة لتغيرات نوعية عميقة فتتحول الى شىء آخر (الدقائق البسيطة تحولت الى كم ضوئى ، والحديد الى صدأ والصخرة الى حصى ورمل) . وعليه فأن تهدم الذات او تغيرهـا النوعى (٤١١) خلال عمليـة الانعكاس سمة مميزة للانعكاس فى العالم اللاعضوى .

١٢٠

تعقد الانعكاس عند الانتقال الى الطبيعة الحية . قبل حوالى ٣ مليارات سنة ظهرت الحياة على الارض . ولم تكن فى هذا الامر اعجوبة . ففى المحيط العالمى الساخن وغلاف الارض الجوى المشبع بأبخرة المياه كانت تتوفر كميات غزيرة من الكاربـون والهيدروجين والنتروجين والاوكسجين والعناصر الاخرى . ونشأت من هذه العناصر نتيجة عمليات فيزيائيـة كيميائيـة معقدة مركبات عضويـة . وبفضل مؤلفات بـاخ وزيلينسكى وأوبارين ، وعلماء آخرين قام العلـم المعاصر بوضع مناهـج للحصول على هذه المركبـات فى الظروف المختبرية . وتحت تأثير الطاقة الشمسية وطاقة البراكين ، وبتأثير من الشحنات الكهربائية فى الجو والعوامل الطبيعية الاخرى ، كانت الارض بحد ذاتها ، وعلى مدى مليارات السنين اشبه بمختبر طبيعى عملاق صنع فيه حسب مبدأ «التجارب والاخطاء» عدد غفير من المركبات المختلفة ، وكانت تعزى الى عدادها ايضا الجزيئات الفائقة التعقيد التى كان بعضهـا

يتهدم سريعا وبعضها الآخر يدوم ردحا طويلا من الزمن .

وتتمتع مثل هذه الجزيئات ، وبالدرجة الاولى الجزيئات البروتينية التى تدخـــل فى تركيب اجسام الكائنات الحية قاطبة ، بخاصية بالغة الاهمية بالنسبة لنا . فهى لا تتهدم تحت تأثير العوامل الخارجية ، ولا تتحول الى منظومات مغايرة نوعيا ، بل تبقى وتواصل وجودها . ولا يتغير خلال ذلك سوى بعض من بناها . وهذا يعنى أن تغيـرا يجرى فى التوزع الداخلى المتبادل لاجزاء أو عناصر الجزيئة المعقدة المعنية او المادة المؤلفة من هذه الجزيئات . وتتغير الروابط المتعلقة بالطاقة بين الاجزاء والعناصر ، غير أن المنظومة المعنية ذاتها (ذات التأثير) لا تتحلل الى اجزائها او عناصرها . وعندما يكف العامل الذى سبب مثل هذه التغيرات عن العمل ، تعود الذات الى حالتها الاولية .

على هذا النحو ، بامكاننا أن نصف فترة الانتقـــال من العالم اللاعضوى ، من الطبيعة غير الحية ، الى العالم العضوى ، الى الطبيعة الحية ، بأنهـــا مرحلة خاصة من تطور وتعقد الانعكاس . وعلى صعيد المنظومـــات العضوية المعقدة يتجلى الأنعكـــاس فى أن الذات ترد على تأثيـــر الموضوع بتغيير ارتدادى لبعض بناها الداخلية . ومع توقف التأثير تعود هذه البنى الى حالتها الاولية فتضمن بذلك امكانية وجود وتطور ذات الانعكاس .

١٢١

ارتقاء الحياة وظهور الجملة العصبية . يرتبط تطور الانعكاس لاحقا بتطور الحياة وارتقائها . فالحياة هى شكل خاص لوجود وحركـــة المادة . وتتمثل نواقلهـــا المادية الاساسية فى البروتينات والحوامض النووينية التى تؤمن التحكم بالاحياء وتكاثرها وانتقال صفاتها الوراثية . والصفات المميزة للاحياء هى التمثيل الغذائى (الايض) والنمو والتأثر (الحساسيـــة) والقدرة على التكاثر واعادة توليد الذات والتنظيـــم الذاتى والتكيف للبيئة . وابسط الكائنات الحية هى الوحيدة الخلية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجرى ارتقاء الحياة اللاحق خلال عملية التطور الطويلة المعقدة والمتناقضة التى تسمى بالارتقاء البيولوجى .

وفى مجرى عملية الارتقاء ازدادت الكائنات الحية تعقيدا وتطورا . وبما أن البيئة وسائر ظروف الحياة كانت تتغير تدريجيا ، فلم يكن البقـــاء الا من نصيب تلك الانواع من الكائنات الحية التى تكيفت لهذه التغيرات افضل من سواها . وفى اساس التكيف للبيئة تندرج عمليتان هما المحافظة على صفات وخصائص الكائن الحى التى يتوارثهـا جيل عن جيل (الوراثة) ، وقابلية التغير (الطفرة) . فتحت تأثير اسباب مختلفة قد تتغير بعض صفات الاحياء فجأة ، وعلى شكل طفرة . وقد تكون هذه التغيرات من ناحية النوع بأسره ضربـــا من المصادفة . واذا كان هذا التغير الفجائى مفيدا (كأن يساعد على التكيف للبيئة بصورة افضل ، ومن ثـــم يغدو ينتقل بالوراثة) فأن احفاد هذا الكائن الحى يتيسر لهم البقاء على قيد الحياة فى الصراع على الوجود مع باقى انواع النبات أو الحيوان . على هذا النحو تحولت المصادفة الى ضرورة (١٠٧) .

ولا تغدو الكائنات الحية عرضة لتأثير البيئة فحسب ، بل وتؤثر هى الاخرى فيها . اذ تزاول خلال سيرورة نشاطها الحيوى وتكيفها للبيئة افعالا او وظائف محددة تماما . وهذه الموضوعة ترتدى أهمية خاصة من منظور نظرية الانعكاس ، ذلك أن عمليـــة الانعكاس لدى الكائنات الحيـــة لا ترتبط بالتغيرات الارتدادية للبنى الداخلية فحسب ، بل وبوظائفها الحيوية .

ومع ازدياد تعقد وارتقـــاء الاحياء فى الصراع من اجل البقاء يجرى الانتقال من الاحياء الوحيدة الخلية الى الاحيـــاء المتعددة الخلايا . ثم يجرى تخصص مجموعات مـــن الخلايا وبعض من اعضاء الاحياء المتعددة الخلايا باداء وظائف معينة . فبعضها يؤدى وظيفة الحركة والتنقل ، وبعضها يؤدى وظيفة التغذية ، وفريق ثالث يؤدى وظيفة التكاثر وهلمجرا . **وبمرور الوقت تظهر مجموعات خاصة من الخلايا تسمى بالخلايـــا العصبية تتخصص باداء وظيفة الانعكاس** . ويتجلى الانعكـاس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لدى الكائنات الحية فى خاصية التأثر ، أى قدرة الجسم الحى فى الرد على تأثير البيئة بالتحور خلال فترة معينة من الزمن على نحو يؤمن له التكيف بصورة افضل لهذا التأثير ، والبقاء وحفظ الذات . وتندرج فى أساس التأثر عمليات ماديـــة بيوكهربائية .

وفى المرحلة التالية من عملية الارتقاء اخذت تظهر لدى الحيوانات الاكثر تطورا — الاسماك ، الحشرات ، البرمائيات ، الحيوانات اللبونة — جملة (منظومة ، جهاز) عصبية متشعبة ومعقدة . ويؤدى التخصص الجديد و«تقسيـم الواجبات» الى جعل بعض الخلايا العصبية لا تستقبل سوى المؤثرات الضوئية للوسط الخارجى ، وجعل بعضها الآخر يتلقى مؤثراته الصوتية والثالث يتلقـــى المؤثرات الميكانيكيـــة وهلمجرا . وتقوم مجموعة خاصة من الخلايا بوظيفة الاتصال بين سائر الخلايا وتؤدى وظائف خاصة : تنقل الاشارات العصبيـــة الى باقى الاجهزة ، وتخزن (تحفظ) المعلومات عن المؤثرات السالفة ، وتحلل وتغير الاشارات الواردة من الوسط الخارجى . ومن هذه الخلايا العصبيـــة الخاصة ينشأ فى وقت لاحق لدى الحيوانات الارقى مرتبـــة عضو خاص يدير مجمل النشاط المتعلق بالانعكاس والتفاعل مع البيئـــة . وهذا العضو هو الدماغ .

وبظهور الجملة العصبية ، ولاسيمـــا الدماغ ، يرتقـــى الانعكاس الى مرتبة جديدة اعلى . وترتفد التغيرات البنيوية الارتدادية كرد فعل على التأثير الموضوعى للعالـــم الخارجى بتغيرات وظيفية تساعد لا على حفظ جسم الكائن الحى فحسب ، بل وعلى تكيفه للوسط المعيشى والتفاعل معه بشكل افضل .

١٢٢

الانعكاس الايجابى والسلبى للواقع . هل يعنى نشوء الجملة العصبية والدماغ أن الحيوانـــات الارقى مرتبة تحوز فكرا وسلوكا عاقلا وواعيا ؟ يصف عالم طبيعيات معاصر فى كتاب له كيف تقوم فصيلة النمل الاشقر الكبير الحجـــم المسمى بالامزونى باختطاف افراد فصيلة النمل البنى الغامق الصغير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحجم ، واسكانهم فى مستوطناتها لتستثمرهم ك«عبيد» . ولكن حتى «العبيد» يبدون نشاطا خاصا فى سلوكهم . «ذات صباح ذهبت الى مستوطنة النمل الامزونى فرأيت «عبدين» من النمل البنى الغامق يسحبان نملة امزونيـــة من أرجلها ، محاولين اخراجها من المنزل ، وكانت الامزونية تقاوم ، لكنهـــا لا تعضـّهما ، أى انها تبدى مقاومة سلبية . قام «العبدان» بسحبها لمسافة شبر عن المنزل ثم اطلقا سراحها ، واذا بالامزونية تهـــم على الفور بالعودة الى المنزل . أدركها «العبدان» مرة اخرى وامسكا بأرجلها وراحا يسحبانها من جديد بعيدا عن مدخل المنزل ، واطلقاها . فى هذه المرة يبدو أن النملـة الامزونية استسلمت للضرورة ، اذ جلست برهة فى مكانها ، ونظفت نفسها ، ثم انصرفت فى ادغال العشب ، فأستنتجت انها ذهبت الى الصيد وجمع القوت ، والا لما كان بمقدورى أن افسر كل هذه التصرفات الغريبة التى بدرت عن ممثلتى النمل ذى اللون البنى الغامق (وقد شهدت مثل هذه التصرفات مرات عديدة) . يبدو أن «العبيد» كانوا يطردون «اسيادهم» الى العمل ، أى الى القيام بغارات على الاراضى المجاورة والبحث عن الطعام ، كى لا يجلسوا بلا عمل» * . أن الوصف الذى اوردناه يبدو للوهلة الاولى وكأنـــه يقدم الدليل على وجود سلوك عاقل وواع لدى النمل وغيره من الحشرات . لكن الامر فى الواقع ليس كذلك .

أن انعكاس الواقع لدى الاحياء الوحيدة الخليـة ، وهى ابسط الاحياء ، كما اسلفنا ، يكتسب شكلا بدائيا جدا . فاذا ازدادت كثافـة الحامض فى جزء من الوعاء حيث توجد الاميبا ، وهى من الاحياء الوحيدة الخلية ، فسوف نجدهـــا تبتعد الى حيث تكون كثافـــة الحامض اقل . واذا اصطدمت الاميبا بطعام عن طريق المصادفة ، فسوف تلتهمـــه بأى قطاع من قطاعات جسمها . والاميبا لا تختار اتجاها معينـــا للحركة ، ولا تضع امامهـا اهدافا معينة . وبالاستنـاد الى

* اكيموشكين . غرائـــب الطبيعـــة . موسكو ، ١٩٨١ ، ص ٣٥ .

خاصية التأثر (١٢١) لا يمكن أن نرى سوى تكيف سلبى للواقع . **والتكيف السلبى** يعنى أن الكائن الحى ينتقى فقط الظروف الملائمة لوجوده بين مـــا يتوفر منها فى الوسط المحيط به ، لكنه لا يبحث عنها ، ناهيك عن أن يخلقها .
وتتوفر خاصية التأثر ايضا لدى الكائنات المتعددة الخلايا ، ومن ضمنها النباتات . فنبتة العتر (عصا الراعى) الموضوعة على النافذة تقوم ، بفضل تحول الهورمونات من جانب الجذع المضاء باشعة الشمس الى الجانب الواقع فى الظل ، بادارة اوراقها بحيث يسقط عليها المزيد من ضوء الشمس اللازم لنشاطها الحيوى . وهذا ايضـــــا شكل من اشكال التكيف الانتقائى لكنه سلبى رغم ذلك ، لأن نبتة العتر لا تتنقل بحثا عن الضوء ، ناهيك عن انها لا تقوم ذاتيا بصنع الانارة اللازمة عندما يمسى الضوء غير كاف .

ومع تعقد وتطور الجهاز العصبى ونشوء الدماغ يلاحظ انتقـــال تدريجى من التكيف الانتقائـــى السلبى الى **التكيف الايجابى** . ويرتبط التكيف الايجابى لدى الحيوانات الراقية — الحشرات ، الطيور ، ولاسيما الحيوانات اللبونـــة — بالبحث عن الظروف الملائمـــة للمعيشة فيؤدى الى تبلور اشكال سلوك معقدة كفاية . ونحن نلاحظ اشكال سلوك اكثر تعقيدا لدى الحيوانات اللبونة الارقى مرتبة . فالذئاب ، مثلا ، تؤشر حدود اراضيها المخصصة للصيد وتمنع الذئاب الاخرى من الاصطياد فيها . وقد راقب احد الباحثين كيف كانت ذئبـة جائعة تحاول جذب انتباه مجموعة «فضولية» من البط البرى واستدراجها الى الشاطئ ، بعيدا عن المـــاء ، حيث قدمت الذئبة على ساحل البحيرة «حفلا استعراضيا» راحت تتواثب خلاله وتتدحرج على العشب وترقص ، فتبعتها البطات وهى تبتعد اكثر فاكثر عن البحيرة ، وعندما تقلصت المسافة بين الذئبة ومجموعة البط وثبت فجأة وظفرت بغنيمتها . والمعروف أن النمل والنحل تشيد منشآت معقدة جدا ، امـــا حيوان القندس فلا يشيد بيوتا ذات سقوف واقبية خفية تفضى الى الترعة فحسب ، بل ويبنى سدودا حقيقية . فتراه ينقل الى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قاع النهر او الجدول اوتادا مدببة خصيصا ويشدها بالاغصان ويردمها بالاحجار ويطليها بالغرين ، علما بأنه يترك ممرات لجريان الماء ويتحكم بجريانه تبعا لمنسوبه فى الترعة او النهر . كــل هذا يوفر المسوغات للظن بأن سلوك هذه الحيوانات عاقل وواع . بينما ليس هذا فى الواقــع سوى تكيف ايجابى ، فعال تبديه الحيوانات الراقية المرتبــة ازاء البيئة المحيطة بها على اساس اشكال الانعكاس العالية التطور . ويتلخص التكيف الفعال فى أن الحيوانات الراقيـــة توظف بنشاط عناصر البيئة لاغراض معيشتها ، وتتقصى اكثر الظروف ملاءمة ، وتقوم بتكييف البيئة ، وإن بابعاد محدودة ، كـى تكون مناسبة لنشاطها الحيوى . غير انها تفعل ذلك دون خطة للنشاط ، ولا تقوم بتحويل الواقع المحيط بهـــا تحويلا جذريا . أن الكثير من الاشكـــال المعقدة لسلوك الحيوانات يعتبر فطريـــا ، يتبلور خلال ملايين السنين من التطــور (الارتقاء) وينتقل بالوراثة . وتسمى اشكال السلوك الفطرية هذه بالغرائز ، وقد تكون معقدة جدا ، ولكن فى حالة حدوث تغير حاد فى ظروف الحياة تجد الحيوانـــات نفسها «اسيرة» غرائزها ، وعاجـــزة عن تغيير هذه الغرائز لغرض التكيف للظروف الجديدة ، ناهيك عن عجزها عن تغيير هذه الظروف بشكل حاسم وتكييفها لاحتياجاتها الجديدة .

١٢٣

النفسي والفيزيائي ، المثالي والمادى . الجهاز العصبى والدماغ ماديان ، تجرى فيهما عمليات فيزيائية وكيميائية مختلفة : اذ يتم التمثيل الغذائى وتنتشر النبضات البيوكهربائية ومـا الى ذلك . وتسمى نتيجة تفاعل الدماغ والعالم المادى الخارجى بالنفسية ، بينما تسمى عملية اداء النفسية لوظائفها بالنشاط النفسى . وتنطـوى النفسية على : ١ – الصور الحسيـــة ، البصرية والسمعية واللمسيـــــة والشمية والذوقية للاشياء والعمليات الجارية فى العالم المادى الموضوعى ؛ ٢ – القدرة على اختيار الاهداف والسعى الى تحقيقها ، الامر الذى لا تتسم به الا الحيوانات الراقية المتسمة بسلوك هادف (من هــذه

القدرة تنشأ لدى الانسان الارادة والسلوك الارادى) ؛ ٣ – العواطف والانفعالات والمشاعر التى ترد بها الحيوانات ردا مباشرا على مؤثرات البيئة (كالغضب والفرح والخوف والشغف، الخ) ؛ ٤ – القـــدرة على حفظ ونقل المعلومات ، وبالدرجة الاولى القواعد والاصول والمواصفات التى تتحكم بالسلوك وتتيح التكيف للبيئة (ومن هذه القدرة ينشأ لدى الانسان الوعى والتفكير) .

ومن المهم جدا أن يفهم المرء أن النفسية كونها منتوج النشاط الحيوى للدمـــاغ لا تنحصر فى الانعكاس السلبى البسيط للواقع الخارجى ، ولا تعتبر صورة له طبق الاصل ، كما فى المرآة . فهى تتمتـــع بقدرة على تلقى وتحويـــل المعلومات التى تتيح صياغـــة قواعد السلوك ، وبقدرة على التوليف الفعال للصور وردود الفعل النفسية واعادة تركيبها . وفى نتيجة الارتقاء الطويل ، ومع ظهور الانسان ، تتحول هذه القدرات الى قدرة على الابداع تخص الانسان وحده . بيد اننا نستطيع رصد اجنتها فى النشاط النفسى للحيوانـــات الراقية . وحتى مع ظهور الوعى البشرى تبقى جملـــة من مستويات واشكال النشاط النفسى لا يشملها الوعى ، ولا تخضع لرقابته ، بل تمكث فى مجال النشاط النفسى اللاواعى . وثمة علم خاص يدرس منشأ النفسية واداءها لوظائفهـــا ، وكذلك علاقة الوعى واللاوعى فى النشاط النفسى هو علـــم النفس (السيكولوجيا) .

يستخدم مفهومـــا «الوعى» و«التفكير (الفكر)» عـــادة كمترادفين . وهكذا استعملهما انجلس عند صياغته للمسألة الاساسية فى الفلسفة (٠٠٧) . ولكن ، ثمـــة فارق معين بينهما . فالتفكير يعنى اساســـا عملية صنـــع المعارف المتعلقة بالواقع المحيط ، عملية صنع المفاهيم والطروحات والاستنتاجات ، التى تتمثل المرحلة الاولية منهـــا فى تكون الاحاسيس والمتلقيات الحسية (١٠١ ، ٥٠٥ ، ٥٠٧) ، فى حين يعنى الوعى نتيجة لهذه العملية ونشاطا يتعلق باستخدام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما تم وضعه من مفاهيم وطروحات واستنتاجات فى التعامل مع العالم المحيط لغرض معرفته وتغييره .

على هذا النحو ، يشكل التفكير والوعى أسمى مستوى من النفسية والنشاط النفسي . ولا يتسم بهما سوى الانسان . اما الحيوان فلا يحوز الا أجنة ، عناصر بسيطة للغاية ، او بالادق قابليات ينشأ منها فى سياق التطور الطويل التفكير والوعى البشرى .

والنفسية ، بما فيها فكر الانسان ووعيه ، مثالية . وعلى الرغم من أنها تنشأ نتيجة تفاعل مادى بين الدماغ المادى والعالم الخارجى المادى ، فهى لا تتمتع بالصفات والملامح التى تتسم بها كل الظواهر المادية (كالامتداد فى المكان أو الشكل الهندسى او الحجم أو كتلة السكون او الحركة) . وليس للظواهر النفسية ايما مواصفات فيزيائية او كيميائية . وهى لا تحتوى على شحنات كهربائية او ذرات او جزيئات او دقائق بسيطة اوكواركات او حقول فيزيائية ، الخ . ولا تخضع هذه الظواهر لقوانين الحركة الفيزيائية أو الكيميائية او البيولوجية . فالظواهر المادية فى حركة دائمة لا تتوقف بصرف النظر عن تغير نفسية هذا الحيوان او ذاك ام عدم تغيرها . على العكس ، أن تغير النفسية مرهون بتغيرات الدماغ المادى والاشياء المادية الخارجية .

والنفسية ثانوية بالنسبة للعالم الفيزيائى المادى ، فى حين أن هذا العالم لا يرتهن بها ويعتبر اوليا . ثم أن النفسية هى نتيجة تطور خاصية الانعكاس التى تتسم بها كل المادة ، بيد أن النفسية لا تصنعها المادة كلها ، بل الدماغ الذى هو الشكل الاكثر تعقيدا للمادة الحية . أن هذا الاستنتاج الذى استخلصته نظرية الانعكاس اللينينية يتيح امكانية الدحض الكامل لمذهب حيوية المادة القائل بأن المادة بأسرها حية ولها خواص نفسية .

تكشف نظرية الانعكاس اللينينية عن كامل بطلان المادية الميكانيكية والمبتذلة من جهة ، والمثالية الموضوعية والذاتية من جهة اخرى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبجعل الانسان الذى يدعى ان له روحا الهية خالدة نقيضا للحيوان «العديم الروح» ، كان الفيلسوف الفرنسى ديكارت المتمسك بمواقع المذهب الثنوى (٠٠٨) يزعم أن الحيوانات ليست سوى آليات معقدة لا يشكل سلوكها سوى رد ميكانيكى على مؤثرات البيئـة . وقـام المادى الميكانيكـى الفرنسى ج . لاميترى (١٧٠٩-١٧٥١) بتعميم هذا الرأى الميكانيكى ايضا على سلوك الانسان الذى لا يعتبر - فى رأيه - سوى آلة معقدة للغاية أشبه بآلية ساعة عملاقة . وكان ماديـو القرن التاسع عشر المبتذلون (فوخت ، بيوهنر ، موليشوت) يدعون أن الفكر والوعى عبارة عن منتوج مادى ، بل وحتى ملموس لنشاط الجسم . فالفكر ، فى اعتقادهم ، يفرزه الدماغ مثلما يفرز الكبد المادة الصفراء .

بطبيعة الحال ، لـم نعد نصادف فى النصف الثانى من القرن العشرين هذا الشكل الصريح من المادية المبتذلة . ولكن لا تزال تنتشر حتى الآن بين اوسـاط ممثلى الفلسفـة البرجوازية ، وعلى نطاق واسع كفايـة ، آراء ميكانيكيـة وفيزيقالية تنكر الخصوصية النوعية التى يتسم بها النشاط النفسى ، وبخاصة التفكير . فالفيلسوف الاسترالى ارمسترونغ ، مثلا ، يدعى صراحة أن العقل ما هو الا الدماغ ، وان التفكير يمكن حصره فى وصف خواص الدماغ الفيزيائية .

أن معطيات العلم المعاصر تدحض دحضا تاما آراء الماديين الميكانيكيين والماديين المبتذلين على السواء . وبالاعتماد على هذه المعطيات تقدم نظرية الانعكاس اللينينية دليلا لا يدحض ضد المثالية ايضا . فهى تكشف لنا أن النفسية لا يمكن أن توجد من غير حاملهـا المادى ، أى من غير الدماغ الذى يصنعها . وهذا الدليـل يدحض فى الوقت ذاته المثاليـة الموضوعية التى تدعى أن الوعى ، والعقل العالمى موجودان منذ الأزل ، خارج المادة وقبلها وبصورة مستقلة عنها ، كما يدحض المثالية الذاتية التى تنكر وجود المادة بحد ذاتـه وتقول بامكانية وجود الفكر من غير النشاط العصبى الذى يتمخض عنه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبالاعتماد على معطيات العلم المعاصر تؤكد المادية الجدلية الى جانب ذلك أن النفسية ، كونها ثانوية ، تتطور وتؤدى عملها حسب قوانينها الذاتية ، ولا يمكن حصرها ميكانيكيا فى الظواهر والعمليات الفيزيائية أو الكيميائية او البيولوجية .

على هذا النحو ، وبعد أن تناولنا تطور وتعقد الانعكاس ، نكون قد اقتربنا جدا من مسألة خصوصية الوعى البشرى باعتباره الشكل الاسمى لانعكاس الواقع .

وعى الانسان

١٢٤

الدماغ هو العضو المادى للنشاط النفسى . أن دماغ الحوت اخف من وزنه بحوالى ٥٠٠ مرة ، ودماغ الاسد اخف من وزنه بحوالى ١٥٠ مرة ، اما دماغ الانسان فأخف من وزنه ٦٠-٦٥ مرة فقط . وهذا يدل على أن «الوزن النوعى» للنشاط النفسى او الوظائف النفسية فى حياة الحيوانات اللبونة الراقية يختلف تماما بالنسبة الى وظائف الجسم الاخرى . والقضية ، بالطبع ، ليست فى حجم الدماغ ووزنه ، بل فى النشاط الذى يزاوله . هنالك فارق نوعى مبدئى بين نشاط الانسان النفسى ، الذهنى او العاطفى والحيوانات الراقية . فالانسان قادر على صنع مواد لا وجود لها فى الطبيعة ، وعلى برهان النظريات الرياضية وممارسة الفن وصنع المكائن ، بل وحتى أرتياد الفضاء الكونى بعيدا عن حدود الارض . كل هذا لا طاقة للحيوانات به ، وكل هذا فى الوقت ذاته يجرى بفضل نشاط الدماغ . فالدماغ هو شكل المادة الحية الاسمى والاكثر تعقيدا وتنظيما .

لقد كشف العالم الروسى بافلوف (١٨٤٩-١٩٣٦) وتلاميذه عن أن ارتكاسات الدماغ الشرطية واللاشرطية هى التى تندرج فى أساس النشاط النفسى . فلئن كانت ثمة مؤثرات خارجية تؤثر على النهايات العصبية للحواس ، فسوف تنتقل الى الدماغ عبر الجهاز العصبى اشارات بيوكهربائية

محددة بصرامة ، فتسبب جملـــة مـــن التحولات الفيزيائية الكيميائية المعقدة تتحول في سياقها الاشارة القادمة فتثير لدى الجسم رد فعل جوابيا . وعلى اساس هذه الاشارة يبعث الدماغ ايعازا جوابيا الى الاعضاء الباطنية او الاعضاء الحركية ذات العلاقة للقيام بالفعل الاكثر ملاءمة . فعند رؤية الطعام ، مثلا ، ينفرز اللعاب فـــي تجويف فم الحيوان . وحين يمس الانسان سطحا حاميا يسحب يده بلمح البصر . هذه العملية تسمى بالانعكاس اللاشرطي او الغريزة .

والاشارات التي تثير الانعكاس اللاشرطي هـــي الاشياء والعمليات في الواقع الموضوعي ، المهمة حيويا بالنسبـــة لمجمل نشاط الجســـم . وعلى اساس الانعكاسات اللاشرطية تتكون الانعكاسات الشرطية . مثلا ، اذا دأبنا على قرع جرس قبل اطعام الكلب باستمـــرار ، فبمرور الوقت سوف يقوم جسمه بافراز اللعاب ردا على قرع الجرس حتى في حالة غياب الطعام . وفي الطبيعة تساعد مثل هذه الانعكاسات الشرطية الحيوانات على التكيف لظروف البيئة السريعة التغير . وهي تستخدم في الحياة اليومية لترويض الحيوانات . ففي المثال الذي اوردناه اصبح الجرس «ينوب» عن اللحم ، أي انه اصبح اشارة شرطية لشيء مهم حيويا .

والانعكاسات الشرطية واللاشرطية تنبعث من قشرة نصفي الدماغ الكبيرين لدى الحيوانات الراقيـــة والانسان . وقد اصبحنا الآن نعرف بدقة كافية قطاعات الدماغ التي تتلقى الاستثارات البصرية والسمعية واللمسية والشمية ، وكذلك القطاعات التي تتحكم بعمل مختلف الاعضاء (الايدي ، الارجل ، اللسان ، وهلمجرا) . وعندمـــا تصاب هذه القطاعات لدى حيوانات التجارب او الانسان (نتيجة مرض او حادث) تختـــل الوظائف المتعلقة بها اختلالا شديدا . وهذا يؤكد بما لا يقبل الجدل أن النشاط النفسي المثالي في طبيعته يعتبر نتيجة لعمل الدماغ المادي .

وقد اثبت خلال السنوات الاخيرة أن الشطرين الايمن والايسر من الدماغ لدى الحيوانات الراقية والانسان يؤديان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وظائف مختلفة . ففى الشطر الايمن يجرى تركيم وتحليل وخزن المعلومات التعبيرية ، الحسية ، عن العالـم الخارجى (الاحساس بالاصوات والروائح والصور البصرية وهلمجرا) على شكل ذاكرة . اما الشطر الايسر فيخزن ما يشبه قواعد وأصول النشاط . على هذا النحو تتعمق معارفنا عن الدماغ والنشاط النفسى وستبقى تتعمق مستقبلا .

١٢٥

العمل أساس الوعى . ولكن لمـــاذا تتوفر لدى الحيوانات بداءات التفكير ، لكنها تعجز عن معالجة تلك المهام والقيام بتلك الافعال التى يعالجها ويقوم بها الانسان ؟ الجواب عن هذا السؤال هو : أن فكر ووعى الانسان يختلفان اختلافـا نوعيا عن النشاط النفسى للحيوانات بفضل العمل . ولكن الا تستطيع الحيوانات مزاولة العمل ؟

أن العقاب الابيض الرأس يلتقط بمنقاره حجرا كرويـا ويقلع الى ارتفاع شاهق ، ويسدد الى بيضة النعامة الكبيرة التى يعجز عن كسرها بمنقاره ، ثم ينقض عليها ويطلق الحجر كطوربيد صغير من مسافة بضعة امتار عن الهدف . تتهشم قشرة البيضة فتغدو لقمة سائغة للعقاب . والشمبانزى — القرد الشبيه بالانسان — يطيب لـــه فى الظروف الطبيعية والمختبرية على السواء استعمـــال العصا لاسقاط ثمرة موز معلقة على ارتفاع شاهق . اما عن حب النحل والنمل للعمل فتحكى الاساطير . رغم ذلك ، فالحيوانات لا تزاول العمل . انها تستثمر مادة الطبيعة الضرورية للحياة ، وتجمع القوت وتشيد مساكنهـــا بواسطة اعضائهـــا الطبيعية : الانياب ، المخالب ، الاجنحة ، المناقير ، الزعانف . اما الخاصية المميزة لعمل الانسان فهى أن ما بين الانسان والطبيعة تمثل أدوات العمل . فالانسان بواسطة ادوات العمل لا يكتفى باستثمار مادة الطبيعة ، بل يقوم بتحويرها مضفيا عليهـــا شكلا خاصا ، ضروريا لتلبية احتياجاته . انه يقوم خلال سيرورة العمـــل بأنسنة الطبيعة ، ولا يندر أن يصنع اشياء لا وجود لها اصلا فى الطبيعة . أن علاقة الحيوانات بالطبيعـــة تعتبر مباشرة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالحيوانات نفسها تعتبر جزءا من الطبيعة . وعلى الضد من ذلك ، تمثل بين الانسان والطبيعة ادوات الانتاج : المعدات والاجهزة والآليات والمكائن المعقدة . لذا فأن علاقة البشر بالطبيعة تعتبر غير مباشرة ، أى انها تجرى بمساعدة ادوات العمل . وبفضل ذلك ينفصل الانسان عن الطبيعة ويضع نفسها فى مواجهتها . ولكن الا يتناقض هذا مع المثالين اللذين اوردناهما عن العقاب والشمبانزى ؟

كانت سيرورة العمل الحقيقية التى تحول اجدادنا الاقدمون بفضلها الى بشر ترتبط بصنع ادوات خاصة ومخصصة لمزاولة العمل بالذات ، لا باستخدام ما يجدونه بشكل جاهز فى الطبيعة من اشياء . فالعقاب لا يصنع صخرته ، والشمبانزى لا يقطع ولا ينشر عصاه . ولكن حتى اقدم اجدادنا كانوا يصنعون ادوات حجرية بدائية ، وذلك عن طريق نحت حجر بحجر آخر . وكانوا يقومون بتدبيب نهايات العصى بواسطة مقاشط حجرية ويعالجونها بالنار لتكتسب المتانة . ولكن حتى ارقى الحيوانات المعاصرة ، ومن ضمنها القرود الشبيهة بالانسان لتعجز عن القيام بشيء كهذا . ولهذا السبب بالذات فأن أى نشاط للحيوانات ، حتى اذا كانت تستخدم لاجله احيانا الاشياء التى تعثر عليها فى الظروف الطبيعية ، يختلف اختلافا مبدئيا ونوعيا عن عمل الانسان .

أن العمل لا يتيح تحويل وتغيير الاشياء المحيطة فحسب ، بل ويؤدى الى تغيير وتطوير الانسان نفسه . فعن طريق تكرار بعض العمليات مليارات المرات على مدى مئات الوف السنين طور البشر اعضاءهم ، وبالدرجة الاولى ايديهم ، ومعها تطور ايضا دماغ الانسان . وقد جرى ذلك لأن نفس قطاعات الدماغ التى تتحكم بعمل اليد ، تتحكم ايضا بالنطق وبلسان الانسان ، كونها مراكز نشاطه الذهنى . واتاح تطور الدماغ بدوره تركيم ونقل المعلومات الى الاجيال التالية عن اساليب العمل وطرق صنع ادواته ، وعن مراس التعاون والتعاضد الجماعى وعن العالم المحيط . وفى سياق العمل قام الانسان بتغيير وتحويل اشياء مختلفة . وقد اتاح له ذلك معرفة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ودراسة صفاتها غير المتاحة للحيوانـــات . على هذا النحو اصبحت سيرورة العمل اساسا لتطور الفكر والوعي كونهما أسمى اشكال النشاط النفسي . وعندما انفصل الانسان عن الطبيعة لم يع موقعه المعارض للطبيعة فحسب ، بل ووعى ذاته كمخلوق متميز يتمتع بالوعي ويختلف بفضل ذلك عن سائر الكائنات الحية .

على هذا النحو كان ظهور الوعي يعني الانتقال الى الشكل الاسمى لانعكاس الواقع . وكان هذا الانتقال يتلخص في أن الانسان ، عوضا عن التكيف السلبي وحتى الايجابي للطبيعة ، قد تعلم على اساس عكس ومعرفة الواقـــع تكييف الطبيعة لاحتياجاته وتحويلها تبعا لغاياته ، وصنع اشياء لا وجود لها في الطبيعة .

١٢٦

اللغة والفكر . الوسيلـــة الجبارة الاخرى لتطور الوعي هي اللغة . فاللغة هي الواقع المباشر للفكر . بعبارة اخرى أن الفكر يتجسد دائما في اللغة . والعكس بالعكس : **أن اللغة شكل للتعبير عن الفكر** .

واللغة منظومة رموز خاصة . فكل لغة تتألف من كلمات مختلفة ، أي من اشارات صوتية رمزية تعني مختلف الاشياء والعمليـــات ، وكذلك من قواعد النحو التي تتيح تنظيـــم المفردات في جمل . والجمل هي التي تعتبر وسائل التعبير عن الافكار . فبواسطة الجمل الاستفهامية يتساءل البشر ويعبرون عن استغرابهم او جهلهم . وبواسطة صيغة الامر يصدرون الايعازات والاوامر . وتستخدم الجمل الوصفية او التعبيرية لوصف العالم المحيط والتعبير عن معارفنا عنه وتقلهـــا الى الآخرين .

ان مجموع مفردات هذه اللغة او تلك يشكل متنهـــا . ويضم متن اكثـــر اللغات المعاصرة تطورا عشرات الـــوف المفردات . وبمساعدتها ، وبفضل قواعد تركيب وتوليف المفردات في جمل ، تتسنى كتابة او لفظ عدد غير محدود من الجمـــل المفيدة ، باعتمادهـــا في ملء مئات ملايين الكتب

والمقالات . وبحكم ذلك تتيح اللغـــة التعبير عن مختلف الافكـــار ، ووصف مشاعر وانفعالات الناس ، ووضع صيغ النظريات الرياضية وصنع المعارف العلمية والتقنية .

وعلى الرغـــم من أن الفكر والوعى مثاليان ، فان اللغة التى تعبر عنهما مادية . فحـــواس الانسان تستطيـــع تلقى اللغة المنطوقة او المدونة . **فبعد أن ظهرت اللغة وتطورت فى سياق النشاط العملى الجماعى اصبحت أهم وسيلة لتطور الفكر** . فبواسطتها يتم حفظ وتحليل ونقـــل المعلومات من انسان الى آخر ، ومن جيل الى جيل . **واللغة** تظهر فى مجتمع **وتعتبر ظاهرة اجتماعية** وتؤدى وظيفتين بالغتى الاهمية هما التعبير عن الوعى ونقل المعلومات .

وتتوفر لدى الحيوانات الراقية مبادئ الابلاغ بالاشارات الصوتية . فالدجاج يصدر بضع عشرات من الاصوات التى تعبر عن الاحساس بالخطر وتستقدم الكتاكيت وتبلغ بوجود الطعام او غيابه . ولدى بعض الحيوانات اللبونـة المتطورة الآن كالدلافين مئات الاشارات الصوتية . رغم ذلك فليست هذه لغة بالمعنى الحقيقى للكلمـة . وتقوم قدرة الابـــلاغ بالاشـارات لدى الحيوانـــات على الاحاسيس والتصورات البسيطة . ويصفها بافلوف بجهاز الاشارات الاول . وليس لدى هذه القدرة على التبليغ بالاشارات قواعد توليف . لذا تكون المعلومات التى تبثها محدودة جدا . فجهاز الاشارات لدى الحيوانات يستطيع أن يبث قدرا من المعلومات بالقدر المتوفر لديه من الاشارات ، فى حين تستطيـــع اية لغة بشرية أن تبث وتعبر عن قدر غير محدود من المعلومـات المتنوعة .

ولغة الانسان هى جهاز الاشارات الثانى . وقد نشأت تاريخيا فى سياق نشاط البشر العملى والاجتماعى ، واصبحت أهم أداة لمعرفة وتغيير العالم المحيط بل والانسان نفسه . والصفة المميزة الرئيسية لجهاز الاشارات هذا تتمثل فى كون الشخص الذى يستخدم الاشارات الاصطلاحية — الكلمات وما تكونه من جمل يستطيع الخروج عن اطر الغرائز واكتساب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قدر من المعـارف غير محدود من حيث الحجـم والتنوع .

لقد اخفقت كل محاولات تعليم القرود الشبيهة بالانسان لغة صوتية ، ذلك أن الجهاز الصوتي لدى الحيوانات يعجز عن محاكاة أصوات اللغة البشرية الواضحة المخـارج . وقد تسنى خلال السنوات الاخيرة تعليم عدد من قرود الشمبانزى استعمال بعض الايماءات من لغة الصم والبكـم للتعبير عن ابسط الانفعالات (الجوع ، الخوف ، وما الى ذلك) . واكثر ما تستطيع القرود أن تعبر عنه بهذه اللغة يبث بالاشارات التي تعنى : «اعطنى ماء» ، «أبرز الدمية» الخ . اما الجمل الاكثر تعقيدا ، التي تتضمن المفاهيم المجردة التي يستحيل بدونها تطور التفكير ، فلا تتسنى لهـا الا بعناء شديد . والعائق المنيع الذى يعترض تطور النشاط اللغوى لدى القردة هو أن دماغها ليس بالحجم والتطور اللذين يمكنانها من تعلم لغة الانسان . أن لاجراء مثل هذه الابحاث أهمية علمية معينة ، وهى تدل الى جانب ذلك على أن القرود الراقية الشبيهـة بالانسان تعجز لا عن أن تطور بشكل مستقل جهاز الاشارات الثانى الذى يندرج فى اساس نشاط الانسان الذهنى ، بل وعن أن تستوعبه استيعابا تاما .

ان النشاط اللغوى الذى نشأ ابان العمل كأساس ووسيلة لتطور الفكر والوعى يعتبر سمة مميزة للانسان .

وفى سيرورة العمل بالذات ظهرت الحاجة الى التفاهـم والتبادل بالخبرة الانتاجية ، الحاجة الى تنفيذ الاوامر باحكام ، وتركيم ونقل المعلومات الضرورية للحياة . وهذا هو ما أدى الى تطور اللغة وتعقدها تدريجيا ، بعد أن كانت بادئ ذى بدء تتداخل تداخلا مباشرا مع النشاط العملى .

كان العمل واللغـة العاملين الاساسيين اللذين ساعدا على ظهور وعى الانسان كشكل اسمى لانعكاس الواقع .

١٢٧

بصدد الطابع النسبى لتعارض المادة والوعى . هكذا نرى أن الوعى ، بخلاف المادة ، ليس ازليـا . انه ناتج تطور المادة . والوعى هو الشكل الاسمى والاكثر تعقيدا لخاصيتها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المتميزة ، أى الانعكاس . فالمادة يمكن أن توجد بغير الوعى ، وتسبقه فى عملية التطور ، بيد أن الوعى لا يمكن أن يوجد بغير المادة . بهذا المعنى بالذات يعتبر الوعى ثانويا ، مشتقا . وهذا هو موطن تعارض المادة والوعى . أن الاشياء المحيطة بنا مادية ، فى حين يعتبر الوعى الذى ينشأ فى دماغنا مثاليا ، وهذا ما يتجلى فيه ايضا تعارض المادة والوعى . بيد أن هذا التعارض بحد ذاته ليس مطلقا بل هو نسبى . كما أنه لا يحوز معنى الا فى حدود المسألة الاساسية للفلسفة ، عندما نُعنى بسؤال لمن الاولوية — للمادة أم للوعى ، وما هو موقف الوعى من المادة ، وهل بامكانه معرفة العالم المحيط بنا .

لنفترض اننا نتأمل الاشياء المحيطة بنا وندرسها . وبما أن هذه الاشياء تقع خارجنا وبصورة مستقلة عن وعينا ، ونحن نتلقى منها المعلومات عن طريق حواسنا ، فبوسعنا أن نقول بثقة أنها جميعا تعتبر جزءا من المادة ، أى من الواقع الموضوعى (١٠٢) . وبما أن صور الاشياء المحيطة بنا ومفاهيمها والطروحات والتعابير المعينة التى تعبر عن معارفنا تقع فى دماغنا وتدخل فى تركيبة وعينا ، فهى بهذا المعنى ذاتية . فالذاتى ، على هذا النحو ، هو انعكاس للواقع الموضوعى فى ظروف معينة . وبهذا المعنى بالذات يكون الوعى معارضا للمادة كونها واقعا موضوعيا .

ثم لنفترض أن شخصا يراقبنا ريثما نعكف على دراسة الاشياء المادية التى تعنينا ، فتراه يتفحصنا ويدرسنا ويتأمل تصرفاتنا وكلامنا وافعالنا . بالنسبة الى هذا الشخص ووعيه نعتبر نحن انفسنا ودماغنا ونشاطنا موضوعيين شأن كل الاشياء الاخرى فى العالم المادى المحيط بنا . اذن ، يمكن لهذا الانسان أن يعتبرنا نحن انفسنا ، شأن نواتج نشاط دماغنا واقعا موضوعيا ، وشيئا يقع خارج وعيه وخارج نشاطه النفسى . معنى هذا أن فكرنا ونفسيتنا يشكلان بالنسبة الى الشىء الذى يعنينا فى حالة ما انعكاسا له فى دماغنا ، ويمكن لمراقب آخر أن يعتبر فكرنا ونفسيتنا فى حالة اخرى واقعا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

موضوعيا يقع خارج وعيه وبصورة مستقلة عنه . ونضيف اننا نحن ايضا يمكن ان نتخذ بدورنا موقفا مماثلا ازاء وعى هذا المراقب ونشاطه النفسى .

على هذا النحو ، ينبغى لنا فى حدود المسألة الاساسية للفسلفة ، حين يجب أن نقرر هل يستطيع الوعى أن يوجد بصورة مستقلة عن المادة وقبلها أو بدونها ، أن نجيب أن الوعى ناتج تطور المادة الطويل . وهنا يقتضى الامر تبيان تعارض الموضوعى والذاتى بدقة واثبات كون الوعى ثانويا ، مشتقا . وعندما يتم استيضاح هذا الجانب من القضية وتثبت صحة المادية ، تغدو المبالغة بهذا التعارض خطأ جسيما . فمن شأن ذلك أن يعيق البحث العلمى فى الوعى والفكر وباقى تجليات النشاط النفسى كالارادة والشعور . وبما أن النفسية تتجلى فى نشاط الانسان المادى ، وفى العمل والتصرفات المختلفة ، وفى النشاط اللغوى وما الى ذلك ، فأن من شأن اعتماد تعارض المـادة والروح ، الفيزيائى والنفسى وفصل احدهما عن الآخر فصلا تاما الا يكون سوى عائق يعترض البحث العلمى فى الوعى والظواهر النفسية الاخرى .

١٢٨

هل بامكان الكمبيوتر أن يفكر ؟ لقد اوضحنا كيف ينشـأ الوعى فى نتيجة التطور الموضوعى للمادة ، وما هى الاسباب والعوامل التى تؤثر فى تكونه . وبوسعنا الآن أن نعود الى المسائل المطروحة فى مستهل القسم السالف (١١٧) .

فى اواسط القرن الحالى برزت واخذت تتطور سريعـا مواضيع علمية جديدة : السيبرنيطيقا ، نظرية الاعـلام ، نظرية الذهن الصناعى ، وغيرها . وكان ظهورها مرتبطـا بصنع الحاسبات الالكترونية السريعة العمل (الكمبيوترات) . وتتمثل خاصية الكمبيوترات فى انها ، بخلاف سائر المكائن ، صنعت لتخفيف مجهود الانسان الذهنى لا البدنـى . كان باستطاعة بواكير الكمبيوترات أن تؤدى بضعة الوف مـن العمليات الحسابية والمنطقية فى الثانية ، متفوقة على الانسان فى السرعة . اما الحاسبات العصرية ، ولاسيما الميكروحاسبات

فهى رغم صغر حجمها تتفوق الوف المرات على سالفاتها وتؤدى عشرات ملايين العمليات فى الثانية . ومنذ وقت قريب تم صنع صفائح سيليكونية بحجم الطابع البريدى تضم قرابة ربع مليون خلية من خلايا «الذاكرة الالكترونية» . وبات بامكان العلماء والمصممين فى الوقت الراهن أن يصنعوا على مثل هذه الصفائح مخططات تكاملية خارقة الكبر تحتوى على ملايين من المفاتيح الترانزيستور ، الامر الذى تسنى بفضله صنع ميكروحاسبات قادرة على اداء عمليات منطقية وحسابية معقدة جدا بحجم عظيم من المعلومات خلال فترات زمنية متناهية القصر . وتساعد نظرية الاعلام ونظرية الذهن الصناعى على وضع برامج معقدة للكمبيوترات . ويجرى وضع هذه البرامج بلغات رياضية صناعية خاصة ، وهى عبارة عن تشكيلات قوامها الوف عديدة من القواعد التى تملى تركيب وتتابع العمليات التى يجب أن تؤديها الكمبيوترات عندما تعالج هذه او تلك من المسائل . وبامكان الكمبيوترات العصرية أن تؤتمت كليا جملة كاملة من العمليات الانتاجية والحسابات البالغة التعقيد . وهناك ايضا كمبيوترات البرمجة الذاتية التى تقوم ، استنادا الى ما تزود به من برامج ، بوضع برامج جديدة اكثر تطورا وتعقيدا ، وتصحح الاخطاء التى يرتكبها المبرمجون ، بل وحتى تقوم بتصميم اجهزة الكترونية اخرى تعمل اوتوماتيكيا . وتعمل فى العالم راهنا مئات الالوف من الاجهزة الاوتوماتيكية الالكترونية — الروبوتات التى تحل فى بعض المصانع محل العمال القائمين بتشغيل خطوط الانتاج ، والتى ضمنت الاتمتة الكاملة لاعمال اللحام وغيرها من الاعمال الشاقة . وثمة روبوتات قادرة على اداء المجهود المكتبى المعقد فى المصارف . وسوف يزداد عدد الروبوتات حتى اواخر القرن الحالى اضعافا مضاعفة ، وستغدو اكثر تطورا ، كما ستظهر برامج جديدة اكثر تعقيدا واجهزة حاسبة وادارية اصغر حجما واسرع اداء .

بناء على ذلك ، غالبا ما يبرز السؤال التالى : هل بامكان الكمبيوترات أن تفكر ؟ أولا يمكن أن تزاحم الانسان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كمخلوق عاقل ، أو أن تحل محله بمرور الوقت على كوكبنا ؟ أن لهذا السؤال مغزى ليس فلسفيا فحسب ، بل وسياسى اجتماعى . فعلى الرغم من أن الابحاث فى مجال نظرية الذهن الصناعى وصنع المنظومات الخبيرة القادرة على حل المسائل المعقدة وتصميم الروبوتات الذاتية العمل قد تقدمت كثيرا فى الوقت الراهن ، وتتوفر المسوغات للاعتقاد بأن التقدم فى هذه المجالات سوف يتنامى باطراد ، فليس هناك بعد مسوغات لمثل هذه المخاوف ، على الاقل فى المستقبل المنظور .

اما اذا نظرنا الى القضية من ناحية تحليل طبيعة الفكر والوعى ، فسيكون الجواب عن السؤال المطروح كما يلى : أن نشاط الانسان النفسى يضم ليس فقط شكله الاسمى ، أى التفكير المنطقى الجارى حسب قواعد معينة ، بل والعديد من اشكال الانعكاس الانفعالى للواقع (كالفرح والغضب والخوف واللذة والحب والصداقة وشعور العداء والجوع والتخمة وما الى ذلك) ، وكذلك مختلف انواع العمليات النفسية اللاواعية . ويسترعى اهتماما خاصا ابداع الانسان ، وهو ظاهرة لا تخضع لقواعد مقررة سلفا . على العكس ، فى الابداع بالذات توضع قواعد جديدة وتتبلور افكار ومبادئ نشاط جديدة نوعيا . ولو لم يكن الابداع ، لزاول البشر باستمرار ، شأنهم شأن الحيوانات ، نفس التشكيلة من انواع النشاط المتأصلة فيهم والمنقولة بالوراثة . والابداع هو بالذات تلك الخاصية النفسية للانسان التى تتجلى فى قدرته على تغيير العالم المحيط تغييرا نوعيا ، وانتاج ما هو جديد تماما ، والتى تميزه جذريا عن سائر الكائنات الحية . وهنا يمر الفاصل الواضح بين امكانيات اكثر الكمبيوترات كمالا وامكانيات أى انسان سوى . فالكمبيوترات بحد ذاتها لا تفكر ، بل تؤدى فقط ، وبمساعدة المخططات التكاملية والاجهزة الالكترونية ، القواعد التى تتضمنها البرامج . والكمبيوترات تتفوق على الانسان بسرعة اداء العمليات ، وتتفوق عليه بحجم الذاكرة (بقدرة اجهزة حفظ المعلومات)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبالمثابرة والقدرة على مزاولة العمل بلا انقطاع على مـدى سنوات طويلة ، وما الى ذلك . ولكن بما أن عملية الابداع لا يمكن أن تخضع كليا لقواعد ولا يمكن أن توصف بواسطة هذه القواعد ، فمن غير الممكن «برمجة» عملية الابداع سلفا و«نقلها» الى الاجهزة الحاسبة . وبغير الابداع يتعذر تطور العلم والتقنية والفن ، ويتعذر التفكير الحقيقى . وما مـن كمبيوتر ، حتى الذى يؤلف الموسيقى وفق قواعد معطـاة سلفا ، يستطيع أن يحـل محل بتهوفن . وليس بامكـان الكمبيوتر الذى يؤلف نصا وفق قواعد معطاة سلفا أن يقدم نتاجا كرواية ليف تولستوى «الحرب والسلام» . والكمبيوتر بوجه عام يعجز عن حل المسائل غير المقررة فى البرنامـج الموضوع فيه .

فى رواية «احدب نوتردام» للكاتب الفرنسى فيكتـور هيجو ، التى تصف احداث اواخر القرن الخامس عشر يعبر احد شخوص الرواية مقارنا الكتب المخطوطة والمطبوعة عن مخاوفه قائلا أن آلة الطباعة التى اخترعت توا سوف تؤدى الى جعل الناس ينسون اصول الكتابة فيزداد الجهل . ونحن نعلم الآن أن هذه المخاوف والتخمينات لم تتحقق . فعدد الناس الذين يجيدون القراءة والكتابة ينمو باطراد فى العالم بـأسره ، ويرتفع المستوى التعليمى العام ، وهذا يجرى بفضل الطباعة بالذات . ويمكن قول شىء مماثل ايضا بشأن ما يسمـى بالكمبيوترات «المفكرة» . فحين تضطلع الميكروكمبيوترات والروبوتات بتنفيذ بعض العمليات المنطقية الحسابية ، أنما تغنى الناس عن المجهود الشاق الروتينى الذى يحجر العقل . ومثلما أدت الطباعة الى نمو الثقافة العامة ، كذلك سيساعد انتشار الكمبيوترات على استمرار تطور وترقى الفكر البشرى . اذ ستحدث قفزة حادة فى المستوى التعليمى وفى ثقافـة الناس ، فى نمو قابلياتهم الابداعية . وسيتيح هذا للبشرية أن تخطو خطوة عملاقة اخرى الى الامام على طريق تنميـة وتطوير نشاطها النفسى ، على طريق معرفة العالم وتحويله تحويلا معقولا لصالح الاغلبية الساحقة من البشر . ولهذا يجب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ان نرى فى تطور الكمبيوترات ، ولاسيما الالكترونيات الدقيقة ، لا منافسا خطرا للفكر البشرى ، بل قاعدة لاستمرار تطوره وارتقائه .

١٢٩

بعض الاستنتاجات . الوظيفة التركيبية للفلسفة . بعد الفروغ من مناقشة الجانب الاول من المسألة الاساسية فى الفلسفة يجب استخلاص الاستنتاجات التالية .

أن للمقولات التى بحثناها فى هذا الفصل أهمية منهجية كبيرة . فهى تبين ما هو الاتجاه العام لنشاطنا المعرفى . فعند دراسة وبحث العالم المحيط يجب على العالم والشخصية الاجتماعية وأى انسان واع فعال أن ينظر اليه لا كركام عشوائى من المصادفات ، بل كعملية مادية واحدة مترابطة ، موجودة موضوعيا وتتطور حسب قوانينها . وليس العالم عموما هو وحده الذى يشكل منظومة مادية عملاقة ، بل واجزاؤه ايضا عبارة عن منظومات خاصة تتسم بروابط ضرورية مستقرة ، ولها عناصرها وبناها . ويستدل من ذلك أن من غير الجائز النظر الى معرفة العالم من مواقع المثالية الذاتية ، لانها تنكر الطابع الموضوعى للظواهر المحيطة بنا . ولا يجوز النظر الى معرفة العالم ايضا من مواقع المثالية الموضوعية التى لا ترى فى كل الظواهر المحيطة سوى مظهر للوعى ، ولا تجد الا سنن الفكر ، دون أن تفهم أن الفكر والوعى بحد ذاتهما عبارة عن ناتج لمسيرة تطور العالم المادى المعقدة .

وأخيرا ، فأن المادية الميتافيزيقية التى تنكر الطابع العام للتغير والتطور لا تستطيع ، هى الاخرى ، الاجابة عن سؤال كيف ينشأ التفكير والوعى ، ولا تستطيع توجيه عقولنا الى دراسة القوانين الموضوعية للحركة والتطور ، فى حين هذا هو الذى يشكل بالذات ابرز مهمة للعلم المعاصر بأسره . ومن لا يرى الطابع العام المتعدد الاغراض للتغير والحركة وتطور الطبيعة والمجتمع ، سوف يخطئ ايضا فى حل المسائل السياسية الاجتماعية التطبيقية . وفى العالم المعاصر السريع التغير تعتبر معرفة القوانين الموضوعية لتغير المنظومات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والبنى الاجتماعية شرطا ضروريا للنشاط الناجح .

وتؤدى مقولات المادية الجدلية التى تناولناها فى هذا الفصل ، فضلا عن الوظيفتين العقائدية والمنهجية ، وظيفة مهمة اخرى . فبمساعدة هذه المقولات يجرى تركيب وتوحيد مختلف المعارف العلمية فى لوحة واحدة للعالم ، مما يتيح النظر بوجه عام فى كل اشكال حركة المادة ، من شكلها الابسط ، الميكانيكى ، حتى اسماها واكثرها تعقيدا . فالاشياء الجامدة والكائنات الحية ، الاشكال الدنيا من الانعكاس وشكله الاسمى – الوعى ، وعملية نشوء الحياة ، والعمل كنشاط اجتماعى واللغة كناقل مادى للفكر – كل هذا يندرج فى لوحة موحدة ، ويجمع ويركب فى عقيدة واحدة .

ان الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا والفلك والتاريخ والسيبرنيطيقا وغيرها من العلوم تعالج مسائلها حسب مناهجها الخاصة وتضع مفاهيمها وتصوراتها الخاصة الواسعة الى هذا القدر او ذاك عن المواضيع التى تدرسها . ولكن ما من علم من هذه العلوم يستطيع تركيب وتوحيد نتائج العلوم الاخرى ضمن اطار لوحة العالم الموحدة . والفلسفة لا تعوض عن ولا تحل محل العلوم الاخرى حين تضع المقولات الفلسفية التى تتيح تركيب الاستنتاجات الرئيسية والاساسية للعلوم الاخرى ، تلك الاستنتاجات التى تعزى الى لوحة العالم العامة وتقدم تصورات عنه ككل واحد . ويتسنى خلال ذلك تركيب وتوحيد مختلف الظواهر ضمن اطار عقيدة واحدة . وهذا يتيح فهم مكانتها فى العالم المتغير وترابطها ، كما يمكن من التنبؤ الصائب بتطورها اللاحق . على هذا النحو تؤدى الفلسفة ايضا وظيفة اخرى هى تركيب المعرفة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثانى

الوجود الاجتماعى والوعى الاجتماعى

اوضحنا فى الفصل السابق كيف تجيب الفلسفة الماركسية اللينينية عن الجانب الاول من المسألة الاساسية فى الفلسفة . بيد ان الانسان يعيش فى المجتمع ، وجل ما يهمه هو سنن التطور الاجتماعى . وفهم هذه السنن يتطلب النظر فى المسألة الاساسية للفلسفة بمقتضى الحياة الاجتماعية . وهذا يعنى ان علينا تبيان ترابط الوجود الاجتماعى والوعى الاجتماعى ، وايهما الاولى والحاسم فى نشاط البشر وتاريخ المجتمع . والجواب عن هذه الاسئلة تقدمه المادية التاريخية او الفهم المادى للتاريخ .

الفهم المادى للمجتمع وتاريخه

٢٠١

حديث فى الفهم المثالى والمادى للمجتمع . تتعارض الماديـة التاريخية تعارضا جذريا مع المثالية التاريخية ولا يمكن ان تتهادن معها . ولاجل تبيان ما هى الاختلافات الجذرية بيـن النظرتين المادية والمثالية الى المجتمع ، من المناسب ان تستمع الى حديث يجريه ثلاثة اشخاص سبق ان اصطلحنـا عليهم وهم : مادى جدلى ومثالى موضوعى ومثالى ذاتى .

م . م : اذا كانت النظرات المادية الى الطبيعة والوعى تتفق مع العلم ، فان ذلك لا يعنى بعد انها تصلح لفهم الحياة الاجتماعية والتطور التاريخى .

م . ج : هكذا كان يظن الماديـــون الميتافيزيقيـــون

السالفون ، وهكذا يظن كل المثاليين ، بيد ان موقفهم يفتقر الى التعليل .

م . ذ (مشاركا فى الحديث) : ان الاشياء المادية متشابهة . اما البشر فان انفس ما لديهم هو تفردهم الذى لا يتكرر والذى يميز بعضهم عن بعض . ويستدل من ذلك ، اولا ، ان ليست هناك ايما قوانين موضوعية لنشاط البشر . فهم يسترشدون باهدافهم الشخصية الفريدة ، والفريد ، الطارئ ، ليس من القوانين بشيء . لهذا ، ثانيا ، ان الامر الرئيسى فى المجتمع هو اهداف وارادة ونوايا الافراد ، وجل اهتمامنا ينصب على الافراد العظماء . فهم يقودون الجمهور على الطريق المختار الذى لا يمكن التنبؤ به لانهم شخصيات مبدعة . وثالثا ، من العبث التحدث عن تطور المجتمع ، بل يمكن الحديث فقط عن تطور الشخصيات المنفردة .

م . م : بخلافك ، انا اعتقد ان البشر يخضعون لقوانين عامة ، لكنها قوانين تطور الافكار ، تطور الوعى الاجتماعى الذى تخضع له فى كل عصر الارادة والرغبات الشخصية الفردية . على سبيل المثال كان الناس فى العصور الوسطى باغلبيتهم متدينين ، لان الغلبة كانت لفكرة الرب . وفى عشية الثورات البرجوازية كانت الغلبة فى انجلترا وفرنسا لفكرة الحرية ، فأستخدمتها البرجوازية فى صراعها ضد الانظمة الملكية الاقطاعية . ولنفترض ان فكرة الرخاء العام والتآخى الطبقى تحظى بانتشار فى ايامنا هذه . ولئن استحوذت على العقول فسوف يتوقف كل صراع ، بما فى ذلك الصراع الطبقى ويترسخ الى الابد النظام الاجتماعى القائم . بعبارة اخرى ، ان كل ما يفعله الناس انما يفعلونه تبعا لتلك الافكار التى تسود فى المجتمع . المطلوب فقط هو فهم هذه الافكار فهما صحيحا .

م . ج : ان حججكما تقوم على ان كلا منكما يقتطع جانبا من الواقع ويجعله نقيضا لجوانبه الاخرى . انها طريقة تناول ميتافيزيقية . لهذا يبقى الامر الرئيسى خارج طروحاتكما . فالمثالية الذاتية والموضوعية لا تستطيعان ، مثلا ، ان تفسرا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لماذا يمر المجتمع فى سياق تطوره عبر نفس مراحل العبودية والاقطاعية والرأسمالية والاشتراكية . واذا لم تكن هناك سنن موضوعية فى المجتمع ، فكيف يمكن تفسير اوجه الشبه بين الثورات البرجوازية التى حدثت فى انجلترا وفرنسا وامريكا وهولندا الخ ؟ واذا كان كل شيء مرهونا بالارادة الشخصية ، فلماذا اخذ عدد كبير من البلدان يشمل زهاء ثلث البشرية يسلك فى ايامنا هذه طريق الاشتراكية ، وهو — بصرف النظر عن بعض الفوارق — يسير نحو هدف واحد هو الشيوعية ، وهذه المسيرة تخضع لسنن عامة متشابهة ؟ واخيرا ، كيف يمكن تفسير حقيقة ان بعض الافكار تسود فى بعض العصور وفى عصور اخرى تسود افكار اخرى غالبا ما تكون معارضة لتلك ؟ ولماذا ، مثلا ، كان من غير الجائز ان تنبثق فى العصر الهيليني فكرة التقدم العلمى التقنى ؟ ولماذا فى ايامنا هذه بالذات . وباعتراف الاصدقاء والاعداء على السواء ، اصبحت الماركسية اللينينية التيار الفكرى الاكثر انتشارا فى العالم اجمع ؟ علاوة على ذلك ، ان الاراء المثالية لا تفسر لماذا سارت الجماهير فى بعض العصور وراء بعض الزعماء رافضة آراء ودعوات زعماء آخرين . فى عصور اخرى شاركت الجماهير الشعبية فى الحركات الاجتماعية ، وانتخبت من وسطها الزعماء والقادة الاكثر ملاءمة . عن كل هذه الاسئلة لا تقدم المثالية الذاتية والموضوعية ايما جواب ، فى حين نجد المادية التاريخية ، اذ تقر بالتعقيد البالغ الذى يكتنف المشاكل الاجتماعية ، تعلل التعليم الذى يمكن بواسطته سبر اغوار هذه المشاكل واتخاذ موقف حياتى فعال .

فما هى المبادئ الاساسية للمادية التاريخية ، وما هو مغزى الفهم المادى للمجتمع وتاريخه ؟

٢٠٢

الانسان والنشاط . ممهدات الفهم المادى للتاريخ . تقتضى الاجابة عن هذا السؤال تعيين المنطلق او الممهدات التى ينبغى البدء منها بالمناقشة . فما هى الخصائص المميزة للنشاط البشرى ؟

ان كل التغيرات فى الطبيعة موضوعية . فهى لا ترتبط بالتفكير ، بهذه او تلك من اشكال الوعى . على العكس ، **ان السمة الرئيسية المميزة لنشاط الانسان هى ان كل فعل او تصرف يقوم به ينطوى على جانبين مترابطين : مادى ، طبيعى ومثالى يشمل الوعى والفكر** . واذا استثنينا الافعال التى تجرى فى الحلم او حالة المرض اللاواعية ، فان كل فعل يقوم بـه الانسان الطبيعى السليم يرتبط بهذه او تلك من انشطـة الوعى . فقبل ان يفعل الانسان شيئا يضع امامه هذه الاهداف او تلك . فالهدف هو صورة متخيلة او مفهوم او تصور عما لا وجود له ، ولكن ينبغى السعى اليه . فقد يكون هـدف شخص ما حيازة شيء او بناء مسكن ، الخ . وقد يكون هدف فريق من العاملين تحسين العملية الانتاجية ، او صنع ماكنة صناعية جديدة وهلمجرا . وقد يتمثل هدف المجتمع فـى التغيير الواعى لظروف حياته المادية وبناء نظام اجتماعى جديد كالشيوعية مثلا . وباختصار فان النشاط عموما ، وكـل حلقة من حلقاته هما عبارة عن وحدة جانبين مادى ومثالى . وكل فعل مادى يقوم به الانسان — كالتنقل فى المكان او قطع الاخشاب او تشغيل ماكنة ، الخ — يتطلب فهم مغزى ما يقوم به الشخص من افعال ، ومعرفة قواعد النشـاط ، وحيازة مراس معين وادراك الهدف . وبغير ذلك يتعذر نشاط الانسان . وبالعكس ، ان اية فكرة للانسان ، واية رغبة من رغباته لا يمكن ان تتحق واى هدف له لا يمكن بلوغه من دون نشاط مادى بدنى ، ومن دون استعمال الوسائل المادية وادوات العمل . وحتى فكر الانسان ذاته لا يمكن ان يفهمه الاخرون الا بواسطة النشاط اللغوى المادى تماما . على هذا النحو نجد ان الجانبين المادى والمثالى فى نشـاط البشر يترابطان ترابطا وثيقا لا ينفصم . وهذه وحدة جدلية يترابط فيها نقيضان يتمم احدهما الاخر ويتداخل احدهما فى الاخر (٤٠٤)

ما الذى يعتبر حاسما فى تناسب جانبى النشاط البشرى المادى والمثالى ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد تطرق الى هذا السؤال المؤرخ والفيلسوف الانجليزى كوللنغوود (١٨٨٩ – ١٩٤٣) فأدعى ان الامر الرئيس فى النشاط هو «الجانب الداخلى» ، اى الافكار والمشاعر والدوافع والنوايا والاهداف والقرار الواعى . اما الجانب «الخارجى» ، اى الافعال والتصرفات المادية المتلقاة شعوريا ، فلا تنبغى مراعاته الا بقدر كونه يساعد على التغلغل فى عالم الوعى البشرى . وفهم التاريخ ، من وجهة نظره ، يعنى فهم دوافع البشر ونواياهم واهدافهم . هذا فهم مثالى نمطى للتاريخ ، ولكن لا يجوز ، انطلاقا منه ، ان نفسر لماذا كانت تظهر لدى البشر فى ظروف تاريخية متشابهة اهداف ورغبات ونوايا متشابهة ، ولماذا تختلف لدى ممثلى الفئات والطبقات الاجتماعية المختلفة ، ولماذا – اخيرا – يستطيع البشر تحقيق بعض الاهداف والنوايا ، بينما بعضها الاخر لا يمكن تحقيقه فى ظروف معينة ، ويؤدى الى نتائج مفاجئة ، واحيانا مضادة تماما . من هنا تستدل ان من غير الممكن صرف الانتباه عن الظروف المادية لنشاط الانسان الحيوى الا فى المخيلة .

ان فهم خصوصية الحياة الاجتماعية وتاريخ المجتمع يقتضى النظر فى كلا جانبى النشاط البشرى – المادى والمثالى – فى وحدتهما وترابطهما ، دون فصل احدهما عن الاخر ، ودون وضع احدهما نقيضا للاخر . وهذا يتطلب الاجابة عن سؤال اى جانب من هذا النشاط هو الاولى والحاسم ، وايهما ثانوى ومحسوم :

٢٠٣

تطور المجتمع كعملية تاريخية طبيعية . الاجابة عن هذا السؤال يقدمها التعليم عن تطور المجتمع كعملية تاريخية طبيعية .

ان كل العمليات الجارية فى الطبيعة لا ترتهن بارادة ووعى الانسان ، انما هى موضوعية او طبيعية . لذا فالقوانين التى تتحكم بظواهر الطبيعة موضوعية هى الاخرى . فهل يمكن ان تكون هناك قوانين موضوعية لتطور المجتمع ، اى قوانين لا ترتهن بارادة ووعى البشر ؟ ان لنشاط البشر بحد ذاته

جانبين مترابطين ، احدهما مادى والاخر روحى . لقـــد رد مؤسسو الماركسية اللينينية على هذا السؤال بالايجاب . فعن طريق تعميم تجربة التاريخ خلصوا الى استنتاج مفـاده ان قوانين التطور الاجتماعى تسرى بصورة موضوعية ومحتومة كقوانين الطبيعة بفارق مبدئى واحد هو انها تشق طريقها عبر نشاط البشر . لهذا السبب بالذات وصفوا تطور المجتمع بانه عملية طبيعية تاريخية . وقد لا يفهم البشر ولا يدركون خلال ذلك ان نشاطهم يخضع فى التحصيل الاخير لقوانين اجتماعية موضوعية بمعزل عن ارادتهم ونواياهم . ويقال فى مثل هذه الحالات ان تطور المجتمع يجرى **بصورة عفوية** . والعفوية لا تعنى ان البشر يتصرفون بشكل لاواع تماما . وفى مرحلة التطور العفوى لا يعى ولا يكوّن البشر الا اهدافهم الشخصية والفئوية المباشرة ، ويختارون الوسائل اللازمة لتحقيقهـا ، دون اعتماد على معرفة قوانين التطور الاجتماعى ، وفى هذه الحالة قد تكون نتائج نشاطهم غير مناسبة لما وضعوه من اهداف . اما اذا كان البشر يدركون سنن التطور الاجتماعى الحقيقية ، فان نشاطهم يعتبر **واعيا** بالمعنى الحقيقى للكلمة . وفى مرحلة النشاط الاجتماعى الواعى تكون نتائجه مناسبة تماما للاهداف الموضوعة وتؤدى الى تحقيقهـــا ، ذلك ان الاهداف ذاتها فى هذه الحالة توضع وتصاغ بمراعاة السنن التاريخية الموضوعية .

يقوم فهم تاريخ المجتمع كعملية تاريخية طبيعيـــة على الاقرار بالدور الحاسم للجانب المادى من النشاط البشرى . الى جانب ذلك يؤخذ بعين الاعتبار ان الجانب الروحى لهذا النشاط يلعب دورا فعالا مهما . فقد يؤثر تاثيرا ملحوظا فى الجانب المادى ، رغم ان هذا التأثير بحد ذاته تعينه وتقيده الظروف المادية لنشاط البشر الحيوى . ولاجل فهم افضـــل لتفاعل هذين الجانبين من العملية التاريخية الطبيعية وتأثيرهما المتبادل ينبغى ان نأخذ بالاعتبار الاحكام المهمة التالية التى طرحها وعللها ماركس وانجلس : ١ — ان «التاريخ» ليس شخصية خاصة تستخدم الانسان كوسيلة لبلوغ اهدافها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالتاريخ ليس سوى نشاط الانســـان الساعى لتحقيـــق اهدافه» * . ٢ – «. . . ان البشرية لا تضع نصب اعينهـا دوما الا تلك المسائل التى تستطيع حلها ، ذلك انه يتضح دائما عند التبحر فى البحث ان المسألة ذاتها لا تبرز الا حين تتوفر الظروف المادية اللازمة لحلها ، او ان تكون هـــذه الظروف فى طور النشوء على اقل تقدير» ** .

يتضح من الاقوال التى اوردناها اى دور مهم كان مؤسسا الماركسية يخصان بـــه الوعى الاجتماعى وصياغة اهداف ومهام التطور الاجتماعى . الى جانب ذلك كانا يؤكدان باستمرار ان طابع ومضمون هذه المهـــام تحددهما الظروف الماديـة ووسائل النشاط البشرى . لذا يغدو واضحا ان خصوم المادية التاريخية يشوهون حقيقة الامور حين يتهمون هذا التعليـــم الفلسفى بأنه لا يقدر حق التقدير اهميـــة الجانب الروحى للنشاط البشرى . وهم فى الوقت ذاته يعجزون عن فهم ان اعتبار نشاط البشر الهادف مضمونا حقيقيا للتاريخ لا يناقض ابدا حقيقة ان الظروف المادية ووسائل تحقيقها هى الجانب الحاسم لهذا النشاط .

فى الفصل السالف توصلنـا فى حديثنـا عن تناسب المادة والوعى (١٢٧) الى ان المادة هى عبارة عن الواقـــع الموضوعى ، وهى موجودة خارج نواتج نشاط الدماغ وبصورة مستقلة عنها . اما الوعى ، فعلى العكس ، يعتبر نتيجة لنشاط الدماغ ، لذا فهو بهذا المعنى ذاتى . وعلى غرار ذلك سوف نتحدث مستقبلا عن جوانب النشاط البشرى الموضوعية ، اى المادية ، والذاتية ، اى الروحية ، وكذلك عن عوامل التطور الاجتماعى الموضوعية والذاتية . ولاجل فهم تفاعلها بصورة افضل ينبغى ان نتنـــاول بمزيد من التفصيل مختلف انواع النشاط البشرى ، كمـــا ينبغى تبيان السنن الموضوعيـــة المندرجة فى اساسها .

---

* ماركس ، انجلس . المجلد ٢ ، ص ١٠٢ .
** المصدر السابق ، المجلد ١٣ ، ص ٧ .

طريقة الانتاج – اساس تطور المجتمع وادائه لوظائفه . فى الحياة اليومية يمارس الناس انواعـــا مختلفة من النشاط . ويعزى الى عدادهـــا : النشاط المعيشى العائلى ، والانتاجى والسياسى والعلمى والتربوى والدينى والعسكرى والرياضى وغيرها . وعند ممارسة هذا النشاط او ذاك يقيم الناس علاقات معينة فيما بينهم . وكان مفكرو العصور السالفة ، وهم عادة يعبرون عن مصالح طبقات المجتمع المسيطرة ، يفردون الدور الرئيسى للنشاط الروحى . وكان هذا يجرى لان النشاط المتعلق بانتاج الثقافة الروحية ، اى وضع الافكار الفلسفية والدينية والسياسية والعلمية وغيرهـا ، كان من امتيازات الطبقات المسيطرة .

وكان فهـــم حقيقة ان الاساس الحقيقى لتطور المجتمع واساس كل انواع النشاط الاخرى ، بما فى ذلك النشاط الروحى ، هو عمليـــة العمل ، اى انتاج الخيرات المادية ، انجازا فذا للمادية التاريخية . وهذه الموضوعة التى تبدو لنا بسيطة ومفهومة كانت بالنسبة لزمنها (عندما تقدم بهـا ماركس وانجلس) انقلابا حقيقيا فى فهم الحياة الاجتماعية .

لقد اوضحنا فى الفصل السالف ان العمـــل والنشاط التطبيقى المادى عموما (١٢٥) هـــو السبب الرئيسى لفصل الانسان عن مملكة الحيوان ، واساس نشوء الوعى . **فالعمل هو اساس التطور التاريخى وممارسة المجتمع لوظائفه .**

فما هى عملية العمل ، ومـــا هى بنيتها ؟ ان العناصر الاساسية لهذه العملية هى : ١ – الانسان بمعارفه ومراسه ، ٢ – ادوات العمل ، والمعدات والاليـــات والعدد التقنية ، ٣ – مواد او مواضيع العمل التى يجدها الانسان فى الطبيعة او التى يقوم باعدادها ، ثم يصنع منها بمساعدة الادوات المنتوجات الجاهزة . **وتسمى ادوات ومواد العمل مجتمعـة بوسائل الانتاج .** وهى مادية وموجودة موضوعيا . **والانسان بمعارفه ومراسه ، وكذلك وسائل الانتاج ذات العلاقة تشكل قوى المجتمع المنتجة .** وهذا هـو ذلك الجانب من الانتاج

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذى يوجه الانسان نحو الطبيعـــــة . وحين يؤثر الانسان بواسطة الادوات فى العالم المحيط يغيره ويضفى على الظواهر والعمليات المحيطة الشكل الاكثر صلاحا لتلبية احتياجاته . وبتغيير العالم المحيط يتغير الانسان نفسه . فعلى اثر تغير الادوات ووسائل الانتاج عمومـا يجرى تغير وتطور معارف ومراس الكادحين . وفى نتيجة ذلك يرتفع ايضا مستوى تطور القوى المنتجة . نرى على هذا النحو ان القوى المنتجة تضم المقومات المادية المحضة (الادوات ، الآليات ، الخ) مثلمـا تضم المقومات الروحية (المراس والمعارف الانتاجية) ، بيد **ان الجانب الرئيس والحاســم لتطور الانتاج هو المقومات المادية . ويعتبر الانسان ، الكادح ، القوة المنتجة الرئيسية ،** ذلك انه هو الذى يقوم بتشغيل ادوات العمل ويساعد على تغيير وسائل الانتاج عموما . وفى ايامنـا هذه بات تطوير القوى المنتجة يقتضى معارف علمية خاصة . لهذا يغدو العلم قوة منتجة مباشرة ، ويتنامى دور المعارف باطراد (٣١١) .

وعند ممارسة النشاط الانتاجى يدخل الناس فى علاقات انتاجية ليست مرهونة بارادتهم ووعيهم . على هذا النحو ، **يكون لعملية انتاج الخيرات المادية ، او طريقة الانتــاج جانبان مترابطان همـــا القوى المنتجة والعلاقات الانتاجية .** وتشكل القوى المنتجة مضمون طريقة الانتاج ، بينما تشكل العلاقات الانتاجية شكلهـا (١١١) . والمضمون هو الجانب الحاسم والرئيسى لكل ظاهرة . بيد ان الشكل هو الاخر يلعب دورا مهمــا وفعالا : فهو يساعد على تطور الظاهرة اذا كان موافقا للمضمون ، ويعيق هذا التطور اذا اختل هذا التوافق .

اذن ، ثمة ترابط موضوعى وضرورى ، اى قانونى بين جانبى طريقة الانتاج . وقد اكتشف هذا الترابط وبحثه لاول مرة ماركس ، ويمكن ان يصاغ كقانون موضوعى خاص يتحكم بتطور طريقة الانتاج ، ايا كانت . وهذا القانون يسمى **بقانون توافق العلاقات الانتاجية مع طابــع ومستوى تطور القوى المنتجة** . وهو ينص على ان الانتاج المادى يتطور بمزيد من النجاح اذا كانت العلاقات الانتاجية تناسب القوى المنتجة على

الوجه الاوفى . بيد ان هذا التوافق لا يكون ابدا تاما ودائما بشكل مطلق . ولكون القوى المنتجة هى الجانب الاكثر تحركا لكل طريقة انتاج ، فهى تتقدم فى تطورها عاجلا او اجلا على العلاقات الانتاجيـــة . ويحل اختلال فى التوافق بين القوى المنتجة والعلاقات الانتاجية . وتتحول العلاقات الانتاجية من قوة محركـــة للانتاج الى معرقل له ، وعندئذ تظهر ضرورة موضوعية لاقامة علاقات انتاجية جديدة . وفى نتيجة ذلك تنشأ طريقة انتاج جديدة ، وتتغير معها ايضا كل العلاقات الاجتماعية وكل انواع النشاط الاجتماعى الاخرى . وكمـــا نرى فأن العلاقات الانتاجية تلعب دورا مهما جدا فى تطور ونماء طريقة الانتاج . وعندما نقول ان هذه العلاقات تنشـأ بصورة مستقلة عن ارادة ورغبة الناس ، انما نؤكد طابعها المادى الموضوعى . بيد ان الناس حين يقيمون علاقات فيما بينهم ، كعلاقات التعاون او التنافس ، التعاضد او الصراع ، يفهمون ما يفعلون ويدركون تصرفاتهم بهذا الشكل او ذاك . فلماذا يمكن القول فى مثل هذه الحالة ان علاقاتهم التى تنشأ خلال عملية الانتاج موضوعية ؟

لنتناول بمزيد من الانتباه العلاقات الانتاجية . انها تضم : ١ — علاقات ملكية وسائل الانتاج الاساسية ، وفى مقدمتها ادوات العمل ؛ ٢ — العلاقات التى تنشأ مباشرة خلال عملية الانتاج ؛ ٣ — واخيرا العلاقات المتعلقة بتوزيع منتوجات العمل ، اى علاقات التوزيـــع . والحاسم بين كل العلاقات الانتاجية هو علاقات الملكية التى ترتهن بها العلاقات الانتاجية الباقية . وبنمط الملكية يرتهن نمط طريقة الانتاج ذاتها ، القائمة فى المرحلة المعنية من التطور الاجتماعى . ويجرى تمييز **خمسة انماط اساسية للملكية** هى المشاعية البدائية الجماعية ، والعبودية والاقطاعيـــة والرأسماليـــة والشيوعية (الاشتراكية) . وتبعا لذلك هناك خمس طرائق انتاج اساسية هى المشاعية البدائية والعبودية والاقطاعية والرأسماليـــة والشيوعية (الاشتراكية) .

ومهم ان نفهم ان الملكية هى ليست صفة الاشياء ، كما

كان يزعم العديد من الفلاسفة والاقتصاديين البرجوازيين . اذ تعتبر نفس ماكنة الانتاج فى نظام الانتاج الرأسمالى ملكية خاصة . بينما تغدو فى نظام الانتاج الاشتراكى ملكية اجتماعية اشتراكية . ان الملكية نوع خاص من العلاقات بشأن الاشياء التى تعتبر وسائل انتـــاج ، التى يدخل فيها الناس بحكـــم الضرورة التاريخية الموضوعية تبعـــا لطابع ومستوى تطور قواهم المنتجة . على سبيل المثال ، فى حالة وجود ادوات العمل الحجرية فى المجتمـــع البدائى ليس بامكان البشر ان يدخلوا فى العلاقات الرأسمالية الخاصة التى تقوم على الملكية الخاصة والاستحواذ على الربح الرأسمالى . فمستوى القوى المنتجة المنخفض القائم هناك يعجز عن ضمان انتاج الربح . ولهذا فالعلاقات المشاعية البدائية الجماعيـــة القائمة على الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج تنشأ لا بارادة ووعى البشر البدائيين ، بل تبعـا لطابع ومستوى تطور القـوى المنتجة المادية .

فى المجتمع الرأسمالى المعاصر تقوم القوى المنتجة على تقنية معقدة تستخدم فيها الروبوتات والاجهزة الاوتوماتيكية . ويشارك فى عملية الانتـــاج ملايين الناس . معنى هذا ان القوى المنتجة تحمـــل هناك طابعا اجتماعيا . اما العلاقات الانتاجية فتقوم فى هذه الحالة على الشكل الرأسمالى الخاص للملكية الذى كان موافقا لطابع ومستوى تطور القوى المنتجة التى نشأت خلال المراحل المبكرة من تطور الرأسمالية . وفى تلك الفترة كانت العلاقـات الانتاجية الرأسمالية الخاصـــة تناسب باتم صورة قوى المجتمع المنتجة ، وتفتح مجالات رحبة لتطورها السريع . اما الان فلم تعد العلاقات الانتاجية الرأسمالية تناسب طابع ومستوى تطور القوى المنتجة . وعلى الرغم من ان هذه العلاقات لا تستطيع وقف التقدم التقنى ، فهى تعرقله بشدة وتعيق تطور القوى المنتجة . وفى نتيجة ذلك تنشأ على الرغم من ارادة ورغبة الناس ضرورة تاريخية موضوعية لاقامة شكل جديد تعاونى ، اشتراكى لملكية وسائل الانتاج . وهذا يعنى انه يجب موضوعيا ان تنشأ علاقات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

انتاجيــة جديدة عوضـــا عن علاقات التنافس والاستغلال الراسمـــالى هى علاقات التعاضد والتعـــاون والمبـــاراة الاشتراكية .

اذن ، فى كل مرة ، حين ينشأ تحت تأثير قانون توافق العلاقات الانتاجية والقوى المنتجة نمط جديد للملكية ، تتغير ايضا العلاقات الاخرى التى تقررها الملكيـــة . ويتجلى هذا بالدرجة الرئيسية فى مجال توزيع الخيرات المادية . وبطبيعة الحال ، فى ظل الرأسمالية وفى ظل الاشتراكية على السواء ، وتبعا للوضع الملموس القائـــم ، اى تبعا لتقلبات حالة السوق ، وللعرض والطلب على العمـل وجملة من الظروف الاخرى ، يمكن لاشكال توزيع الخيرات المادية ان تتغير ، ويمكن ان يتذبذب مستوى الاجور وان تتغير ربحيـــة هذه المؤسسات او تلك وما الى ذلك . بيد ان ارتهان التوزيع العميق بنمط الملكية السائد يبقى قائما . وبالتالى فمع تغير طريقة الانتاج يتغير مبدئيا مجمل نسق العلاقات الانتاجية .

بامكان الناس ان يدركوا حتميـــة مثل هذه التحويلات الاجتماعية العميقة وان يعملوا لاجل تحقيقها ، وبامكانهم كذلك ان يقاوموها دفاعا عن مصالح الطبقات المسيطرة ، المعنية ببقاء العلاقات الاجتماعية القديمـــة . بيد انهم لا يستطيعون تفادى قيام العلاقات الانتاجية الاشتراكية ، ذلك ان هذا امر يقيضه الطابع الموضوعى لتطور القوى المنتجة المادية . بهذا المعنى بالذات يرتدى نمط العلاقات الانتاجية التى تتسم بها طريقة الانتاج المعنية ، وبالدرجة الاولى نمط الملكية الذى يحدد كل العلاقات الانتاجية الاخرى ، طابعا موضوعيـــا ولا يرتهن بارادة ورغبة البشر . بوسع الناس ان يساعدوا او يقاوموا بهذا القـدر او ذاك مفعول قوانين تطور الانتـــاج الموضوعية ، وبالدرجة الاولى قانون توافق العلاقات الانتاجية مع طابع ومستوى تطور القوى المنتجة ، لكنهم لا يستطيعون الغاء هذه القوانين او تغيير او وقف مفعولها .

ولاجل ان نستوعب استيعابـــا حقيقيـــا الفهم المادى للتاريخ ، من المهـــم جدا ان نفهـــم ان العصور التاريخية

يختلف بعضها عن بعض لا بما ينتجه الناس ، بل بالكيفية التى ينتجون بها ، اى بطريقــة الانتاج . فالبشر لا ينتجون الاشياء المادية وحدها ، انما «ينتجون» ايضا ، اى يصنعون ويبتكرون الاراء الدينية والفلسفية والسياسية والعلمية ، وينجزون نتاجات الفن والاصول الخلقية والتشريعات وما الى ذلك . وانجازها يعزى الى الانتاج الروحى ، بيد ان هذا الاخير يتوقف فى الكثير على طريقـــة انتاج الخيرات الروحيـــة . فالمعروف ان انجاز نتاجات الفن والادب يقتضى توفر ظروف واشياء مادية مناسبة . اذن ، فتغير طريقــة انتاج الخيرات المادية يؤثر ايضا فى تغير الانتاج الروحى ، والنشاط الذى يمارسه الناس فى سياق الانتاج والعلاقات التى تنشأ على اساسه هى التى تحدد سائـــر انواع النشاط الاجتماعــى والعلاقات الاجتماعيـــة . على هذا النحو تكون طريقة الانتاج المادى اساسا لتطور المجتمع وادائه لوظائفه ، اما القوانين الموضوعية التى تتحكـــم به فتتندرج فى اساس سائر سنن التطور الاجتماعى .

٢٠٥

البناء التحتى والبناء الفوقى . ان المجتمع من وجهة نظر المثالية التاريخيـــة ، عبارة عن جمهرة من الافراد ، من الشخصيات المنعزلة التى تتخذ القرارات وتنفذها مثلما يطيب لها . وكل فرد منهم اشبه بروبنسون كروزو ، يحيا فى عزلة على جزيرة غير مأهولة . وتعبر هذه النظرة عن فردية مفرطة .

وعلى الضد من الفهم المثالى والفردى للمجتمع ، تعتبره المادية التاريخية منظومة معقدة او كيانا اجتماعيا ، كل فرد فيه تربطـــه بالاخرين روابط وعلاقات اجتماعية مختلفة . وبالتالى ، فلاجل فهم المجتمع ودراسة قوانين تطوره وادائه لوظائفـــه يجب فى المقام الاول ان نلـــم بفحوى العلاقات والروابط والعمليات الاجتماعية القائمة . فبفضل وجود روابط وعلاقات مستقرة بين البشر بالذات ، يحتفظ المجتمع ، بصرف النظر عن تعاقب الاجيال ، وعلى مدى قرون عديدة ، بسماته الاساسية ، ويخضع لنفس السنن الموضوعيـــة . على هذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النحو نجد المفتاح الى فهم الحيـــاة الاجتماعية لا فى دراسة «روبنسونات» منفردين ، معزولين ، بل فى دراسة الروابط والعلاقات الاجتماعية التى تنخرط فيها مختلف فئات الناس والشخصيات المنفردة .

فأى من هذه العلاقات يعتبر الحاسم ؟ ان المادية التاريخية التى تعتبر طريقة الانتاج اساســـا لتطور المجتمع وادائـه لوظائفه ، انما تعتبر العلاقات الانتاجية بالذات هى العامـــل الحاسم . اما سائر العلاقـــات وانواع النشاط كالعلاقات المعيشية العائلية والقانونيـــة والخلقية والسياسية والفنيـة الجمالية والعسكرية والقومية وما الى ذلك ، علاوة على اشكال الوعى التى تناسب هذه العلاقات وانواع النشاط ، فتبدو وكأنها تنتظم فوق العلاقات الانتاجيـــة ، مثلما تنتظم طوابق المبنى فوق اساسه . **لهذا جرت العادة على ان تسمى العلاقات الانتاجية التى تشكل النظام الاقتصادى للمجتمع ببنائه التحتى** (basis) **. اما العلاقات الايديولوجية والقانونية والسياسية ، وكذلك المنظمات والدوائر الاجتماعية التى تمارس عبرها هذه العلاقات فتسمى بالبناء الفوقى للمجتمع** . وهى تضم ايضا مختلف اشكال الوعى الاجتماعى التى تعكس الظواهر والعمليات الموضوعية الجارية فى الحياة الاجتماعية .

ان البناء الفوقى ليس فقط يعلو البناء التحتى ، وليس فقط يتحدد به ، بل ويؤثر فيه تأثيرا عكسيا فعالا . ويجدر ان نأخذ بالاعتبار ان البناء الفوقى للمجتمعات الطبقية يضم المنظمات الاجتماعية والدوائر التى تعبر عن مصالح مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية ، ولذا فهى تؤثر فى البناء التحتى تأثيرا متباينا . فبعض منها يعزز البناء التحتى بتعبيره عن مصالح الفئات والطبقات الاجتماعية التى يضمن بها هذا البناء التحتى وضعه المسيطر فى المجتمع ، اما باقى عناصر البناء الفوقى التى تعبر عن مصالح الطبقات التى تعانى الاستغلال والفئات الاجتماعية المحرومـــة من الحقوق والسلطة فتزعزع البناء التحتى وتسعى الى تغييره ، وفى التحصيل الاخير ، الى اقامة علاقات انتاجية جديدة وطريقة انتاج جديدة ، وبالتالى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نظام اجتماعي جديد . واهم عناصر البناء الفوقي في المجتمعات الطبقية هي الدولة والاحزاب السياسية . وسنتناول الان هذه الظواهر البالغة الاهمية من البناء الفوقي .

٢٠٦

الطبقات والصراع الطبقي . ان سبب نشوء الدول والاحزاب السياسية وممارستها لنشاطها هو الطبقات والصراع الطبقي . وحقيقة ان الطبقات تؤدى دورا مهما في حياة المجتمع وصراعها يؤثـر في تاريخه ويحدد اتجاهـه اكتشفهـا المؤرخون والاقتصاديون البرجوازيون قبل ظهور المادية التاريخيـة . وكان هؤلاء عادة يرون اسباب التقسيم الطبقي في تفوق بعض البشر على الاخرين روحيا او عرقيا او في «نبلهم» الفطرى . صحيح ان رائد حركـة التنوير الفرنسي جان جـاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨) قد توصل الى ان الظلم الاجتماعي والتقسيم الطبقي هما نتيجة لظهور الملكية الخاصة ، وقد اشاد ماركس بهذا الاستنتاج . بيد ان الخطأ الذى ارتكبه روسو هو انه اعتبر قيام الملكية الخاصة فعلا من افعال الجور الشخصي . ولو ان المالك الاول قد جوبه بالمقاومة ، في اعتقاد روسو ، لكان مستقبل البشرية اللاحق مختلفا تمامـا . والمؤدلجون البرجوازيون المعاصرون الذين يعترفون بالتقسيـم الطبقي للمجتمع اما يعتبرون التقسيم ابديا وغير قابل للالغاء ، واما يدعون بان تعارض المصالح الطبقية يمكن ان يلغى باقامة مجتمع الرخاء العام ، ولكن دون مساس بالملكية الخاصة خلال ذلك . وكان اعظـم انجاز للمادية التاريخيـة هو اكتشاف الاسباب الموضوعية لنشوء الطبقات والصراع الطبقي والبرهنة على انه مع اختفاء هذه الاسباب يجب في التحصيل الاخير ان يحل طور جديد من التاريخ العالمي هو المجتمـع الشيوعي اللاطبقي . فما هي هذه الاسباب وما هي الطبقات ؟

قبل ظهور الملكية الخاصة لـم يكن للطبقات وجود في المجتمع . فقد ظهرت الملكية الخاصة عندمـا بلغت القوى المنتجـة مستوى مرتفعـا يكفي لانتاج بعض الفائض من المنتوجات فوق ذلك الحد الادنى الذى كان يذهب لتلبيـة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاحتياجات الملحة الى الطعام والملبس والمسكن وهلمجرا . وعندما تم بلوغ هذا المستـــوى بات من المربح استخدام واستغلال عمل الاخرين . وقد اتاح هذا تراكم الثروة فى يد قلة من الناس واستثمارهـــا فى سبيل حيـــازة الجبروت الاقتصادى والسلطة على باقى اعضاء المجتمع . ومنذ تلك اللحظة **انقسم المجتمع الى طبقات مختلفة** .

وليس جميع الفئات الاجتماعية تعتبر طبقات . لقد ذكر لينين : «ان ما يسمى بالطبقات هى الفئات الكبيرة من البشر التى تمتاز عن بعضها بمكانتها فى منظومة الانتاج الاجتماعى المحددة تاريخيا ، وبموقفها (المثبت بمعظمه والمنصوص عليه فى قوانين) من وسائل الانتـــاج ، وبدورها فـــى التنظيم الاجتماعى للعمل ، وبالتالى ، بطرق حصولها على الثروة وبحجم تلك الحصة من الثروة الاجتماعية المتوفرة فى حوزتهـا» * . **وابرز هذه الملامح هو ملكية وسائل الانتاج** . فالطبقات التى تحوز هذه الملكية وتستخدمهـــا للاستحواذ على نتائج عمـــل الاخرين تعتبر مستغلة (بالكسر) ، اما الطبقات المحرومـــة منها فمستغلة (بالفتح) . ونستدل من ذلك ان التقسيم الطبقى تندرج فى اساسه علاقات انتاجية معينة قيضها طابع ومستوى تطور القوى المنتجة .

ولكل طريقـة انتاج تسود فى عصر تاريخى معين مـــا يناسبها من طبقات اساسية . فلعصر نجد هذه الطبقات متمثلة فى العبيد ومالكى العبيد ، ولعصر ثان نجدها فى الاقنـــان والاقطاعيين ، ولعصر ثالث فى الرأسماليين والعمال الاجراء . اما فى المجتمع الاشتراكـــى حيث لا وجود للملكية الخاصة لوسائل الانتـــاج ، وبالتالى لا وجود للطبقات المستغلـــة (بالكسر) ، فالطبقتان الاساسيتان هما الطبقة العاملة والفلاحون التعاونيون .

وفضلا عن الطبقـــات الاساسية يمكن ان تكون هناك طبقات غير اساسية لا تمارس استغلال عمل الاخرين كالفلاحين

---

* لينين . المجلد ٣٩ ، ص ١٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاحرار وصغار الحرفيين منتجي البضائع ، وكذلك شرائح اجتماعية خاصة لا تشغل مكانة محددة بصرامة في منظومة الانتاج ، كفئة المثقفين مثلا .

وبما ان التقسيم الطبقي للمجتمع يمليه التطور الموضوعي للانتاج الاجتماعي ، فان تلاشي الطبقات لا يمكن ان يتم الا في ظروف موضوعية معينة ، ابرزها واهمها الغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج . وبالنظر لكون المصالح الاقتصادية لطبقات المجتمع الاساسية تحت تسلط الملكية الخاصة تتعارض ولا تتهادن فيما بينها ، فمنذ لحظة نشوء الطبقات يدور فيما بينها صراع ضار . ففي المجتمعات التي توجد فيها بعض الطبقات على حساب الطبقات الاخرى يكون الصراع الطبقي قاسيا وشديدا . وتسمى هذه المجتمعات بالتناحرية (٢١٨-٢٢٠) . وفي مجرى هذا الصراع تحل التناقضات التناحرية الداخلية بين القوى المنتجة والعلاقات الانتاجية ، وتتهدم الاشكال القديمة لتنظيم المجتمع وتنشأ اخرى جديدة . اما بشأن الطبقات ، فهي تدرك اهدافها الاقتصادية والسياسية وتطرح آراء وتعاليم ونظريات معينة ضرورية لبلوغ هذه الاهداف وللانتصار على خصومها الطبقيين .

وبما ان الطبقات المستغِلة تشكل ، عادة ، الاقلية في المجتمع ، فهي في كل مرحلة معينة من التطور التاريخي تكون بحاجة الى دوائر ومنظمات خاصة لحماية مصالحها الاقتصادية وللاحتفاظ بموقع السيطرة في منظومة الانتاج الاجتماعي . واهم هذه الدوائر والمنظمات الاجتماعية هي الدولة والاحزاب . وهي تدخل في تركيبة البناء الفوقي لجميع المجتمعات الطبقية ، وتؤدي وظائف حقوقية (قانونية) وسياسية مهمة .

٢٠٧

الدولة في منظومة البناء الفوقي . الدولة ليست ازلية الوجود فعلى مدى مئات الوف السنين ، وصولا الى انقسام المجتمع الى طبقات ، كان البشر في غنى عن الدولة واجهزتها . فلماذا ظهرت الدولة ، وما هي الدولة اصلا ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان الفيلسوف الانجليزى غوبس (١٥٨٨-١٦٧٩) ينطلق من ان البشر فى حالتهم الطبيعية يتصارعون فيما بينهم بلا انقطاع ، ذلك ان «الانسان يعد ذئبا لاخيه الانسان» . ولاجل تفادى الهلاك فى هذا الصراع الدائم اضطر البشر الى ابرام عقد اجتماعى وتشكيل الدولة كهيئة للوفاق العـــام . ودأب المؤدلجون البرجوازيون ، وما زالوا حتى ايامنا هذه ، على معالجة هذه الفكرة ببدائل شتى . فهم يزعمون ان الدولة هيئة للوفاق وتسوية كـل التناقضات فى المجتمع ، بما فيهــا التناقضات الطبقية ، التناحرية . ولذا يتوجب على كل اوساط المجتمع ان تساند الدولة كمؤسسة تمارس نشاطها لا لاجل اهداف فئوية خاصة او طبقيـــة ، بل لصالح المجتمع باسره ولصالح كل فرد فيه . ان مثل هذه الاراء لا تطابق الواقع . اذ تدل الوقائع على ان اولى الدول العبودية تنشأ مع انقسام المجتمع الى طبقات . والدولة هـــى عبارة عن مجموع فئات خاصة من البشر تدافع وتذود عن مصالح الطبقات المسيطرة .

والدولة ، على حد تعبير لينين ، هى «ماكنة للحفاظ على تسلط طبقة مـــا على الطبقات الاخرى» * . وتـــؤدى الدول الاستغلالية جملة من الوظائف الداخلية والخارجية . فوظيفتها الداخلية الاساسية هى اخماد صراع الكادحين الطبقى . ولغرض تنفيذ هذه الوظيفة تضم الدولة طائفة من الاجهزة والمنظمات والدوائر . ويعزى اليها : القوات المسلحة ، اى الجيش ، جهاز المخابرات ، جهاز مكافحة التجسس ، المحاكم ، الادعاء العام ، الحكومة واجهزتها التنفيذية ، وكذلك الهيئات التشريعية . وتقوم هذه الاخيرة بوضع نظام القانون ، اى منظومة القوانين والاصول والقواعـد التى تعبر عن مصالـــح وآراء الطبقات المسيطرة فى النظام الاجتماعى ، وتثبت ارادتها وسلطتها . وتقوم المحاكم والادعـاء العام والبوليس بمراقبـــة التنفيذ الصارم لهذه القوانين ، ومعاقبة المخلين بها والتنكيل بهـــم دون رحمة . وينسحب هذا حتى على بعض ممثلى الطبقـــات

---

* لينين . المجلد ٣٩ ، ص ٧٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المسيطرة ، اذا اخلوا بالقوانين التى تخدم مصالح الطبقة المسيطرة ، او عارضوا ما اقرته من قواعد للسلوك . والدولة لا تدافع عن المصلحة الشخصية لبعض ممثلى هذه الطبقة ، بل المصالح العامة لهذه الطبقة . لهذا تعتبر باطلة تماما استشهادات المؤدلجين البرجوازيين بوقائع استخدام تدابير الدولة واجراءاتها التنكيلية بحق بعض ممثلى الطبقات المسيطرة ، كدليل على طابع الدولة الشعبى العام فى المجتمعات الطبقية .

ان كل دولة استغلالية هى عبارة عن دكتاتورية هذه الطبقة المسيطرة او تلك . وتبعا لذلك نستطيع تمييز ثلاثة انماط اساسية من الدول الاستغلالية هى العبودية والاقطاعية والبرجوازية (٢١٨-٢٢٠) . وعليه فان نمط الدولة يرتهن فى التحصيل الاخير بنمط الملكية السائد وبالعلاقات الانتاجية السائدة فى المجتمع المعنى ، والتى تشكل بناءه التحتى . وبأدائها لوظائفها تعزز الدولة البناء التحتى وتذود عنه .

وعند الانتقال الى المجتمع الاشتراكى تنشأ دول من نمط جديد هى الدول الاشتراكية . وهى عبارة عن مؤسسات تمارس السلطة السياسية للشعب باسره . فجهاز الدولة الذى جرى تشكيله فى ظروف المجتمع البرجوازى يشهد تبعا لظروف البلد المعنى الملموسة ، وتبعا لاصطفاف القوى السياسية والوضع الدولى ، تحويلات عميقة الى هذا القدر او ذاك ، ويجرى وضع تشريعات جديدة . ولكن ليس هناك نموذج موحد والزامى لتنظيم سلطة الدولة يصلح لجميع البلدان والشعوب ، ولا يمكن ان يكون . فاقامة الدولة الاشتراكية يفترض تنوعا كبيرا فى الاشكال والمراحل الملموسة التى ترتهن بالتقاليد القومية وشدة الصراع السياسى ، وبكثير من العوامل الاخرى . ويعتبر عاملا حاسما خلال ذلك مستوى مقاومة الطبقات المستغِلة . فاذا كان ممثلو البرجوازية الوطنية والبرجوازية الصغيرة والمزارعين والمثقفين يرتضون المبادىء الاساسية للتحويلات الاشتراكية ، فان هذه الاخيرة يمكن ان تطبق تدريجيا وعلى اساس

ديمقراطى واسع بمشاركة كل اوساط السكان المستعدين للتعاون مع نظام الدولة الجديد . امـا اذا كانت مقاومـة التحويلات الاشتراكية شديدة ، فسوف تضطر الدولة بطبيعة الحال الى استخدام تدابير لقمع المستغِلين المطاح بهم . غير ان الوظيفة الرئيسية للدولة الاشتراكية ليست وظيفة القمع التى تحمل طابعا موقتا عابرا هو طابع حماية الامن ، انما هى وظيفة ابداعية ، وظيفة قيادة الجماهير التى تبنى المجتمـع الجديد على اسس العدالة الاجتماعية والمساواة والديمقراطية والانسانية .

وتمارس دكتاتورية البروليتاريا دورا حاسما فى اقامة المجتمع الجديد ، وفى سياق ترسخه تتعرض هى نفسهـا لتغيرات .

وبعد ان تؤدى دكتاتورية البروليتاريا رسالتها التاريخية تتطور الى منظمة سياسية للكادحين كافة ، وتغدو الدولـة البروليتارية دولة للشعب باسره ، وتعبر عن مصالح الشعب باسره .

ومع توفر الظروف الاقتصادية الاجتماعية والايديولوجية اللازمة واشراك جميع المواطنين فى الادارة ، وتوفر الموقف الدولى المناسب ، سوف تغدو الدولة الاشتراكيـة شكلا انتقاليا من الدولة الى اللادولة ، وتنتفى تدريجيا الحاجة الى الدولة كعنصر سياسى خاص من البناء الفوقى . بيد ان تطور الاشتراكية واستمرار التقدم نحو الشيوعيـة فى المرحلـة الراهنة يرتبطان بالتنمية والتعزيز الشامل للدولة الاشتراكية التى هى دولة الشعب باسره .

وتؤدى الدولة الاشتراكية ايضا وظائف خارجية . فهى ، بخلاف الدول الاستغلالية ، لا تسعى الى احتلال اراضى الغير ، لذا لا تنطوى وظائفها الخارجية الا على الدفاع عن اراضيها واقامة العلاقات الدوليـة ، وبالدرجة الاولى مـع الدول الاشتراكية وباقى الدول المحبة للسلام ، واخيرا على النضال فى سبيل تعزيز وتوطيـد السلام ، ومن اجل الانفراج فى العلاقات الدولية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبخلاف نمط الدولة الذى تحدده العلاقـــات الانتاجية السائدة ، يرتهن شكل الدولة بتناسب القوى الطبقية خلال المرحلة المعنيـــة من التطور التاريخى ، وبخصائص تاريخ المجتمـــع المعنى وتقاليده وبالظروف السياسيـــة الخارجية والداخلية الملموسة . والاشكـــال الاكثر انتشارا للدول الاستغلالية هى النظام الملكى (سلطة فرد واحد) والجمهورية الارستوقراطية او الاوليجاركية (تنتزع الدولة مجموعة صغيرة من الاعيان او المواطنين الاكثر ثروة) والجمهورية الديمقراطية التى تنتخب فيها الهيئات التشريعية والتنفيذية بعدد ملموس بهذا القدر او ذاك من الناخبين . وفى الوقت الراهن توجد فى معظم البلدان الرأسماليـــة انواع مختلفـــة من الجمهوريات البرجوازية . اما الانظمة الملكية الدستورية التى لا يزال لها وجود فى بريطانيـــا والسويد وبعض البلدان الرأسماليـــة الاخرى ، فلا تختلف عنها الا بالاشكال التقليدية الظاهرية ، فوظائف رئيس الجمهورية فيها يؤديها الملوك الوراثيون الذين قيدت سلطتهم الفعلية تقييدا شديدا .

والديمقراطية البرجوازية اصلح ما يمكن لممارسة سلطة الرأسمال . فهى اذ تمنح الكادحين حقوقا انتخابية شكلية ، انما تقيد الى جانب ذلك ، والى ابعد الحدود ، امكانياتهم فى ان يُنتخبوا ويشاركوا فى ادارة شؤون الدولة . وليس للمساواة الشكلية امام القانون فى المجتمع الرأسمالى المعاصر ما يدعمها من مساواة اقتصادية فعلية . ولكن عندما تشتد التناقضات الطبقية اشتدادا حادا تتخلى البرجوازيـــة حتى عن مثل هذه الديمقراطية المعتدلة وتنتقل الى اشكال الدكتاتورية العسكرية البوليسية او الفاشية . ويدل تاريخ نشوء الدولتين الفاشيتين فى ايطاليا والمانيـــا خلال النصف الاول من القرن الحالى والحرب العالمية الثانية التى اضرمتا نارها دلالة قاطعة على ان مثل هذه الانظمة الدكتاتوريـــة تخدم مصالح البرجوازيـــة الاحتكارية الكبيرة . وتقف فى خدمة هذه الاوساط الدول العسكرية البوليسية الموجودة فى بعض البلدان ، والتى لا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يتسنى لها باساليب الديمقراطية البرجوازية المألوفة التصدى لنضال الكادحين الثورى .

وبخلاف كل تلاوين الديمقراطية البرجوازية لا تكتفى الديمقراطية الاشتراكية بمنح الكادحين اوسع الحقوق ، بل وتضمن لهم امكانية المشاركة المباشرة على جميع المستويات فى ادارة شؤون المجتمع ، بصفتها ادارة الشعب الذاتية الاشتراكية . وتتمثل الديمقراطية الاشتراكية الحقيقية فى ان كل مواطن واع وفعال لا يشارك فى النشاط التشريعى وفى ادارة المجتمع والانتاج فحسب ، بل ويطبق بنشاط الاجراءات التشريعية وقرارات الهيئات التنفيذية . وباعتبارها شكلا لتطور كيان الدولة الاشتراكى تحضر الديمقراطية الاشتراكية الى جانب ذلك الظروف اللازمة للانتقال الى اشكال الادارة الذاتية الشيوعية .

٢٠٨

الاحزاب السياسية فى منظومة البناء الفوقى . الاحزاب السياسية ، شأنها شأن الدولة ، تعتبر نتيجة لانقسام المجتمع طبقيا . فالاحزاب هى الفئات الاكثر تنظيما ووعيا ، التى تكون وتعبر عن مصالح طبقة معينة او بعض شرائحها . واهم صفة مميزة للاحزاب ، وهى الصفة التى تحدد مكانتها فى منظومة البناء الفوقى ، هى انها تدرك وتعلل الاهداف السياسية والاقتصادية لطبقتها ، وتقوم بوضع استراتيجيتها وتكتيكها فى الصراع على السلطة ، وتطرح وتبرر ما يناسب ذلك من مثل الحياة الاجتماعية ، وتعبئ وتنظم كل قواها للنضال من اجل التأثير بين الجماهير .

ان هذه او تلك من اشكال الاحزاب السياسية موجودة فى جميع المجتمعات الطبقية تقريبا ، بيد ان الاحزاب تشكل ابرز مكانة فى البناء الفوقى للمجتمعين البرجوازى والاشتراكى . فالديمقراطية البرجوازية توفر افضل الظروف لنشوء مختلف الاحزاب البرجوازية . وبعضها يتبنى فى البلدان الرأسمالية المعاصرة مواقف يمينية رجعية للغاية ، وبعضها الاخر يفضل اتخاذ موقف سياسى اكثر ليبرالية . ويخلق وجود العديد من

الاحزاب السياسية ، اى ما يسمى بالتعددية السياسية وهم امكانية الاختيار لدى الكادحين . اما ف الواقع فان هذه الاحزاب التى لا يختلف بعضها عن بعض الا بوسائل واساليب تنفيذ المهام السياسية تسعى الى تعزيز البناء التحتى الاقتصادى السائد وتدعيم اركان الدولة البرجوازية .

ان ابسط الحريات الديمقراطية (حرية الكلمة ، حرية الاجتماع وتشكيل المنظمات) التى انتزعها الكادحون خلال المعارك الطبقية الضارية فى بعض البلدان الرأسمالية تتيح لهم ايضا تشكيل احزابهم السياسية . وتسعى مختلف الاحزاب الاشتراكية والاشتراكية الديمقراطية الى تطبيق سياسة الاصلاحات الاجتماعية . وهذا يعنى ان هذه الاحزاب ، حتى فى حالة مجيئها الى السلطة ، سوف تكتفى بتطبيق تحويلات محدودة هدفها «تخفيف» حدة الصراع الطبقى ، دون مساس بأسس النظام الرأسمالى بحد ذاتها ، اى الملكية الرأسمالية الكبيرة . وهذا ما يفسر كون هذه الاحزاب ، حتى اذا كانت على دست الحكم ، عاجزة عن نيل تأييد الكادحين ، وهى تفقد باستمرار نفوذها بين الجماهير .

يتحدد دور الاحزاب السياسية فى العالم المعاصر باسهامها فى حل المشاكل الاجتماعية الملتهبة داخل البلد المعنى او المنطقة المعنية ، وكذلك بمواقفها من المشاكل العالمية وابرزها : النضال من اجل السلام ، نزع السلاح الصاروخى النووى ، تفادى الكارثة الايكولوجية ، تحقيق نظام اقتصادى دولى اكثر عدالة ، النضال من اجل حقوق الانسان واقامة تعاون مرن ومتكافئ بين البلدان ذات الانظمة الاقتصادية الاجتماعية المختلفة . وتكتسب اهمية خاصة مسألة دور الاحزاب التقدمية المعبرة عن مصالح الكادحين فى النضال من اجل التحويل الاجتماعى لبلدانها . ويرتهن دور هذه الاحزاب واستراتيجيتها وتكتيكها بالظروف التاريخية الملموسة، وكذلك باحكامها الايديولوجية والاجتماعية السياسية العامة . وفى جملة من البلدان الاشتراكية والاقطار التى اختارت طريق التطور اللارأسمالى تتمتع الاحزاب الشيوعية والعمالية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والوطنية الثورية بمكانة حاسمة فى منظومة البناء الفوقى . بيد ان نموذج الاشتراكية ذات نظام الحزب الواحد ليس هو النموذج الوحيد الممكن . ففي ظروف تاريخية معينة يمكن ان تكون هناك نماذج اخرى ، ومن ضمنها تلك التى تستطيع فيها الاحزاب الشيوعية والعمالية ان تتعاون تعاونا مثمرا مع باقى الاحزاب السياسية والمنظمات الاجتماعية بالاعتماد على المؤسسات الديمقراطيـــة وتأييد الاوساط الواسعـــة من السكان . ومن المهم فى هذا الصدد ان نؤكد ان احد اهـم مبادئ التفكير الجديد وايديولوجيا التجديد التى اعلنها الحزب الشيوعى فى الاتحـــاد السوفييتى بمثابـــة ابرز اسســـه الايديولوجية والعقائدية والسياسية هو الاستقلالية والتكافؤ التام لجميع الاحزاب الثورية والشيوعية والعمالية التى تضع بصفة مستقلة استراتيجيتها وتكتيكها وخط سلوكها السياسى وآليات علاقاتها مع المنظمات والمؤسسات السياسية الاخرى الداخلـــة ضمن البنـــاء الفوقى والنظام الاجتماعى السياسى لمجتمعاتها .

ان مستوى نضوج الحزب ووزنه الفعلى وهيبته فى المجتمع تحدد قدرته فى كـل مرحلة من مراحل التطور التاريخى على تجديد ورسم استراتيجيته السياسية التى تناسب المهـــام الفعلية . وليس ثمة احزاب سياسية معصومة كليا من الخطأ فى سياق التحويلات الاجتماعية العميقـــة . فنضوج الحزب تحدده بالضبط قدرته على ان يدرك اخطاءه ادراكا نقديا وان يجد الشجاعة والقوة لاصلاحهـا . وفى هذا الادراك بالذات يتمثل جوهر ايديولوجيـــا التجديد والتفكير الجديـد اللذين وضعتهما فى اواسط الثمانينـــات قيادة الحزب الشيوعـــى السوفييتى وتبنتهما اغلبية المواطنين السوفييت . تمثل امام الحزب مهمات معقدة بصفة خاصة ، هى توفير الظروف اللازمة للتعددية الاشتراكية ، ولتنشيط العامـــل البشرى وتطبيق التحويلات الاجتماعية والاقتصادية العميقة والثورية من حيث الجوهر ، والقادرة على جعل المجتمع الاشتراكى جذابا فى انظار اوسع اوساط السكـــان . وبهذه المهمات بالذات ، كذلك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالقدرة على تنفيذها يتحدد دور الحزب الشيوعى فى منظومة البناء الفوقى الاشتراكى .

٢٠٩

المنظمات الاجتماعية فى منظومة البناء الفوقى . يضم البناء الفوقى فى المجتمعات الطبقية ، فضلا عن الدولة والاحزاب ، مختلف المنظمات الاجتماعية التى يمكن ان تشكلها الطبقات المستغِلة والمستغَلة على السواء . وتصلح مثالا على المنظمات الاجتماعية المدافعة عن مصالح المستغِلين اتحادات النبلاء والمنظمات الكنسية وجمعيات التجار (فى المجتمع الاقطاعى) وشتى ضروب المنظمات النقابية لاصحاب الملكية الخاصة والرأسماليين (اتحادات الصناعيين وكبار المزارعين وما شابه ذلك) فى المجتمع الرأسمالى .

ومع نمو واشتداد الصراع الطبقى وتنامى الوعى الطبقى يشكل الكادحون ايضا منظمات اجتماعية لغرض الدفاع عن مصالحهم . وابرز هذه المنظمات فى المجتمع الرأسمالى الاتحادات النقابية التى يتمثل هدفها الاساسى فى تنظيم نضال الطبقة العاملة من اجل تحسين وضعها الاقتصادى والاجتماعى . ويتوقف طابع نشاط النقابات فى الكثير على الاحزاب السياسية التى تقع هذه النقابات تحت تأثيرها . وقد اكد لينين مرارا اهمية العمل الفكرى التربوى والسياسى والتنظيمى بين النقابات . ويسعى مؤدلجو البرجوازية والاصلاحيون والتحريفيون الى اخضاع الحركة النقابية لاهداف البرجوازية وجرها من طريق النضال الثورى الى طريق النضال من اجل الاصلاحات الاقتصادية الصغيرة التى لا تقوض اركان الرأسمالية . لهذا تعتبر ابرز مهمة للاحزاب الشيوعية والعمالية فى البلدان الرأسمالية هى تقوية نفوذها فى الحركة النقابية .

وتضم منظومة البناء الفوقى للمجتمع البرجوازى المعاصر ، فضلا عن النقابات ، عددا غفيرا من المنظمات والدوائر الشبابية والنسائية والابداعية والرياضية والمنظمات المناهضة للحرب وغيرها . وهى اذ تعبر عن مختلف المصالح

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاجتماعية والفئوية والمهنية ، تتخذ مواقف مختلفة ازاء هذه او تلك من الظواهر الاجتماعية ، وتؤثر تأثيرا متباينـــا فى البناء التحتى للمجتمع . ولكن اذا كان نشاطها يشكل مساسا مباشرا او ضمنيا بالمصالح الجذرية للبرجوازيـة ، فسوف يواجه مقاومة حازمة من قبل الدولة البرجوازيـــة والاحزاب البرجوازية .

وفى المجتمع الاشتراكى يتنامى باستمرار دور المنظمات الاجتماعية المعبرة عن مصالح الكادحين . فهى تمارس نشاطها تحت قيادة الحزب الشيوعى الفكرية والسياسية المباشرة ، وتضع هدفا لها التعزيز الشامل للاقتصاد الاشتراكى وتنمية الثقافة وتطوير اشكال وظروف الحياة الاجتماعية . ويشمـل نشاط المنظمات الاجتماعيـــة — النقابات ، اتحاد الشبيبـة الشيوعية ، الجمعيات الرياضية ، جمعيات حماية البيئة ومختلف المنظمات التعاونية — كل السكان عمليا ، وبذا تتحدد فى الكثير مكانتها المتنامية الاهمية فى البناء الفوقى الاشتراكى . ويجدر بصفـــة خاصة توكيد دور مختلف اشكال الحركـــة التعاونية — الكولخوزات والتعاونيات الاستهلاكية وتعاونيات بناء المساكن والمنظمات والاتحادات التعاونيـــة التى تعتبر شكلا مهما من اشكال الادارة الذاتية الاشتراكية ووسيلـــة فعالة لتنمية الاقتصاد . والصفة المميزة لتفاعل المنظمـات الاجتماعية فيما بينها ، وكذلك تفاعلها مع الحزب الشيوعى والدولة السوفييتية هى التناسق المنسجم لاهدافها وكذلك كون هذه المنظمات تعتمد على دعم الدولة والحزب باعتبارهما اهم عناصر البناء الفوقى . ومرد ذلك الى غياب التناقضات التناحرية (٤٠٦ ، ٤٠٧) فى البناء التحتى للمجتمع الاشتراكى بحد ذاته وفى بنية المنظمات الاجتماعية التى تنمو على اساس هذا البناء التحتى .

ومع تقدم المجتمـــع نحو الشيوعية واستمرار نمـــو الديمقراطية الاشتراكيـــة سوف تؤدى منظمـات الكادحين الاجتماعية وظائف اعقد واشمل فيمـــا يتعلق بادارة شؤون المجتمع ، وسيتنامى دورها باطراد فى بنائه الفوقى . والمهم

من الناحية الفلسفية ان نفهم كيف تنسجم وتتجلى فى هذا النشاط العوامل الذاتية والموضوعية ، ومـا هو الحاسم فى اداء وظائف كل الدوائر والمنظمات الاجتماعية ، وهل يمكن ان نجد فى نشاطها سننا وقوانين موضوعية . وهنا نكون قد اشرفنا على اهم مقولات المادية التاريخيـة ، وهى «الوجود الاجتماعى» و«الوعى الاجتماعى» .

٢١٠

الوجود الاجتماعى والوعى الاجتماعى . يتجلى فى نشاط العناصر الاساسية للبناء الفوقى — اى الدولة والاحزاب والمنظمات الاجتماعية — بوضوح تفاعل جانبين اثنين همـا الروحى والمادى . ولاجل صياغة القانون الاعم الذى يتحكم بترابطهما وتفاعلهما فى جميع انواع النشاط الاجتماعى طوال عمليـة تطور المجتمع يجب تناول بعض مقولات المادية التاريخيـة كـ«الوجود الاجتماعى» و«الوعى الاجتماعـى» . ان **الوجـود الاجتماعى يضم مجمـوع العلاقات الاجتماعيـة التطبيقيـة الموضوعية ، التى تنشـأ على اساس العلاقات الانتاجية ، والعناصر المادية للقوى المنتجة .**

والوعى الاجتماعى يضم مجموع التعاليم والاراء والمعارف والهموم لدى اعضاء المجتمـع المعنى ، التى تنشأ كنتيجة لانعكاس الوجود الاجتماعى . وليس الوعى الاجتماعى مجـرد مجموع من الوعى الفردى للناس الذين يعيشون فى وقت معين داخل مجتمع معين ، انما هو ذلك العام الذى يتضمنـه وعى اعضاء المجتمع والطبقات والفئات الاجتماعية خلال هذا العصر التاريخى او ذاك .

هاتان المقولتان تعتبران المقولتين المركزيتين فى المادية التاريخية . وقد ذكـر لينين : «ان الوعى الاجتماعى **يعكس** الوجود الاجتماعى — وهذا هو صلب تعليـم ماركس» * . وقد اتهمه خصوم المادية التاريخيـة غير مرة بادعاء انـه يستخرج الوعى الاجتماعى من الاقتصاد مباشرة ، ويحصر كل

* لينين . المجلد ١٨ ، ص ٣٤٣ .

جوانب الحياة الاجتماعية في النشاط الاقتصادى الانتاجى وحده . اما فى الواقع فان العلماء البرجوازيين هم انفسهم المذنبون بمثل هذه «المادية الاقتصادية» الساذجة . فعالم الاجتماع والاقتصاد الامريكي روستاو الذى تقدم بنظرية مراحل النمو ادعى ، مثلا ، ان كل تطور المجتمع يرتهن بمستوى تطور الصناعة ، وان كل التناقضات الاجتماعية ، بما فيها الطبقية ، يمكن ان تحل عن طريق التحسين البسيط للنشاط الاقتصادى وتوفير الخيرات المادية بغزارة . ورغم ان الحياة تدحض وجهة النظر هذه ، ذلك ان الثروات الهائلة التى تنتج فى البلدان الرأسمالية غير متاحة للكادحين ، نجد مثل هذه الاراء تحظى رغم ذلك ببعض الانتشار . ولاجل تشخيص الفهم المادى حقا لجوهر الوعى الاجتماعى سنتناول بعض الامثلة .

بعد ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى والحرب الاهلية فى روسيا كانت قوى البلد المنتجة مخربة ، ومعظم المصانع والمعامل معطلة ، وتدهورت انتاجية القطاع الزراعى . وكان الاقتصاد يعانى وضعا عصيبا . بيد ان وعى الجماهير كان ثوريا ومفعما بالتفاؤل التاريخى والايمان بامكانية بناء الاشتراكية والتطلع الى اقامة المجتمع الجديد . فى الوقت ذاته كان اقتصاد كبريات البلدان الرأسمالية كالولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا فى وضع افضل . وكان مستوى قواها المنتجة مرتفعا نسبيا . غير ان الوعى الاجتماعى فى هذه البلدان كان يتسم بصبغة تشاؤمية عامة وبأزمة فى مجمل الثقافة الروحية . ولو كانت حالة الوعى الاجتماعى ومضمونه لا يتحددان الا بحالة القوى المنتجة والاقتصاد لكان الوضع معاكسا .

مثال آخر . فى الاقطار التى سلكت طريق الاشتراكية ، كذلك فى الاقطار التى تخوض النضال الوطنى التحررى والمناهض للاستعمار يتسم الوعى الاجتماعى بنمو الروح الثورية باطراد وبتنامى وحدة الصف فى فهم الاهداف الاجتماعية والمهمات العامة وطرق تنفيذها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان من المفترض ان يتسم الوعى الاجتماعى والامزجة الاجتماعية فى بلدان الغرب الصناعية الاكثر تطورا بصفاء التفاؤل العام حين تسنى تخطى ظواهر التأزم وتقليص وتائر التضخم جزئيا وتقليص نمو البطالة وتحقيق بعض النهوض الاقتصادى . بيد ان الامر لم يكن كذلك فى واقع الحال . فالثورة العلمية التكنولوجية النشيطة والمتسارعة ونماء حجم الاعلام فى المجتمع يؤديان الى عدم استقرار ملموس وانعدام الثقة بالغد لدى بعض اوساط السكان والفئات المهنية . اذ يحدق بالمستخدمين والعمال الصناعيين خطر دائم هو خطر البطالة المرتبط بالاتمتة وشيوع استعمال الروبوتات والكمبيوترات فى الانتاج . وحتى حقيقة ان التكنولوجيات الجديدة توفر فرص عمل اضافية لا تعطى ضمانة ان عددا كبيرا من المواطنين لن يفقد عمله ، ولن يغدو من عداد «الفائضين عن اللزوم» فى البنية الاجتماعية المقصودة . لهذا لا يندر ان تطغى النبرات التشاؤمية فى الوعى الاجتماعى لهذه البلدان على النبرات التفاؤلية ..

يستدل من هذه الامثلة ان من المتعذر استخلاص كل الآراء الاجتماعية ، وكل التعاليم والمثل والنظريات السياسية بشكل مباشر من البناء التحتى ، اى من العلاقات الانتاجية . وبديهى ان هذه العلاقات وما يناسبها من نشاط تطبيقى محدد الاغراض تندرج فى اساس سائر العلاقات وانواع النشاط والعمليات الاجتماعية . بيد ان هذا يعنى ان الوعى الاجتماعى هو الآخر يعكس ويتوصل الى معرفة ليس فقط العلاقات الانتاجية والنشاط الانتاجى ، بل وسائر العلاقات الاجتماعية الموضوعية وانواع النشاط وما يتعلق بها من ظواهر وعمليات الحياة الاجتماعية ، اى الوجود الاجتماعى . على هذا النحو نجد ان مقولتى «البناء التحتى» و«البناء الفوقى» لا تكفيان بعد لتفسير كيف وماذا يعكس الوعى الاجتماعى ، وكيف يؤثر فى نشاط البشر الاجتماعى . ان مقولة «الوجود الاجتماعى» اوسع من مقولة «البناء التحتى» ، ذلك انها تشمل ليس العلاقات الانتاجية فحسب ، بل والعناصر المادية للقوى المنتجة ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكذلك لسائر العلاقات الاجتماعية والدوائر الاجتماعية وانواع النشاط المختلفة . وبالعكس ، فمقولة «الوعى الاجتماعى» اضيق من مقولة «البناء الفوقى» ، لان البناء الفوقى يضم ، فضلا عن الوعى الاجتماعى ، الدولة والاحزاب وباقى الدوائر والمنظمات التى تشارك فى «انتاج» الوعى الاجتماعى ، وفى وضع مختلف النظريات والاراء والتعاليم ، وتناضل من اجل تطبيقها وتجسيدها فى واقع الحياة . غير ان هذه الدوائر والمنظمات بحد ذاتها موجودة موضوعيا ، اى خارج نطاق الوعى ، والوعى الاجتماعى يعكس عناصرها المادية . على هذا النحو ، ليس ترابط الوعى الاجتماعى والوجود الاجتماعى بالامر البسيط ، بل يتم عبر نشاط مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية ، وعبر نشاط المؤسسات الاجتماعية .

ان الوعى الاجتماعى لا يعكس الوجود الاجتماعى فحسب ، بل ويؤثر فيه تأثيرا عكسيا فعالا . ففى منظومة الوعى الاجتماعى ، فى مجموع الآراء والتعاليم خلال عصر تاريخى معين ، كأن يكون عصر الرأسمالية مثلا ، قد تنشأ وتتبلور افكار ثورية تعكس ازمة النظام الرأسمالى الداخلية . وبالاستحواذ على عقول الجماهير تكون هذه الافكار قادرة على ان تتجسد فى نشاط ثورى ، وان تؤدى الى تغيير الوجود بحد ذاته . وفى النتيجة ينشأ عوضا عن الوجود الرأسمالى وجود جديد هو وجود المجتمع الاشتراكى . وكلما عكس الوعى الاجتماعى الوجود الاجتماعى بمزيد من الدقة ، كان تأثيره فيه اقوى . ولهذا السبب بالذات تؤثر فيه النظرية الماركسية اللينينية التى تعكس جوهر الوجود الاجتماعى باكبر مدى من العمق والصواب اقوى قدر من التأثير الذى يعمل على تثويره وتغييره .

واجمالا لكل ما قيل نستطيع الان ان نصوغ المبدأ الاساس للمادية التاريخية .

٢١١

المبدأ الاساس للمادية التاريخية . مقولة «الوجود الاجتماعى» هى عبارة عن نتيجة لتعميم لمقولة «المادة» الفلسفية العامة

على الظواهر الاجتماعية . كذلك الحال بالنسبة لمقولة «الوعى الاجتماعى» ، فهى نتيجة لتعميم مقولة «الوعى» الفلسفية الاكثر عمومية على ظواهر الحياة الاجتماعية . ومن خلال حل المسألة الاساسية للفلسفة تؤكد المادية الجدلية ، بالاستناد التام الى العلم المعاصر ، ان المادة هى الاولية والوعى هو الثانوى . وهذا يعنى فى المقام الاول ان المادة تسبق الوعى فى عملية التطور وبامكانها ان توجد قبلـــه وخارج نطاقه وبصورة مستقلة عنه . وبالعكس ، فالوعى لا يمكن ان يوجد بصورة مستقلة عن المادة .

ولكن من الخطأ ان نظن ان الوجود الاجتماعى يمكن ان يوجد قبل الوعى الاجتماعى وبصورة مستقلة عنه تماما . فعلى الرغم من ان العلاقات الاجتماعية والظواهر المادية التى تدخل فى تركيبة الوجود الاجتماعى موجودة موضوعيا ، فهى تقـام على يد البشر فى مجرى نشاطهـــم الهادف . ولا يمكن تصور مجتمع بشرى نشأ فيه وجود اجتماعى ، ولكن لا وجود فيــه البتة لوعى اجتماعى . ان مجتمعا كهذا لا يمكن ان يكون له وجود . فكيف يمكن فى مثل هذه الحالة ان يجرى تعميم الحل المادى للمسألة الاساسية فى الفلسفة على الحياة الاجتماعية ؟

لقد رأينا (٢٠٤) ان طريقة انتاج الخيرات المادية هى اساس سائر انواع النشـــاط البشرى ، بما فيه النشاط الروحى . وعلى غـــرار ذلك بالضبط يعتبـــر البناء التحتى الاقتصادى للمجتمع هو ذلك الاساس الذى يقوم عليه البناء الفوقى السياسى والقانونى للمجتمع (٢٠٥) . وطريقة الانتاج التى تملى سائر انواع وطرائق النشاط تعتبر فى التحصيل الاخير اعمق سبب للتغيرات فى مجمـــل الحياة الاجتماعية ، وسببا للانتقال من نظام اجتماعـــى الى آخر ، وبهذا المعنى تلعب الدور الحاسم . كذلك الحـــال بالنسبة للتغيرات فى البناء التحتى ، فهى تملى التغيرات فى البناء الفوقى ، كونها علة علل هذه التغيرات ، بصرف النظر عن ان البناء الفوقى بحد ذاته يستطيع ان يؤثر تأثيرا عكسيا فعالا فى البنـــاء التحتى . وهذا ما يتجلى فيه الدور الحاسم للبناء التحتى .

لا يصعب الآن ان نفهم بأى شكل يمكن استخدام المسألة الاساسية للفلسفة بمقتضى الحياة الاجتماعية ، وبأى شكل يمكن اعطاء جواب مادى عنه . فيما يتعلق بالمجتمع تتخذ هذه المسألة الصيغة التالية : «ما هو الحاسم — الوجود الاجتماعى ام الوعى الاجتماعى ؟» ردا على هذا السؤال تؤكد المادية التاريخية ، على الضد من المثالية التاريخية ، ان وعى البشر ليس هو الذى يحدد وجودهم ، بل العكس هو الصحيح ، اى ان وجودهم الاجتماعى هو الذى يحدد وعيهم . وتعتبر هذه الموضوعة تعميما علميا لمجمل تجربة البشر التاريخية ، كما تعتبر الى جانب ذلك القانون الاساس لتطور المجتمع وادائه لوظائفه . فالوجود الاجتماعى مادى واولى ، بمعنى انه هو الذى يحدد تغيير مضمون وشكل الوعى الاجتماعى ، بل وحتى نفس طابع تأثيره العكسى الفعال فى الوجود الاجتماعى . لهذا السبب بالذات تعتبر موضوعة الدور الحاسم للوجود الاجتماعى ازاء الوعى الاجتماعى المبدأ الاساس للمادية التاريخية .

ويستدل من هذا المبدأ : ١ — ان الوجود الاجتماعى موجود موضوعيا ، اى خارج الوعى الاجتماعى ؛ ٢ — ان الوعى الاجتماعى يعكس الوجود الاجتماعى ؛ ٣ — ان الوجود الاجتماعى ، كونه اوليا ، ماديا ، يقيض ليس فقط مضمون الوعى الاجتماعى ، انما اشكاله ايضا ؛ ٤ — ان كل تغيرات الوعى الاجتماعى تسببها بشكل مباشر او ضمنى التغيرات فى الوجود الاجتماعى ؛ ٥ — ان الوعى الاجتماعى يمكن ان يؤثر تأثيرا فعالا فى تغير وتطور الوجود الاجتماعى ، غير ان هذا التأثير بحد ذاته تحدده فى التحصيل الاخير القوانين الموضوعية لتطور الوجود الاجتماعى وممارسته لوظائفه ؛ ٦ — ان كل قوانين التطور الاجتماعى ترتكز على المبدأ الاساس للمادية التاريخية ، وتجد فيه ما يفسرها علميا .

ان المبدأ الاساس للمادية التاريخية يؤكد ويعلل صحة النظرة الى تطور المجتمع كعملية طبيعية تاريخية (٢٠٣) . وتتجسد هذه النظرة بأوفى صورة فى التعليم الخاص بالتشكيلات الاقتصادية الاجتماعية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التعليم الخاص بالتشكيلات الاقتصادية الاجتماعية

٢١٢

الفردى والخاص والعام . يكفى ان نلقى نظرة على الاشيـــاء المحيطة بنا كى نلاحظ انها جميعا تختلف فيما بينها ولـــو قليلا . فحتى كرتا البليارد المتشابهتان تختلفان فى الوزن بجزء من الالف من الغرام ، اذا ما وزنتا وزنا دقيقا جدا . وعلى الرغم من ان ميكانيك الكم يؤكد ان الدقائق البسيطة ذات التسمية الواحدة لا تختلف احداها عن الاخرى ، لا ينبغى ان ننسى انها فى كل لحظة بعينها تتواجد فى اماكن مختلفة ، وقد تدخل فى تركيب ذرات مختلفة ، والذرات فى تركيب جزيئات مختلفة ، والجزيئات فى تركيب اشياء مادية مختلفة . واكثر الفوارق بالطبع نجدها بين البشر ، وهى فوارق فى المظهر والطباع والعادات والمصائر والانتماء القومى واللغة ، الخ . وبكلمة ، فان كل الظواهر والعمليات المحيطة بنـــا تتسم – بهذا القدر او ذاك – بسمات وملامح منفردة تلازمها وحدها دون غيرها ، اى تتسم **بالفردية** . وهذه الصفة التى تتصف بها الظواهر والعمليات المحيطة بنا هى مـــا تعكسه مقولة «**الفردى**» .

الى جانب ذلك ، ليس ثمة ظواهر وعمليات فردية بحتة لا تشبه سواها من الظواهر والعمليات . على سبيل المثال ، ان لكل الغربان اجنحة سوداء اللون ، وكل السوائل تتسم بصفات سيولة متشابهة . وبرغـــم كل الفوارق الفردية التى تجعل البشر على هذا القدر من تباين المظهر ، فهم يتسمون بصفات وملامح متشابهة ، او – كما يقال – بخصائص تتيح تصنيفهـــم فى فئات عدة . اذ يمكن تصنيفهم حسب العمر والجنس ولون البشرة والشعر وفئة الدم والانتماء القومى واللغة ، الخ . ومهما اختلف الاسكندر المقدونى ويوليوس قيصر ونابليـــون وسوفوروف من حيث المصير والمظهـــر والتصرفات الملموسة ، فبامكـــان المرء ان يجد بعض اوجه الشبه فى شخصياتهم . كالارادة والشجاعة والموهبة العسكرية والقابليات التنظيمية وما الى ذلك ، مما اتاح لهم ان يصبحوا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قادة عظماء . على هذا النحو تنطوى الظواهر الفردية على ملامح وصفات لا تميز بعضها عن بعض فحسب ، بل وتجعلهـا متشابهة مع سواهـا . وعلى هذا الاساس يمكن تصنيفهـا وتحديد خصائصها كمجموعات . وعليه فان **الملامح والصفات الموضوعية الملازمـة لبعض المجموعـات او الانساق من الظواهر والعمليات تعكسها مقولة «الخاص» او «الخصوصى» .**

والى جانب الصفات والملامح الملازمة لبعض المجموعات او الانساق من الظواهر والعمليات ، **ثمة** فى الواقع الموضوعى **سمات وصفات وعلاقات تتسم بها كل ظواهر وعمليات ذلك الصنف ، وهى ما تعكسه مقولة «العام»** . فالعام بالنسبة لكل العناصر الكيميائية هو ان لذراتها بنية تتكون من نواة وقشرة الكترونية . والعام بالنسبة للبشر كافة ، بصرف النظر عن الجنس واللغة والعرق والانتماء القومى ومـا الى ذلك ، هو انهم كائنات اجتماعية عاقلة ، قادرة على صنع شتى الاشياء بواسطة ادوات العمل . على هذا النحو نخلص الى استنتاج مهـم هو ان مقولات «الفردى» و«الخاص» و«العـام» تعكس الصفات الموضوعية للعالم المحيط بنا .

وثمة رابطة جدلية عميقة فى الواقع ذاته بين العـام والخاص والفردى . **فالعـام والخاص يوجدان ويتجليان عبر الفردى . وبالعكس : ان كل عملية او شىء فردى ينطوى على ما هو خاص وعام** . وينطبق هذا القول على الطبيعة والمجتمع والفكر سواء بسواء . فكـل نبات او حيوان يخضع لقوانين بيولوجية عامة ، كما يخضع فى الوقت ذاته لقوانين خاصة لا يتسم بها الا الصنف المعنى . وعلى غرار ذلك ان كل انسان ، مهما اتصف به من صفات فردية متميزة ، يكشف فى سلوكه وطباعه ونشاطه الاجتماعى عن خصائص تميز شعبه ومهنته وفريق العاملين الذى ينتمى اليه ، وكذلك عن سمات عامة يتسم بها ابناء تلك الثقافـة وذلك العصر التاريخى وتلك الطبقة الاجتماعية . فى الوقت ذاته ، ان العـام والخاص لا يوجدان لوحدهما ، اى خارج الفردى وبصورة منفصلة عنه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالقوانين العامة للمجتمع الاشتراكى تتجلى فى نشاط فرق العاملين المنفردة والافراد الذين يشكلونها .

بعد ان اوضحنا ترابط العام والخاص والفردى وتأكدنا من ان مفعول هذا الترابط يسرى فى الطبيعة والمجتمع على السواء بامكاننا الآن الانتقال الى مسألـــة القوانين الاعـم للتطور الاجتماعى . ويرتبط حل هذه المسألة ارتباطا لا ينفصم مـع التعليم عن التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية .

٢١٣

ما هى التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية ؟ عندما نتأمل مصير الانسان فى الماضى والحاضر والمستقبـــل ، ومكانته فـــى المجتمع ، وموقفه من العالم المحيط ، نصطدم بتنوع هائل فى الاحداث التاريخية والتصرفات البشرية ، وبنشوء وتطور وحتى هلاك دول وشعوب باكملها . فهل يمكن ان نلمح وراء كل ذلك بعض القوانين العامة التى تحمل من الصفة الموضوعية ما تحمله قوانين الطبيعة ؟ قبل ظهور الفلسفة الاجتماعيـــة الماركسية منيت كل محاولات العثور على مثل هذه القوانين بالفشل .

لقد اقتضى الامر انقلابا ثوريا حقا فى فهم المجتمع كيما يتسنى للبشريـــة ان تستشف من وراء الزهاء الظاهـرى والتقلبات السريعة للاحداث التاريخية وافعال البشر مـا هو عام ، اى ما من شأنه ان يجمع ويفسر احتمال هذه الاحداث وهذه الانواع من النشاط دون سواها . وهذا العام هو الذى سمى بالتشكيلة الاقتصادية الاجتماعية .

يقصد بالتشكيلة الاقتصادية الاجتماعية مجموع العلاقات والعمليات الاجتماعية الموضوعية الثابتة والدوائر والفئـات الاجتماعية المستقرة ، وكذلك كل انواع واشكـــال الوعى الاجتماعى التى تظهر وتنمو على اساس طريقة الانتاج (٢٠٤) السائدة فى عصر تاريخى معين .

اذن ، فالتشكيلة الاقتصاديـة الاجتماعية هى عبارة عن منظومة معقدة غاية التعقيد . وفى كل عصر تاريخى يمكن ان تكون هناك لا طريقة واحدة ، بل بضع طرائق للانتاج . ففى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المجتمع الرأسمالي ، مثلا ، قد يوجد ، الى جانب الطريقة الرأسمالية السائدة ، الانتاج البضاعي الصغير والانتاج الابوي ، اي العيني ، وكذلك بقايا الانتاج الاقطاعي . **وتسمى طرائق الانتاج غير السائدة هذه ، عادة ، بالانماط** . وهي تتسم بالتنوع بصفة خاصة خلال فترات الانتقال من تشكيلة الى اخرى . الا ان الانماط نفسهـا تخضع لطريقة الانتاج السائدة وترتهن بهـا . لهذا فهي التي تقرر كل العلاقات والعمليات الاساسية ودوائر واشكال الوعي التي تشكل البناء التحتي والبناء الفوقي للتشكيلة المعنية (٢٠٥)

يتألف المجتمع ، باعتباره منظومة اجتماعية موحدة ، او كيانا اجتماعيا ، من جملة منظومات ثانوية مترابطة فيما بينها . وتعزى الى عداد هذه المنظومات الثانويـة ، مثلا ، الطبقات والاحزاب السياسية والدولة والمنظمات الدينية الكنسيـة والاسرة ، الخ . غير انها ترتهن في التحصيل الاخير بطريقة الانتاج (٢٠٤-٢٠٩) . وصلة مختلف المنظومات الثانويـة الداخلة ضمن التشكيلـة المعنية بطريقة الانتـاج ليست بسيطة ، بل معقدة ، وهي تتـم عبر مختلف العلاقـات والارتهانات .

ان «التشكيلة الاقتصاديـة الاجتماعية» مقولـة تعكس السمات والصفات الموضوعية الضرورية الاكثر عمومية التي تحددها طريقة الانتاج السائدة ، لكنها تتجلى باشكال متميزة عن سواهـا في مختلف البلدان . وترتهن هذه الخصائص بالظروف الوطنية والتاريخية وكذلك بالوقت والظروف التي نشأت فيها التشكيلة المعنية .

ويوجه التعليم عن التشكيلات الاقتصادية الاجتماعيـة ضربة ماحقة لكل الوان المثالية التاريخية . لهذا يسعى مؤدلجو البرجوازيـة المعاصرة ، ولا سيما اتباع عالـم الاجتماع والفيلسوف والمؤرخ الالماني فيبر (١٨٦٤-١٩٢٠) الى دحض هذا التعليم ، فيطلقون على التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية نعت «الطراز المثالي» ، اي النموذج المتخيل لمجتمع لا وجود له في الواقع التاريخي الموضوعي . واعتراضـا على ادعاءات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المثاليين كتب لينين ان مفهـوم «التشكيلة الاقتصاديـة الاجتماعية» يوفر امكانيـة «الانتقال من وصف الظواهـر الاجتماعية (وتقويمها من حيث المثال الاسمى) الى تحليلهـا تحليلا علميا صارما يشخص ، على سبيل المثال ، مـا يميز بلدا راسماليا عن آخر ، ويبحث فيما هو عام لها جميعا» * .

وقد تتجلى نفس التشكيلة ، كالرأسمالية او الشيوعيـة مثلا ، وتتطور بصورة مختلفة فى بلدان مختلفـة ، غير ان وجود السمات العامة والروابط المستقرة والضرورية يتيح صياغة قوانين عامة (بالنسبة لكل البلدان والشعوب) لاداء هذه التشكيلة او تلك لوظائفها ، كذلك قوانين الانتقال من تشكيلة الى اخرى .

٢١٤

الثورة الاجتماعية . فى سيرورة التطور الاجتماعـى لا تؤدى التشكيلات وظائفها فحسب ، بل وتحل احداها محل الاخرى ، علما بان هذا يتم بتعاقب معين ، موضوعى ومحكوم بقوانين . **وتسمى عملية الانتقـال من تشكيلة الى اخرى بالثـورة الاجتماعية** . فما الذى يحدد هذا القانون ، وبـم يرتهن هو نفسه ؟

ان تعاقب التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية يتحدد بتعاقب طرائق الانتاج السائدة . وتبعا لطرائق الانتاج الاساسيـة الخمس (٢٠٤) يجرى تمييـز خمس تشكيلات اقتصاديـة اجتماعية هى : المشاعية البدائية ، العبودية ، الاقطاعيـة ، الرأسمالية والشيوعية .

ويمكن للانتقالات من تشكيلـة الى اخرى ان تجرى فى مختلف البلدان وفى مختلف الفترات التاريخية بسبل مختلفة . فقد يمتد امدها احيانـا عشرات السنين ، بل وحتى مئات السنين . ومن المهم ان نفهم ان الثورة الاجتماعية تتحدد لا بكونها تجرى بطريق سلمى او مسلح ، ولا بامتداد امدها او

---

* لينين . المجلد ١ ، ص ١٣٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قصره ، بل تتحدد بحقيقة ان فى سياقها يجرى تبدل طرائق الانتاج وفى المقام الاول الابنيـــة التحتية الاقتصاديـــة . وبالامكان ، كما ابان ماركس ، اثبات تبدل الابنية التحتيـة هذا بالدقة المعهودة عن العلوم الطبيعية . ويجرى فى سياق الثورة الاجتماعية ايضا تبدل معقد ووافر الصعوبة لكل طوابق البناء الفوقى الاجتماعى . اذ تتغير تغيرا جذريا بنية المجتمع الطبقيـــة (٢٠٦) . لذا يرافق هذا التبدل فى التشكيـلات الطبقية صراع طبقى ضار . وفى مجرى الانتقال من تشكيلة الى اخرى يتغير ايضـا مضمون اشكـــال الوعى الاجتماعى المختلفة . اذ يشرع الفن والدين والاخلاق والفلسفة ذاتها فى عكس الوجود الاجتماعى الجديد والعلاقات الجديدة بين البشر ، والنظام الجديد لسلطة الدولة والاحزاب السياسية . وتجرى التغيرات فى طريقة الانتاج وفى العلاقات الاجتماعية كافـــة خلال فترة الثورات اسرع بعشرات ومئات المرات ، فتشمل شرائح الحياة الاجتماعية الاكثر عمقـــا مما فى فترة التطور الرتيب ضمن اطار التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية السالفة . ويجرى هدم العلاقات التقليديـــة وطرائق النشاط وانماط التفكيـــر ، وتغير سيكولوجيـــا المجتمع وايديولوجيته ، وباختصار ، الهدم الجذرى لمجمل الحيـــاة السالفة فى خضم صراع القوى الاجتماعية الضارى ، ممهدا الطريق امام التشكيلة الجديدة . وهذا الهدم هو الذى يشكـــل اهم ممهدة وشرط لتطور هذه الاخيرة . لذا تعتبر الثورات الاجتماعيـــة ضرورة تاريخية موضوعية . **والانتقال الى التشكيلة التالية ، الارقى والاكثر تطورا من الناحية التاريخية لا يمكن ان يتـــم بغير الثورة الاجتماعية .**

٢١٥

بنية الثورة الاجتماعية . ان الثورة الاجتماعية التى تنشأ فى نتيجتها تشكيلة اقتصادية اجتماعية جديدة تشمل كل جوانب الحياة الاجتماعية ، ولها بنية معقدة .

وتسمى عملية هدم طريقة الانتاج القديمة ونشوء اخرى جديدة **بالثورة الاقتصادية** . ومهمتها الاساسية هى الاستعاضة

عن العلاقات الانتاجية القديمة باخرى جديدة تناسب طابع ومستوى تطور القوى المنتجة .

اما عملية تبدل البناء الفوقى القانونى والسياسى ، المتمثلة فى كون المؤسسات القانونية والسياسية القديمة الداخلة ضمن تركيب التشكيلة السالفة تستبدل بها اخرى جديدة تناسب البناء التحتى للتشكيلة الجديدة فتسمى **بالثورة السياسية** . وقد اكد لينين باصرار ان مسألتها الرئيسية هى مسألة الاستيلاء على سلطة الدولة وتبديل ماكنة الدولة القديمة . وبما ان سلطة الدولة (٢٠٧) تعتبر اهم اداة لحل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية ، فان الصراع على سلطة الدولة واقامة الدولة الجديدة يشكل ما يشبه نواة او جوهر كل ثورة اجتماعية . وهذا الجانب من القضية بالذات هو ما حرص خصوم الثورة على تمويهه . فقد حاولوا تصوير الامور وكأن من الممكن حل ابرز واهم قضايا الثورة الاجتماعية ، ولاسيما الثورة الاشتراكية ، دون هدم اركان الدولة القديمة ، عن طريق تحسينها وتطويرها . وبذا طمسوا الطبيعة الطبقية للدولة . ان الدولة البرجوازية التى هى اداة لقمع الكادحين سياسيا لا تستطيع بحكم جوهرها نفسه ان تزيل التناقضات التناحرية ، وان تصفى الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، وان تعمل على بناء المجتمع اللاطبقى . لهذا يعتبر تبديل ماكنة الدولة البرجوازية بدولة الكادحين فى ظل الدور القيادى للطبقة العاملة شرطا ضروريا ضرورة تاريخية للثورة الاشتراكية التى هى اعمق ثورة بين الثورات الاجتماعية قاطبة (٢١٩ ، ٢٢٠) .

فى سياق الانتقال من تشكيلة الى اخرى تجرى كذلك تغيرات نوعية عميقة فى الوعى الاجتماعى وفى مجمل ثقافة المجتمع الروحية ، بما فى ذلك التغيرات فى الايديولوجيا (٥٠٠ ، ٢٢٤) . فالقانون والاخلاق والفن والفلسفة وما الى ذلك تكتسب مضمونا اجتماعيا وايديولوجيا جديدا يعكس الوجود الاجتماعى الجديد ، ويؤثر تأثيرا فعالا فى تطوره . ويتغير وجه المجتمع الثقافى . وتسمى هذه العملية **بالثورة**

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الثقافية . وتجرى اعمق التغيرات فى وجه المجتمع الروحى والثقافى بصفة خاصة فى فترة الانتقال الثورى من الرأسمالية الى الاشتراكية . ولكن لا ينبغى الظن بان الثورة الثقافية تعنى القطيعة التامة مع التقاليد الثقافية السالفة او التخلى عنها . ان على الثورة الثقافية الحقيقية ان تقوم بتركيم كل قيم ونفيس انتجته الثقافات الماضية ، وان تجعل ارقى منجزات الثقافة العالمية والقومية ملكا لجميع الفئات الاجتماعية ولاوسع اوساط السكان .

وتعتبر الثورات ، الاقتصادية والسياسية والثقافية ، اهم جوانب وعناصر الثورة الاجتماعية . وهى تطبق بترابط وثيق . فى بعض الاحيان يتقاطع وقت تنفيذها ويتطابق . وقد يسبق بعض هذه العمليات الثورية بعضها الاخر ، تبعا للوضع التاريخى الملموس ، ويمتد امدها لفترة زمنية طويلة الى هذا القدر او ذاك . لكن الثورة الاجتماعية فى كل الظروف لا تكتمل الا بعد ان تنفذ المهام التى طرحها التطور الاجتماعى فى مجال الاقتصاد والحياة الاجتماعية السياسية والثقافة . وتنفيذ هذه المهام هو الذى يعنى قيام التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية الجديدة .

يعتبر تطور المجتمع عبر تعاقب التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية والثورات الاجتماعية العميقة قانونا موضوعيا للتاريخ . وليست الثورات الاجتماعية ضرورية تاريخيا الا فى ظروف معينة . ومع انتفاء هذه الظروف تنتفى الضرورة الموضوعية فى الثورات الاجتماعية كشكل للانتقال من تشكيلة الى اخرى . ولاجل ان نفهم كيف يسرى مفعول القوانين الموضوعية لاداء التشكيلات لوظائفها وتعاقب هذه التشكيلات ينبغى تناول المراحل الاساسية لتطور المجتمع البشرى ، منذ نشوئه حتى العصر الراهن .

٢١٦

نشوء المجتمع البشرى . ان العملية التى تظهر فى سياقها ظاهرة ما وتتكون وتكتمل لكنها لم تكن بعد قد تكونت واكتملت نهائيا ، ولم تكتسب سماتها الحقيقية تسمى

بالنشوء . لا يجوز القول بثقة ان الظواهر التى لا تزال فى طور النشوء غير موجودة ، وفى الوقت ذاته ليس صحيحا الادعاء بانها موجودة بشكلها المتطور الكامل . ومفهوم النشوء مقولة فلسفية تستخدم فى دراسة كل الظواهر التى فى طور النمو ، ولا سيما خلال المرحلة الاولية من نشوئها . ولننظر الان فى عملية نشوء المجتمع البشرى .

نحن نعرف بالفترة الاولية من نشوء البشرية بفضل التنقيبات الاثرية . ففى غضون ربع القرن الاخير تم العثور على رفات اقدم اسلاف الانسان ، واتضح انهم كانوا من حيث المواصفات البيولوجية اقرب الى الحيوانات ، لكنهم مع ذلك شرعوا لاول مرة فى استخدام ابسط الادوات الحجرية للحصول على القوت وصنع مختلف الاشياء . ويطلق العلماء على هذه المخلوقات نعت «ما قبل البشر» . اذ كان نمط حياتهم قريبا من نمط حياة قطعان الحيوانات . وكان دماغهم من حيث الحجم والبنية لا يكاد يفوق حجم ارقى القرود الشبيهة بالانسان . ولم تكن قد نشأت بعد فى قطعان «ما قبل البشر» علاقات انتاجية بالمعنى الدقيق للكلمة ، وبالتالى لم تكن هناك ايضا علاقات ودوائر اجتماعية اخرى من تلك التى تميز المجتمع البشرى . وقد ظهر «ما قبل البشر» قبل حوالى ٥,٥ مليون سنة ، ويمكن اعتبار الفترة التالية ، وهى تشكل قرابة ٣,٥ مليون سنة ، عصر نشوء المجتمع البشرى . وعلى مدى هذه الفترة جرى تطور ادوات العمل ونمو النشاط الانتاجى ببطء شديد ، وبصورة عفوية ، وعن طريق التجربة والخطأ . بيد ان قوى المجتمع المنتجة قد نمت حتى اواخر تلك الفترة الى درجة ، بحيث تطلب نموها اللاحق تنظيما معينا لجميع العمليات التطبيقية والاجتماعية . هكذا جرى بفضل تطور القوى المنتجة توفير الممهدات اللازمة لنشاط البشر الاقتصادى ، ولنشوء العلاقات الاجتماعية ، والانتاجية منها بالدرجة الاولى . وتحول وجود الانسان الى وجود اجتماعى ، وراح يتكون على اساسه الوعى الاجتماعى .

انتهت عملية نشوء المجتمع البشرى قبل حوالى ١-١,٥

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مليون سنة ، عندما ظهر اقدم البشر البدائيين — انسان البيثيكانثروب (الانسان — القرد) . ويطلق عليهم ايضا اسم البشر الاقدمين او الباليانثروب . وهم من حيث تكوينهم البدنى يختلفون بعد اختلافا ملموسا عن الانسان المعاصر ، لكنهم اكثر اختلافا عن «ما قبل البشر» والحيوانات . ويختتم نشوء البشرية بظهور التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية الاولى ، وهى نظام المشاعية البدائية .

٢١٧

التشكيلة المشاعية البدائية . يتمثل اساس التشكيلة المشاعية البدائية فى الملكية العامة الجماعية لادوات الانتاج . فقد اتاحت ابسط ادوات العمل الحجرية (الفؤوس والسكاكين ورؤوس السهام والحراب وغيرها المصنوعة من الحجر) ، والادوات المصنوعة من عظام الحيوانات والقسى والمزاريق الخشبية ، الفرصة للانسان كى ينفصل عن عالم الحيوان . مع ذلك كانت هذه الادوات تضمن انتاجية عمل منخفضة . ولم يكن استخدامها فعالا الا فى نتيجة نشاط البشر المشترك . وقد قيض طابع القوى المنتجة هذا نمط العلاقات الانتاجية ايضا . اذ كانت جميع الادوات ملكا عاما لاعضاء الجماعة البدائية . وكانت نواة هذه الجماعة هى الفخذ * الذى يرتبط جميع افراده فيما بينهم بروابط قربى الدم . ومن مشاعيات الافخاذ تكونت فى وقت لاحق القبائل والاتحادات القبلية .

كان الانسان البدائى ضعيفا جدا فى مواجهة قوى الطبيعة العمياء . ولم يكن بمقدور البشر مجابهتها الا بصورة جماعية . اذ كانت المواد الغذائية المستحصلة فى العمل المشترك توزع بين جميع افراد الفخذ او القبيلة . على هذا النحو كانت جميع عناصر العلاقات الانتاجية : الملكية ، التبادل المباشر بالنشاط والتوزيع تناسب مستوى وطابع تطور القوى المنتجة (٢٠٤) . وكان لهذه العلاقات الانتاجية بناء فوقى يناسبها هو البناء الفوقى للتشكيلة المشاعية البدائية . وكان يتزعم الفخذ او

---

* يقصد به هنا اسرة مؤلفة من عدة اجيال — **المترجم** .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القبيلة زعماء يمتازون بالقوة والخبرة والحكمة . وكانت السلطة انتخابية ، وتنتقل احيانا بالوراثة ، من الاب الى الابن . وكان كل افراد المشاعية يشاركون حسب طاقتهم فى العمل وجمع القوت والصيد وما الى ذلك . وكان كل الرجال البالغين الاصحاء بدنيا محاربين فى نفس الوقت . لهذا لم تكن هناك ايما تناقضات اجتماعية داخلية بين افراد الجماعة البدائية . وكان وعيهم يتكون فى غمار الصراع ضد الطبيعة القاسية . اما تفسير الظواهر الطبيعية الغامضة والقوى الغاشمة (الرعد ، البرق ، الصواعق ، القيظ ، الزمهرير ، الفيضان ، الـخ) فيكتسب شكلا خرافيا . وعلى اساس هذا التفسير للعالم نشأت مختلف اشكال الديانة البدائية المبكرة . الى جانب ذلك كانت تدخل فى الوعى الاجتماعى ابسط اصول وقواعد السلوك الالزامى بالنسبة للجميع . وكانت هذه هى اجنة الاخلاق البدائية . واى خرق لها كان يعاقب عليه بصرامة . وظهر كذلك الفن البدائى . وقد حفظ الزمن لنا قدرا غير قليل من نماذج التصوير على الحجر والرسوم التى تصور مشاهد الصيد والزراعة والاشتباكات القتالية وعناصر العبادة الدينية ، الخ .

وكان استخدام النار خطوة عظمى الى الامام فى تطور التقنية البدائية والانتاج عموما . فبمساعدتها تعلم البشر ليس فقط طهى الطعام ، بل وتدفئة المساكن وصنع الادوات الفخارية ، ومن ثم صهر المعادن وصنع ادوات العمل والاسلحة الحديدية والبرونزية . وادى هذا الى قفزة عملاقة فى تطور القوى المنتجة . وكان من نتائج ذلك نزوح البشر السريع من مناطق سكناهم الاولية فى الحزام الاستوائى الدافئ وانتشارهم على سطح الارض باكمله ، بما فى ذلك المناطق المنيعة والقاسية المناخ .

ورافق تطور القوى المنتجة تقسيم العمل . فقد ظهرت قبائل تزاول فى الغالب الصيد او جمع القوت النباتى . وجرى تقسيم العمل الذى كان يجمع بين الزراعة وتربية المواشى . وانفرزت الحرف الى صناعات الاسلحة والفخاريات والاحذية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهلمجرا . وفى نتيجة ذلك نشأ بين المشاعات البدائيـــة المختلفة التبادل بمنتوجات العمل .

وقبل حوالى ٦ الاف سنة ارتفع تطور القوى المنتجـــة للمجتمع البدائى الى مستوى جعل البشر يشرعون لاول مرة فى انتاج سلع اكثر قليلا مما كان ضروريا لتلبية احتياجاتهـــم المباشرة الى الطعام والملبس والمسكن . وظهرت امكانية خزن وادخار هذا الفائض . وصار يتركز فى يد اعيـــان ووجهاء القبائل . وفى النتيجة نشأت ممهدات لادخار الثروات وظهور التباين فى حيازة الملكيـــة . وبات بالامكان توظيف فائض وسائل الانتاج لاستغلال عمل الاخرين ، ومعنى هذا قد ظهرت بوادر علاقات انتاجية جديدة اصبحت قائمة الان لا على الملكية الجماعية ، بل على الملكية الخاصة . واخذت تنشأ طريقـــة انتاج جديدة . لقد استنفدت التشكيلة المشاعية البدائيـــة القديمة امكانياتها ، وقادت مسيرة التاريخ الموضوعية البشر الى مديات جديدة . وبرز الانقسام الى طبقات ، فانبثق المجتمع الطبقى.

٢١٨

التشكيلة العبودية . اصبح المجتمع العبودى اول تشكيلـــة اقتصادية اجتماعية تسود فيها علاقات الملكية الخاصـــة الانتاجية . وظهرت اقدم المجتمعات العبودية فى حدود الالف الثالث – الالف الثانـــى ق . م فى مصر القديمـــة ووادى الرافدين ، وفى الهنـــد والصين ، وفى اواخر الالف الثانى ق . م ظهرت فى بلاد اليونان القديمـــة ، وفى الالف الاول ق . م ظهرت فى روما القديمة ايضا . وكان مصدر العبودية هو الحروب ، وكذلك اغلال الديون . فلئن كان الاسرى فى المجتمع البدائى يجعلهـــم آسروهم اعضاء فى قبيلتهـــم او يقتلونهم او يعيدونهم لقاء فدية ، فقد بات اكثر نفعا فى مجتمع العبودية تحويلهم الى عبيد ، ذلك ان عمل العبيد فى ظـــل مستوى القوى المنتجة آنذاك كان بمقدوره ان ينتج فائضا من منتوجات العمل .

لقد ادى نشوء طريقة الانتاج العبودية الى انقسام المجتمع الى طبقات لامتهادنة هى مالكو العبيد والعبيد . وادى الصراع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فيما بينهم بدوره الى اقامة مؤسسة اجتماعية خاصة هى الدولة العبودية . **وكانت هذه الدولة اداة لاضطهاد المستغَلين سياسيا ، وفى مقدمتهم العبيد ، لغرض الابقاء على الجبروت الاقتصادى والسياسى لطبقة مالكى العبيد المسيطرة .**

ومنذ المراحل المبكرة من المجتمع العبودى اخذت السمات العامة لهذه التشكيلة تتجلى باشكال خاصة ، تبعا للظروف التاريخية الملموسة . ففى مصر وبابل واشور وباقى الدول التى اقتضى الحال فيها انشاء اقنية ارواء وتجفيف عملاقة وضرورية للاغراض الزراعية كان الشكل السائد هو عائدية ملكية العبيد الى الدولة . اذ كان الملك الشرقى المستبد يمارس الحكم الفردى مدافعا عن مصالح الطبقة المسيطرة بمجموعها . الى جانب ذلك ازدهرت ملكية العبيد العائلية ، الابوية . وقد اطلق ماركس على النمط الاقتصادى الاجتماعى الذى كان سائدا فى بلدان الشرق القديم نعت «طريقة الانتاج الاسيوية» . وكانت ابرز سمة مميزة له هى القدرة على التكرار الدائم لتكوين نفس النوع من العلاقات الانتاجية والحفاظ على مستوى القوى المنتجة المنخفض بشكل ثابت تقريبا . فمن جهة ، كان ذلك يؤمن استقرارا ورسوخا معينا للمجتمع الذى ما كان ممكنا ان ينهار الا تحت ضغط قوى خارجية . ومن جهة اخرى كانت طريقة الانتاج الاسيوية تؤمن ركود مجمل النظام الاقتصادى الاجتماعى ، الامر الذى كان يترك بصمات معينة على مجمل الحياة الروحية للمجتمع ، وذلك بخفض مبادرة الفرد وحاجته الى الحرية الروحية والاجتماعية الى الحد الادنى ، وبتقوية النظرة التشاؤمية الى العالم والانطوائية والسعى الى الهروب من الجور الاجتماعى الموضوعى الى عالم الانفعالات الداخلية والتهذيب الذاتى ، الى عالم الزهد والحلم الغيبى . لقد عايشت طريقة الانتاج الاسيوية المتسمة بالركود التشكيلة العبودية ، واجتازت فى الكثير من اقطار المنطقة الاسيوية كل فترة القرون الوسطى ، مؤدية الى تخلف هذه البلدان (التى خلقت ثقافة روحية رفيعة) فى المجالين الاقتصادى والاجتماعى عن بلدان المنطقة الاوربية وامريكا الشمالية الاكثر دينامية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعلى العكس من ذلك كانت ملكية العبيد الفردية هى السائدة فى اليونان القديمة وروما . وكان العبيد يعملون فى الورش الحرفية والمناجم ، ويزاولون اعمال شق الطرق والبناء وما الى ذلك . وفى بعض مراحل التطور انتشرت فى اليونان القديمة وروما جمهوريات عبودية ديمقراطية . بيد ان الديمقراطية والمساواة السياسية كانتا تقتصران فيها على المواطنين الاحرار ، دون العبيد .

وبرغم بعض الفوارق بين الدول الاسيوية والاوربية ، كانت دول العالم القديم كافة تتميز بالسمات العامة للتشكيلة العبودية .

لقد حرر عمل العبيد مالكيهم من مزاولة العمل الانتاجى اليومى الشاق . وقد اتاح هذا لممثلى الطبقة المسيطرة ايلاء الكثير من الاهتمام لتنمية الفن والادب والرسم والفلسفة والعلم وهلمجرا . وكانت الايديولوجيا المسيطرة تبرر العبودية . فالعبيد ، على حد تعبير ارسطو ، مجرد ادوات ناطقة . هنا نرى بوضوح كيف يحدد الوجود الاجتماعى وعى العصر الذى نحن بصدده .

وفى مجتمع العبودية كان النشاط الروحى والادارة امتيازا للطبقة المسيطرة ، بينما كان العمل البدنى من نصيب العبيد والمعدمين . لذا كان العمل البدنى محتقرا ، وما كان يعد لائقا بالانسان الحر سوى النشاط الروحى . واحتقار العمل البدنى أنْ هو الا ناتج تاريخى لانقسام المجتمع الى مستغِلين ومستغَلين .

ولقد انتفض العبيد والاوساط المعدمة من السكان مرارا على مضطهديهم ، وقمعت هذه الانتفاضات بقسوة . ولكن حتى فى تلك الحالات النادرة ، حين كانت هذه الانتفاضات تنتهى بانتصار العبيد ، لم يكن ذلك يعنى نهاية العبودية . اذ كان المنتصرون انفسهم يصبحون اسيادا ويحولون خصومهم الى عبيد . ولم يكن هناك احتمال آخر فى ظل مستوى تطور وطابع القوى المنتجة آنذاك .

وفى مجرى التطور البطىء جدا لوسائل الانتاج لم تنشأ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الا بالتدريج الظروف الموضوعية اللازمة لنشوء التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية الجديدة — التشكيلة الاقطاعية .

٢١٩

التشكيلة الاقطاعية . تندرج فى اساس العلاقات الانتاجية الاقطاعية الملكية الخاصة التامة لاهم وسائل الانتاج ، وبالدرجة الرئيسية ، الارض ، والملكية غير الكاملة للفرد المنتج ، اى القن . وقد بدأ هذا الشكل من الملكية يظهر تدريجيا فى اعماق مجتمع العبودية فى روما القديمة ، وكذلك فى بعض الدول العبودية الشرقية . فلم يكن بامكان العبيد ان يزاولوا العمل الا بمساعدة ادوات بدائية فظة ، وهو بالاساس عمل بدائى ضئيل الانتاجية . وكانوا يمقتون العمل القسرى ، كما لم تكن لهم مصلحة فى نتائجه . ومع تطور وسائل الانتاج بات نافعا ليس استخدام عمل العبيد ، بل عمل المنتجين التابعين . واخذت تنشأ علاقات انتاجية جديدة كان فيها مالك الارض والادوات يسمح للمنتج باستخدامها فيجعله بذلك تابعا له . وكان الاهتمام بالعمل لدى هذا العامل التابع حقوقيا ، ولكنه ليس ملكا تاما لسيده ، والذى يستطيع حيازة جزء من السلع المنتجة ، اكبر مما لدى العبيد . وما ساعد على تطور العلاقات الانتاجية الجديدة فى اوربا هو غزو القبائل الهمجية التى اقلبت من آسيا خلال القرون ٢–٥ للميلاد . وبعد تخريب الامبراطورية الرومانية العبودية اقامت هذه الشعوب على انقاضها جملة من دولها . وكان على رأس هذه الدول قادة عسكريون من ملوك ودوقات وبارونات . وكان هؤلاء فى تبعية متبادلة ، وكان رفيعو المقام منهم يوزعون بين جنودهم قطعا من الاراضى (اقطاعيات) ، فيغدو هؤلاء الاخيرون تابعين ويتعهدون باداء الخدمة العسكرية . وكانت منظومة هذه التبعيات معقدة جدا ومتعددة المراتب او هرمية . فعلى المراتب العليا يقف الاباطرة والملوك ، والتابعون لهم هم الدوقات ، وكان لهؤلاء الدوقات بدورهم تابعون من الكونتات والبارونات وهلمجرا . والمرتبة الدنيا كانت من نصيب الكادحين والاقنان. كانت الزراعة تشكل اساس النظام الاقطاعى ، بيد ان العلاقات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاقطاعية تعززت فى المدن ايضا وأدت الى تشكل المنظمات الحرفية القروسطية هى الورش . وكانت فيها كذلك علاقات هرمية معقدة .

وشكل الاقطاعيون على اختلاف مستوياتهم طبقة مسيطرة جديدة . اما الفلاحون الاقنان والحرفيون المعدمون فقد شكلوا الطبقة المستغَلة . وخاض الفلاحون والحرفيون المعدمون صراعا ضاريا مع الاقطاعيين ، وقاموا غير مرة بانتفاضات مسلحة . وانتهت هذه الانتفاضات بهزيمة الكادحين ، وذلك بسبب غياب الظروف الموضوعية اللازمة لانتصارها .

يمتاز المجتمع الاقطاعى بتشتت بالغ فى كيان الدولة . وكان كل اقطاعى يسعى الى الاستقلال السياسى . وخاض الاقطاعيون فيما بينهم حروبا لا نهاية لها . كل هذا اعاق نمو القوى المنتجة وتطور العلاقات الانتاجية . وكان المجتمع الاقطاعى يتسم بالركود وبنزعة محافظة للغاية ، وينمو ببطء . ولكن حتى فى ذلك الحين لم يكن هناك ركود تام او توقف فى التطور الاجتماعى .

وتجلى هذا التطور بالدرجة الاولى فى تحسن ادوات العمل والحرف بصورة بطيئة ولكن بلا توقف ، مما اسفر عن توسع نطاق التجارة الداخلية والتجارة بين الدويلات الاقطاعية . وبالتدريج اخذ التشتت الاقطاعى وغياب النظام النقدى الموحد وطرق المواصلات ، وكثرة التشريعات المتضاربة وما الى ذلك ، يعيق تطور الانتاج والتجارة . لهذا تطلب استمرار تطور القوى المنتجة الموضوعى وتكون طريقة الانتاج الجديدة تغييرا جذريا فى البناء التحتى للمجتمع وفى الظواهر الفوقية (نسبة الى البناء الفوقى) .

فى القرون ١٥-١٧ اخذت تنشأ فى دول اوربا الغربية طريقة انتاج جديدة ، هى الطريقة الرأسمالية . فبفضل صنع مختلف المعدات الميكانيكية والمكائن والادوات المطورة وما شابه ذلك ، لم يعد عمل الاقنان وحرفيى الورش نافعا . وتحولت العلاقات الاجتماعية الاقطاعية الى كابح لتطور المجتمع . لهذا تزعمت الطبقة المستغِلة الجديدة — البرجوازية

– المعنية باستغلال العمال الاجراء وترسيخ طريقة الانتاج الرأسمالية الجديدة النضال ضد النظام الاقطاعي . وفي نتيجة جملة من الثورات البرجوازية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، والتي شاركت فيها الجماهير الشعبية مشاركة فعالة ، تم هدم النظام الاجتماعي الاقطاعي في العديد من بلدان اوربا وامريكا ، واخلت الدولة الاقطاعية مكانها للدولة البرجوازية . واصبحت الغلبة في منظومة الانتاج للعلاقات الانتاجية القائمة على شكل الملكية الرأسمالي الخاص .

٢٢٠

التشكيلة الرأسمالية . انبثقت طريقة الانتاج الرأسمالية بادئ ذي بدء بمثابة نمط خاص في رحم النظام الاقطاعي . وبتحولها الى اساس للتشكيلة الاقتصادية الاجتماعية الجديدة ، ادت الى تغير جذري في العلاقات الاجتماعية كافة . واصبحت طبقة العمال الاجراء والبرجوازية الطبقتين الاساسيتين . ومع سير التطور يتغير طابع القوى المنتجة . فالانتاج الآلي يتطلب عملا جماعيا مشتركا . ويكتسب التناقض بين طابع القوى المنتجة الاجتماعي والملكية الرأسمالية الخاصة لوسائل الانتاج حدة متنامية باطراد . ويتجلى هذا التناقض في اشتداد الصراع الطبقي . ويؤدي تطور الرأسمالية الى نمو سريع للطبقة العاملة وتعاظم دورها في حياة المجتمع . وينمو ايضا وعي البروليتاريا الطبقي . ويتطلب الانتاج الصناعي من البروليتاريا مزيدا من التلاحم والتنظيم وتنسيق العمل ، ومستوى رفيعا من المعرفة والاعداد المهني . وقضت الرأسمالية على التشتت الاقطاعي ، والتنظيم الهرمي المعقد للمجتمع ، وعلى غزارة وتضارب التشريعات ، واوجدت سوقا عالمية موحدة للعمل والرأسمال . كل هذا يسر للطبقة العاملة ادراك التعارض الجذري بين مصالحها ومصالح البرجوازية . ومما ساعد على نمو الوعي الطبقي لدى البروليتاريا قيام ماركس وانجلس بوضع نظرية الشيوعية العلمية ، اي التعليم المتعلق بالتغيير الثوري للنظام القائم وبناء المجتمع اللاطبقي . ويجري ربط الشيوعية العلمية بالحركة العمالية بمساعدة احزاب الطبقة

العاملة . فهى اذ تنقل الشيوعية العلمية الى الجماهير انما تساعد على نمو الوعى الثورى ، الامر الذى يقود بدوره الى توسيع نطاق الصراع الطبقى وتعميقه .

وفى اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ادى التناقض العميق بين العلاقات الانتاجية الرأسمالية الخاصة والقوى المنتجة الاجتماعية من حيث طابعها الى ان هذه الاخيرة اخذت تتطور تطورا ابطأ مما كان يمكن لها ان تنمو فى حالة الغاء الملكية الرأسمالية الخاصة . وحلت مرحلة جديدة من نمو الرأسمالية هى الامبريالية .

تتميز الامبريالية بسيطرة الاحتكارات ومجئ القمة المالية الصناعية (الاوليجاركية) الى السلطة والصراع على اعادة اقتسام المستعمرات واشتداد الصراع الطبقى والامعان فى استغلال الكادحين وتباين التنمية الاقتصادية والاجتماعية وهلمجرا . وقد اظهرت الحرب العالمية الاولى (١٩١٤-١٩١٨) ان الرأسمالية فى مرحلة الامبريالية تعجز عن ضمان تطور البشرية التقدمى السلمى . وقد تأزمت تناقضاتها الاجتماعية الى اقصى درجة . وشهدت روسيا التى كانت الحلقة الاكثر ضعفا فى منظومة الامبريالية قيام ثورة اكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧ ، وابتدأ بناء الاشتراكية بقيادة الطبقة العاملة الثورية وطليعتها الحزب الشيوعى . وكانت هذه هى المرحلة الاولى من الازمة العامة للرأسمالية وانفراط عقد المنظومة الرأسمالية العالمية .

وبعد الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) التى اضرمت نارها اكثر الدول الامبريالية عدوانية ، وهى المانيا الفاشية وايطاليا واليابان العسكرية ، ابتدأت المرحلة الثانية من الازمة العامة للرأسمالية . فتجاوزت الاشتراكية حدود البلد الواحد : اذ اخذت تنشأ المنظومة الاشتراكية التى تضم جملة من دول اوربا وآسيا وامريكا اللاتينية . وبرزت فى نتيجة انهيار النظام الاستعمارى البلدان المتحررة التى راح بعض منهـــا يسلك طريق التوجه الاشتراكى .

ان الرأسمالية المعاصرة تختلف اختلافا جوهريا عما كانت عليه فى اوائل واواسط القرن العشرين . ففى ظروف رأسمالية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدولة الاحتكارية تزداد باطراد حدة النزاع بين القوى المنتجة التى نمت نموا عملاقا والعلاقات الانتاجية الرأسمالية . وهذا لا يعنى ، بالطبع ، توقف تطور القوى المنتجة ، ولاسيما والتقنية والتكنولوجيا الحديثة . على العكس ، ان فروعا انتاجية كالبيوتكنولوجيا والالكترونيات والتكنولوجيا الفضائية والاعلامية تتطور بما يكفى من السرعة . فاين يكمن ، اذن ، هذا التناقض ؟ وكيف تتجلى نتائجه السلبية ؟ القضية هى ان الرأسمال الكبير يطور فى المقام الاول تلك الفروع التى تضمن الحصول على اقصى قدر من الارباح ، وقدرة عالية على المنافسة والسيطرة على السوق الداخلية والعالمية . ويعزى الى هذه الفروع بشكل رئيسى كل ما يساعد على عسكرة المجتمع ويعزز القدرة العسكرية للدول الرأسمالية . والاحتكارات الكبرى لا تراعى مصالح الكادحين فى بلدانها ، مثلما لا تراعى ايضا مصالح شعوب الاقطار النامية . وتؤدى اشاعة استعمال الكمبيوترات والروبوتات فى الانتاج تحت ظل النظام الرأسمالى الى نمو البطالة نموا منقطع النظير . وهذا ما تدل عليه بالذات تخمينات كبار الخبراء الغربيين .

وترتبط النتيجة السلبية الاخرى بكون وتائر تطور القوى المنتجة فى المجتمع الرأسمالى ، بصرف النظر عن بعض النمو الذى تشهده ، ابطأ كثيرا مما كان يمكن ان تكون عليه فى حالة قيام علاقات انتاجية ترتكز على الملكية الاجتماعية (العامة) . وترافق تطورها حالات هبوط متكررة وازمات دورية وبنيوية ونمو ديون الدولة والعجز فى الميزانية والتضخم المستمر . الى جانب ذلك يجرى تركيز وتدويل الرأسمال وتتقوى الاحتكارات فوق القومية (المتجاوزة لحدود بلدانها) التى تستغل الكادحين على الصعيد العالمى وتسيطر ليس على اقتصاد الاقطار النامية فحسب ، بل وعلى اقتصاد البلدان الرأسمالية المتطورة . لقد كان بالامكان توظيف الثروات الهائلة ومنجزات العلم والتقنية التى حققها المجتمع العصرى لاجل احقاق العدالة الاجتماعية والقضاء على الفقر وتقديم العون للشعوب والبلدان التى تخلفت فى تطورها بحكم اسباب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تاريخية شتى . بيد ان القيام بذلك فى ظروف الرأسمالية امر متعذر .

ويحاول زعماء المجتمع الرأسمالى المعاصر تخفيف حدة هذه التناقضات وتبعاتها السلبيـــة عن طريق اللجوء الى مختلف المناورات الاقتصادية والسياسية . غير ان حل التناقضات التناحرية (٤٠٦) العميقـــة للنظام الرأسمالى المعاصر يقتضى تطبيق تحويلات اجتماعية عميقة .

٢٢١

التشكيلة الشيوعية . ان كل تشكيلـة اقتصاديـة اجتماعية جديدة هى نتيجة سنن تاريخية موضوعية . بهذا المعنى تحل التشكيلة الشيوعية بنفس القدر من الضرورة التى حلت بها كل التشكيلات السالفة . بيد ان ظهورها يتسم بخاصية مميزة مهمة وهى انه عبارة عن عملية واعيـــة . وهذا لا يعنى ان الوجود الاجتماعى (٢١٠) يفقد دوره الحاسم . فبحكم طابـــع المجتمع الجديد واختلافه الجذرى عن كل ما سبقه من مجتمعات ، يغدو اهم شرط لقيامه هو ربط الشيوعية العلمية التى تكشف عن القوانين الموضوعية لتطور المجتمع وسبل تغييره بالحركة الثورية للطبقة العاملة والجماهير الكادحة . ويشكل تطبيـــق هذا الشرط مضمون نشاط الاحزاب الشيوعية والعمالية .

فكيف تنشأ التشكيلة الشيوعية وتتطور ؟ ردا على هذا السؤال ، نوه مؤسسو الماركسية اللينينية بان هذه التشكيلة تمر عبر طورين اساسيين .

الطور الاول هو الاشتراكية . يبرز هذا الطور من التشكيلة الجديدة وينشأ فى نتيجة الثورة الاشتراكية .

ومع انتصار الثورة الاشتراكية تنشأ لاول مرة فى التاريخ دولة الكادحين ، اى دكتاتورية البروليتاريا (٢٠٧) . وبقمع المستغِلين المدحورين تركز دكتاتورية البروليتاريا جهودها الاساسية على البناء المبرمج والهادف للبناء التحتى والبنـــاء الفوقى الاشتراكى .

يمر الطور الاول من التشكيلة الشيوعية فى تطوره عبر جملة من المراحل التى تحددها الخصائص التاريخية الملموسة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واصطفاف وتناسب القوى الطبقية داخل البلد وخارجه والتقاليد القومية والثقافية .

وقد اشار لينين فى هذا الصدد الى ان هنـــاك سبلا واشكالا مختلفة لبناء الاشتراكية فى مختلف المناطق والبلدان . الى جانب ذلـــك يجب على المرء ان يرى وراء الخصائص والمواصفات الفردية القوانين العامـــة لهذه العملية (٢٠٧ ، ٢١٢-٢١٠٥) .

ويعزى الى هذه القوانين بالدرجة الاولى مـــا يلى : قيام سلطة الكادحين فى ظل الدور القيادى للطبقة العاملة ، الدور القيادى للاحزاب الشيوعية والعمالية فى تطور المجتمـــع ، تكريس الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج وتطور الاقتصاد لصالح الشعب ، تطبيق مبدأ «من كل حسب قدرته ولكـــل حسب عمله» ، تطور الديمقراطية الاشتراكيـــة ، مساواة وصداقة الامم والشعوب كافة ، حماية الوطن الاشتراكى من الاعداء الطبقيين .

وفى فترة بناء الاشتراكية ينمو نموا حادا دور العامل الذاتى ، اى الوعى الاشتراكى والايديولوجيا الماركسيـــة اللينينية والعمل التربوى . ولذلـــك يتعزز دور الاحزاب الشيوعية والعمالية (٦٠٥) القيادى التنظيمى التعبوى .

والاشتراكية هى المجتمع الذى يطبق فيه مبدأ «كل شىء لخير الانسان وكل شىء لاجل الانسان» . وفى هذا المجتمع :

— تعتبر وسائل الانتاج ملكا للشعب ، فقد تم القضاء على الاستغلال والاضطهاد والتباين الاقتصادى والاجتماعى .

— تنفتح آفاق رحبة لتطور القوى المنتجة السريـــع ، ويضمن التقدم العلمى التقنى رفعـــا مطردا لرفاهية الشعب باسره .

— يجرى تامين الحق المتكافئ للجميع فى العمل والاثابة العادلة عنه .

— يترسخ التحالف الذى لا ينفصم بين الطبقة العاملـــة والفلاحين الكادحين والمثقفين .

— يجرى تامين المساواة فى الحقوق بين الامم والشعوب

كافة ، وبين الرجال والنساء ، وضمان مستقبل امين لجيـل الشباب والضمان الاجتماعي للعاملين المسنين ،

– تتطور الديمقراطية الحقيقية وتضمن المشاركة الواسعة للمواطنين في ادارة الشؤون الانتاجية والاجتماعية وشؤون الدولة .

– تطبق حقوق الانسان بالكامل وتسري نفس القوانين واصول الاخلاق والضوابط على الجميع وعلى كل فرد .

– تسود الايديولوجيا الماركسية اللينينية الانسانيـة الحقة ويشيد ويتطور صرح العلم والثقافة التقدميين .

– ينشأ نمط حياة اشتراكي يقوم على العدالة الاجتماعية والروح الجماعية والتعاضد الرفاقي .

يستدل من تجربة الاتحاد السوفييتي ان المجتمع ذا التوجه الاشتراكي يستطيع خلال مواعيد تاريخية قصيرة ان يتخطى التخلف ويقيم قاعدة صناعية تقنية جبارة ويشيد صرح علم عصري ويحظى بهيبة دولية كبيرة . الى جانب ذلك تظهر هذه التجربة اي دور عملاق في الحياة الاجتماعية يلعبه العامل الذاتي الذي يمكن ان يكون دوره ايجابيا ، كما يمكن ان يكون سلبيا . على سبيل المثال ، ادت الاخطاء الذاتية التي ارتكبهـا ستالين وانصاره الى نقل الاساليب الادارية القائمة على الاوامر والتي نشأت ابان الحرب الاهليـة التي اعقبت ثورة اكتـوبر الاشتراكية ، وعلى الضد من توجيهات لينين ، الى الصناعـة والزراعـة ومجال التنميـة الاجتماعيـة خلال الثلاثينات والاربعينـات . وقد افضى ذلك الى عمليـات قمع جماعيـة وخروق للقوانين الاشتراكية والاستعاضة عن الديمقراطيـة الاشتراكية باساليب متسلطـة في القيادة ، والى التخلي عن العلنية ، والى انخفاض شديد في روح المبادرة والفعالية لدى الجماهير الشعبية الواسعة . وبرغـم الانتصار في الحرب العالمية الثانية واعمار الاقتصاد الوطني بشكل ناجح ، انعكست هذه الاخطاء على العقود التالية واسفرت عن حالة ركود في الاقتصاد ، مما جعل البلد مشرفا على ازمة . واتاح ادراك اسباب هذه الظواهر السلبية الفرصة امام القيادة السوفييتيـة في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اواسط الثمانينات لطرح برنامج التفكير الجديد واعلان ايديولوجيا التجديد . ويتمثل جوهر هذه الايديولوجيا فى مطلب تطبيق البيريسترويكا (عملية التغيير) الثورية من حيث الجوهر بحيث تشمل كل ميادين الحياة الاجتماعية بغية جعل الواقع الاجتماعى مسايرا لمبادئ الاشتراكية ، وتأمين اوسع قدر من الغلاسنوست (العلنية) عند مناقشة كل المسائل المهمة اجتماعيا ، وتعزيز الديمقراطية الاشتراكية والمبادئ الانسانية .

وينشأ **الطور الثانى من التشكيلة الشيوعية** عندما تتم اقامة القاعدة المادية التقنية للشيوعية وما يناسبها من اشكال تنظيم الحياة الاجتماعية والوعى . فالشيوعية نظام اجتماعى لاطبقى ذو ملكية شعبية عامة واحدة لوسائل الانتاج ومساواة اجتماعية تامة بين اعضاء المجتمع . وهى مجتمع رفيع التنظيم لكادحين احرار وواعين ، سوف تترسخ فيه الادارة الذاتية الاجتماعية ، ويغدو العمل لما فيه خير المجتمع الحاجة الحياتية الاولى . وهو يتطلب توفير قوى منتجة تفتح آفاقا رحبة لتلبية الاحتياجات المعقولة للمجتمع والفرد تلبية تامة . وسيقوم مجمل النشاط الانتاجى على استخدام التقنية والتكنولوجيا العالية الفعالية ، كما سيؤمن التفاعل المنسجم بين الانسان والطبيعة . وسيكون مبدأ النشاط والانتاج وتوزيع الخيرات المادية فى هذا الطور هو «من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته» . ان الانتقال الى الشيوعية عملية معقدة وطويلة يجب ان يتم خلالها تحقيق انتاجية عمل ارفع كثيرا بالمقارنة مع الرأسمالية ، واقامة مجتمع متجانس اجتماعيا ، وتنفيذ تغييرات عميقة فى المستوى المعنوى والثقافى لكل فرد وللمجتمع عموما .

٢٢٢

مقولة «التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية» والواقع التاريخى .

يتعرض التعليم المتعلق بالتشكيلات الاقتصادية الاجتماعية وبالطابع الموضوعى لنشوئها وتطورها وتعاقبها عبر الثورات الاجتماعية لهجمات ضارية يشنها خصوم المادية التاريخية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهم يزعمون انه كانت فى العالم ولا تزال مئات من انظمة المجتمعات والدول يتعذر حصرها فى اطر التشكيلات الخمس المتعاقبة . والنظرية الماركسية من وجهة نظرهم ، تبسط الواقع التاريخى المعقد والمتنوع . فالمجتمع الصينى القروسطى يختلف من حيث اللغة والثقافة ونظام السلطة والتقاليد اختلافا شديدا عن دول اوربا القروسطية . وتطور الرأسمالية فى فرنسا عشية الثورة البرجوازية فى القرن الثامن عشر يختلف اختلافا جوهريا عن تطور الرأسمالية فى روسيا عشية ثورة عام ١٩٠٥ او ثورة عام ١٩١٧ الاشتراكية . لذا فان التعليم المتعلق بالتشكيلات الاقتصادية الاجتماعية لا يفى ، على حد زعمهم ، بمقتضيات الواقع التاريخى . عدا عن ذلك ، يصر مؤدلجو البرجوازية على القول بأن ليس جميع المجتمعات والبلدان والشعوب تمر عبر كل مرحلة من مراحل تطور التشكيلات الخمس المتعاقبة ، وهذا يعنى فى رأيهم ان قانون تعاقب التشكيلات التاريخية لا يعكس الضرورة التاريخية ، بل له — فى افضل الحالات — اهمية محدودة بالنسبة لعدد قليل من البلدان المتطورة .

تقوم هذه الاعتراضات على الجهل التام بالصلة الجدلية بين العام والخاص والفردى (٢١٢ ، ٢١٣) . فبمقارنة تطور الرأسمالية فى فرنسا فى القرن الثامن عشر وفى روسيا اوائل القرن العشرين يتسنى لنا تشخيص سمات عامة هى وجود طريقة الانتاج الرأسمالية المشتركة .

وبامكاننا فى الوقت ذاته تشخيص الخصائص ايضا . فالمقصود فى الحالة الاولى هو نشوء التشكيلة الرأسمالية والاوضاع فى عشية الثورة البرجوازية والانتقال من الاقطاعية الى الرأسمالية . اما المقصود فى الحالة الثانية فهو الامبريالية ، اى مرحلة تعفن التشكيلة الرأسمالية ، والثورة الاشتراكية ، رمز الانتقال الى التشكيلة الشيوعية . هذه الفوارق بحد ذاتها لا تكتسب ، على هذا النحو ، مغزى واهمية الا كمراحل فى تطور تشكيلات معينة . وعلى غرار ذلك بالضبط ، وبصرف النظر عن كل الفوارق مثلا بين تاريخ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القرون الوسيطة الصينى والاوربى ، تلك الفوارق التى تتجلى فى نظام الدولة وخصائص التدبير الاقتصادى والثقافـــة ، نستطيع ان نحدد بهذا القدر او ذاك من الدقة تاريخ تطور العلاقات الاقتصادية الاجتماعية المتشابهة من حيث الجوهر ، وبالتالى عائديتها ايضا الى نفس التشكيلة الاقطاعية . على هذا النحو يتجلى بطلان حجج خصوم المادية التاريخية .

ولننظر الان فى مسألة تعاقب تطور التشكيلات فى كل بلد . ان المادية التاريخية لا تقول بتاتـــا بان كل البلدان والشعوب يجب ان تمر على التوالى عبر كل مراحـــل تعاقب ونشوء التشكيلات . فهذا الادعاء لا يتصف به الا الدوغمائيون ، وهو يتعارض مع الجدلية الماركسية . ان المادية التاريخية تؤكد فقط ان التاريخ العالمـــى ، اى تطور البشرية جمعاء يجرى عبر التعاقب الثابت والمحكوم بالقوانين الموضوعيـــة للتشكيلات المشاعيـــة البدائية ، العبوديـــة ، الاقطاعية ، الرأسمالية فالشيوعيـــة . ولئن تسنى للبلدان والشعوب الاكثر تطورا ان تجسد التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية المعنية فى نشاطها الاجتماعى وانتقلت ، مثلا ، الى المرحلة التالية ، الارقى ، من التطور ، فان بامكان الشعوب التى تأخرت فى تطورها ، ان «تتخطى» بعض المراتب ، وان تثب بمساعدة الدول الاكثر تطورا الى مستوى هذه الدول . فما هى آلية هذا «الوثوب» ؟ خلاصة القول ان البلدان والشعوب المختلفة بتقاليدها الثقافية والتاريخية ليست منظومات مغلقة ومعزولة . فهى ترتبط مع سواها من المجتمعات ، بما فيها الاكثر تطورا ، بروابط اقتصادية وسياسية وتكنولوجية وثقافية . وبفضل ذلك يتسنى لها الانتفاع من التجربة التاريخية للبلدان الاكثر تطورا ، ومن منجزاتها التقنية والاقتصاديـــة والثقافيـــة والسياسية ، وفى حالة تقديم عون مناسب لها تستطيع تنفيذ تطورها التاريخى بوتائر اسرع . على سبيل المثال ، تمكنت جمهورية منغوليا الشعبية التى كانت فى مستهل القرن الحالى تحيا فى مرحلة النظام القبلى الاقطاعى المختلط من تخطـــى مرحلة الرأسمالية والشروع فى بناء المجتمع الاشتراكى بفضل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العون والمساعدة الاخوية التى قدمها لها الاتحاد السوفييتى . ان طريق التطور هذا يعتبر ممكنا ايضـــا بالنسبة للبلدان الاخرى التى تخلفت فى تطورهـــا والتى تحررت مؤخرا من السيطرة والاستغلال الاستعمارى . وعلى هذا النحو نجد ان التعليم عن التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية هو الذى يشكل الاساس النظرى لتخطى التخلف والصعاب الماثلة امام هذه البلدان .

بعد تناول القوانين العامة لنشوء التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية وتطورها وادائها لوظائفها وتعاقبها ، نستطيع الآن ان نتناول بالبحث الوظائف والاشكال الاساسية للوعـــى الاجتماعى .

وظائف واشكال الوعى الاجتماعى

٢٢٣

الوعى الاجتماعى وتطور المجتمع . الوعى الاجتماعى لا يتحدد بالوجود الاجتماعى فحسب ، بل ويؤثر هو نفسه تأثيرا فعالا فى حياة المجتمع (٢١٠ ، ٢١١) . وتختلف فاعلية الوعـــى الاجتماعى باختلاف العصور التاريخية . وتتنامى هذه الفاعلية مع تطور المجتمع . فما هو سبب ذلك ؟ القضيـــة هى أن التغيرات فى الوجود الاجتماعى وظروف الحياة تتبعها تغيرات فى الوعى الاجتماعى : يزداد حجم المعارف وتتعقـــد النظرة الى العالم ، ويتراكم حجم هائـــل من المعلومات ومن مراس توظيف المعارف لحل مختلف المشاكل الاجتماعية ، وتتعمق تجربة البشر التاريخية .

ومع نشوء المجتمع الاشتراكى يتنامى دور الوعـــــى الاجتماعى اكثر فاكثر . ويتطلب تنفيذ التحويـــل المبرمج للمجتمع وتحقيق التوافق التام بين العلاقات الانتاجية وطبيعة القوى المنتجة وانماء البناء الفوقى الاشتراكى العمل باستمرار على اعلاء مستوى وعى كـــل فرد ومستوى وعى المجتمـــع الاشتراكى عموما . بيد أن تغير الوعى عملية معقدة جدا . فالوعى الفردى والاجتماعى بنيتان معقدتان تتسمـــان ببعض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاستقرار والنزوع المحافظ . ويستغرق تغيرهما احيانا عشرات بل وحتى مئات السنين . ففى فترات التاريخ الانعطافية الحادة ، عندما يتطلب الامر اعادة استيعاء ثورية جذرية للوضع القائم واعادة تقويمه ، وتغيير القيم الاخلاقية والاجتماعية والجمالية داخل الوعى ، ولاسيما الاجتماعـــى ، تبرز تناقضات حادة وتتصادم الآليات المحافظة والثورية . أن البشر مخلوقات معقدة غير وحيدة المدلول . والذى يتحكم بسلوكهم هو ليس فقط الاهداف والاصول العقلانية ، بل ومختلف الاهواء الخفية والرغبات والاحكام والترسبات والحالات النفسية المعقدة التى تثير انفعالات وامزجة متناقضة ، كالخوف أو الفرح ، والحماسة او التشاؤم ، والايمان المتفانى أو فقدان الايمان ، الشعور باليأس او الطمأنينة التامة . ولاجل تغيير الوعى الاجتماعى بشكل هادف ومدروس ، وتكوين وتنشئة موقف واع وفعال من المعضلات الاجتماعية الملتهبة والحرص على حلها لصالح المجتمع ، لا بد من تحليل فلسفى عميق لجوهر وبنيـــة الوعى الاجتماعى ووظائفه وروابطـــه مع الوعـــى الفردى ، الشخصانى .

يتجلى الوعى الاجتماعى فى مختلف العصور التاريخيـــة باشكال مختلفة . فعندما نتناول تاريخ البشرية نجد تنوعا عظيما من مختلف التعاليم الدينية وانواع النشاط السياسى والفنى ، والاصول القانونيـــة والخلقيـــة على قدر كبير من التباين . واستنادا الى هذه الحقيقة يدعى المثاليون أن الوعى الاجتماعى ونشاط البشر الروحى لا يخضعان لايما سنن عامة ، ويستعصيان على البحث العلمى الموضوعى . وهـــم يصرون على أن ليس هناك ايما صلة او ترابط موضوعى بين تطور الوجود الاجتماعى والتجليات المتنوعة للوعى الاجتماعى . ولكن حتى فى هذه المسألة لا تصمد طروحاتهم امام النقد . فجدلية العام والخاص والفردى (٢١٢) تساعدنا فى هذه الحالة ايضا على دحض المثالية . انها تظهر لنا أن بالامكان ، رغم كل تنوع تجليات الوعى الاجتماعى الملموســـة ، تشخيص اشكالـــه الاساسية وفهم ماهية الدور الذى تمارسه هذه الاشكال ،

وماهية وظائفها في تطور المجتمع وفي نشاطه الحيوى . أن أهم واعم اشكال الوعى الاجتماعى هى : السياسى ، الخلقى ، الحقوقى ، الفنى ، الدينى ، الفلسفى ، العلمى . وسنتناول هنا كل اشكال الوعى هذه باستثناء الوعـــى الفلسفى الذى تحدثنا عنه في المدخل والوعى العلمى الذى سيأتى الحديث عنه في الفصل الخامس . ولاجل أن نفهم صحيحا بنية ووظائف مختلف اشكال الوعى الاجتماعى ، لا بد لنــــا من استيضاح صلتها بالايديولوجيا والسيكولوجيا الاجتماعية .

٢٢٤

الايديولوجيا في منظومــــة الوعى الاجتماعى . تشكـــــل الايديولوجيا التى تعبر عن مصالح طبقات معينة من المجتمع وتبرر اهدافها الطبقية مستوى متميزا من الوعى الاجتماعى (٥٠٠) . وبما أن السائد في المجتمع الطبقى هو ايديولوجيا الطبقات المسيطرة ، فهى تتخلــــل وتحدد مضمون اشكال الوعى الاجتماعى كافة . ومن الاهمية بمكان أن نفهم خلال ذلك أن ايديولوجيا الطبقات المسيطرة في جميع التشكيلات السابقة للشيوعية تعطى انعكاسا شائها للوعى الاجتماعى ، ذلك أن الطبقات المستغِـلة معنية بابقاء وضعها الى الابد . وهى تسعى الى تصوير هذا الوضع كمــــا لو كان راسخا ومنزّلا من السماء وموافقا لطبيعة الانسان بحد ذاتها . لذا نراها تسخر لهذا الغرض الدين والاخلاق والفن والسياسة على السواء .

وفى مجرى الصراع الطبقـــى تكوّن طبقات المجتمـــع المستغَـلة هى الاخرى وعيها الطبقى وايديولوجيتها ومنظومة تقويماتها وفهمها للتطور الاجتماعى . بيد أن الكادحين كانوا حتى نشوء البروليتاريا الصناعية عاجزين عن وضع ايديولوجيا علمية لهم وفهـــم صحيح وعميـــق للمجتمـــــع . ولم تكن ايديولوجيتهم ثورية على طول الخط . ففى مسعاهم للتحرر من شكل معين من الاستغلال كالعبودية أو الرق ، مثلا ، لم يكن لديهم طموح الى الغاء استغلال الانســـان للانسان بوجه عام . كما لم تكن تتوفر لاجل ذلك ظروف تاريخية موضوعية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لهذا تمخضت ايديولوجيتهـــم عن الكثير من التصـــورات المغلوطة والشائهة والخيالية عن الحياة ، وبذا ساعدت على ترسيخ الاوضاع القائمة خلافا لارادة الكادحين انفسهم .

ولا يتغير الوضع جذريا الا بظهور الطبقة العاملـــة . فالبروليتاريا ، كونها أول طبقة فى التاريخ كله ، قادرة موضوعيا على تصفية كل اشكال الاستغلال ، وعلى اقامة المجتمـــع اللاطبقى ، ولا تسعى لابقاء الاوضاع القائمة الى الابد ، تطمح الى فهم صحيح للتطور التاريخى . لهذا يقوم مؤدلجوها لاول مرة فى التاريخ بوضع وتطوير ايديولوجيا علمية ، أى حقيقية صادقة . ومع انتصار الاشتراكية تشرع هذه الايديولوجيا فى التعبير لا عن آراء وتعاليم ونظريات طبقة واحدة معينة ، بل المجتمع عموما . وبما أن الايديولوجيا الماركسية اللينينية التى تعكس مصالح الطبقة العاملـــة ومعظم البشر ، وتتعارض مبدئيا مع الايديولوجيا البرجوازية ، فأن الصراع الايديولوجى الذى لا تهادن فيه يعتبر قانونا موضوعيـا يتجلى فى جميع اشكال الوعى الاجتماعى .

يطرح مؤدلجو البرجوازية المعاصرة نظريات مختلفـــة يسعون بواسطتها الى طمس تعارض الايديولوجيا العلمية ، الماركسية اللينينية ، والايديولوجيا اللاعلمية ، البرجوازية . ويدعى انصار نظرية الغـــاء الادلجة (نزع الايديولوجيا) أن الايديولوجيا ، ايا كانت ، لا حاجة لها ولا يمكن أن يكون لها وجود فى المجتمع المعاصر عموما . فهى ، فى مزاعمهم ، تخلى مكانها للعلم والمعارف التقنية التى يمكن بواسطتها حل كل المشاكل الماثلة امام البشرية . غير أن الواقع يدحض مثل هذه الادعاءات . فنحن نجد نفس المنجزات التقنية تسفر فى ظل مختلف الانظمة الاجتماعية عن نتائـج مختلفة (٣١٢) . فتوظيف العلم بحد ذاتـه ، كذلك دوره فى حيـاة المجتمع تحددهما فى الكثير احكام ايديولوجية مختلفة . وقد ارغـــم انهيار نظرية الغاء الادلجة مؤدلجى البرجوازية على طرح نظرية اخرى هى نظرية اعادة الادلجة . ويؤكد انصارها بشتى السبل ضرورة وضع ايديولوجيا واحدة وعامـــة للبشرية جمعاء .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمقصود فى الواقع هو وضع ايديولوجيا برجوازية واحدة يراد لها أن تحل محل جمع غفير من التيارات المختلفة الموجودة ضمن اطار الايديولوجيا البرجوازية والمتنافسة فيما بينها . وترمى اعادة الادلجة ، شأنها شأن الغاء الادلجة ، فى التحصيل الاخير الى الوقوف فى وجه الماركسية اللينينية . لذا ينبغى عند تحليل اشكال الوعى الاجتماعى ، ايا كانت ، أن نتذكر باستمرار انها تعتبر حلبة صراع ايديولوجى عنيف . وفى هذا الصراع يتمثل دور الفلسفة الماركسية اللينينية فى فضح وتعرية الايديولوجيا البرجوازية نظريا ، مهما أرتدت من لبوس او مظاهر .

٢٢٥

السيكولوجيا الاجتماعية ، الوعى العادى . يجرى وضع الايديولوجيا لا من قبل اعضاء المجتمع كافة ، بل من قبل مجموعة خاصة من البشر هى المؤدلجون الذين يقومون بتنفيذ «طلبية اجتماعية» لطبقة معينة . ولكن من أين يستمد المؤدلجون مادتهم الاولية – ان جاز التعبير – وقناعاتهم وتصوراتهم الاولية عن المجتمع والانسان وما الى ذلك ؟ هذه «المادة» تقدمها لهم السيكولوجيا الاجتماعية ، أى الوعى العادى . ففى المجتمع المعاصر ثمة اسهام مهم فى تكوين الايديولوجيا يقدمه العلم ، وبالدرجة الاولى تلك الفروع منه التى تزاول دراسة المجتمع . لهذا يحظى الترابط بين العلم والايديولوجيا باهتمام خاص لدى الفلسفة الماركسية اللينينية (٥١٥ ، ٥٠٠) .

والسيكولوجيا الاجتماعية هى مجموع الامزجة والمعاناة والانفعالات والآراء التى تنشأ لدى مختلف الفئات الاجتماعية فى مجرى نشاطها الحيوى المباشر : فى العمل ، فى الصراع السياسى ، فى الاختلاط ، الخ . وهى عبارة عن شكل مباشر لانعكاس الوجود الاجتماعى بصورة عفوية .

أن كل عضو من اعضاء المجتمع ينتمى فى آن واحد الى فئات اجتماعية مختلفة كالاسرة وفريق العاملين الانتاجى والمنظمتين النقابية والحزبية والفريق الرياضى ، الخ . وفى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جميع انواع النشاط الفئوى يدخل الناس فى علاقات مختلفة فيما بينهم . وفى نتيجة ذلك تنشأ «سبيكة» معقدة ، «ضفيرة» من التقويمات والامزجة الاجتماعية . فبعضها غير مستقر نسبيا كأمزجة هواة كرة القدم ، وبعضها الآخر اكثر استقرارا . والمثـــال على الامزجة الاجتماعيـــة المستقرة فى البلدان الرأسمالية هو الخوف الدائم أمام التقنية والتكنولوجيـــا الجديدة ، وشيـــوع استخدام الكمبيوترات والروبوتات فى الانتاج . ومما يثير هذا الخوف هو أن المواطنين يخشون فقدان العمل والانضمام الى جيش «الفائضين عن اللزوم» . ونالت المعاناة الناجمة عن الطريقـــة الرأسمالية فى اعتماد واستثمار التكنولوجيا الاعلامية الجديدة تسمية سيكولوجيـــة خاصة هى «الصدمة التقنية» .

وهناك ايضا أمزجة اجتماعية ايجابية ، يعزى اليهـــا ، مثلا ، مزاج المد الثورى الذى ينشـــأ لدى المشاركين فى الحركات الثورية الظافرة ، كالثورة الفرنسيـــة العظمى فى القرن الثامن عشر ، وثورة اكتوبـر الاشتراكية العظمى فى روسيا ، أو النضال الوطنى التحررى والمناهض للاستعمار ، الذى تخوضه الآن شعوب طائفة من البلدان . وتعكس هذه الامزجة الاجتماعية مباشرة التغيرات الجاريـــة فى الوجود الاجتماعى ذاته . وترتهن السيكولوجيا الاجتماعية فى الكثير ايضا بالماضى التاريخى للشعب المعنى . ويتجلى ذلك فى السيكولوجيا القومية التى هى عبارة عن انعكاس مستقر نسبيا للطريق التاريخى الملموس لتطور وصيرورة الامة او الشعب المعنى . وتتبدى خصائص السيكولوجيا القوميـــة باوضح صورة فى الثقافة الروحية واللغة والفن التشكيلى ، فى نظام المعيشة والتقاليد القومية والعادات والاذواق وهلمجرا . ولكن لا ينبغى تضخيم وتغليب العناصر القومية فى السيكولوجيا الاجتماعية . ففى التحصيل الاخير ترتهن الصورة السيكولوجية لهذا الشعب او ذاك ، وملامح طابعه القومى ومجمل حياتـــه الروحية بخصائص التطور الاجتماعى ، وبمكانة البلد المعنى ، وبالنزعات المستقرة فى النشاط الحيـــوى لهذا الشعب او

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذاك . على سبيل المثال ، أن السيكولوجيا القومية للشعب الروسي ولغته وثقافته لم تتعرض قبل ثورة اكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧ وعلى اثرهـا مباشرة لتغير حاد ، ولكن بعض السمات المهمة لطابعه السيكولوجي الاجتماعي ، كالسلبية والانسحاق والتخلف وانخفاض مستوى الثقافة والاطلاع ، مما كانت سلطة العقاريين والرأسماليين في روسيا ما قبل الثورة تحرص على بقائه وديمومته ، تبدد ليحل محله نمو في الوعي والنشاط الاجتماعي وارتفاع المستوى الثقافي الحثيث وما الى ذلك . أن مثل هذه الامثلة تدل على ان بعض السمات المستقرة التي تلازم سيكولوجيا وثقافة قومية معينة ، يحددها في التحصيل الاخير المضمون الموضوعي للعملية التاريخية وظروف حياة المجتمع والاحداث الكبرى التي تؤثر في المصائر التاريخية للشعوب . ويستدل من ذلك بوضوح تام أن مضمون السيكولوجيا الاجتماعية يتغير مع تطور الوجود الاجتماعي .

أن مستوى الوعي الاجتماعي الاكثر انخفاضا يشكل ما يسمى بالوعي العادي او «التفكير السليم» . ويتكون الوعي العادي في سياق استيعاب الظواهر التي يصطدم بها الانسان في معيشته وحياته اليومية . وهو نادرا ما يقدم تفسيرا لمثل هذه الظواهر ، ويقتصر على ادخار تجربة يومية معينة . وعلى صعيد الوعي العادي تتكون قواعد السلوك اليومي والاختلاط بين البشر . بيد أن الوعي العادي لا يستطيع تقديم تفسير وفهم علمي عميق للظواهر الاجتماعية . فهو محافظ نسبيا ويتغير تغيرا ابطأ من طوابق الوعي الاجتماعي «العليا» . هنا يتجلى باكبر قدر من الوضوح الفارق بين الوعي العادي والاستيعاء النظري للوجود الاجتماعي ، أي الاستيعاء الذي يتكون على الصعيد الايديولوجي .

في سياق التطور التاريخي ينشأ تفاعل معقد بين الايديولوجيا ومختلف مستويات السيكولوجيا الاجتماعية والوعي العادي . فمن جهة تستمد الايديولوجيا منها مضمونها الفعلي . ومن جهة اخرى تؤثر فيها عبر الدعاية ووسائل الاعلام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجماهيرى . وترتهن التغيرات فى السيكولوجيا الاجتماعية وفى الوعى العادى فى الكثير من النواحى بهوية الايديولوجيا التى تؤثر فيها تأثيرا طاغيـــا . وتتجسد الايديولوجيـــا والسيكولوجيا الاجتماعية فى اشكال شتى ، وهذا أمر تنبغى مراعاته باستمرار عند بحث خصائص الوعى الاجتماعى .

٢٢٦

الوعى السياسى والسياسة . يعتبر الوعى السياسى فى المجتمع الطبقى الشكل الاهـــم والاكثر انتشارا للوعى الاجتماعى . فالصحف والاذاعة والتلفزيون تهيـــل على الانسان المعاصر سيولا من الاعلام السياسى . فنراه يناقش الاحداث السياسية فى البيت ومقر العمل ، ويشارك شخصيا فى الحياة السياسية . فما هى السياسة والوعى السياسى ؟

السياسة هى النوع الاكثر اهميـــــة من انواع النشاط البشرى لارتباطه بالمصالح الاقتصاديـــة الجذرية للطبقات والفئات الاجتماعية . وأبرز مهمة للسياسة ، أيا كانت ، هى اقامة سلطة الدولـــة والاحتفاظ بها وتوظيفها لخدمـــة مصالح طبقة معينة . ويبلغ النشاط السياسى اقصى مدى من الحدة ابان الثورات الاجتماعية . اذ أن اهم وابرز عنصر بنيوى لهذه الثورات هو الثورة السياسية التى تشكل سلطة الدولة (٢١٥ ، ٢٠٧) مسألتها الرئيسية . ويجرى فى خضم النشاط السياسى حل اعمق تناقضات العصر المعنى . ولهذا السبب بالذات يهتم الناس هذا الاهتمام الكبير بمناقشـــة المشاكل والاحداث السياسية .

من المعتاد تمييز شطرين للسياسة — داخلية وخارجية . فالسياسة الداخلية عبارة عن مجموع الاجراءات المختلفة التى تطبقها داخل البلد الدولة والاحزاب السياسيـــة التى تتولى السلطة لصالح الطبقة المسيطرة . وهـــى تشمل الادارة والتمويـــل واخماد مقاومة الطبقات المستغَلة وحفظ النظام العام وما الى ذلك . وبما أن حياة المجتمع المعاصر الداخلية معقدة جدا ، فغالبا ما تكتسب السياسة الداخلية «صبغـــة متشعبة» . اذ يجرى وضع وتطبيق سياسة زراعية واجتماعية

وعلمية ودفاعية وهلمجرا . اما السياسة الخارجية فتشمل مجموع التدابير الرامية الى الدفاع عن مصالح الدولة المعنية ازاء الدول الاخرى . وتترابط السياسة الخارجية والداخلية ترابطا وثيقا ، وتحددهما على الدوام الطبيعة الطبقية للمجتمع المعنى . وتدخل السياسة ، كونها نوعا متميزا من النشاط ، وكذلك المؤسسات الاجتماعية العاملة على تطبيقها كالدولة والحزب فى تركيبة البناء الفوقى . وبما أن السياسة نشاط واع وهادف ، فثمة شكل متميز مناسب لها من الوعى الاجتماعى ، وهو يسمى بالوعى السياسى .

والوعى السياسى عبارة عن انعكاس لبنية المجتمع الطبقية الموضوعية وما يتسم به من انواع النشاط السياسى ، وكذلك ما يناسبه من الدوائر السياسية . الى جانب ذلك يعتبر هذا الوعى نسقا من النظريات والآراء والتعاليم والاحكام والاساليب السياسية التى يجرى بواسطتها تحليل المهام والمصالح السياسية للطبقة المعنية واحزابها ودولتها ، اذا كانت هى الطبقة المسيطرة . ويعلل الوعى السياسى تنفيذ المهمات الاستراتيجية وتكتيك الصراع السياسى للطبقة المعنية . وهذا ما تتجلى فيه بوضوح صلة السياسة بالايديولوجيا ، تلك الصلة التى تكشف عن الاهداف والاساليب والاحكام السياسية الاساسية .

ويتصف الوعى السياسى للمجتمع البرجوازى المعاصر بتناقضات عميقة . فهو يعكس ليس التناقضات الطبقية الاساسية بين العمل والرأسمال فحسب ، بل والمصالح المتناقضة لمختلف الاحتكارات الرأسمالية والتكتلات الامبريالية والدول المنفردة . والتناقض فى السياسة الخارجية والداخلية سمة مميزة للمجتمع الرأسمالى فى فترة أزمته العامة (٢٢٠) . فهو يقوض استقرار الوضع الداخلى والخارجى ، ويولد انعدام الثقة والروح العدوانية على صعيد السياسة الخارجية .

أن المجتمع الاشتراكى ليس فيه طبقات وتناقضات تناحرية (٤٠٦) . والسياسة فيه عبارة عن نشاط يتعلق بتعزيز التعاون الطبقى والتقارب بين المصالح الطبقية وبلوغ الاهداف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاقتصادية الاجتماعية العامة . وبخلاف السياسة البرجوازية ، ترتكز السياسة الداخلية والخارجية فى المجتمع الاشتراكى على الماركسية اللينينية باعتبارها اساسها الايديولوجى العلمى . وهذه السياسة يتميز بها المجتمع ذو التجانس الطبقى الاجتماعى المتنامى باطراد . وبحكم ذلك ليس ثمة تناقضات تستعصى على الحل فى الوعى السياسى للمجتمع الاشتراكى . فمضمون السياسة واهدافها الاساسية تغدو مفتوحة امام اوسع الجماهير الشعبية فتنال دعما فعالا من قبل الشعب بأسره . على هذا النحو تغدو تنمية الوعى السياسى ونشر وتعميق المعارف السياسية أهم وسيلة لتعبئة الجماهير فى سبيل تنفيذ المهام الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

مع بناء المجتمع الشيوعي واختفاء الدول الرأسمالية سوف تنتفى ايضا الضرورة الى النشاط السياسى والوعى السياسى . ولكن فى فترة تنامي الاشتراكية يتنامى باستمرار دور الوعى السياسى والنشاط السياسى . ويجرى ضمن اطار الوعى السياسى وضع وتحليل استراتيجية وتكتيك نشاط الحزب والدولة . وهما يشملان السياسة الاقتصادية والسياسة فى مجال البناء الثقافى والسياسة العلمية والسياسة الدفاعية الرامية الى صيانة السلام وتعزيزه ، والى توطيد اركان الاسرة الاشتراكية ، الخ . وبحكم ذلك يؤثر الوعى السياسى تأثيرا شاملا فى شتى انواع النشاط الاجتماعى الذى يزاوله المواطنون ، وفى اشكال الوعى الاجتماعى الاخرى على السواء .

٢٢٧

الوعى القانونى والقانون . يمارس الوعى القانونى والقانون دورا مهما فى حياة المجتمع . فالبشر يتمسكون فى حياتهم الاجتماعية بأصول وقواعد سلوك معينة ، تظهر تاريخيا وتتغير مع تطور المجتمع . ومع نشوء الطبقات تتكون منظومة متميزة من الاصول والقواعد (وكذلك العقوبات المترتبة على انتهاكها) ، تعود بالنفع على الطبقة المسيطرة وترتضيها الدولة وتصادق عليها . وهذه الاصول والقواعد تشكل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القانون . فالقانون ، اذن ، ليس ابديا ؛ ولا يظهر الا فى المجتمع الطبقى ، وهو يرتبط ارتباطا وثيقا بنشاط الدولة ، وبالسياسة والصراع السياسى . **فالقانون هو منظومة ما تقره الدولة من التشريعات المعبرة عن ارادة الطبقة المسيطرة فى المجتمع المعنى** . ومع تطور كيان الدولة تظهر هيئات خاصة تقوم بوضع واصدار التشريعات (الهيئات التشريعية) ومتابعة تنفيذها (الادعاء العام) والمعاقبة على خرقها (المحاكم ، اجهزة حماية النظام) والحفاظ على النظام العام المقرر قانونيا . كل هذه الدوائر وما يرتبط بها من نشاط قانونى والقانون نفسه يعكسها ويدركها شكل خاص من اشكال الوعى الاجتماعى هو **الوعى القانونى** . ويضع الوعى القانونى مفاهيم معينة مثل «العدالة» ، «الشرعية» ، «النظام العام» ، «الجريمة» ، «العقاب» ، وكذلك مختلف الآراء والنظريات القانونية التى يجرى بمساعدتها تعليل ووضع الاصول القانونية والتشريعات ، طبقا للتصورات السائدة فى المجتمع المعنى عن العدالة والشرعية والنظام وما الى ذلك .

ويدخل الوعى القانونى والقانون والدوائر القانونية ضمن البناء الفوقى للتشكيلات الاقتصادية الاجتماعية ذات العلاقة ، وهى تساعد على توطيد بنائها التحتى .

كان مؤدلجو الطبقات المسيطرة يحاولون باستمرار تصوير القانون وكأنه أبدى لا يتزعزع . فقد كان طرف منهم يؤكد أن القانون يعبر عن الجوهر الثابت للانسان ، وطرف آخر يستند الى المنشأ الالهى للقانون ، والى هيبة الكتاب المقدس ، وطرف ثالث يرى فى القانون تعبيرا عن ارادة الشعب الثابتة والدائمة فى جميع الازمنة . فهل هذا صحيح يا ترى ؟

تجدر الاشارة قبل كل شىء الى أن الآراء المذكورة لا تنطبق مع الواقع الموضوعى والوقائع التاريخية . فمن المعروف ، مثلا ، أن العديد من الشعوب التى تأخرت فى تطورها التاريخى قد تحاشت التقسيم الطبقى . فلم يكن لديها سلطة دولة ، وبالتالى لم يكن لديها قانون ، بل كانت

فى حياتها اليومية تهتدى باصول الاخلاق والعادات والتقاليد .
والمعروف ايضا أن التصور عن العدالة والشرعية وما الى ذلك،
كان يتغير من عصر الى آخر . ففى المجتمع العبودى كانت
تجارة العبيد تعتبر عملية عادلة وشرعية . لكن تجارة البشر فى
المجتمع المعاصر تعتبر خرقا غاشما للقانون والعدالة . وكان
القانون فى المجتمع الاقطاعى يرتدى طابع المراتب
الاجتماعية . وكانت فدية قتل القن والفلاح الحر وساكن
المدينة أقل من فدية قتل الاقطاعى . هكذا كان القانون
الاقطاعى يدافع عن سلطة الملوك والوجهاء . اذن ، فالوعى
القانونى والقانون ينشآن فى كل عصر تاريخى على تربة وجود
اجتماعى معين ويعكسانه ، وبفضل ذلك يتسنى لهما أن
يؤثرا فيه تأثيرا عكسيا فعالا .

والسمة النمطية للقانون البرجوازى هى شكليته التى
تتمثل فى أن القانون البرجوازى ، اذ يجاهر بالمساواة بين
المواطنين كافة امام القانون وبحرية الاجتماع والتظاهر والتنقل
وحرمة الفرد ، واذ يمنح لمعظم السكان حقوقا انتخابية وما
شابه ذلك ، لا يضمن ولا يؤمن بشىء ما يجاهر به من «حقوق»
و«حريات» . فأية مساواة فعلية بين المواطنين وأية حرية
وأية حقوق للانسان فى المجتمع المنقسم الى فقراء واغنياء ،
فى المجتمع الذى يضم ملايين من العاطلين والمشردين ؟ !
لهذا السبب بالذات يعتبر القانون البرجوازى ضيقا وشكليا .
ولكن حتى هذا القانون المحدود فى ظروف الديمقراطية
البرجوازية يمكن أن يستخدمه الكادحون للنضال فى سبيل
مصالحهم ، ولتشكيل منظماتهم السياسية والنقابية العلنية .
لهذا تسعى البرجوازية مع اشتداد الصراع الطبقى واحتدام
الموقف الثورى الى فرض دكتاتورية عسكرية بوليسية فاشية
الطراز ، متخلية خلال ذلك عما تم بلوغه من مستوى الوعى
القانونى والقانون الديمقراطى البرجوازى . وفى هذه الظروف
يغدو النضال من اجل الحقوق الديمقراطية احدى ابرز مهام
الطبقة العاملة والكادحين كافة .

مع ظهور المجتمع الاشتراكى يتغير طابع القانون والوعى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القانونى تغيرا جوهريا . اذ يوجه النشاط التشريعى بالدرجة الاولى نحو حماية الملكية الاشتراكية وصيانة النظام العـام وحماية حقوق الفرد وكرامته وحريته واستقلاله . ولكن لا ينبغى الظن أن بلوغ الاهداف التى اعلنها النظام القانونى الجديد يجرى تلقائيا . فقيام العلاقات الاجتماعية الاشتراكية يعتبر عملية معقدة وطويلة ومتناقضة جدليا . والدليل على ذلك نجده فى الانتهاكات الخطيرة لحقوق الانسان خلال فترة حكم ستالين . أن انتهاكات حقوق الانسان والانحراف عـن الشرعية الاشتراكية تشكل خطرا اجتماعيا كبيرا . ويعتبر ادراك هذه الحقيقة وفهم الاندماج العميق والتداخل التطبيقى بين المبادئ الاخلاقية والقانونية انجازا كبيرا للتفكير الجديد ودليلا على نضوجه وعمقه الفلسفى .

٢٢٨

الاخلاق كشكل للوعى الاجتماعى . يرتبط بالقانـون والوعى القانونى ارتباطا وثيقا شكل آخر للوعى الاجتماعى هو الاخلاق. فما هى الاخلاق ؟

سألوا أى شخص هل يليق بالمرء أن يكـذب أو يسرق او يؤذى الضعفاء أو يداهن من هم اعلى منه مرتبة ؟ وسألوه هل تعتبر الخيانة والطفيلية من الافعال الحميدة ؟ وهل يرتضى الرياء والتكبر والجشع والحسد وما الى ذلك ؟ أن معظم البشر يعتبرون مثل هذه الاشكال من السلوك والتصرفات وسمات الطبع سلبية وضارة ومرفوضة رفضا باتا . وعلى العكس ، فحب العمل والنزاهة وحسن الطوية والمجاملة والكرم والمودة والوفاء بالواجب والشعور الوطنى والاهتمام بالمصلحة العامة وما الى ذلك ، يعتبرها الناس من التصرفات وسمات الطبع الايجابية . هذه التقويمات تعتبر اخلاقية وتندرج فى منظومة القيم واصول السلوك الاخلاقية او المعنوية الموجودة فـى كل مجتمع ، وفى كل فريق من الناس ، وهى تنشأ اول مـا تنشأ فى فترة تكوّن المجتمع البشرى .

اذن ، فالاخلاق هى عبارة عن منظومة القواعد والاصول والتقويمات والمثل التى تتحكم بسلوك البشر فى الحيـاة

الشخصية والاجتماعية بعضهم ازاء البعض الآخر ، وازاء فريق العاملين الذى ينتمون اليه ، وازاء طبقتهم ودولتهم ومجتمعهم بوجه عام . فما هى اوجه اختلاف الاخلاق عن القانون والوعى القانونى ؟ أن وجه الاختلاف الاول هو أن القانون تضعـــه وتصونه الدولة ، اما أصول الاخلاق فتعتمد على هيبة الرأى العام . والقانون يظهر فى ظروف تاريخية معينة ، ويعبر عن ارادة الطبقة المسيطرة ، ومع بناء المجتمع الشيوعى الكامل سوف ينقرض ، شأنه شأن الدولة . وعلى العكس ، فبغيـر الاخلاق لا يمكن لاى مجتمع أن يوجد ويتطور لا فى الماضى ولا فى الحاضر ولا فى المستقبل ، ذلك أن الناس فى كل الظروف يقومون بافعال مختلفة ويتصرفون تصرفات متباينة ويقوّمون سلوك الآخرين ويحتاجون الى تقويم وتقدير لسلوكهم . ولكن لا ينبغى أن نستنتج من ذلك أن الاخلاق واحكامها ومبادئها الاساسية ثابتة وابدية . فمبادىء الاخلاق وقواعدها واصولها يحددها الوجود الاجتماعى للبشر وتتغير مع تغيره .

أن لبعض المبادىء ، مثل «لا تقتل» و«لا تسرق» ، منشأ تاريخيا . ففى ظروف المجتمع البدائى الجماعـــى ، حيث لا وجود للملكية الشخصية ، كانت السرقات امرا مستحيلا ، لذا لم يكن ثمة معنى لتحريمها . ولدى جملة من الشعـوب لم يكن يتعارض مع الاصول الخلقية ردحا طويلا من الزمـن ليس فقط قتل العدو ، بل والقتل الطقسى لابن القبيلة وأبن الديانة الواحدة ، بل وحتى قتل زعماء القبيلة فى جملة مـن الحالات . ولكن بصرف النظر عن الفوارق الطبقية والتاريخية التى تتجلى بوضوح فـــى النظم الخلقية لمختلف العصـــور والشعوب ، مثلا الادانة الخلقية للتجارة فى منظومة اخـلاق نبلاء القرون الوسطى أو تبرير التعامل القاسى مع ابناء الاديان الاخرى ، ثمة قيم واصول واحكام اخلاقية انسانية عامة تتسم بها التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية المختلفة ، وتتميز بها مختلف الشعوب وطبقات المجتمع .

ويعزى الى هذه القيم فى الوقت الراهن : كرامة الانسان الشخصية ، حرمة الفرد ، حماية صحة الاطفال وأمنهم وعالمهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العاطفى ، صيانة السلام فى العالـــم اجمع وتفادى هلاك البشرية فى نتيجة كارثة نووية . أن وجود المصالح الانسانية العامة هو الذى يشكل الاساس اللازم لتعاون البشر فى بلوغ أهم وابرز الاهداف الانسانية العامة . كما أن الاقرار بالطابع الطبقى للاخلاق لا يلغى بتاتا وجود القيم والمصالح الانسانية العامة .

فى المجتمع الطبقى ترتدى المبادئ الاخلاقية طابعـــا طبقيا ، اجتماعيا فئويا . ففى نتيجة التعقد والتناقض الداخلى لمواقف الطبقة المستغِلة بالدرجة الاولى تغدو الاخلاق بحد ذاتها فى التشكيلات التَناحرية متناقضة داخليا . مثلا ، أن مبدأى «لا تقتل» و«العين بالعين والسن بالسن» لا يناقض بعضهما بعضا فحسب ، بل وتضفى عليهما هيبة الكتاب المقدس بنفس القدر مسحة مقدسة . وتتيح الصفة المتناقضة للاخلاق هذه الفرصة امام الطبقة المستغِلة لان تبرر الافعال والتصرفات التى تناسب فى ذلك الموقف مصالحها الطبقية افضل تناسب . وأبرز سمة للوعى الاخلاقى لدى الطبقات المسيطرة هـــى التناقضات والاختلاف العميق بين المبادئ والاصول والتعاليم الاخلاقية من جهة والسلوك الفعلى من جهة اخرى . فالاخــلاق البرجوازية ، أذ تجاهر بأن حب العمل ونزاهة التعامل مـــن أسمى الفضائل ، نجدها ترتضى بيسر حقيقة أن معظم ممثلى البرجوازية قد انغمسوا فى الفساد والغش والمضاربات فى البورصة ، ويعيشون على حساب عمل الآخرين .

وبالعكس ، أن الوحــــدة المبدئية والانسجـام الداخلى للمبادئ الخلقية والسلوك الحميد هما ابرز السمات المميزة للاخلاق الاشتراكية . واذ تنشأ هذه الاخلاق بادئ ذى بدء كمنظومـــة من اصول السلوك والمبادئ الاخلاقية لـــدى الكادحين ، تكتسب فى ظروف المجتمع الاشتراكى شكـــلا عموميا . فالعمل باخلاص والنزاهـة وحسن النية والاحترام المتبادل وشعور الكرامة الذاتية واحترام حقوق الانســـان والشعور الاممى والروح الجماعية واحترام المؤهلات والمواهب الفردية ونبذ النفاق والرياء هى أسمى فضائل ومبادئ الاخلاق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاشتراكية . بيد أن اعلان مثل هذه المبادىء أمر يسير ، لكن تطبيقها العملى فى واقع الحياة المعقد والمتناقض اصعب كثيرا . لهذا تتمثل المهمة المركزية للمجتمع الاشتراكى من جهة فى توفير الظروف الموضوعيـة لتطبيق هذه الاصـول الاخلاقية ، ومن جهة اخرى فى العمل بشكل منتظم على تربية كل فرد بروح الصرامة العاليـة فى محاسبة النفس ورفض التضارب بين التصرفات الفعلية والمبادىء الاخلاقية .

٢٢٩

الوعى الاقتصادى . منذ نشوء المجتمع البشرى عكف الناس باستمرار على ادخار وتنمية وتطوير معارفهم عن الانتـاج المادى والنشاط الاقتصادى . وتشكل هذه المعارف التـى تعكس ابرز الجوانب الجوهرية لعملية انتاج وتوزيع الخيرات المادية ، والتى تستخدم لتنظيم وادارة النشاط الاقتصادى الانتاجى ، شكلا خاصا من اشكال الوعى الاجتماعى هو الوعى الاقتصادى . ويرتدى الوعى الاقتصادى فى المجتمع الطبقى طابعا طبقيا واضح المعالم . وهو يرتبط ارتباطـا لا ينفصم بالصراع الايديولوجى وبالوعى القانونى والسياسى والاخلاقى .

كان مفكر الماضى الكبير أرسطو يرى أن العبيد مجرد ادوات ناطقة . والعمل لا يمكن أن يكون من نصيب الانسان الحر . انه نصيب العبد . وكان أرسطو يفهم جيدا أهميـة النشاط الاقتصادى ، ويمعن الفكر فى وظيفة النقود ، الخ . وقد اخذ الوعى الاقتصادى يتطور بسرعة خاصة فـى عصر الرأسمالية . وقام مؤسسو الاقتصاد السياسى ، وهو العلم المتعلق بالنشاط الاقتصادى والانتاج وادارته ، وفى مقدمتهم سميث وريكاردو وآخرون ، بوضع نظرية القيمة-العمل التى اشاد بها ماركس وانجلس . وقد اشار لينين الى أن آراء هؤلاء العلماء اصبحت بعـــد معالجتها نقديا احد مصـــادر الماركسية . بيد أن الآراء فى الاقتصاد ، التى نشأت فـى التشكيلات التناحرية ، كانت تعكس ، عادة ، النشاط الاقتصادى من مواقع الطبقات المسيطرة . وكانت هذه الآراء تبالغ فـى دور الملكية الخاصة وتعتبرها ركنا ابديا وضروريا ومقدسا من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أركان المجتمع ، ايا كان . وفى ظروف المجتمع الرأسمالى يعتبر الوعى الاقتصادى البرجوازى اداة جبارة لاخضاع الكادحين لسيطرة المستغلين ووسيلة لتقويض وعيهم الذاتى الطبقى . فالوعى الاقتصادى البرجوازى يعتبر حيازة الملكية الخاصة والثراء الشخصى اساسا وهدفا لمجمل النشاط الاقتصادى ، حتى اذا كان هذا النشاط يؤدى الى تخريب الطبيعة ويعود على الكادحين بما لا يحصى من الويلات والمصائب .

اما الوعى الاقتصادى فى المجتمع الاشتراكى فيرتدى طابعا مغايرا تماما . فهو ، شأن سائر اشكال الوعى الاجتماعى ، يعكس الوجود الاجتماعى وما يجرى فيه من تغيرات . والوعى الاقتصادى خلال ذلك هو بالدرجة الاولى عبارة عن انعكاس وادراك لسنن تطور الاقتصاد الاشتراكى واشكال تنظيمه وادارته . وبما أن الانسان ، الكادح ، هو القوة المنتجة الرئيسية فى المجتمع ، فأن تنمية وعيه الاقتصادى من جميع الجوانب تعتبر عاملا ذاتيا قويا لتنمية القوى المنتجة بوجه عام .

أن بنية اقتصاد المجتمع الاشتراكى المعاصر معقدة جدا . فالى جانب مؤسسات الدولة القائمة بانتاج الحجم الاساسى من المنتوجات الضرورية للمجتمع ، هناك المؤسسات التعاونية ، كما تجرى ممارسة النشاط الاقتصادى الفردى . علاوة على ذلك ، هناك مؤسسات مختلطة تشكلها الشركات السوفييتية والاجنبية . ومن ابرز معايير الجدوى الاقتصادى للمؤسسة ربحيتها وقدرتها على التكيف السريع واعتماد احدث منجزات العلم والتقنية ورفع مستوى انتاجية العمل باستمرار واعتماد احدث التكنولوجيات الموفرة للموارد والمستوعبة لجهد علمى كبير ، مما يتيح انتاج سلع وبضائع تلبى شتى الاحتياجات .

وتطبيقا للقوانين السوفييتية يقوم العمال والمستخدمون ، مع رؤسائهم الذين يقومون هم انفسهم بانتخابهم ، برسم السياسة الاقتصادية والتقنية لمؤسستهم . لذا يجب أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تتوفر لديهم معارف مهنية واقتصادية جيـــدة وفكر اقتصادى علمى متطور .

كل هذا يحملنا على القاء نظرة جديدة على دور الوعـى الاقتصادى فى حياة المجتمع الاشتراكى المعاصر الذى تجرى فيه معالجة المسائل الاقتصادية ومسائل ادارة وتنميـــة المؤسسة او الشركة او الاتحاد او الفرع الاقتصادى باكمله لا من قبل حفنة من رجال ومدراء الاعمال ، بل من قبل الكادحين كافة . ويجرى حل هذه المسائل على أساس الديمقراطيـــة الاشتراكية الواسعة التى يتحدد فيها دور وأهمية كل فرد لا بحجم ما يحوز من اسهم ، بل بخبرته ومعارفه واسهامـــه الشخصى فى النشاط العملى .

أن بحث الوعى الاقتصادى ودوره فى الحياة الاجتماعية ، ولاسيما فى ظروف الاشتراكية يعتبر مهما من وجهة النظر الفلسفية لأن التأثير الفعال للوعى الاجتماعى فى الوجـــود الاجتماعى ، وفى البناء التحتى الاقتصادى للمجتمع ، وفى قواه المنتجة ، يتجلى هنا أفضل من أى مجال آخر . ويكون هـــذا التأثير ملحوظا وفعالا اكثر كلما كان الوعى الاقتصادى يعكس بصورة ادق واعمق القوانين الاقتصادية الموضوعية ، وكذلك التناقضات والصعاب الفعلية التى تظهر على طريق التنميــة الاقتصادية الاجتماعية للمجتمع الاشتراكى ، ويساعـــد على ايجاد الطرق اللازمة لحلها وسبل تنمية الاقتصاد وتطويــره باقصى سرعة وتناسق .

٢٣٠

الدين كشكل من اشكال الوعي الاجتماعي . يشغل الدين مكانة مهمة فى حياة الانسان الروحية باعتباره شكلا من اشكال الوعى الاجتماعى . ففى بعض العصور التاريخية كان الدين الشكل العام والشامل لهذا الوعى . ولكن لا ينبغى ان نستخلص من ذلك أن الدين موجود ازليا . فالعلم المعاصر ينسب ظهوره الى عصر المجتمع البدائى المتأخر . ففى هذه الفترة ظهرت فى المجتمع الحاجة الى فهم وتفسير ظواهر العالم المحيط ونشاط الانسان . وبالنظر لغياب المعارف الضرورية وانخفاض مستوى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التطور الاقتصادى والاجتماعى لم يكن بمقدور البشر تقديم تفسير علمى للعالم المحيط ، فراحوا يفسرونه – أن جاز القول – بالمقارنة مع انفسهم فيضفون عليه صفات خارقة ويعزون اليه قوى روحية خفية . وكان الانسان القديم بسبب ضعفه وعجزه فى الصراع ضد قوى الطبيعة المجابهة له يؤله الظواهر الطبيعية : المطر ، الصواعق ، الرعد ، الانهار ، الجداول ، الاشجار ، الصخور ، الخ . وكان يعبد بعض الاشياء سعيا منه الى كسب رضاها والتمتع بحمايتها . ونشأت بالتدريج تصورات تنسب الى ظواهر الطبيعة وجود الروح والارادة على غرار روح وارادة الانسان ، لكنهما أكثر رهبة وغموضا واستغلاقا على الفهم .

وفى المجتمع الطبقى اخذ الانسان يجابه ليس قوى الطبيعة فحسب ، بل وقوى الاستغلال الطبقى الغاشمة الاكثر قسوة . وكان الدين الذى يعلن ويقدس ضعف الانسان وعجزه يطالب بالرضوخ لهذه القوى . على هذا النحو تحول الدين الى شكل للوعى يساعد على نشر وتعزيز وتبنى ايديولوجيا الطبقات المسيطرة .

وحظيت باوسع انتشار فى ظروف التشكيلات الطبقية التناحرية أديان توحيدية كالبوذية والمسيحية والاسلام .

وتعتبر الكنيسة * شكل الديانة التنظيمى . أى المؤسسة الاجتماعية التى يجرى بمساعدتها تواصل العبادة الدينية وينتشر الايمان الدينى وتوحد صفوف اتباع هذه او تلك من الديانات . وعلى مدى التاريخ كان دور الدين والكنيسة الاجتماعى يتغير فى مختلف المجتمعات باختلاف مراحل التطور وباختلاف الاوضاع والمواقف الملموسة . وكانت الكنائس المسيطرة تخدم بهذا القدر او ذاك مصالح الطبقات الماسكة بزمام سلطة الدولة والسلطة الاقتصادية . ولكن بحكم تناقض الحياة الاجتماعية العميق وصفتها المتغيرة كان يحدث فى

---

* المقصود بالكنيسة هنا هو المؤسسة الدينية عموما – المترجم .

احيان غير نادرة ان تقف هذه او تلك من التيارات الدينية وما يناسبها من تنظيمات دينية فى وجه الديانة والكنيسة المسيطرة . وكانت هذه التيارات احيانا تعبر عن مصالح المضطهدين او تلك الفئات والطبقات التى تخوض الصراع على السلطة وتناضل من اجل تغيير النظام الاجتماعى القائم ، دون أن يتسنى لها بحكم هذه الاسباب أو تلك أن تعى مصالحها ووضع الشؤون الاجتماعية الموضوعى بشكل علمى . وكانت بعض الحركات الوطنية التحررية أو المناضلون ضد الاستغلال ولا تزال تضفى على طموحاتها الثورية والتحررية صبغة دينية . وكان الصراع الطبقى او التحررى وما يناسبه من الاحكام الايديولوجية تمارس فى مثل هذه الحالات دور الهرطقة (الردة) الدينية او الحركات الكنسية البديلة ، وتكتسب اشكال الاحتجاج على الديانة والكنيسة المسيطرة ، وتشرع فى النضال من اجل حق حرية المعتقد . ويعتبر ارتداء الاحتجاج السياسى لبوسا دينية ظاهرة تسم كل الشعوب فى مراحل معينة من تطورها . وفى العالم المعاصر المفعم بالتناقضات الاجتماعية الحادة يستطيع الدين والمنظمات الدينية هى الاخرى أن تمارس دورا متباينا . ويدعو ممثلو الفكر الماركسى لا الى اجتثاث الدين عنفا ، كما يتهمهم خصومهم ، بل الى الحوار مع تلك الشخصيات والتيارات الاجتماعية الدينية التى تشارك فى النضال من اجل السلام وضد خطر الحرب النووية ، وفى حركات التحرر الوطنى ، وفى النضال ضد الانظمة الشمولية والعنف ومن اجل تحقيق المزيد من العدالة الاجتماعية ، ومن اجل الاستقلال الوطنى والتحرر من الاستعمار الجديد .

٢٣١

الوعى الفنى والفن . يعتبر الفن احد اقدم وأعم انواع النشاط البشرى . ومصطلح «الفن» يعنى ليس النشاط فحسب ، بل ونتائجه ، أى النتاجات الفنية . فما هو الفن وما هو دوره فى حياة المجتمع والافراد ؟

يسعى الناس فى نشاطهم الانتاجى اليومى ليس فقط الى

تلبية احتياجاتهم المادية بصنع ما يلزم لذلك من لوازم وطعام ومسكن وما الى ذلك ، بل والى جعلها اكثر ملاءمة وكمالا . وكلما كانت هذه الاشياء اكثر ملاءمة وكمالا ، اقتضى الامر مزيدا من المهارة فى صنعها ، وارتدت عملية الانتاج مزيدا من الطابع الابداعى وتطلب الامر مزيدا من الموهبة والابتكار والمخيلة من صانعها ، أى الانسان . وفى سياق العمل يتطور عقل الانسان وارادته وقوته وطاقته التى لا يتسم بهـــا الا الانسان . وكلما أزداد انفصال الانسان عن الطبيعة وتفوقه عليها ، ازداد توافقه مع ذاته ومع مراسه ومعارفه واصـول سلوكه ، وبالتالى ، يبلور نفسه ككائن اجتماعى . كـــل خصائص الانسان هذه ، وفى المقام الاول جوهره الاجتماعى وقوة ادراكه وقدرة مخيلته وثقافته ، وكذلك رقى ومهـارة النشاط تتجسد فيما يصنعه من اشياء ومنشآت وادوات عمل وفى الطبيعة المحولة والمحسنة . وكلما كان هذا التجسـد اوفى قدرا كانت نتائج عمله وابداعه أبهى وأروع . وفى نتيجة تقسيم العمل المقيض تاريخيا يجرى فصل انتاج الاشياء المفيدة عن الاشياء الجميلة . وينفصل الفن ، كونه نوعـــا متميزا من النشاط المتعلق «بانتاج الجميل» ، عن الانتاج المادى . وتظهر مجموعات متميزة من البشر يغدو الفن مهنة لها كالفنانين التشكيليين والنحاتين والمعمارين والكتاب والشعراء والموسيقيين والممثلين وغيرهم .

فى المجتمع الطبقى تعتبر الطبقات المسيطرة المستهلك الاساسى للفن . فهى تمـــول نشاط الفنانين والكتـــاب والممثلين ، وتشترى مجهودهم الابداعى ، وترغمهم الى جانب ذلك على خدمة بعض الاهداف الطبقية وتجعلهم دعاة واعين او غير واعين لعقيدة وايديولوجيا معينة . ولكن من الخطأ الظن أن الفن ، أى النشاط الفنى ، ينفصل انفصالا تاما عن الانتاج المادى . ففى عمل الحرفيين والفلاحين وصناع الورش حتى فى المجتمعات الاستغلالية ثمة حضور دائم للسعى الى الكمال ، ويتجلى فيه الاصل الانسانى الابداعى . وبقدر ما ينطوى عليه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العمل من عنصر الحرية والابداع ، يتصف ايضا بصفات فنية . وكلما كان العمل حرا وابداعيا ازداد اقترابا من الفن .

ان عناصر النشاط الفنى تسم كل مظاهر النشاط البشرى الذى ينمو على اساس من العمل . فكل وجود الانسان الاجتماعى الذى هو ثمرة هذا النشاط يتخلله بهذا القدر او ذاك الاصل الفنى الابداعى . وهذا ما ينعكس فى شكل متميز من الوعى الاجتماعى هو **الوعى الفنى الذى يعكس الواقع المحيط بنا فى منظومة من الصور الفنية** . وتنعكس فيها السمات والصفات والخصائص النمطية الفردية والعامة للطبيعة والمجتمع والعالم الداخلى للانسان . بعد ذلك تتجسد هذه الصور الفنية فيما يناسبها من اشياء وعمليات مادية : مؤلفات موسيقية ، لوحات ، منحوتات رخامية ، منشآت ومجمعات عمارة ، حفلات مسرحية ، افلام سينمائية . وبخلاف المعرفة العلمية التى تعكس العالم بشكل مفاهيم منطقية ونظريات معقدة ، نجد الفن عبارة عن تجسيد مادى للتصورات والصور الفنية التى تؤثر فى حواسنا وتثير رد فعل انفعاليا معينا . وفى منظومة المعرفة العلمية تشغل الصور الحسية الايضاحية مكانة تابعة الى درجة معينة . فهى تستخدم لصنع نماذج ايضاحية (٥١٣) ورسوم ومخططات وصور للاشياء موضوعة البحث ، الخ . بيد أن الوسيلة الرئيسية للمعرفة هى المفاهيم والطروحات العلمية التى تتشكل بمساعدتها قوانين العلم العامة بصيغة مجردة (٥٠٥) . وتعتبر الظواهر الفردية خلال ذلك منطلقا للمعرفة ومادة لتطبيق قوانين العلم المكتشفة والمكتملة الصيغة . اما فى المعرفة الفنية ، فالصور الحسية الايضاحية - على العكس - تشغل مكانة مركزية . فهى تتيح عكس السمات الاكثر عمقا واستقرارا لكل ظاهرة فردية بشكل يمكن تلقيه تلقيا حسيا مباشرا . وتستخدم المفاهيم ولاحكام خلال ذلك كوسيلة لوصف وتحليل الصور الفنية . اذن ، فالمعرفة العلمية والفنية لا تتعارضان ولا يمكن أن تحل احداهما محل الاخرى . ان احداهما تتمم الاخرى فتشكلان لوحة ومنظومة أوفى من المعارف عن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العالم المحيط بنا ، وعن العالم الداخلى للانسان ومعاناتـه ومزاجه وخصائصه الفردية التى تتجلى فيها ابرز السمـات الجوهرية للعصر والمجتمع المعنى . ذلكم هو الترابط العام بين الفن والعلم .

يؤثر الوعى الفنى للعصر المعنى عبر منظومة نتاجات الفن التى تجسد هذا الوعى تأثيرا معينا فى عالم الانسان الداخلى ، النفسى ، كاشفا امامه عن تلك السمات من الواقع التى تفوت على اشكال الوعى الاجتماعى الاخرى . وبفضل ذلك تجـرى تربية الانسان الروحية ويتكون لديه موقف معين من الطبيعة والمجتمع .ويكشف فن كل عصر وكل شعب ، تبعا للمثـل والاصول والتصورات الجمالية السائدة فى الوعى الفنى ، فى صور فنية فريدة ، عن تلك الخصائص للحياة والفرد وتفاعل الانسان مع الطبيعة ، التى لا تعكسها ولا تنقلها اشكال الوعى وانواع النشاط الاخرى . وبحكم ذلك تتيح لنا نتاجات الفن الشعبى وفنانى الماضى العظمـاء ومعاصرينـا من الفنانين الاطلاع على مجمل الثقافة العالمية ، واستيعاب كل قيم ونفيس ادخرته البشرية على مدى التاريخ . فحين نطلـع على الادب الروائى للعصور والشعوب الاخرى ، ونستمع الى الموسيقى ، ونرتاد معارض اللوحات الفنية ، لا نستوعب الخبـرة التى اكتنزتها الشعوب الاخرى فحسب ، بل ونطلع على معاناتهـا وعالمها الداخلى فنغدو نحن انفسنا اغنى روحيا واكثر نبلا ، ونوسع افق مداركنا وفهمنا للعالم . وباطلاعنا على تجربة البشر الحياتية يساعد الفن على «ادخار» القيم الثقافية ويمهد لتفاهم اعمق بين البشر . على هذا النحو يؤثر الفن والوعى الفنى تأثيرا عاطفيا كبيرا فى كل جوانب الحياة الاجتماعية والفردية .

ويعكس الفن الواقع على جميع مستويات الوعى الاجتماعى ، بما فى ذلك السيكولوجيا الاجتماعية والوعى العـادى . اذ تتجسد فى نتاجات الفن موهبة وفنطازيـا ومخيلة الشخصية المبدعـة . ويجرى تأثيـر المجتمـع فى الفن وبالعكس عبر جملة من العوامل ، تعزى اليها تقاليد قوميـة واذواق اجتماعية ، واخيرا ، شخصية الفنان وسماته الفرديـة التى

لا تتكرر . وتفاعل هذه العوامل هو وحده الذى يتيح لنا أن نفهم فهما صحيحا خصائص الفن والوعى الفنى للعصر الذى نحن بصدده .

وبحكم هذا الامر بالذات ليس هنـــاك ترابط بسيط ومباشر بين الوعى الفنى والفن من جهة ، والوجود الاجتماعى من جهة اخرى . فالفن ليس انعكاسا طبق الاصل للطبيعـة والمجتمع فى التصوير الزيتى والادب والتأليف المسرحى وما الى ذلك . والصور الفنية التى يبتكرها الفنانون تنطوى على الاختلاق الفنى والفنطازيا والمعاناة الشخصية والمعضـــلات الحادة التى تقلق المجتمع ، دون ان تجد فيه حلا فى بعض الاحيان . والفن يؤثر فى حواس الانسان وفى وعيـــه على السواء . وهو يغنى عالمه العاطفى ويضع امامه فـى نفس الوقت معضلات اخلاقية . فقد وضع الفن اليونانى القديم ، مثلا ، فى قصائـــــد هوميروس وتـراجيديـــات اسخيليس وسوفوكلس واوريبيدس ، وفى كوميديات ارسطوفانس ، وفى الشعر العاطفى ، مسألة تناسب الخير والشر ، الرفيع والوضيع ، المأسوى والمضحك ، الازلى والعابر فى حيـاة الانسان . وطرح فن شكسبير ، كونه يعكس واقعا تاريخيا معينا ، امام البشر السؤال الازلى عن مغزى الحياة (هاملت) وعن مبررات الجريمة (مكبث) وعن الخير والشر والمسؤولية الشخصية ونكران الجميـــل البشرى (الملك لير) . وطرح سرفانتس العظيم فى مؤلفاته عددا غفيرا من الاسئلة عـــن مغزى الحياة ، والبحث عن الحقيقة ، والنبل والجنـــون ، والبطولة الرومانطيقية وبذاءة الحياة العادية . وبالنسبـــة للثقافة المعاصرة ثمة اهمية عملاقة لمؤلفات الكاتبين الروسيين العظيمين ليف تولستوى وفيودور دوستويفسكى اللذيـــن اتاحا لنا أن نطل على اعمق اعماق الروح البشرية وان نفهـم آليات السيكولوجيا الانسانية .

ويسهم كل شعب بقسطه المتميز فى الفن العالمـى لان مصيره التاريخى وثقافته والمواصفات الشخصانية لفنانيـــه وموسيقييه وكتابه ومسرحييه فريدة لا تتكرر . لهذا يتصف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فن الشعوب كبيرها وصغيرها بقيمة تاريخية ثابتة . وتجدر الاشارة بصفة خاصة الى أن الوعى الفنى والفن يشهـدان خلال فترات الانعطافات الحادة فى المصائر التاريخية لهـذا الشعب او ذاك أزدهارا عاصفا وشاملا بشكل خاص .

وتتلخص مهمة الفلسفة فى التحليل الدقيق للوعى الفنى والفن عموما ، وفى تبيان وظائفهما الاجتماعية ، وفى الفهـم العميق للقيم والاحكام الاخلاقية والجمالية التى ينطوى عليها الفن والوعى الفنى . فنتاجات الفن المعاصر التى تؤكد كرامة الشخصية البشرية تدعو الى النضال من اجل الحرية وتغيير المجتمع لغرض تحقيق العدالة الاجتماعية وتكريس التقاليد الانسانية والمثل الانسانية العامة وتساعد على التقدم التاريخى العام وتعتبر كنزا من كنوز الثقافة العالمية .

٢٣٢

الوعى الفردى والاجتماعى . لقد تناولنا حتى هذا الحين شتى اشكال الوعى الاجتماعى . فما هى صلتها بالوعى الفردى ، أى بوعى الفرد ؟ (٢١٠) .

ان المجتمع يتألف من افراد . ومبدعو اعظم الاعمـــال الفنية هم شخصيات منفردة : شكسبير ، بوشكين ، ميكل آنجلو ، ريبين ، بيكاسو ، شوستاكوفيتش ، بروكوفييف ، بروكنير وغيرهم . ويعود فضل اكبر الاكتشافات العلميـــة واعمق النظريات التى تعكس العالم الى نيوتن وانشتاين وبور ولوباتشيفسكى وفينر وغيرهم . وليس فى عالم الفن والعلم فحسب ، بل وفى حياتنا اليومية تطالعنا باستمرار تجليات الوعى الفردى ، وكل هذه التجليات متباينة . فلكل فـــرد طموحاته وهمومه ونظراته الى الحياة وفهمه لمختلف المشكلات والواجبات وهلمجرا . خلاصة القول ، كم هناك من البشر ، هناك نفس القدر من المصائر الفردية والنظرات الشخصية الى الحياة والاهداف وطرائق السلوك . ويخيل للوهلة الاولى أن فى كل تجليات الوعى الفردية ليس هناك سوى القليل من السمات العامة ، وانها لا ترتهن الا بالمصادفات العفوية وبظروف حياة كل فرد . حتى أن الفيلسوف الالمانى نيتشه

(١٨٤٤ – ١٩٠٠) كان يدعى أن ليس ثمة وعى اجتماعـى اصلا ، انما هناك فقط فكر ووعى شخصية منفردة ، ذلك أن الوعى – فى اعتقاده – ينتجه الدماغ ، والدماغ ملك الفرد لا المجتمع . وكانت هذه وجهة نظر فردية الى اقصى درجة . الى جانب ذلك ، لم يكن الماديون السالفون محقين ايضا حين استخلصوا الوعى الفردى استخلاصا مباشرا من ظروف الحياة الشخصية وملابساتها الفريدة . اذ كان رائد التنوير المادى الفرنسى غيلفيتسى (١٧١٥ – ١٧٧١) يرى أن هذه الملابسات والظروف هى التى تربى الانسان . اذ يكفى أن يسلك طفلان من اسرة واحدة اثناء التنزه طريقين مختلفيـــن حتى تشرع نظراتهما الى الحياة وطباعهما الفردية فى الاختلاف والتمايز .

كما لا جدال فيه أن المجتمع لا يملك دماغا ، وأن ظروف الحياة وخصائص التربية وسيرة الحياة الشخصية تؤثر فى الوعى الفردى وفى طباع الانسان وسلوكه . ولكن حسبنا أن نطرح سؤال : هل كان بامكان سيمفونيـــة شوستاكوفيتش السابعة المكرسة لنضال الشعب السوفييتى ، ولاسيما أهالى لينينغراد ابان الحصار الفاشى للمدينة (سيمفونية لينينغراد) أن تظهر فى عصر القرون الوسطى ، وهل كان بمقدور فنان العصر الهيلينى أن ينتج لوحات فنية شبيهة بلوحات ريبين ، وهلمجرا ، حتى يتضح لنا أن مضمون هذه النتاجات الفنية يرتهن بخصائص العصر المعنى والشعب المعنى والفتـــرة التاريخية المعنية . على هذا الغرار بالضبط ، وبصرف النظر عن كل الفوارق الفردية ، ما من شخص فى القرن الثامن عشر كان يطمح الى شراء سيارة . كل هذه الفوارق فى سلـــوك البشر ، بغض النظر عن الخصائص الفردية ، ترتهن من جهة بالوجود الاجتماعى الموضوعى ، ومن جهة اخرى بالوعـــى الاجتماعى الذى نشأ على اساس هذا الوجود والذى يعكس هذا الوجود الاجتماعى .

أن المادية التاريخية لا تنكر الوعى الفردى أو اهداف الفرد وارادته ورغباته ، بل تنطلق من ضرورة دراستها بانتباه وتفسيرها تفسيرا ماديا صحيحا . فالوعى الاجتماعى هو عبارة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عن ذلك العام الذى ينشأ فى وعى افراد المجتمع المعنى بفضل كونهم يعيشون فى ظروف وجود اجتماعى معين ، ويكوّنون اهدافهم الشخصية ضمن اطاره وعلى اساسه . ويتكون الوعى الفردى لكل انسان تحت تأثير عوامل عديدة ، يعزى اليها صنف طباع الفرد والخصائص الفرديـــة والجنس والسن والوضع المادى وخصائص الاسرة والجو العام وظروف العمل ، الخ . بيد أن التأثير الحاسم فى مضمـــون الوعى الفردى ونشاط الانسان يبديه الوسط الاجتماعى الناشئ ضمن اطار وجود اجتماعى معين ، مع وجود وعى اجتماعى معين وباقى عناصر البناء الفوقى . فالبشر فى نشاطهم العملى والانتاجى والمعيشى والاجتماعى يتبادلون دومـــا بالآراء والخبرات الانتاجيـــة والاجتماعية السياسية . وفى سياق هذا التبادل تتكون نظرة عامة واحدة وفهم وتقويـم مشترك للاحداث وكذلك اهداف مشتركة بالنسبة الى الفئة او الطبقة المعنية . وتحت تأثير هذه النظرة والاهداف المشتركـة تتكون الاهداف والنظرات والاحتياجات الفردية . لهذا يكون الوعى الاجتماعى والفردى فى تفاعل معقد دائـم . وبفضل هذا التفاعل تضاف الى كنز الثقافة الروحية العام المنجزات الابداعية التى ينتجهـا ليس المفكرون العظماء فحسب ، بل وكل فرد بسيط ، كل شخصية فردية . وعليه فان فصل الوعى الاجتماعى عن الوعى الفردى ، ناهيك عن جعل احدهما نقيضا للآخر ، يعتبر خطأ ميتافيزيقيا فظا يقطع الوشيجة الفعليـــة بين هاتين الظاهرتين وينكر تفاعلهما .

٢٣٣

بصدد استقلالية الوعى الاجتماعى النسبية . أن جميع التغيرات فى الوعى الاجتماعى وعملية تطوره بحد ذاتهـا ترتهن ، فى التحصيل الاخير ، بالتغيرات فى الوجود الاجتماعى . ولكن من الخطأ الظن أن هذا الوعى يتخلف دومـــا عن الوجـود الاجتماعى . فالوعى السياسى والاخلاق والوعى الفنى والدين والفلسفة تعكس نشـــاط البشر المادى والصراع الطبقـــى والاحداث المختلفة والتغيرات التدريجية والثورية لا بشكل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سلبي ، لا كنسخة طبق الاصل ، بل تكوّن مثلا عليا واصولا واحكاما وقواعد سلوك ، وتكـــون صورة متخيلة عن تنظيم الحياة الاجتماعية الاثير والمفضل اكثر من سواه . وهذا ما تتجلى فيه الاستقلالية النسبية للوعي الاجتماعي وقدرته على ما يسمى بالعكس السبّاق . فنحن نجد في آثار الماضي الادبية وفي مؤلفات الفلاسفة والاقتصاديين وعلماء الاجتماع ورجال السياسة قدرا غير قليل من الطروحات التي تبين كيف يجب أن يكون المجتمع المعقول العادل ، وكيف ينبغي تنظيم ادارة شؤون الدولة ، وكيف يجب أن تكون القوانين الاكثر عدلا واصول الاخلاق الاكثر انسانية . وبطبيعة الحال ، تعتبر هذه التصورات محدودة تاريخيا . فمهما سعى مفكرو الماضي الى الاطلال على المستقبل ، ومهما ابتكروا من صور متخيلة للحياة الاجتماعية ومن مثل عليا واصول ، كانت مادة طروحاتهـــم وتخميناتهـــم هذه هي ذلك الوجود الاجتماعي الذي كانـــوا يتعاملون معه فعليا والذي كان ينعكس في الوعي الاجتماعي لعصرهم . لذا فالانعكاس السبّاق يرتهن في نهاية المطاف هو الآخر بالوجـــود الاجتماعي . وفي عصر التطور العشوائـــي للتشكيلات الاقتصادية الاجتماعية السالفة غالبا مـــا كانت الاستقلالية النسبيـــة للوعي الاجتماعي تتجلى في طرح شتى ضروب الافكار الطوباوية * . ويقصد بالطوباوية التصورات والصور المتخيلة والتأملات النظرية المتعلقة بالتنظيم المقبل ، العادل والمعقول والانساني ، للمجتمع ، دون أن يكون لها تعليل علمي موضوعي . وغالبا مـــا كان يطرح هذه الافكار الطوباوية مفكرون يعبرون عن مصالح وامزجة اكثر طبقـــات المجتمع تعرضا للاضطهاد والاستغلال ، رغم انهم شخصيـــا كانوا ينتمون احيانا الى الطبقات او المراتب صاحبة الامتيازات . اما هذه الافكار نفسها فقد نالت تسميتها من كتاب للمؤلف الانجليزي توماس مور ، وهو احد كبار رجالات الدولة في القرن السادس عشر ، بعنوان «الطوباويـــة» ، وهو يصور

* يقصد بالطوباوية فكرة المدينة الفاضلة ــ المترجم .

مجتمعا اشتراكيا خياليـــا تسوده المساواة العامـــة والعدل والرفاهية .

وعلى مدى القرنين الثامن عشر والتاســع عشر ، اخذت الاشتراكية الطوباوية ، مع اشتداد استغلال الكادحين ، تنال مزيدا من الانتشار . وقد اشاد ماركس وانجلس بمؤسسى الاشتراكية الطوباوية فى القرن التاسع عشر ، وهم فورييه وأوين وسان سيمون لقاء سعيهم الى تعليل ضرورة اعادة بناء المجتمع اشتراكيا ، وبالدرجة الرئيسية لقاء نقدهـم الشديد للرأسمالية . الى جانب ذلك اكدا الصفة اللاعلمية لهذا الشكل من الاشتراكية ، فقد كانت اشتراكية حالمة يفترض مبتكروها أن المجتمع الجديد سوف ينشأ ليس فى نتيجة صراع طبقى حاد ، بل هو حصيلـــة السعى الذاتى الاخلاقى نحو الكمال والتنور والنشاط الخيـــرى . وكان البرهان على الصفـــة الطوباوية ، اللاعلمية لمثل هذه المشروعات هو انهيار بعض محاولات تنفيذها ، كالتى بذلها اوين مثلا .

وتتجلى استقلالية الوعى الاجتماعى النسبية بوضوح خاص فى وضع نظرية الشيوعية العلمية . اذ لم تكن هذه النظرية التى وضعها ماركس وانجلس وطورها لينين تطويرا ابداعيا مجرد انعكاس بسيط لتناقضات النظام الرأسمالى الاقتصادية الاجتماعية العميقة ، بل كانت أول نمـــوذج لانعكاس الوجود الاجتماعى انعكاسا سبّاقـــا علميا حقيقيـــا . ولم تكتف هذه النظرية بالتأسيس العلمى لضرورة تغيير المجتمع ثوريـــا ، بالقضاء على الملكية الخاصة واستغلال الانسان للانسان ، بل وعينت السبل والطرائق الفعلية لهذا التغيير . فمن اين تنشأ امكانية الانعكاس السبّاق بحد ذاتها ، والاستقلالية النسبية للوعى الاجتماعى عموما ؟

القضية هى أن الوجود الاجتماعى ليس فقط مجمـــوع الاحداث المهمة اجتماعيا الجارية فى الظرف المعنى . فالوجود الاجتماعى ليس امرا جامدا لا يتغير ، انمـــا هو فى تطور مستمر ، وفيه تنشأ وتتنامى باستمرار نزعات شتى . اذن توجد فيه ايضا سنن موضوعية تتحكم بهذه النزعات والعمليات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والتغيـــرات . وحين يعكس الوعى الاجتماعى هذه النزعات والسنن ، يكتسب ما يكاد يكون قدرة على استقراء المستقبل ، كما لو كان يستبق الزمن . وهذا مـــا تتجلى فيه بالـذات استقلاليته النسبية . وبما أن الوجود الاجتماعى بحد ذاتـه متناقض وانعكاسه يجرى من مواقع طبقية مختلفة ضمن اطر مختلف الايديولوجيات المتصارعـــة ، فأن انعكاس الوجود الاجتماعى يكون هو الآخر متناقضـــا . وكان هذا الانعكاس السبّاق قبل ظهور الفهم المادى للتاريخ لاعلميا فى اساسه ، وبرغم بعض التخمينـــات الصحيحة ، كان يحمـل سمـــات الطوباوية . ومع وضع الفلسفة الماركسية اللينينيـــة التى صاغت الفهم المادى للتاريخ ظهرت لاول مرة امكانية الادراك العلمى الصارم لنزعات وسنن التطور الاجتماعى الموضوعية .

وفى ظروف المجتمع الاشتراكى تتنامى باطراد فاعليـــة الوعى الاجتماعى واستقلاليته النسبية .

٢٣٤

تنامى دور العامل الذاتى فى ظل الاشتراكية . من خلال مناقشة استقلالية الوعى الاجتماعى النسبية ، وتأكيد فاعلية اشكاله المختلفة ، توصلنا الى أن كل هذه الاشكال لا تعكس مختلف جوانب الواقع الاجتماعى فحسب ، بل وتؤثر فيه تأثيرا عكسيا فعالا . فهو يمكن ان يساعد على تطور هذه او تلك من النزعات التقدمية (٤٢٢) ، لكنه يمكن ايضا أن يعرقل تحقيقها . وفى كلتـــا هاتين الحالتين يتجلى الدور المهـم للعامل الذاتى ، البشرى ، فى العملية التاريخية .

ففيم يتلخص هذا الدور ؟ ولماذا يكتسب العامل البشرى مثل هذه الاهمية فى الوقت الراهن ؟ أن تطور المجتمع ، كونه عملية طبيعية تاريخية ، يرتبط على الدوام بادراك الاهداف والمهمات المعينة التى يسعى اليهـــا بعض الناس او الفئات الاجتماعية . ويتوقف تنفيذ هذه المهمات وبلوغ الاهداف على اختيار طريقـــة النشاط وعلى ماهيـــة القرارات التى يجرى اتخاذها . وتحن هنا امام احتمالين .

الاول يتلخص فى أن البشر يطرحون اهدافـــا يتعذر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تحقيقها ، ويصوغون المهام صيغة غير صحيحة باتخاذ قرارات غير مدروسة ، ويختارون طريقة نشاط غير فعالة أو غير صالحة لتحقيق الاهداف المرسومة فى الظروف المعنية ، وفى الوقت والمكان والمجتمع المعنى . وبامكان مثل هذه القرارات والافعال ان تعيق التقدم الاجتماعى وتسبب تردى ظروف الحياة وتؤدى الى نتائج غير مرغوب فيها او حتى وخيمة فى بعض الاحيان . وهذا هو ما يعنى أن سنن التطور الاجتماعى والظروف الموضوعية ، حين تفهم فهما مغلوطا ، تبدو وكأنها «تنتقم» من البشر جراء عدم ادراكهم لها وعدم مراعاتهم وبالتالى عدم عكسهم لها فى نشاطهم . كما أن هذه السنن ، كذلك عواقب ادراكها ادراكا خاطئا ، ترغم البشر عاجلا أو آجلا على تغيير القرارات المغلوطة وايجاد طريقة عمل اخرى أصح واكثر ملاءمة للواقع الموضوعى . ولكن ريثما لم يحدث ذلك ، يضطر الناس أو الفئات الاجتماعية أو المنظمات الاجتماعية التى اتخذت القرار الخاطىء ووضعت الاهداف غير القابلة للتحقيق الى دفع ثمن باهظ عما ارتكبته من اخطاء .

ويتلخص الاحتمال الثانى فى أن الناس يدركون بما يكفى من العمق والصواب القوانين الموضوعية ويفهمون ظروف الواقع ونزعات الوجود الاجتماعى . وبحكم ذلك يكون بمقدورهم وضع اهداف واقعية معللة علميا وطرح مهمات قابلة للتنفيذ . وبامكانهم اتخاذ قرارات صائبة واختيار طرائق نشاط فعالة وأمينة . وهذا لا يعنى ، بطبيعة الحال ، أن كل الامور فى مثل هذه الحالات تغدو بسيطة ويسيرة : كأن يظن الناس أن الاهداف يمكن بلوغها بلا نضال ، وأن النشاط المتعلق بذلك لا يصطدم ولا يواجه عقبات . فبحكم تعقد الحياة وتناقضها الموضوعى ، وبحكم وجود عدد غفير من البشر والفئات الاجتماعية والمهنية ، وكذلك مختلف المنظمات الاجتماعية المدافعة عن مصالحها ، وكلها تزاول نشاطها فى المجتمع فى آن واحد ، لا بد من أن تنشأ صعاب وعقبات على الطريق المفضى الى الهدف الرئيسى والمشترك .

بيد أن الفارق الجذرى عن الاحتمال الاول يتلخص فى أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السير نحو الهدف المرسوم يجرى اسرع والاخطاء التى تحدث اقل . فلماذا ، والحالة هذه ، لا يهتدى الناس دائما الى هذا الاحتمال الثانى ؟ (٤٢٠) . القضية هى أن الوعى الاجتماعى فى واقع الحياة يتخلف عن الوجود الاجتماعى . فالادراك العميق والصحيح ، بله الادراك العلمى للواقع ليس دائمـــا سهل المنال ، ذلك أن الوعى ، أى العامل الذاتى للتطور الاجتماعى يتعرض لتأثير قوى اجتماعية مختلفة : الصراع والتناقضات الطبقية الاجتماعيـــة ، الترسبات والآراء الباليـــة ، الاحكام الايديولوجية ، الاهواء والامزجة السيكولوجيـــة الاجتماعية ، النقص فى المعلومات ، الخ . ولا يندر أن يكون العائق الذى يعترض صياغة القرارات الصحيحة والادراك الصائب للاهداف واوضاع الواقع هو هذه او تلك من الصفات الشخصية لدى الزعمـــاء والمؤدلجين والمفكرين السياسيين . فلئن كـــان الاشخاص الذين تتوقف عليهـــم معالجة الاهداف الاجتماعية والايديولوجيـــا يتسمون بخصائص تعيق اتخـــاذ القرارات الصائبة ، كرفض وجهات نظر الآخرين وما شابه ذلك ، فغالبا ما نجدهم يتوصلون الى فهم خاطئ للاهداف والمهـــام ذات العلاقة . لهذا السبب قد يمارس العامل الذاتى دورا ملحوظا ، بل وحاسما احيانا فى التطور التاريخى ، رغـــم أن العامـــل الموضوعى ، أى الوجود الاجتماعى المتنامى يبقى هو الحاسم فى التحصيل الاخير .

فى ظروف المجتمـــع الاشتراكى الذى تـــم فيه تخطى التناقضات التناحرية الطبقيـــة (٢٠٦ ، ٤٠٦) ، وبحكم هذه الحقيقة بحد ذاتها ، تنشأ ممهدات موضوعية لادراك الواقع الاجتماعى بشكل اوفى واعمق ، ولتعيين الاهداف وطرائق بلوغها بشكل علمى . بيد أن هذا لا يعنى أن كل ما يتخذ من قرارات وكل طريقة للعمل الاجتماعى فى المجتمع الاشتراكى يغدو صائبا بشكل تلقائى ، أو أنهـــا تتخذ بلا صراع بين الآراء ، وبلا اصطدام فى المصالح ، وبدون جهود سياسية وروحية جادة . أن دور العامل الذاتى ، دور الانسان الواعى الفعال ذى الفكر المبدع ، الانسان المعنـــى بالحل الصحيح

للمشاكل الاجتماعية ، يتنامى فى المجتمع الاشتراكى تناميا كبيرا .

يشهد الاتحاد السوفييتي الآن بيريسترويكا (عملية تغيير) عميقة ، ثورية من حيث الجوهر ، تشمل كل ميادين الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . ومرد ذلك هو أن المرحلة السابقة من التطور شهدت بعض الفتور والتلكؤ فى التقدم الاقتصادى الاجتماعى .

أن منح الحياة الاجتماعية زخما جديدا وتحقيق تسريع حازم للتنمية الاقتصادية الاجتماعية يتطلبان ادراكا اعمق لاهداف المجتمع القريبة وآفاق تطوره المنظورة على السواء ، كما يتطلب فهم ما يعيق التقدم وتشخيص القوى التى يمكن أن تساعد على هذا التقدم . غير أن ادراك قادة الحزب والدولة لكل هذه الامور لا يكفى بمفرده . فمن الاهمية بمكان أن يتغلغل فهم الضرورة التاريخية للتغييرات فى وعى وروح وقلب كل مواطن ، وأن تتبنى هذا الفهم كل فرق العاملين وكل الفئات والمنظمات الاجتماعية .

كل هذا يبين لنا أن نجاح التقدم الاقتصادى الاجتماعى وقضية انماء الاشتراكية فى المجتمع الخالى من التناقضات التناحرية يرتهن الى درجة لا يستهان بها بالعامل الذاتى . لهذا يعتبر تنشيطه مهمة على قدر عظيم من الاهمية .

على هذا النحو ، تشكل معالجة المسائل المتعلقة باعلاء دور العامل الذاتى فى المجتمع الاشتراكى اسهاما بالغ الاهمية فى تطوير الفلسفة الاجتماعية الماركسية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثالث

الطبيعة والمجتمع

بصدد ترابط الطبيعة والمجتمع

٣٠١

الطبيعة والمجتمع . قبل كل شيء نطرح السؤال التالى : ما هى علاقة البحث فى ترابط الطبيعة والمجتمع بالفلسفة ؟ كيما نفهم جوهر القضية ينبغى لنا بالدرجة الاولى أن نعرّف ما هى الطبيعة ، وماذا نقصد بهذا المفهوم . أن الطبيعة هى ليست الكون بأسره ، ليست كل العالم الذى نعرفه ، انما هى ذلك الجزء منه الذى يتعامل الانسان ويتفاعل معه بهذا الشكل او ذاك ، والذى يؤثر بهذا القدر او ذاك تأثيرا ملحوظا فى تطور المجتمع . ويمكن ، بالطبع ، تفسير الطبيعة تفسيرا أرحب ، غير أن المسألة تفقد ابان ذلك صفتها الدقيقة الواضحة . لذا سوف نقصد بالطبيعة فى المقام الاول كل ما يوجد ويجرى على سطح الارض وباطنها والفضاء المحيط بها ، ومن جملته ذلك الجزء من الفضاء الكونى الذى اخذ الانسان يتفاعل معه خلال العقود الاخيرة من السنين ، والذى ارتاده بفضل منجزات العلم والتقنية . بهذا المعنى يعتبر المجتمع البشرى بحد ذاته ناتجا لتطور الطبيعة .

بيد أن هناك فارقا مبدئيا ، جوهريا ، بين الطبيعة والمجتمع ، يتمثل فى كون الطبيعة تتطور وتؤدى وظائفها حسب قوانينها الموضوعية التى يسرى مفعولها خارج نطاق الوعى الفردى والاجتماعى . اما قوانين النشاط الحيوى للمجتمع فهى ، وإن كانت موضوعية ، ترتبط بالوعى ، بنشاط الانسان المفكر . ويساعدنا هذا الفارق ايضا على فهم المغزى الفلسفى لمسألة العلاقة بين الطبيعة والمجتمع .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يعتمد الانسان فى نشاطه على الطبيعة ، ويحيا فى الطبيعة ويتعرض لتأثيرهـا ويستثمر ثرواتها وما توفره من وسائل الحياة وظروفها . الى جانب ذلك ، يقـوم البشر سعيـا وراء غاياتهم بصنع اشياء وادوات ومنشآت وظروف جديدة ليس لها وجود فى الطبيعة بدون الانسان ، ولم يكن لها وجود ، وما كان بمقدورها أن توجد قبل ظهوره .

ليس صعبا أن يلاحظ المرء أن علاقة الانسان بالطبيعة تبدو وكأنما تتجلى فيها من جديد مسألة سبق لنا أن عرفناها هى مسألة علاقة المادة بالوعى . سوى أن تناولهـا يجرى

القضية هى أن البشر حين يغيرون الطبيعة تغييرا شديدا ، الآن من منظور خاص . فما هو هذا المنظور ؟

انما ينتهكون الظروف الطبيعية ، وهذا غالبـــا ما يؤدى الى تخريب الطبيعة . وهذا التخريب يؤثر بدوره تأثيرا سلبيا ، غير مرغوب فيه ، فى ظروف حياة البشر انفسهم .

لقد اصبح تأثير الانسان فى الوسط الطبيعى المحيط به خلال العقود الاخيرة ، ذلك التأثير الذى تضاعف مرات عديدة بفعل التقنية العصرية الجبارة وبنـــاء المدن العملاقة والطرق والمؤسسات الصناعية وشبكات النقل ، هداما الى درجة جعلت الناس يشرعون فى التحدث عن هلاك الطبيعة وأزمة البيئة . حتى قد ظهر اتجـاه خاص هـو الإخطارية (alarmism) التى تدعى أن تطور المجتمع سوف يؤدى الى خراب كامل للبيئة ، ومن ثم هلاك البشرية نفسها نتيجة لذلك . وينشأ طريق مسدود لا مخرج منه ، فى اعتقاد الإخطاريين . حتى أن بعض رجال الدين يرون فى ذلك علائم اقتراب نهاية العالم . والإخطارية شكل عصرى للتشـاؤم التاريخى . بيد أن هناك فى الوقت الراهن ايضا متفائلين تاريخيين يؤمنون بأن فى مقدور العقل البشرى والارادة الخيرة ، اذا جرى توجيههما الوجهة الصحيحة وتوفير الظروف الاجتماعية اللازمة ، أن يساعدا على صيانة واعمار الطبيعة واقامة علاقات اكثر صوابا وتناسقا بينها وبين المجتمع فى المستقبل .

ويحتدم باطراد الجدل حول مسألة الروابط والتناقضات

بين الطبيعة والمجتمع . وهو يمس اعمق المعضلات المتعلقة بموقف الانسان من العالم المحيط به ، ومن وجود المجتمع البشرى بحد ذاته . وينخرط فى هذا الجدل مزيد من اوساط السكان الواسعة فى البلدان كافـــة ، من عمال ومهندسين وفلاحين ورجال سياسة وعلمـــاء وفنانين . وتعقد مؤتمرات دولية لتدارس هذه المسائـل . وتسن فى مختلف البلدان قوانين خاصة تنظم علاقة المجتمع بالطبيعة . كل هذا يبين لنا أن الفلسفة ، كونها خلاصة العصر الروحية ، وتعليما عن القوانين الاعم لتطور الطبيعة والمجتمـــع والفكر ، يجب أن تشارك مشاركة فعالة فى وضـــع الحل المادى العلمى لهذه المعضلة المهمة حيويا . ولاجل ان نستطلـع بصورة افضل مختلف الآراء فى العلاقة بين الطبيعة والمجتمع ، وأن نتيقن من صحة رأى المتفائلين التاريخيين ، لنصغى الى هذا الحوار الذى يدور بين شخصين مفترضين احدهمـا متشائم والآخر متفائل .

٣٠٢

حوار عن الطبيعة والمجتمع .

المتشائم : أن تاريخ البشريـــة بأسره يشهد أن تطور المجتمع يسفر عن تخريب للطبيعة . وفى آخر الامر سوف يهدم البشر البيئة ويدمرون ظروف وجودهم بحد ذاتهم .

المتفائل : غير أن ما جرى فى الماضى ليس لزامـــا أن يتكرر فى المستقبل . لقد ادخر البشر خبرة هائلة ، وبحوزتهم الآن تقنية جبارة ومعارف علمية جمة يمكن بواسطتها وقف تدهور البيئة .

المتشائم : أن العكس هو الصحيـح . فتطور التقنيـــة يسبب نضوب الموارد الطبيعيـــة . ولتحكم بنفسك : أن السيارات والجرارات والمحطات الكهرحرارية والسفن البحرية الضخمة والطائرات تحرق يوميا ملايين البراميل من المشتقات النفطية . وتستخدم مؤسسات الصناعة الكيميائية هى الاخرى النفط لانتاج الاسمدة والادوية والالياف الصناعية والمواد الجديدة ، الخ . ويمكن أن نقول الشىء نفسه عن الفحم الذى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يحرق فى محطات توليد الطاقة الكهربائية ويستخدم لانتاج الفولاذ والحديد الصلب وشتى المنتوجات الكيميائية . بينما نعرف جميعا أن احتياطات النفط والفحم محدودة . فماذا سيفعل البشر عندما تنفد هذه الاحتياطات ؟

المتفائل : ولكن يجرى باستمرار اكتشاف مصادر جديدة لهذه الخامات .

المتشائم : هذا صحيح ، لكنها سوف تنضب هى الاخرى عاجلا أو آجلا . علاوة على ذلك ، أن المعدات التى تحرق المشتقات النفطية تقضى فى الوقت ذاته على الاوكسجين الجوى . فالسيارة الصغيرة وحدها تستهلك خلال ساعة عمل واحدة من الاوكسجين ما تلفظه الى الجو شجرة سنديان معمرة عملاقة خلال يوم كامل . فى حين نقوم نحن على الدوام بقطع مساحات هائلة من الغابات كي نستخدم اخشابها لاغراض التدفئة والبناء وانتاج الورق . كما أن الغابات تفنى بسبب الحرائق التى تزداد حوادثها باطراد فى الوقت الراهن . وتذكر ، علاوة على ذلك ، مئات الالوف من مداخن المصانع التى تلفظ الى الجو غاز اوكسيد الكاربون وسواه من النفايات الضارة ، زد على ذلك أن المجموع العام للمساحات الخضراء على سطح الارض يتقلص تقلصا مفجعا ، لذا عليك أن تفهم أن ما يهددنا هو ليس نضوب الخامات اللازمة لتوليد الطاقة فحسب ، بل والجوع الاوكسيجينى .

المتفائل : انت ترسم صورة قاتمة للغاية .

المتشائم : وليس هذا فحسب . أن سكان الارض المتنامى عددهم سريعا ، ولاسيما سكان المدن ، يعانون شحة فى مياه الشرب . علاوة على ذلك ، تتلوث مياه الانهار والبحار على السواء بفضلات المدن والنفايات الصناعية الضارة التى تقضى ايضا على الاسماك والنباتات المائية وما تتغذى به الحيوانات البحرية . ولا بد من أن نضيف الى هذه الصورة الكئيبة الدمار الذى يفتك بخصوبة التربة وبنية التضاريس الطبيعية وما الى ذلك .

المتفائل : وماذا لديك من تخمينات ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المتشائم : قبل حوالى ٢٠ سنة جرى فى رومـا تشكيل منظمة اجتماعية طوعية تدعى «منتدى روما» . وهى تضم عددا غفيرا من كبار العلماء والاقتصاديين وعلماء الاجتماع ورجال السياسة . وكان أول استنتاج لهم يتلخص فى ضرورة وقف نمو الانتاج وكبح تطور المجتمـــع وتقليص زيادة السكان السريعة المسببة للجوع فى العديد من بلدان العالم ، ووضع تكنولوجيات انتاج عديمة النفايات ، واعتماد ما يسمى بـ«النمو الصفرى» . بيد أن ممثلى هذه والعديد غيرها من المنظمات المماثلة غيروا فى وقت لاحق ، فى الحقيقة ، آراءهم وباتوا يعتقدون أن التكنولوجيات العصرية الجديدة تستطيع اصلاح الامر ، اذا ما جرى على اساسها انشاء صناعات معتدلة تصون الموارد الطبيعية .

المتفائل : معنى هذا أن بالامكان انقاذ البشرية من الهلاك ووقف خراب الطبيعة ، اذا أصغى البشر لهذه التوصيات ؟ فما هو العائق ، اذن ؟ ما الذى يمنع من تنفيذ هذه التوصيات ؟

المتشائم : اولا ، أنا لم ازعم أن تنفيذ توصيات «منتدى روما» وسواه من منظمات حمايـــة الطبيعة يستطيع انقاذ البشرية . من المستبعد أن يقدم ذلك عونا للطبيعة . اذ لا سبيل الى استعادة ما أُتلف واُستُهلك وأُحرق . ثانيا ، أن البشرية لم تصغِ قط لصوت العقل ، ذلك انها - جريا وراء غاياتها الآنية - لا تفكر بما ينتظرها غدا .

المتفائل : اعتقد انك على خطأ . فجوهر الانســـان ليس ثابتا . ان البشر يتصرفون بهذه الطريقة او تلك تبعا للظروف الاجتماعية التى تكتنف حياتهم ، وتبعـــا للنظام الاجتماعى وطريقة الانتاج . ولئن جرى تغيير هذه الظروف فسوف يتغير نمط نشاطهم وموقفهم من الطبيعة . عندئذ ، فى اعتقادى ، يمكن اصلاح الكثير وجعل الوضع افضل ممـا كان عليه فى الماضى ومما هو عليه الآن .

المتشائم : ولكن لماذا لم يحصل شىء كهذا خلال بضعة من الوف السنين الاخيرة ؟

المتفائل : لأن الغلبة كانت طوال هذا الوقت للملكيـــة

الخاصة ، كما كانت المصالح الشخصية او الفئوية او الطبقية ، وفى مقدمتها مصالح رجال الاعمال والاحتكارات الكبرى ، توضع فوق مصالح المجتمع . وكان البشر فى وضع كهذا يسترشدون بآراء واحكام وقيم وايديولوجيا لا تراعى مصالح البشرية جمعاء ، وبالتالى لا تراعى مصالح الموقف العقلانى الحريص والمعقول أزاء الطبيعة .

المتشائم : ولكن أيمكن تغيير هذا الوضع ؟

المتفائل : دون شك .

المتشائم : وكيف يتم ذلك ؟

المتفائل : اعتقد أن خير جواب عن هذا السؤال الذى يمس ابرز مصالح البشر الجذرية ، أى جوهر موقف الانسان من البيئة ، تقدمه الفلسفة المادية الجدلية . فما هو الفارق بينها وبين الاحكام الفلسفية غير الماركسية ، وفيم يتمثل برنامجها الايجابى ، وما هى آفاق تنفيذ هذا البرنامج ؟

سنقوم الآن بمناقشة هذه المسائل .

٣٠٣

النظرات ما قبل الماركسية الى الطبيعة والمجتمع . كانت علاقة الانسان بالطبيعة تتغير مع تطور المجتمع ، الامر الذى كان ينعكس فى مختلف التعاليم عن علاقات المجتمع بالطبيعة .

كان البشر البدائيون مستهلكين للثروات الطبيعية . فعلى مدى مئات الوف السنين كانوا يقتاتون على الحيوانات والنباتات وينامون فى الكهوف ويرتدون جلود الحيوانات ويستخدمون الادوات المصنوعة من الخشب والحجر والعظام . وكانوا يكتفون باستثمار مواد الطبيعة ، دون أن يصنعوا بانفسهم ما لم يكن له وجود فى الطبيعة . وكان مستوى تطور القوى المنتجة هذا ينعكس فى منظومة التصورات الدينية والخرافات والاساطير التى تتجسد فيها علاقة الانسان المعقدة والمتناقضة بالعالم المحيط به . فمن جهة كانت الطبيعة تؤمن للانسان الحياة والغذاء ، لهذا كانت هدفا يؤلهه ويتعبد اليه . ومن جهة اخرى كان الانسان يصارع باستمرار قوى الطبيعة الرهيبة والغامضة ويسعى الى التغلب عليها واخضاعها ، ويتعامل فى

احيان غير نادرة تعاملا عدائيا مع الكثير من الظواهر الطبيعية . وفى فترة تفسخ المجتمع البدائى ونشوء بواكير الدول العبودية تعلم البشر فلاحة الارض وزراعة واكثار الغلال وتربية الحيوانات المدجنة . وبفضل صنع الادوات المعدنية والفخارية وتعلم الانتفاع من النار اخذ الانسان يصنع اشياء ومواد غذائية وملابس ومساكن ووسائل تنقل لم يكن لها وجود فى الطبيعة . وفى نتيجة تطور القوى المنتجة والتقنية ابتدأت عملية تحويل الطبيعة .

وفى غضون مئات الوف السنين من التاريخ البدائى غيّر البشر الطبيعة تغييرا شديدا : قاموا بتقطيع الغابات وابادة انواع كثيرة من الحيوانات وشق مئات الطرق والدروب والمسالك . وفى ظل المجتمع الطبقى تسارعت اضعافا مضاعفة عملية تغيير الطبيعة فى مجرى نشاط البشر العملى والاجتماعى . غير أن هذا النشاط كان ، فى العادة ، عفويا ونتائجه مفاجئة تماما وليست كالتى كان يسعى اليها البشر فى بادئ الامر . وهذه سمة مميزة لجميع التشكيلات السالفة وما يناسبها من ثقافات .

وكانت الفلسفة القديمة ، ولا سيما المادية القديمة ، ترمى الى معرفة العالم ككل . وعند تناول هذا العالم (الكون) ككل متكامل ومتنام ، وفى سعى لفهم اصوله ومنشأه ، لم يكن الفلاسفة القدماء يفهمون الدور الفعال الذى يمارسه الانسان فى تحويل الطبيعة المحيطة به . اذ كانوا ينظرون الى هذا الدور كهدف للمراقبة ، وليس كنشاط تحويلى هادف وواع .

كان الدين واللاهوت المسيحى ، شأن سائر الاديان العالمية المسيطرة فى عصر القرون الوسيطة ، يتميز بموقفه السلبى من الطبيعة . فالطبيعة ، فى رأى فلاسفة القرون الوسطى الكلاميين ، خلقها الرب لتكون فى خدمة الانسان ، ذلك أن الانسان هو وحده الذى يحوز بذرة الروح الالهية ، اما الطبيعة فتنطوى على اصل خسيس .

ولم يتعاظم الاهتمام بالطبيعة تعاظما حادا الا فى عصر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النهضة وما أعقبه من تطور سريع فى العلوم الطبيعية . بيد أن هذا الاهتمام كانت تعكره روح الطمع البرجوازى والسعى الى ابتزاز الارباح . وقد ذهب فرنسيس بيكون ، وهو احد مؤسسى فلسفة وعلم العصر الحديث الى أن معرفة الطبيعة ضرورية بالنسبة لهناء المجتمع . فكل تذمر فى المجتمع – حسب اعتقاده – سببه الفقر وسوء الادارة . ولا يتسنى تلافى هذين النقصين الا بواسطة العلم . فالمعارف العلمية قوة ، على حد قول بيكون . وهدف العلم هو معرفة الطبيعة وضمان السيطرة عليها . وبامكان السيطرة على الطبيعة أن تؤدى الى هناء واستقرار المجتمع . وكان المقصود بذلك طبعا هو المجتمع القائم على الملكية الخاصة واستغلال الانسان للانسان . ووجد فى هذه الآراء تعليلا له الفهم البرجوازى لموقف المجتمع من الطبيعة . فقد أراد البشر أن يأخذوا من الطبيعة اكثر ما يمكن ، لكن احدا لم يطرح امام المجتمع مهمة القيام بأيما نشاط فى سبيل الحفاظ على الطبيعة . واصبحت فكرة السيطرة على الطبيعة حجر الزاوية فى الفلسفة البرجوازية السابقة للماركسية . اذ كانت هذه الفكرة تبرر الموقف الوحشى من الطبيعة واستنزاف الثروات الطبيعية . وباتت ضرورة اعادة النظر جذريا فى هذا الموقف من الطبيعة وتجاوزه ملحة بصفة خاصة عندما افضى الجرى البرجوازى وراء الارباح ، وهو صفة لصيقة بالرأسمالية المعاصرة ، الى أزمة فى البيئة تهدد البشر اجمعين بكارثة .

٣٠٤

المادية الجدلية والعلاقة بين الطبيعة والمجتمع . تنظر الفلسفة الماركسية الى المجتمع كنتيجة لتطور الطبيعة . الى جانب ذلك ، ثمة فارق عميق بين الطبيعة والمجتمع : ففى الطبيعة ليس ثمة مفعول الا لقوى عمياء لاواعية يؤثر بعضها فى بعض وتتجلى فى تفاعلها القوانين العامة . اما فى تاريخ المجتمع ، فعلى العكس ، يكون المفعول للبشر المتمتعين بالوعى والتائقين الى تحقيق اهداف معينة . ولكن مهما كان هذا الفارق مهما ، فهو لا يغير حقيقة ان مجرى التاريخ يخضع لقوانين داخلية عامة .

وتتيح النظرة المادية الى المجتمع الفرصة ايضا لفهم آلية العلاقة بيننا وبين الطبيعة . وتتمثل هذه الآلية فى سيرورة العمل (١٢٥ ، ٢٠٤) . فالبشر فى سيرورة العمل لا يصنعون القيم المادية فحسب ، بل ويكوّنون انفسهم كمخلوقات مفكرة واعية . وتكون الطبيعة بمثابـــة موضوع للنشاط الانتاجى المادى ، بمثابة مادته الاولية . امـــا الانسان الذى يعكس الطبيعة فى وعيه ويضع نصب عينيه اهدافا شخصية واجتماعية معينة ، فيعتبر ذات هذا النشاط . فنشاط الانسان الانتاجى يتيح له فرصة استيعاب وتحويل مادة الطبيعة بشكل معين . ولم يقتصر رواد الماركسيـــة اللينينية على الاشارة الى أن سيرورة العمل هى الآلية الاساسية للترابط بين الانسان والطبيعة وأن الانسان ينفصل بفضل العمـــل عن الطبيعة ، ويضع نفسه فى مواجهتها ، بل كانوا يؤكدون دوما ارتهان تفاعل الانسان والطبيعة باشكال الملكية السائدة وما تمليه من تنظيم للمجتمع .

ان علاقة الانسان بالطبيعة متناقضة . فمن جهة ، يعتبر الانسان نفسه منتوجا للطبيعة . والطبيعة هى أهم الشروط المادية لنشاطه الحيوى . فالثروات الطبيعية وموارد الطاقة وخصوبة التربة وتوفر المياه ، كذلك الهواء والمناخ وما الى ذلك تؤثر تأثيرا معينا فى تطور المجتمع . ومن جهة اخرى يقوم الانسان فى سيرورة العمل بتغيير الطبيعة . وعندمـــا يضع الناس نصب اعينهم اهدافا محددة ويسعون الى تحقيقها ، يقومون بتغيير الطبيعة بحيث غالبا ما تكون نتائج نشاطهم النهائية مخالفة لاهدافهم ونواياهم الاولية .

والمعروف أن الحيوانات تؤثر هى الاخرى فى الوسط الطبيعى المحيط بها ، محدثة فيه تغيرات ملحوظة الى هذا القدر او ذاك . بيد أن تأثير الانسان اقوى مئات ، بل والوف المرات . ولاجل تفادى عواقب هذا التأثير الوخيمة والمدمرة لا يكفى ادراكها فقط . فهذا الادراك بحد ذاته ، كما نعلم ، يحدده الوجود الاجتماعى ، وهو مرهون به . ويستدل من ذلك بالضرورة أن التفاعل الصحيح المتناسق بين الانسان والطبيعة ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذى يضمن التطور التقدمى للمجتمع ولا يؤدى فى الوقت ذاته الى تخريب الطبيعة ، لا يمكن أن يتم الا بشرط تحويل المجتمع بأسره ، وفى المقام الاول تغيير طريقة الانتاج ، بعبارة اخرى ، الا فى حالة الانتقال الى الاشتراكية ومن ثم الى الشيوعية . ولكن لماذا تتيح الشيوعية بالذات حسم وازالة التناقضات بين الطبيعة والمجتمع ، التى ظهرت وتفاقمت طوال فترة التشكيلات السالفة كافة ؟ السبب هو أن تصفية الملكية الخاصة تتيح تطبيق الانتاج المبرمج والمعلل علميا للموارد المادية والانتفاع منها لصالح المجتمع باسره ، لصالح البشرية جمعاء ، وليس لصالح حفنة من الرأسماليين أو الاحتكارات . وعلى الضد من كل النظريات البرجوازية ترى الماركسية اللينينية أن التناقضات بين الطبيعة والمجتمع يجب أن تحل لا على اساس سيطرة الانسان على الطبيعة ، بل على اساس تصفية كل انواع السيطرة . فبالغاء سيطرة الانسان على الانسان تلغى الشيوعية ايضا سيطرة الانسان على الطبيعة ، اذا كان المقصود بـ«السيطرة» الاستثمار المنفلت للثروات الطبيعية من اجل جنى الارباح . وعوضا عن «مبدأ السيطرة» البرجوازى يجب أن يتكرس – بالتعبير المجازى – «مبدأ التعاون» الذى يتم فى ظله توفير الظروف الملائمة لتطور المجتمع ولصيانة وأنماء الطبيعة على السواء . واذ توفر الشيوعية الظروف اللازمة لتطور كل فرد ولتطور المجتمع ككل تطورا شاملا ، انما توفر الظروف اللازمة ايضا لتطور الطبيعة المتناسق . **فالتفاعل بين المجتمع والطبيعة** فى الظروف الجديدة **يجب أن يقوم على اساس مبدأ التطوير والاغناء المتبادل** القائم على الفهم العميق للقوانين الموضوعية لتطور الانسان والوسط المحيط به .

البيئة ، البيولوجى والاجتماعى فى تطور المجتمع

٣٠٥

بنية البيئة . فما هى البيئة ، اذن ؟ ان البيئة منظومة معقدة (١٠٦) . وابرز منظوماتها الثانوية هى الوسط الطبيعى

لمعيشة الانسان ووسط المعيشة الاصطناعى .

الوسط الطبيعى جزء من الطبيعة يتفاعل معه المجتمع فى سياق تطوره ونشاطه الحيوى . وفى بداية ظهور البشرية كان وسط معيشتها الطبيعى لا يشتمل الا على جزء صغير من سطح الارض . أما الآن فهو لا يشمل كل سطح الارض فحسب ، بل ايضا بواطنها والمحيط العالمى والمجال الجوى المحيط بالارض ، وكذلك جزءا من منظومتنا الشمسية . ومع تطور التقنية والعلم سوف يتوسع الوسط الطبيعى لمعيشة الانسان .

والوسط الاصطناعى هو ذلك الجزء من البيئة الذى صنعه الانسان فى سياق التطور التاريخى للانتاج المادى ، ويعتبر ناتجا لنشاطه الحيوى ، وليس موجودا بحد ذاته كالطبيعة . فما الذى يدخل ضمن تركيب الوسط الاصطناعى ؟ يضم هذا الوسط مجموع ما شيده الانسان من مساكن ومدن ومراكز حضرية وطرق ووسائط نقل وادوات عمل وعُدد ومعدات تقنية ومواد صناعية لا وجود لها فى الطبيعة ومصانع ومعامل ، الخ .

على هذا النحو يجرى تطور المجتمع فى ظروف مادية معقدة تشمل وسط المعيشة الطبيعى والاصطناعى على السواء . وفى مختلف العصور التاريخية كان دور وتناسب هاتين المنظومتين الثانويتين للبيئة مختلفين ، كما كان لهما تأثير مختلف فى نشاط الانسان الحيوى . والانسان نفسه كان له هو الآخر تأثير متباين فى البيئة ، وكان يقوم بتغييرها ، وفى الوقت الراهن يجرى جزء كبير من نشاطه الحيوى فى وسط اصطناعى يعد هو نفسه ناتجا لتحويل وتغيير الوسط الطبيعى .

ولننظر الآن بمزيد من التفصيل كيف كان يجرى ويتغير فى سياق التطور التاريخى تفاعل المجتمع مع مختلف المنظومات الثانوية للبيئة .

٣٠٦

البشرية ووسط المعيشة الطبيعى . ان الوسط الطبيعى الذى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تحيا وتتطور فيه البشرية معقد جدا . وهو يضم : ١ – سطح الارض على اختلاف تربته وجباله وانهاره وبحاره وصحاريه ، الخ ؛ ٢ – المناطق المناخية المختلفة ؛ ٣ – مختلف مجاميع الحيوانات والنباتات ، الخ . كل هذا بمجمله يسمى عـادة **بالوسط الجغرافي** . فعلى مدى عشرات ومئات الوف السنين كان البشر يعيشون ويتطورون على سطح الارض ، دون أن يتوغلوا فى بواطنها أو يرتادوا غلافها الجوى ، ناهيك عن أن يتجاوزوا حدود هذا الاخير . وحين لاحظ مفكرو الماضى ان ثمة قبائل وشعوبا وامما مختلفة تحيا فى ظروف جغرافية مختلفة ، وانتبهوا الى اختلاف تنظيمها الاجتماعى ومستوى تطورها ، خلص العديد منهم الى استنتاج مفاده أن الخصائص الاساسية للحياة البشرية وأن تطور الثقافة ، وكذلك النظام الاجتماعى ترتهن بالوسط الجغرافى . فمنهم من ذهب الى أن العامل الحاسم للتطور الاجتماعى هـو المناخ القاسى او المعتدل ، ورأى آخرون أن السبب الرئيسى للتطور هـو خصوبة التربة وغزارة النباتات والحيوانات ، وجعل طرف ثالث منهم تطور المجتمع مرهونا بوجود طرق المواصـلات المائية والانهار والبحار والبحيرات وما الى ذلك . وكان لمثل هذه الآراء ما يبررها . ففى المراحل الاولى من التطور كـان البشر بالفعل يتطورون تطورا أنجح فى البلدان ذات المناخ الاكثر اعتدالا والاغنى من حيث عالمى النبات والحيوان ، فيما بقيت المناطق ذات المناخ القاسى والتربة القليلة الخصوبة غير مأهولة . ولكن لا يجوز أن نعزو تطور البشرية الى تأثير الوسط الجغرافى وحده . ففى ظروف جغرافية واحدة يجرى تعاقب تشكيلات اجتماعية مختلفة على مدى بضعة الوف أو حتى بضع مئات من السنين . ولو كان كل شىء يتوقف على الوسط الجغرافى ، فكيف يمكن تفسير وجود بلـدان ذات اقتصاد متخلف ومستوى ثقافة منخفض نسبيا فى امريكـا اللاتينية وكذلك فى افريقيا الوسطى الغنيتين بالنباتـات والحيوانات والمتسمتين بمناخ دافىء ؟ هذه المسائل تدفع الى الاعتقاد بأن العلاقة بالوسط الجغرافى والارتهان به ليسا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالامر البسيط والهين . علاوة على ذلك ، أن البشرية تتوغل مع تطور المجتمع فى اعمـاق الارض وتتجاوز حدود غلاف الارض الجوى ، فيغدو مفهوم الوسط الجغرافى ضيقا جدا . فما الوسط الجغرافى ، اذن ، سوى جزء من الوسط الطبيعى لمعيشة البشر .

بامكاننا أن نشخص فى الوسط الطبيعى لمعيشة الانسان مجموعتين من الظواهر هما المصادر الطبيعية لوسائل الحياة (النباتات البرية ، الثمار ، الحيوانات ، الخ) والثـــروات الطبيعية التى هى مواد العمل (الفحم ، النفط ، طاقة مساقط المياه والريح ، الخ) . وفى المراحل المبكرة من تطور المجتمع البشرى ، حين كان مستوى تطور القوى المنتجة منخفضا ، كان البشر مرهونين الى درجة كبيرة جدا بالمصادر الطبيعية لوسائل الحياة . وريثما لم يكن بمقدور البشر أن يربـــوا النباتات الزراعية والحيوانات المدجنة وأن يشيدوا المساكن المدفأة ، وما الى ذلك ، ما كان بامكانهم أن يعيشوا الا فى البلدان الدافئة المناخ والوافرة النباتات والحيوانات البرية . ومـــع تطور وتحسن ادوات العمل اخذ يضعف ارتهان البشر بالمصادر الطبيعية . ولكن اخذ ينمو فى الوقت ذاته ارتهانهم بالثروات الطبيعية ، أى المواد الاولية وموارد الطاقة ومـا الى ذلك . وتتيح الصناعة والتقنية المعاصرة الفرصة امام الانسان لاستثمار مناطق الارض التـــى كانت منيعة فـــى الماضى . وبواسطة الاسمدة الكيميائية نراه يحول التربـــة الجدباء الى تربة خصبة . وباستخدام المواد الانشائية الجديدة ومنظومات التدفئة راح يستثمر المناطق القطبية . وبالانتفاع من مختلف انواع الطاقة لم تعد حياة الانسان مرهونة بالخشب كمصدر وحيد للتدفئة ، وهلمجرا . فى الوقت ذاته يتنامى ارتهان الصناعة والزراعة بمواد طبيعية اولية كالنفط وخامات الحديد واليورانيوم وغير ذلك . ويندرج فى اساس هذه العملية تطور القوى المنتجة الذى يرتهن فى الكثير هو الآخر بنمط العلاقات الانتاجية ، وفى مقدمتها شكل الملكية السائد .

أن المادية التاريخية التى لا تنكر تأثير وسط المعيشة

الطبيعى فى نشاط البشر الحيوى تبين لنا أن هذا التأثير يجرى عبر طريقة انتاج الخيرات المادية (٢٠٤) . أذن ، يتوقف طابع هذا التأثير وتغيراته لا على الطبيعة ذاتها ، بل على العوامل الاجتماعية ، وبالدرجة الاولى على الانتاج المادى الذى هو اساس الحياة الاجتماعية بأسرها . مثلا ، أن تأثير الفضاء الكونى فى حياة المجتمع يغدو ممكنا بفضل تطور التقنية الفضائية العصرية التى ستتيح فى المستقبل القريب استثمار احتياطات الطاقة والمواد الاولية المتوفرة فى كواكب المنظومة الشمسية لتلبية احتياجاتنا الارضية . فكم سيكون تأثير هذا العامل ؟ ان مدى هذا التأثير يرتهن بالتقنية وبالنظام الاجتماعى الذى تتطور فيه هذه التقنية وتؤدى وظائفها . أن الانتفاع السلمى من التقنية الفضائية لصالح المجتمع باسره يفترض وجود نظام اجتماعى تسخر فى ظله ثروات الفضاء الكونى الطبيعية لخدمة البشرية ، فتساعد على صيانة ونماء الطبيعة الارضية . وبالعكس ، أن عسكرة التقنية الفضائية يمكن ان تعرقل الانتفاع المعقول من الثروات الطبيعية المتوفرة فى الفضاء الكونى المحيط بأرضنا . لهذا السبب يكتسب النضال من اجل الحيلولة دون عسكرة الفضاء الكونى ، وضد التحضير لما يسمى بـ«حروب النجوم» ، أهمية تاريخية خاصة . ويخرج هذا النضال على اطر الفعل السياسى ذى الطابع المحدود والموقت ليتحول الى نشاط عالمى النطاق .

على هذا النحو يمكن استخلاص الاستنتاجات التالية بشأن تأثير الوسط الطبيعى فى تطور البشرية . اولا ، أن وسط المعيشة الطبيعى يعتبر شرطا من أهم الشروط المادية لنشاط البشر الحيوى . ثانيا ، أن تأثير الوسط الطبيعى ليس هو التأثير الرئيسى والحاسم . فطابع هذا التأثير يرتهن بمستوى القوى المنتجة ونمط العلاقات الانتاجية فى المجتمع المعنى . ثالثا ، أن المصادر الطبيعية لوسائل العيش تؤثر فى المجتمع على الاغلب خلال المراحل المبكرة من تاريخه ، التى تتسم بمستوى منخفض نسبيا لتطور القوى المنتجة ، اما تأثير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الثروات الطبيعيـــة فيتنامى مـــع نمو القوى المنتجـــة .
٣٠٧
البيولوجي والاجتماعي فى الانسان . يشتمل وسط المعيشة الطبيعي على شتى اشكال الحياة . والانسان نفسه حيوان عاقل رفيع التنظيم تميز عن الطبيعة بفضل العمل . فمن جهة ، أن الانسان كائن حى ويجب أن يخضع للقوانين العامة المتحكمة بتطور الطبيعة الحية أو المجال الحيوى (البيوسفير) . وهو ، من جهة اخرى كائن اجتماعى ينتج ادوات معينة ويصنـــع بواسطتها ما يلزمه من اشياء ومواد غذائية ووسط اصطناعى متميز . ويخضع المجال الحيوى لقوانين التطور البيولوجى . اما الانسان فيحيا حسب قوانين التطور الاجتماعى . إذن ، فالانسان يجمع فى ذاته بين اصلين اثنين هما **الطبيعـــى والاجتماعى ، أى البيولوجى والاجتماعى** .

عند تناول تطور المجتمع وتفاعله مع الطبيعة غالبا ما يؤكد الفلاسفة البرجوازيون أن الانسان يخضع بالدرجة الاولى لقوانين النشاط الحيوى البيولوجية . وهم ، بطبيعة الحال ، يدركون ان البشر مخلوقات مفكرة واعية تضع امامها اهدافا مُدْرَكة . رغم ذلك ، فالانسان ، فى رأى هؤلاء الفلاسفة ، يتصرف فى الاغلب كالحيوان . ويدعى انصار نظرية التحليل النفسى التى وضعها عالم النفس النمساوى فرويد (١٨٥٦ — ١٩٣٩) أن الاخلاق والثقافة ليست سوى آليات رادعة اوجدها المجتمع للوقاية من غرائز الانسان الحيوانية . وفى معظـم الحالات تلعب هذه الغرائز التى يصفها فرويد بانها «لاواعية» الدور الحاسم فى سلوك الافراد والمجتمع باسره . ويذهب الفرويديون الى أن سلوك البشر يرتهن فى التحصيل الاخير بالغرائز التى ورثها الانسان من اجداده القدماء . والدافع الحاسم لسلوك البشر هو الغريزة الجنسية . والثقافة باسرها غشاء رقيق يخفى الغرائز الحيوانية ويتمزق باستمرار تحت ضغط هذه الغرائز . اما بعض اشكال سلوك البشر كالروح العدوانية او التنافس او التعاون فما هى الا امتداد بسيط لنشاط الحيوانات .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد انتشرت خلال الاونة الاخيرة في البلدان الرأسمالية ، ولا سيما فى الولايات المتحدة ، نظرية البيولوجيا الاجتماعية التى وضعها عالم الوراثة الامريكى ويلسون . فهو يدعى أن الثقافة نفسها تخضع لقوانين الوراثة البيولوجية . وتقتضى الضرورة وضع علم وراثة ثقافى يبحث فى تطور الثقافة البشرية من زاوية البيولوجيا . بيد أن ويلسون وانصاره اضطروا تحت تأثير الوقائع العلمية الى الاعتراف بأن الطابع البيولوجى المحض لا يسم فى الواقع الا ١٥ بالمئة من افعال السلوك البشرى . بيد أن القضية لا تنحصر بتاتا فى تدقيق هذه النسبة او التحقق من صحتها ، بل هى فى فهم مغزى هذه الآراء والاهداف التى تخدمها . أن ممثلى نظرية التحليل النفسى وعلم الوراثة الثقافى يحملون وراثة الانسان وغرائزه الحيوانية المسؤولية المترتبة على الحروب العدوانية والنزاعات الاجتماعية المختلفة . وبذا تبذل محاولة لاعطاء تعليل «علمى» لمختلف اشكال الشرور الاجتماعية ولحتمية الحروب وما الى ذلك . فمنذ القرن التاسع عشر ، بعد ظهور نظرية دارون ، انتشر فى المجتمع البرجوازى مذهب الداروينية الاجتماعية الذى قام بنقل قوانين الصراع البيولوجى على البقاء التى اكتشفها دارون ليطبقها على المجتمع . ومن وجهة النظر هذه ، يتجلى فى الصراع الطبقى الصراع داخل الانواع الذى اكتشفه دارون ، والذى يساعد على تطور وارتقاء الانواع البيولوجية . وما دام الامر كذلك فان الصراع الطبقى سوف يبقى ريثما يبقى البشر . وهنا يمكن بيسر تشخيص محاولة تكريس الرأسمالية والصراع الطبقى الى الابد ، استنادا الى الادعاء بمنشأه البيولوجى .

أن الفهم العلمى الحقيقى لعلاقة الاجتماعى والبيولوجى لا يمكن أن يوفره الا الفهم المادى للطبيعة والمجتمع . فالانسان كائن حى . بيد أن طبيعته البيولوجية بحد ذاتها تغيرت تغيرا جذريا خلال عملية التطور التاريخى تحت تأثير العمل وتطور اشكال الحياة الاجتماعية . وبرغم أن بعض العمليات الطبيعية كالدورة الدموية والتنفس والهضم وما شابه ذلك تخضع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقوانين بيولوجية عامة ، او بالاحرى للقوانين الفسلجية ، فحتى هذه العمليات ترتهن الى قدر معين بظروف الحياة الاجتماعية . وكلما كان شكل سلوك البشر ونشاطهم أرقى واعقد ، تنامى دور السنن الاجتماعية . فعملية تفاعل البشر وتطور تفكيرهم وحياتهم الاجتماعية يحددها فى التحصيل الاخير نشاطهم الانتاجى المادى والاجتماعى . ويفسر انقسام المجتمع الى طبقات وفئات اجتماعية ، والحروب والتعاون العالمى ، والتربية العائلية وتطور الثقافة لا بالقوانين البيولوجية ، انما بالقوانين الاجتماعية .

ان الآليات الاجتماعية فى سلوك الانسان تطغى على الآليات البيولوجية ، وإن كانت لا تلغيها . ولاجل أن ترتدى هذه الآليات طابعا ابداعيا خلاقا ، وليس هداما ، يقتضى الامر فى المقام الاول تحويلا جذريا للمجتمع نفسه وليس اعادة بناء الطبيعة البيولوجية للانسان .

ويتحدد تكون طبع الانسان وقدراته واشكال سلوكه واهتماماته وميوله بالوسط الاجتماعى الذى يعيش فيه . ان قصة كيبلينغ الشهيرة «ماوغلى» تتحدث عن صبى ترعرع بين الذئاب ثم عاد الى حياة البشر الطبيعية . ويقص بيراوز فى رواية «طرزان ربيب القردة» شيئا مماثلا عن انسان قامت احدى اناث القردة بتنشئته ، ثم حقق فى وقت لاحق نجاحات كبيرة فى عالم البزنس الرأسمالى . اما فى الواقع ، وكما جرى اثبات ذلك بما لا يقبل الدحض ، فأن مثل هذه الوقائع مستحيلة الحدوث . ففى الحالات التى وجد الاطفال خلالها انفسهم بالفعل فى كنف الحيوانات البرية ، لم يتسن قط لأى منهم أن يعود بعدئذ الى حياة البشر الطبيعية . ذلك ان الانسان لا يتربى ولا يشب انسانا مكتمل القيمة الا فى الوسط الاجتماعى . ولا يتمكن الا بمساعدة هذا الوسط من امتلاك ناصية اللغة والوعى والثقافة ومراس السلوك الاجتماعى والقدرة على العمل وتغيير العالم . وبطبيعة الحال أن الانسان يتسم بأصول بيولوجية معينة وصفات وراثية بيولوجية ، كأى كائن حى ، لكنها هى الاخرى تعتبر ليس فقط نتيجة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للارتقاء البيولوجى ، بل وحصيلة لبضعة ملايين السنين من التطور الاجتماعى . لهذا السبب بالذات تبحث الفلسفة الماركسية اللينينية دون أن تنكر الاساس البيولوجى لنشاط الانسان الحيوى عن مفتاح لحل جميع معضلات المجتمع المعاصر لا فى طبيعة الانسان البيولوجية ، بل فى طبيعته الاجتماعية .

٣٠٨

الاعراق والامم . يتيح الفهم الصحيح لعلاقة البيولوجى والاجتماعى الفرصة ايضا لفهم الدور الذى تمارسه فى تطور المجتمع خصائص البشر العرقية والقومية .

أن كل انسان يعرف من تجربته الشخصية أن البشر يتمايزون بصفات متنوعة وسمات طباع مختلفة ، بمستواهم التعليمى وموقفهم من المصالح الاجتماعية ، بلون البشرة وطول القامة وتقاسيم الوجه واللغة وما الى ذلك . فقسم من هذه الصفات سيكولوجى ، وقسم ثان اجتماعى ، وقسم ثالث بيولوجى . ويعزى الى عداد الصفات البيولوجية ما يلى : لون البشرة ، طول القامة ، بعض خصائص الجسم ، وهلمجرا . وعلى اساس هذه الصفات تشخص الانثروبولوجيا ، وهى علم يدرس منشأ وارتقاء وتطور النظام البيولوجى للانسان ، بصفة اعراق . **والاعراق هى نسق من الروابط البشرية المختلفة ، أى القبائل والشعوب والامم ، التى يجمع بينها وجود عدد من الصفات البيولوجية العامة** . وجرت العادة على تشخيص ثلاثة اعراق اساسية هى : العرق الاوربى ، أى البشر ذوو البشرة البيضاء ، والعرق الزنجى ، أى البشر ذوو البشرة السوداء ، والعرق المغولى ، أى البشر ذوو البشرة الصفراء والمقل المائلة . وبطبيعة الحال أن كل هذه الصفات اصطلاحية جدا ونسبية ، علاوة على انها ليست واضحة المعالم على الدوام . لهذا تذكر احيانا كذلك اعراق بينية ، غير اساسية . وتحمل خصائص البشر العرقية طابعا بيولوجيا .

وبخلاف الخصائص العرقية تتجلى الخصائص الاثنية (من كلمة ethnos الاغريقية التى تعنى القبيلة او الشعب)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والخصائص القومية فى الملامح الاجتماعية ، وهى تميز روابط بشر نشأت تاريخيا . وتعزى الى هـــذه الروابط **القبائل والشعوب والامم** . واكثرهـا تعقيدا هى **الامم** . انها تنشـأ نتيجة تطور تاريخى طويل فى عصر معين ، هو عصر الانتقال الى الرأسمالية . أذ يترابط اعضاء القبيلة الواحدة او الشعب الواحد بعلاقات عائلية معينة وعلاقات قربى الدم ، وبقـدر معين من وحدة المنشأ . اما الامم فتنشأ نتيجة اتحاد و«تخالط» و«انصهار» ابناء مختلف القبائل والشعوب (المتقاربة احيانا من حيث المنشأ) . والبشر الذين ينتمون الى امـــة واحدة يتكلمون **لغة** واحدة .

ويرتبط تكوّن الامـــة بمرحلة معينة تماما من التطور الاقتصادى والاجتماعى والتاريخى .

ولنعمل الفكر الآن فى ماهية الصلة بين الاعراق والامم وماهية علاقة هذه المسألة بتفاعل الطبيعة والمجتمع وترابط البيولوجى والاجتماعى فى الانسان .

منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين ، أى فى فترة ازدهار النظام الاستعمارى العالمى واصطراع الدول الامبريالية على تقسيم العالم اخذت تظهر وتنتشر على نطاق واسع نظريات عنصرية متطرفـــة مختلفة . فخصائص البشر الاساسية ، فى رأى العنصريين ، ترتهن بطبيعتهم البيولوجية . والخصائص البيولوجية للاعراق أزلية وثابتة . وهى تحدد قابليات البشر الذهنية وقدرتهم على بناء صرح الثقافة والابتكار وممارسة السلطة واخضاع الاعراق والشعوب الاخرى ، الخ . وهناك اعراق رفيعة وأخرى وضيعة . وكل ما هو قيم فى تاريخ وثقافة البشر انما هو من صنـــع الاعراق الرفيعة ، اما الوضيعـــة فهـــى غير قادرة حتى على استيعاب ما صنعته الاعراق الرفيعة ، لذا يجب عليها ان تخضع لها . وكان مؤدلجو الفاشية الالمانية يعتبرون الآريين هـــم العرق الاسمى ، والالمان هم الامة التى جسدت اكمل تجسيد الروح الآرية . ولا يزال عنصريو امريكا وجنوب افريقيـــا يروجون لتفوق العرق الابيض أى العنصر الاوربى على العرق

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الزنجي ذى البشرة السوداء . والاعراق الوضيعة من وجهة نظر المذهب العنصرى تعتبر طفيلية تقوم بتخريب الطبيعة والحضارة ، لذا يجب أن يخضع نشاطها لتحكم الاعراق الرفيعة .

ويرتبط المذهب القومى ارتباطا وثيقا بالعنصرية . فأنصار المذهب القومى يجاهرون بتفوق قومية على اخرى . وبتقسيم الامم ووضع بعضها فى مواجهة البعض الآخر ، يمهد القوميون فى الواقع لاستغلال الشعوب والامم المبعثرة من قبل الطبقات المسيطرة . اذن يلعب المذهبان العنصرى والقومى دورا ايديولوجيا رجعيا . وهما يواجهان التعليم الماركسى عن الصراع الطبقى من اجل تحرير البشرية من الفقر وغياب الحقوق واستغلال الانسان للانسان بتعليم عن الاسس البيولوجية لتفوق بعض البشر على بعضهم الآخر ، وعن حق بعض الامم فى استعباد الامم الاخرى ، وعن الصفة الازلية للتناقضات القومية والنعرات القومية وتعذر اجتيازها . وهدف هذه الآراء هو تبديد قوى الكادحين واضعاف نضالهم ضد العدو المشترك ومن اجل الاشتراكية والشيوعية . وليس اعتباطا ان يكون الشعار الاول والاساسى للحركة البروليتارية والثورة الاشتراكية هو : «يا عمال العالم ، اتحدوا !» . فما هى الحجج التى تجابه بها الفلسفة الماركسية اللينينية المذهبين العنصرى والقومى ؟

لقد اثبت العلم المعاصر أن جميع الاعراق انحدرت من اجداد مشتركين للانسان . ففى فترة نشوء البشرية (٢١٦) كانت المصادر الطبيعية لوسائل العيش تلعب الدور الحاسم فى منظومة الظروف الطبيعية المحيطة بالبشر . وفى نتيجة تبعثر القبائل والروابط البدائية القديمة ، كذلك فى نتيجة بعض الطفرات البيولوجية (أى التغيرات الوراثية الطارئة) ظهرت ومن ثم ترسخت وتناقلتها الاجيال بعض صفات الانسان البيولوجية الثانوية (لون البشرة ، شكل الجمجمة ، فتحة العين ، الخ) . وفى ظروف تاريخية معينة ساعد بعض هذه الصفات على تكيف الانسان بصورة افضل لوسط معيشة طبيعى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معين مكث فيه اعضاء الرابطة القبلية المعنية ردحا طويلا جدا من الزمن . ومع تسارع التطور الاجتماعى ، وتنامى الدور الذى اخذت تلعبه الثروات الطبيعية والموارد الطبيعية الداخلية فقدت الصفات العنصرية ، البيولوجية ، نهائيـا اهميتهـا التكييفية . وفى الوقت الراهن يعيش ابناء جميـع الاعراق ويزاولون اعمالهم بنجاح فى جميع قارات الارض وفى كـل الظروف الطبيعية والاجتماعية .

وأثبت ايضا ان لدى ابناء الاعراق المختلفة قدرات ذهنية ومواصفات سيكولوجية متكافئة ، الخ . ويخلف التزاوج بين ابناء مختلف الاعراق والشعوب ذرية مؤهلة تماما للحياة . وعلى مدى ملايين السنين من تطور البشريـة كانت الاقوام (والافراد) التى تنتمى الى اعراق مختلفة تغير مئات المرات اماكن معيشتهـا وتقيـم علاقات قربى الدم وعلاقات عائلية وروابط زواج مختلفة . لذا لا سبيل الى الحديث عن اعراق «نقية» . فالاعراق «النقية» اسطورة ايديولوجية من اساطير الدعاية العنصرية والفاشية والقوميـة . ويدل تطور الحركة التحررية الثورية المعاصرة وظهور عدد غفير من الدول الفتية النامية فى آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية على أن الشعوب والامم المنتمية الى الاعراق الزنجية والمغولية تستطيع السير بنجاح على طريق التقدم العلمـى التقنى وتطوير علومهـا وثقافتها واقتصادها دون ان تتخلف بشىء عن ابناء العرق الاوربى . وهى قادرة على الاستغناء عن سلطة المستعمرين البيض وتقرير مصيرها بنفسهـا . ومعروف ايضا أن ابناء الاعراق كافة اقاموا على مدى التاريخ غير مرة دولا لهم وشيدوا ثقافة معقدة ومارسوا دورا معينا فى تقدم البشرية التاريخى . وبامكاننا أن نجد بين ابرز العلماء ورجال السياسة والادب والفلسفة ممثلين لكل الاعراق والشعوب . وبمقدورنـا أن نستخلص من الوقائع المذكورة استنتاجين لا جدال فيهما : ١ - أن جميع الاعراق متكافئة القيمـة وقادرة على الاسهام بقسطها فى تطور المجتمع وثقافته ، وأن اسطـورة التفوق العنصرى باطلة ؛ ٢ - أن الصفات البيولوجية للاعراق ليست

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هى الحاسمة بالنسبة الى المصائر التاريخية لمختلف الشعوب والبشر ، وأن هذه الصفات نفسها تنشأ وتتغير فى سياق العملية التاريخية وهى معرضة الى حد كبير لتأثير العوامـــل الاجتماعية . ويستدل من ذلك بوضوح تام أن علاقة وتفاعل البشر مع الطبيعة لا تحددهما الاعراق ، بل الاسباب والظروف الاجتماعية التاريخية .

اما بخصوص ترابط الاعراق والامم ، فأن الامم — كما اسلفنا — تنشأ فى ظروف تاريخية محددة تماما وتحددهـا كليا السمات الاجتماعية وليس البيولوجية .

عند الانتقال الى المجتمع الاشتراكى ، وفى فترة تطوره الشامل يتغير ايضا الطابع الاجتماعى للامـــم . أذ تختفـــى التناقضات الطبقية فيما بينها وينشأ مستوى رفيع من التجانس الاجتماعى ، وتنشأ أمم اشتراكية وتشرع فى تطور سريع .

٣٠٩

دور السكان فى تطور المجتمع . يستند العلماء البرجوازيون ، عادة ، فى مسعاهم الى اثبات أن العامل الحاسم للتطور الاجتماعى هو القوانين البيولوجية وليس الاجتماعية ، الى الدور الخاص الذى يلعبه السكان . فهم يدعون أن حالة المجتمع ترتهن بنمو السكان ، وأن هذا النمو يرتهن هو الآخر بقوانين التكاثر البيولوجية . على هذا النحو يجرى اخضاع النشاط الحيوى للمجتمع وتطوره للقوانين البيولوجية . فهل هذا صحيح ؟ أن هذا السؤال يتطلب تحليلا تاريخيا ملموسا .

كيما نفهم الدور الذى يلعبه السكان وازدياد عددهم فى حياة المجتمع ، سوف نتناول بعض الوقائع . يبلغ عدد سكان العالم الآن اكثر من ٥ مليارات نسمة ، ويستمر نمو عددهم باطراد . ولكى نتصور سرعـــة هذا النمو نشير الى أن عدد نفوس سكان المعمورة كان قبل ١٠ الاف سنة يبلغ حوالى ٥ ملايين نسمة ، وقبل الفى سنة قرابة ٢٠٠ مليون ، وفى عام ١٦٥٠ ما لا يقل عن ٥٠٠ مليون ، وفى عام ١٩٥٠ بلغ ٢,٤ مليـــار ، وفى مؤتنف عام ١٩٨٥ قرابة ٥ مليـارات نسمة . واذا استمرت وتيرة الزيادة هذه فسوف يبلغ عدد

نفوس سكان الارض فى مطلـــع القرن القـــادم ، حسب التقديرات ، ما يربو على ٦ مليارات نسمة ، وبعد ١٠٠-٢٠٠ سنة سوف تغدو كتلة البشر العامة مقاربة بقدر ما لكتلة الارض نفسها . وغالبا مـــا يوصف نمو عدد السكان الجامح الملحوظ خلال السنوات الاخيرة بـ«الانفجار السكانى» . ويرى العلماء البرجوازيون أن كل الموارد الطبيعية لا تكفى لاطعام هذا العدد الجم من البشر وتأمين ما يلزمهم من خيرات الحياة كالمسكن والملبس ومياه الشرب والهواء . لذا فأن البشرية سوف تخرب الطبيعة تخريبا نهائيا ، وستهلك هى نفسها جراء ذلك . هذه الحجج ليست بالجديدة .

لقد تقدم الاقتصادى الانجليزى مالثوس (١٧٦٦-١٨٣٤) فى اواخر القرن الثامن عشر بنظرية تفيد بأن عدد سكان الارض ينمو نموا سريعا جدا - حسب قوانين المتواليـــة الهندسية ، فى حين يتطور انتاج المواد الغذائية وغيرها من الخيرات المادية الضروريـــة تطورا أبطأ - حسب قوانين المتوالية العددية . وذهب انصـــار مالثوس الى أن الحروب والاوبئة وغيرها من الكوارث التى تؤدى الى تقلص عدد السكان تعتبر وسيلة ضرورية للتحكم بزيادة عدد السكان . ويقترح انصار مالثوس المعاصرون بشكل مموه الى هذا القدر او ذاك ايضا وسائل مختلفة للتحكم القسرى بنمـــو عدد السكان . ويواصلون الاصرار على أن العالـم يشهد بأستمرار فيضا سكانيا مطلقا ، أى فيضا من البشر «الذين لا لزوم لهم» بأدعاء انهم يعرقلون التطور الاجتماعى ويلتهمون الموارد الطبيعية الشحيحة اصلا . فهل هذا صحيح ؟

تشير المعطيات الأثريـــة الى أن الزيادة فى عدد نفوس اجداد الانسان واوائل البشر خلال مرحلة نشوء المجتمع كانت بطيئة جدا . أذ كانت تعيقها الظروف الطبيعية القاسيـــة وانخفاض مستوى تطور القوى المنتجة . وكان تسارع نمـــو عدد السكان يلاحظ كل مرة عند الانتقـــال الى انتاج اكثر تطورا . فالانتقال من الادوات الحجرية الى المعدنية ومن الصيد وجمع القوت الى تربية المواشى والزراعة قد رافقته طفرات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى نمو عدد سكان الارض . وعلى الرغم من عدم وجود تناسب دقيق قد حدد مرة والى الابد بين مستوى تطور القوى المنتجة ووتيرة نمو عدد السكان فى مختلف التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية ، فأن معطيات العلوم التاريخية تتيح البرهنة بشكل قاطع على أن نمو عدد السكان يرتهن فى التحصيل الاخير بتطور طريقة الانتاج (٢٠٤) . ففى ظروف التطور البطىء نسبيا الذى تتسم به طريقة الانتاج الاقطاعية ، تكون الزيادة فى عدد السكان ، عادة ، بطيئة هى الاخرى . وبالعكس ، فالتطور السريع لطريقة الانتاج الرأسمالية القائمة على الصناعة الآلية يكون حافزا لتسريع نمو عدد السكان . وينبغى خلال ذلك أن نأخذ بعين الاعتبار أن طريقة الانتاج ، كونها العامل الحاسم لنمو عدد السكان ، ليست هى السبب الوحيد لهذا النمو . فزيادة وبنية عدد السكان وتركيبته المهنية والعمرية لا تتأثر بالقوى المنتجة والعلاقات الانتاجية فحسب ، انما تتأثر ايضا بالعديد من التقاليد القومية وبثقافة الشعب المعنى وبمختلف الاحداث التاريخية والحروب والثورات وما الى ذلك . الى جانب ذلك تؤثر وتائر نمو وبنية عدد السكان تأثيرا عكسيا فى مجمل منظومة الانتاج المادى . فهى فى بعض الحالات قد تساعد على تطور الانتاج ، وفى حالات اخرى على تعويقه . فلماذا تؤثر طريقة الانتاج بالذات والقوانين المتحكمة بها تأثيرا حاسما فى قوانين نمو وبنية عدد السكان ؟ أن المادية التاريخية تتيح الفرصة للاجابة عن هذا السؤال . فالقضية هى أن الانسان يعد القوة المنتجة الرئيسية ، وفى كل العصور التاريخية كانت الاغلبية الساحقة من السكان تزاول العمل الانتاجى . لهذا كانت كل اشكال النشاط الاجتماعى تبنى تبعا للنشاط الانتاجى الذى كانت تنشأ فى سياقه وتتطور الظروف المادية لوجود البشر بحد ذاتها . بحكم ذلك اصبحت قوانين النشاط الانتاجى فى التحصيل الاخير هى الحاسمة ايضا فيما يتعلق بكل انواع النشاط البشرى الاخرى . وتتجلى فى المجتمع المعاصر بوضوح تام ايضا حقيقة أن طريقة الانتاج

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والعلاقات الاجتماعية المرتهنة بها تضطلع بالدور الحاسم في نمو عدد السكان وبنيته .

وتفيد التقديرات المتوفرة بأن بالامكان انتاج مواد غذائية في الاراضي الزراعية المتوفرة تكفي لاطعام ١٠ مليارات من البشر في ظل الحالة الراهنة للتقنية والعلوم الزراعية .

علاوة على ذلك ، أن ما يسمى بالسكان الفائضين ليس نتيجة نمو السكان السريع جدا ، انما هو حصيلة شكل معين لتنظيم المجتمع . فمن المعروف ، مثلا ، أن ثمة حضورا دائما لجيش كبير من العاطلين في كبريات البلدان الرأسمالية . وقد أبان رواد الماركسية اللينينية أن البطالة تتحدد لا بالقوانين البيولوجية لتكاثر البشر ، بل بخصائص نظام الاقتصاد الرأسمالي .

في ظروف الاشتراكية المتنامية يطرح تطوير قاعدة الانتاج تكنولوجياً واعتماد التكنولوجيات الجديدة التي تنطوي على جهد علمي كبير وما ينجم عن ذلك من تغير في البنية الاجتماعية طائفة كاملة من المعضلات الجديدة ، يعزى اليها بالدرجة الاولى توفير اليد العاملة لمناطق البلد السريعة التطور والقليلة السكان واعتماد نظام لاعادة التأهيل المهني للكوادر التي تسرّح في سياق الاصلاح الاقتصادي الجذري ، واعتماد نظام لتشغيل السكان القادرين على العمل ، وما الى ذلك . ويجري حفز نمو السكان ، شأن التحكم به ، في ظروف المجتمع الاشتراكي على اساس المبادىء الديمقراطية للعدالة الاجتماعية والشعور الانساني .

في الوقت ذاته ينبغي أن نفهم فهما واضحا أن فيض السكان الكبير جدا قد يعيق نمو الانتاج ويسبب صعابا اجتماعية كبيرة . وقد تؤثر الزيادة البطيئة في السكان وشحة اليد العاملة تأثيرا سلبيا كذلك في تنمية القوى المنتجة . لهذا تنشأ في الظروف الراهنة حاجة موضوعية الى الادارة العلمية لهذه العملية . فقد كان نمو السكان حتى هذا الحين يجري بصورة غير مستوعاة . ورغم أن هذا النمو كان يخضع في التحصيل الاخير ليس للقوانين البيولوجية ، بل لقوانين

الانتاج الاجتماعي والتطور الاجتماعي عموما ، كانت هذه القوانين تشق طريقها بشكل عفوى . وتتوفر الآن ظروف وحاجة موضوعية الى التحكم الواعى بنمو السكان . والمقصود بذلك هو ليس تقييد الولادات على طريقة مالثوس القسرية ، بل هو طائفة كاملة من التدابير المدروسة يمكن بفضلها لنمو السكان أن يتنامى فى بعض المناطق والبلاد ، وأن يتباطأ في بعضها الآخر . وعلى هذا التحكم أن يستند بالدرجة الاولى الى مستوى رفيع من الثقافة والوعى لدى الاغلبية الساحقة من البشر . وهذا أمر لا يمكن أن يتم الا بحضور الانتفاع المبرمج من كل الموارد البشرية لصالح المجتمع بأسره . أذن ، فالجواب عن سؤال كيف يؤثر الانفجار السكانى الراهن فى العلاقات بين الطبيعة والمجتمع وكيف يمكن تحاشى آثاره الخطرة ، ينبغى البحث عنه ليس فى قوانين البيولوجيا ، بل فى القوانين الموضوعية لتطور المجتمع وقيامه بوظائفه .

٣١٠

وسط المعيشة الاصطناعي . هكذا نرى أن وسط المعيشة الطبيعى وقوانين الطبيعة ، ومن جملتها القوانين البيولوجية تؤثر فى المجتمع ليس تأثيرا مباشرا ، بل عبر طريقة الانتاج وما ينشأ على اساسها من علاقات اجتماعية . ومع تطور الانتاج المادى يغيّر الانسان الطبيعة المحيطة به ويخلق وسط معيشة اصطناعيا هو ثمرة نشاطه الحيوى . وينطوى وسط المعيشة الاصطناعى ليس فقط على الاشياء التى صنعها الانسان ولا وجود لها فى الطبيعة ، بل وعلى الكائنات الحية من نباتات وحيوانات اصطفاها أو اشتقها الانسان بفضل الاصطفاء الصناعى او الهندسة الجينية (الوراثية) . بيد أن وسط المعيشة الاصطناعى لا ينحصر فى هذا الاساس الشيئى . فالانسان لا يستطيع العيش والعمل الا ضمن منظومة علاقات اجتماعية معينة . وتجرى ممارسة هذه العلاقات الاجتماعية فى ظروف مادية معينة ومن ضمنها الظروف التى اصطنعها الانسان ، وهى تشكل مع هذه الاخيرة الوسط الاصطناعى لمعيشة الانسان .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومع تطور المجتمع يتنامى باطراد دور وسط المعيشة الاصطناعى ، ويزداد تأثيره فى حياة البشرية باستمرار . وكيما نتأكد من ذلك نسوق الحقيقة التالية : أن كتلة جميع ما اصطنعه الانسان من اشياء واحياء تسمى بالكتلة التقنية . اما كتلة جميع الاحياء الموجودة فى الظروف الطبيعية والتى لم تتعرض بعد لعملية اضفاء الصفة الانسانية عليها تسمى بالكتلة البيولوجية . وتدل التقديرات على أن الكتلة التقنية التى تنتجها البشرية المعاصرة خلال عام واحد تبلغ قرابة ١٠^١٣–١٠^١٤ طن ، اما الكتلة البيولوجية الجارى انتاجها على اليابسة فتبلغ ١٠^١٢ طن . ويستدل من ذلك ان البشرية قد اوجدت منذ الآن وسط معيشة اصطناعيا ذا مردود يزيد عشرات ومئات المرات على مردود الوسط الطبيعى . وهذا لا يعنى ، بطبيعة الحال ، أن البشر يستطيعون الاستغناء عن الطبيعة وعن وسط المعيشة الطبيعى . فالطبيعة تبقى الى الابد ممهدة وأساسا للمجتمع البشرى . ولا يمكن لوسط المعيشة الاصطناعى أن يبقى ويتطور الا بوجود الوسط الطبيعى . بيد أن البشرية تلبى فى الوقت الراهن جزءا كبيرا من احتياجاتها المادية والروحية على حساب وسط المعيشة الاصطناعى .

ومن الاهمية بمكان أن نفهم أن نمو وتطور وسط المعيشة الاصطناعى يرتبطان ارتباطا وثيقا بنمو وتطور العلاقات الاجتماعية وتنظيم المجتمع باكمله . فاذا كان المجتمع قائما على الملكية الخاصة وليس له هدف واحد وتتناهشه التناقضات التناحرية ولا يستطيع بحكم ذلك أن يتطور تطورا مبرمجا ، فان اقامة وسط المعيشة الاصطناعى يؤدى بالحتم الى تخريب الوسط الطبيعى ، ذلك أن الوسط الاصطناعى فى هذه الظروف يشيد عن طريق تخريب واستغلال الطبيعة بلا رحمة . وعلى الضد من ذلك ، فى ظل المجتمع الاشتراكى الذى يتمثل هدفه النهائى فى توفير اكثر الظروف ملاءمة لتطور كل فرد ولتطور المجتمع باكمله يجب أن يتطور الوسط الاصطناعى ويتغير بما يناسب هذا الهدف . ويقتضى هذا التطور صيانة وتحسين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وسط المعيشة الطبيعى ايضا ، ذلك أن من دونه يتعذر تطور الفرد تطورا شاملا ومتناسقا . أذن ، فالتناقض بين الطبيعة والمجتمع ، وهو الذى يتجلى فى التناقض بين الوسط الطبيعى والاصطناعى لمعيشة الانسان لا يمكن فحسب ، بل ويجب حله وتجاوزه . ويرتبط حل وتجاوز هذا التناقض بالتحويل الثورى الجذرى للمجتمع نفسه .

أن التطوير الشامل لوسط المعيشة الاصطناعى ، بحيث يحول هذا الوسط الى منظومة من اكثر الظروف ملاءمة لتطور الفرد والمجتمع ، يفترض ويقتضى تقدما علميا تقنيا جبارا .

اما كيف يجب أن تحل المشكلات الاقتصادية والتقنية والاجتماعية وغيرها فتلك قضية تضطلع بها العلوم الطبيعية والتقنية والاجتماعية الخاصة . اما الجانب الفلسفى من القضية فيتلخص فى أن نفهم أن تجاوز التناقض بين الطبيعة والمجتمع ، بين وسط المعيشة الطبيعى والصناعى واشاعة الانسجام بينهما لا يمكن ان يتما الا فى حالة توفر ثلاثة شروط موضوعية : ١ - القيادة والادارة الواعية والمبرمجة والجارية فى صالح الجميع لعملية تطور المجتمع وقيامه بوظائفه ؛ ٢ - التغيير الجذرى للنظام الاجتماعى بحيث لا تكون مصالح البرجوازية والاحتكارات الوطنية والمتعددة الجنسيات متعارضة ومتضاربة مع مصالح الاغلبية الساحقة من البشر ؛ ٣ - العمل بشتى السبل على توسيع وتعميق التقدم العلمى التقنى ، ذلك انه لا يتسنى الا على اساسه تخطى الصعاب التى نشأت خلال المراحل السالفة من العملية التاريخية العفوية .

الطبيعة والمجتمع
فى عصر التقدم العلمى التقنى

٣١١

ما هو التقدم العلمى التقنى او الثورة العلمية التقنية ؟ يجرى تطور انتاج الخيرات المادية ومجال الخدمات فى الوقت الراهن بوتيرة جامحة بحيث تتغير على مدى حياة جيل واحد انواع السلع المنتجة والمعدات التقنية اللازمة لصنعها ومراس البشر

الانتاجى على السواء . وفى مجرى كثير من العصور السالفة كان الامر يختلف تماما . اذ كانت نفس المعدات التقنية يستخدمها العديد من الاجيال لانتاج نفس المنتوجات وتستخدم من جيل الى جيل نفس اشكال تنظيـــم العمل . وبخلاف هذا الشكل التقليدى من تطور الانتاج ، يمكن وصف شكله الراهن الذى يتسم بسرعة تغيير المعدات التقنية والمنتوجات بأنه ثورة علمية تقنية دائمة . ولا يندر أن يطلق عليها نعت التقدم العلمى التقنى . فما هى خصوصية هذا التقدم ؟ وما هى ابرز خواصه الاساسية ؟

ينبغى بالدرجة الاولى أن نستوضح ان العلم يغدو القوة الحاسمة والعامل الحاسم للانتاج . صحيح أن معارف البشر وخبراتهم التى تدخل فى تركيبة القوى المنتجة (٢٠٤) كانت احد ابرز حوافز تطوير ادوات العمل والنشاط الانتاجـــى . لكنها كانت هى نفسهـــا عبارة عن تعميم لاشكال واساليب الانتاج القائمة والمعمول بها . وكانت الاكتشافات والابتكارات ظاهـــرة نادرة . وحتى حين بدأت تظهر المعارف العلميـــة المعاصرة كان الدور الحاسم للانتـــاج المادى ، أى للصناعة والزراعة . وكان العلـــم فى الاغلب يسعى الى اعطاء رد على متطلبـــات الممارسة ، لكنه لـــم يكن قادرا باستمرار على تلبيتها ، ذلك أن ادخار وتطوير المعارف العلمية خلال المراحل المبكرة من تطور العلم كانـــا يجريان ببطء شديـــد . وفى اواسط القرن العشرين تغير الوضع جذريا . فقد ازداد حجم المعارف العلمية ازديادا عظيما ولا يزال يتنامى باطراد . وفى اواخر الستينات – اوائل السبعينات كان حجم المعارف العلمية يتضاعف كل ٥–٧ سنوات . اما الآن فهو يتضاعف كل ٢٠ شهرا ، وفى العقد القادم سوف يتضاعف سنويـــا ، حسب التقديرات المتوفرة . وبفضل ذلك اصبح العلم بحد ذاته أهم قوة محركة للانتاج . وهذه هى السمة المميزة الاولى للتقدم العلمى التقنى .

وتتمثل سمته المميزة الثانية فى التنامى المستمر لدور الابحاث العلمية الاساسية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والسمة الثالثة هى أن الفترة الفاصلة بين الاختراع والاكتشاف العلمى وبين اعتماده وتصنيعه تغدو اقصر فأقصر. ولئن كان انتشار واعتماد الافكار العلمية والتقنية الجديدة يستغرقان فى الماضى عشرات السنين ، بل وحتى مئات السنين احيانا ، فان هذا الموعد الآن يقاس بسنوات قليلة ، بل وحتى ببضعة اشهر .

وأخيرا ، ترتبط السمة المميزة الرابعة بالانتقال خلال السنوات القلائل الإخيرة الى مرحلة جديدة من التطور العلمى التقنى تتوفر كل المسوغات لوصفها بالمرحلة العلمية التكنولوجية .

فما هى التكنولوجيا فى الانتاج التقليدى ؟ أن كل عملية انتاج تقتضى ليس فقط توفر الادوات والمكائن والعدد المختلفة وحيازة ما يناسب ذلك من المراس والمعارف ، انما يتطلب كذلك تنظيم عملية الانتاج بشكل صحيح . وهذا يتطلب بدوره قدرة على أن يحدد المرء متى وأية عملية ينبغى القيام بها ، وبأى تعاقب ، وبأية سرعة يجب القيام بالعمليات المختلفة ، وما هى المتطلبات التى يجب أن تلبيها مختلف الادوات والآليات والمراحل البينية فى صنع هذه او تلك من المنتجات . كل هذا مجتمعا ، بما فى ذلك ما يناسبه من معارف ، يسمى بالتكنولوجيا .

غير أن التكنولوجيا بالمعنى الراهن للكلمة شىء آخر . فما هى خاصيتها ؟ لقد تم خلال العقود الاخيرة ادراك محدودية كل الموارد ، عمليا ، التى كان الانسان يتعامل معها من قبل . فبالامكان استنفاد او تخريب الموارد الطبيعية والتقنية وموارد الطاقة والغذاء والتربة والموارد البشرية والمالية فى حالة استثمارها بشكل مفرط . علاوة على ذلك ، اخذت تتطور منظومات انتاج جديدة جبارة تستخدم كمية هائلة من الطاقة والخامات والتقنية العالية القدرة . واتضح أن كل انواع الانتاج الجديدة هذه قد تؤدى الى جانب صنع السلع المفيدة والضرورية للانسان الى عواقب كبيرة ضارة وغير مرغوب فيها . فانشاء المحطات الكهرذرية يتيح فرصة الحصول على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كميات كبيرة من الطاقة الكهربائيـة الرخيصة والاقتصاد فى استهلاك النفط والفحم . لكنه يؤدى فى الوقت ذاته الى تكوّن النفايات المشعة وأرتفاع النشاط الاشعاعى ، مما يشكل خطرا على الانسان والطبيعة . وتنتج مؤسسات الصناعة الكيميائية الجبارة مواد ومستحضرات قيمة تيسّر حياة الانسان ، بيد أن النفايات المتكونّه خلال ذلك تلقى فى مزابل هائلة او تلفظ الى الانهار فتؤدى الى تسمم الارض والمياه ، الامر الذى يهدد البشر والحيوانات بويلات ومصائب جسيمة . ان تحاشى هذه وغيرها من العواقب الوخيمة الاخرى ، وجعل الانتاج بلا نفايات وتحويل النفايات الصناعية نفسها الى خامات مكررة واستخدامها فى الدورات الانتاجية الجديدة يتطلب تغيير التكنولوجيا بحد ذاتها . لهذا جرت العـادة الآن على الحديث عن تكنولوجيات عصرية جديدة ، وليس عن مجرد التقنيـــة الجديدة . وابرز انواع هذه التكنولوجيات هى تكنولوجيا الطاقة وتكنولوجيـا الفضاء وتكنولوجيا المواد الجديدة والبيوتكنولوجيا والهندسة الجينية وتكنولوجيا العقاقير ، الخ . وليس المقصود هنا هو الجمع البسيط بين العلم والتقنية ، بل اندماجهمـــا ، لأن التكنولوجيا نفسها تغدو بالكامل علمية قائمة على منظومـــة (١٠٦) .

أن تطوير التكنولوجيات الجديدة حلقة مهمة فى اقامـــة العلاقات المنسجمة بين المجتمع والانتاج على اساس ارفـــع درجـــات الاقتصاد فى استهلاك أنواع الموارد الطبيعيـــة والاجتماعية كافة . وابرز هذه التكنولوجيات التى تؤثر تأثيرا حاسما فى سائـر التكنولوجيات الاخرى هى التكنولوجيـــا الاعلامية التى تشمل تصميم وصنع الكمبيوترات العصريـــة القادرة على القيام بمليارات العمليات فى الثانية والمتمتعـة بذاكرة عملاقة ، وصنع الجديد من الاجزاء الدقيقة التى تجعل الكمبيوترات صغيرة الحجـم ، ووضع كل انواع البرامـج واللغات الخاصة للبرمجـــة ، التى تؤمن حل اعقد المسائـل المتعلقة بخزن وتحليـــل وتقصى ونشر المعلومات . وبفعل ذلك تغدو التكنولوجيا الاعلامية محور وحافز مرحلة تكنولوجية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جديدة ، فيما يتحول الاعلام (ولاسيما العلمى) الى عامل تثوير جبار لتسريع التنمية التقنية والاقتصاديـــة الاجتماعية . أن اهميتها تتنامى باستمرار لانها نوع الموارد الوحيد الذى لا تبذره البشرية فى سياق تطورها التاريخى ، بل – على العكس – تعمل على تنميته وزيادتـــه . علاوة على ذلك ، أن زيادة حجم المعلومات العلمية التى تشمل كل انواع المعرفة التقنية والانسانية ومعارف العلوم الطبيعية توفر الاساس اللازم لازالة المخاطر التى جرى الحديث عنها فى حوار المتشائم والمتفائل (٣٠٢) . حتى لتنشأ امكانية ليس مجرد صيانة بعض انواع الموارد التى كانت البشرية حتى الوقت الراهن تبذرها دون تحفظ أو محاذير ، بل ايضا اعمار هذه الموارد وزيادتها . بيد أن هذه الامكانية تحتاج لاجل تحولها الى واقع (٤٢٠) الى ظروف معينة ونمط معين من التطور الاجتماعى .

ان التطور العلمى التقنى ، شأن سائر العمليات المهمة اجتماعيـــا ، معقد ومتناقض . فالحلول البسيطـــة والوحيدة المدلول لا تنشأ فيه تلقائيا . وهو يرمز الى مرحلة جديدة فى العلاقات بين الطبيعة والمجتمع . وفى ظروف الثورة العلمية التقنية ينخرط فى عملية الانتاج الجديد والجديد من الثروات الطبيعية ، ومصادر الطاقة ، والقطاعات غير المستثمرة بعد من سطح الارض ، والمحيط العالمى وحتى الفضاء الكونى . لهذا ينشأ احتمالان متعارضان كل التعارض (٤٢٠ ، ٤٢٢) ، قد يقود احدهما الى تشديد وطأة التناقضات بين الطبيعـــة والمجتمع ، وقد يفضى الآخر الى حلول تفاعل جديد مبدئيا بين الطبيعة والمجتمع ، والى شيوع الانسجام بينهما وتبديد اكثر التناقضات حدة . وتتوقف مسألـــة أى من هذين الاحتمالين سوف تكون له الغلبة فيتحول الى واقع على تطبيق التحويلات الاجتماعية الجذرية فى المجتمع على الصعيد العالمى .

٣١٢

التقدم العلمى التقنى وتبعاته فى ظل الراسمالية والاشتراكية .

الآن ، بعد أن عرفنا الملامح والمواصفات العامة للتقدم العلمى التقنى ، بامكاننا أن نطرح السؤال التالى : هل يرتهن تفاعل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطبيعة والمجتمع بالتقدم العلمى التقنى العصرى ، وأذا كان مرتهنا فكيف ، وما هى تبعاته ونتائجه فى مختلف المنظومات الاقتصادية الاجتماعية ؟

أن تطور القوى المنتجة الجامح والناجم عن تنامى التقدم العلمى التقنى يؤدى الى أزدياد قدرة الانسان . ولكن كيف يجرى توظيف هذه القدرة ؟ ولاجل أى غرض ؟ ومن ذا الذى يجنى النفع من تنامى جبروت الانسان باطراد ؟ لأجل جعل مناقشتنا للموضوع اكثر تركيزا ، علينا أن نراجع الاتجاهات الاساسية ، الخطوط الاساسية ، التى يجرى عليهـــا التطور العلمى التقنى .

١ – لقد اسلفنا فى الفقـــرة أعلاه أن الدور الحاســم لحافز النشاط الانتاجى والادارى خلال المرحلـــة العلميـــة التكنولوجية الراهنة من التطور العلمى التقنى تضطلع بــــه تكنولوجيا خاصة هى التكنولوجيا الاعلامية التى اخذت تتطور تطورا حثيثا منذ اربعينات القرن الحالى وبلغت خلال نصف قرن تقريبا ابعادا مدهشة وحققت نتائج تقنية لم يكن بوسع البشرية حتى أن تحلم بها قبل بضعة عقود من السنين . كانت بواكير الكمبيوترات العملاقـــة تؤدى بضعة الوف فقط من العمليات فى الثانية . اما السوبركمبيوترات الحديثة فتؤدى الآن مليارات العمليات فى الثانية . وتقلصت مئات المرات كمية ما تستهلكه من الطاقـــة . وكانت الكمبيوترات الاولى تشغل بضع قاعات كبيرة وتستخدم فيها مئات الكيلومترات من الاسلاك . اما الميكروكمبيوترات العصرية فتوضع على المكاتب . وبالنظر لاحدث الابتكارات فى مجال الموصلات الخارقة العالية الحرارة ، بامكاننا أن نتوقع فى اواسط التسعينات كمبيوترات تؤدى عشرات المليارات من العمليات فى الثانية وتتمتـــع بذاكرة قادرة على استيعاب المعلومات المحفوظـة فى ملايين الكتب ، علما بأن حجمها لن يزيد على حجم جمجمة الانسان . ويجرى العمل الآن على صنـــع الذهن الاصطناعى . وسيكون باستطاعة الكمبيوترات ذات الذهن الاصطناعى أن تضطلع بطروحات منطقية معقدة جدا ، وسيكون بالامكان تكليفها بحل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اعقد المسائل المتعلقة بجملة من الابحاث العلمية ، وبتصميم مكائن ومؤسسات كاملـــة . وسيكون بمقدورها أن تضطلع بادارة حقول الانتـــاج المرنـــة اوتوماتيكيـــا . وبمساعدة الكمبيوترات الشخصية سيتسنى اعتماد حقول انتاج عصرية بيتية واحداث ارتفاع حاد فى مستوى انتاجية العمل وتغيير طابع التعليم . وسينال الاطفـــال والكبـــار فرصة استيعاب المعلومات الجديدة على نحو اسرع بعشرات المرات ، فيمـــا ستغدو المعارف العلمية غير المتاحـة الآن الا للاختصاصيين مفتوحة امام مئات الملايين من البشر . وسيتغير نمط حيـــاة البشر ومعيشتهم واختلاطهم ، كما ستنهار الحواجز اللغوية . وستضطلع الكمبيوترات بترجمة المراجع العلمية والوثائق من لغة الى اخرى بغير معونة الانسان تقريبا . وفى اواخر القرن سوف يتم اعتماد ملايين الروبوتات من الجيل الجديد ، القادرة على الاستجابة للغة البشرية والمتمتعة ببصر ملون ومجسم . فالامَ سيؤدى كل هذا ؟

فى ظروف المجتمع الرأسمالى يوجد حتى فى اكثر البلدان تطورا جيش جرار من البشر المعزولين عن مزاولة النشاط الانتاجى بفعل التطور العلمى التقنى . وبالرغم من أن تطور التكنولوجيـا الاعلامية يؤدى الى توفير عدد معين من فرص العمل الجديدة ، يتنامى باطراد جيش العاطلين الذى اوجدته البطالة وشيوع استعمال الكمبيوترات فى الانتاج . ومرد ذلك الى أن المؤسسات الرأسمالية ترى فى التكنولوجيا الاعلامية بالدرجة الاولى وسيلة لجنى الارباح . أذن ، فالآثار السلبية لانتشار هذه التكنولوجيا ليست نتيجة استخدام الكمبيوترات والروبوتات بحد ذاتها ، انما هى حصيلة استخدامها الرأسمالى .

وعلى الضد من ذلك ، يرمى تطوير واعتماد التكنولوجيا الاعلامية فى المجتمع الاشتراكى الى تحقيق اهداف أخرى . فأعتماد الكمبيوتـرات والروبوتات فيـــه يوظف ليس لجنى الارباح ، بل لخدمة مصالح الانســان . وتجرى فى البلدان الاشتراكية اعادة تأهيل الكادحين بصورة منتظمة ، ويخطط لتطوير التكنولوجيات الجديدة على نحو يوفر لجميع السكان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القادرين على العمل فرص مزاولة العمل المفيد اجتماعيا .

٢ - يعتبر ايجاد واستثمار المصادر الجديدة للطاقة احدى اهم وابرز المعضلات العالمية التى تواجه البشر . فحتى الوقت الراهن كان استخدام الطاقة الذرية هو الانجاز الرئيسى لتكنولوجيا الطاقة . غير انه كان ينطوى على الكثير من المخاطر والتناقضات . فمن جهة ، تتيح الطاقة الذرية الحصول على طاقة كهربائية رخيصة وتوفير الوقود الطبيعى ، ومن جهة اخرى ، تشكل باستمرار تهديدا بتلوث البيئة بالاشعاع . بيد أن افدح المخاطر يكمن فى صنع السلاح النووى .

وتتيح الاكتشافات العلمية الحديثة عقد الامل على أن البشر سوف يتوصلون فى أواخر القرن الحالى الى التفاعل النووى الحرارى القابل للتحكم به ، الامر الذى سيضع تحت تصرفهم موارد طاقة غير قابلة للنضوب عمليا . وسيتيح هذا صيانة الكثير من الخامات وتقييد استخدام النفط والفحم والغاز الطبيعى وحصره فى مجال الصناعة الكيميائية .

٣ - تتيح التكنولوجيا الكيميائية العصرية الحصول على مواد اصطناعية جديدة لا وجود لها فى الطبيعة تحل محل الانواع الطبيعية من الجلود والاخشاب والمطاط والصوف وبعض المعادن ، الخ ، وتتيح الكيماة انتاج اسمدة ومستحضرات طبية ووسائل لمكافحة الآفات الزراعية تتسم بفعالية عالية . كل هذا يساعد على الانتفاع الافضل من الثروات الطبيعية وتحسين انتاجية القطاع الزراعى وتقوية حالة البشر الصحية واطالة اعمارهم . الى جانب ذلك تسبب النفايات الكيميائية تلوث البيئة والاحواض المائية والتربة وقيعان البحار . وتخصص فى الاقطار الاشتراكية اموال طائلة لمكافحة تلوث البيئة .

٤ - يتيح التقدم العلمى التقنى وضع تكنولوجيا عديمة النفايات . وباعتماد منجزات العلم سيتسنى للصناعة والزراعة العصريتين تنظيم العملية التكنولوجية على نحو يجعل نفايات الانتاج لا تلوث البيئة ، بل يمكن اعادتها الى الدورة الانتاجية كمواد اولية مكررة . ويجرى هنا فى الوقت ذاته ايضا اعتماد كيمياء الاختزال العصرية والحاسبات الالكترونية التى يتسنى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بفضلها تنظيم عملية الانتاج بحيث تغدو عدية النفايـات تقريبا ، وبحيث يجرى الانتفـاع من المنتوجات باقصى قدر ممكن من التوفير . وفى ظل الاشتراكيـة تتيح الكيمـاة والتكنولوجيا العديمة النفايات تنفيذ طائفة كاملة من تدابير حماية البيئة وتحسين الوسط الاصطناعى لمعيشة الانسـان تحسينا كبيرا فى الوقت ذاته .

٥ - أن تطور البيولوجيا ، وخاصة البيوتكنولوجيا وعلم الوراثة والهندسة الجينية ، يجعل ممكنـا منذ الوقت الراهن التحكم بالخواص الوراثية للكائنات الحيـة . وفى المستقبل القريب سوف يتيـح الاستخدام الصناعى للهندسة الجينية احداث زيادة حادة فى انتاجية الحيوانات والنباتات الزراعية . وستوفر المنجزات فى هذا المجال الظروف اللازمة للقضاء على الكثير من الامراض والوقاية منها ، والتحسين العام لصحة البشر وأطالة اعمارهم . ولكن يطرح استمرار تطور البيولوجيا الناجح بالضرورة مسألة مراقبة هذا التطور وأدارته من قبل المجتمع لصالح الاغلبية .

٦ - تضطلع التكنولوجيا الزراعية العلميـة فى المجتمع المعاصر بدور على قدر كبير من الاهمية . فقد ادخر البشر خبرة هائلة فى الزراعة وتربية الحيوان على مدى بضعة الوف من السنين ، وهى خبرة تؤمن لهم ما يلزم من المواد الغذائية . ولكن فى ظروف ما يسمى بالانفجار السكانى لم تعد احتياطات الغذاء التى تنتج بالطريقـة التقليدية تكفى الآن الكثير من البلدان والشعوب ، لا سيمـا تلك التى تحررت مؤخرا من ربقة الاستعمار . ولقد وضع العلم المعاصر كثيرا من الطرائق الفعالة فى التنمية العمودية للزراعة . وهذه الطرائق مجتمعة تشكل التكنولوجيا الزراعية الحديثة . ويعزى اليها استخدام الاسمدة العالية الفعاليـة والالكترونيات والتقنية الزراعيـة الحديثة والقيـام باعمـال معقدة للارواء واصلاح الاراضى ، واخيرا ، اصطفـاء واشتقاق الانسال العالية الانتاجيـة من الحيوانات والدواجن والانواع الجديدة من النباتات الزراعية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بيد أن تبعات كل هذه المستجدات تختلف باختلاف الانظمة الاجتماعية .

نحن لم نتناول هنا سوى التبعات الاساسية للتقدم العلمي التقني والتكنولوجيات العصرية المختلفة في الانظمة الاقتصادية الاجتماعية المختلفة . ونستخلص من ذلك أن طابع آثار التقدم العلمي التقني الراهن لا يرتهن بالتقنية والتكنولوجيا بحد ذاتهما ، ولا بالنتائج العلمية المنفردة ، بل بالظروف التي تستخدمان فيها وبالاهداف المنشودة منهما . أن المغزى الفلسفي لتحليلنا يتلخص في كون موقف الانسان من العالم المحيط به او المجتمع بالطبيعة يتم عبر ظروف اجتماعية معينة . واذا كنا نروم جعل هذه العلاقة منسجمة وبناءة لا تؤدي الى تخريب الطبيعة ، وتوفر في الوقت ذاته الظروف الملائمة لتطور البشرية ، فلا بد قبل كل شيء من توفير الظروف الاجتماعية المناسبة .

٣١٣

الوعي الايكولوجي والصراع الايديولوجي . يسري مفعول قوانين تطور الطبيعة موضوعيا ، وقوانين تطور المجتمع موضوعية هي الاخرى ، لكن مفعولها يسري عبر نشاط البشر حائزي الوعي . وتفاعل الطبيعة والمجتمع يجب أن يجري بمراعاة قوانين تطور الطبيعة وقوانين التطور الاجتماعي على السواء ، أي في شكل خاص من الوعي الاجتماعي هو الوعي الايكولوجي .

لقد جرى ادراك اهمية الطبيعة بالنسبة للانسان والمجتمع بصورة تدريجية ، على مدى قرون عديدة . بيد أن الوعي الايكولوجي نشأ وتكوّن منذ وقت قريب نسبيا ، وفي مجرى بضعة عقود فقط . وتتلخص خاصية هذا الوعي في انه عبارة عن شكل من اشكال الوعي الاجتماعي الجماهيري الذي يعكس واقعا معقدا ومتناقضا وخطرا للغاية نشأ في العالم المعاصر نتيجة اختلال التوازن الايكولوجي وتلوث البيئة ومخاطر نفاد الموارد الطبيعية واحتمالات انحطاط البشر اجتماعيا في نتيجة آثار التقدم العلمي التقني الهدامة . وبعد أن نشأ الوعي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الايكولوجى ، بادئ ذى بدء ، كشكل من اشكال الاحتجاج على هذه الآثار لدى بعض الجماعات من العلمـــاء والمهندسين والاطباء والمثقفين ومختلف الفئات العرقية الخ ، بات فى الوقت الراهن يستولى على عقول مئات الملايين من البشر فى بلدان العالم كافة . وابرز نتيجة لتطوره هى أن استعادة التوازن الايكولوجى وصيانة الطبيعة و«رد الاعتبار» لها باتت هدفـــا انسانيا عاما وقيمة انسانية عامة . بيد أن هذا لا يلغى حقيقة أن ثمة صراعا ايديولوجيا حادا جرى ويجرى ضمن اطار الوعى الايكولوجى . فالمدافعون عن التقدم العلمى التقنى فى البلدان الرأسمالية المتطورة ، رغم اعترافهم بخطر الكارثة الايكولوجية ، يسعون الى القـــاء جريرتها على شعوب الاقطار النامية وعلى جماهير الكادحين الواسعة ، بادعاء انها لم تبد اهتماما بصيانة الوسط الطبيعى المحيط بها . وبخلاف هؤلاء ، يتهم مؤدلجو من يسمون اليوم بـ«الخضر» الصناعة الثقيلة والتكنولوجيـــا العصرية والتقدم العلمـــــى التقنى عموما ، بكل المصائب الايكولوجيـــــة ، ويتهمون بذلك ايضا الرأسمال الاحتكارى المهتم اهتماما مغرضا بتسريع التطور العلمى التقنى بأى ثمن ، حتى اذا أدى ذلك الى تخريب الطبيعة . على هذا الاساس ينشأ ويتطور اتجاه فلسفى اجتماعى متميز اطلق عليه اسم النزوع المناهض للعلم والمناهض للتقنية . ويميل زعماؤه الى اعتبار تطور العلم والتقنية مصدرا لكل مصائب المجتمع المعاصر . ويؤدى تضخيم دور هذه العوامل تلقائيـــا الى نزع الصفة الانسانية عن الانتاج وتخريب الطبيعة . وهم يرون المخرج من هذا الوضع فى التخلى عن التطور العلمى التقنى والعودة الى الانتاج ما قبل الصناعى ، ما قبل التقليدى ، أى الى ما يسمى بـ«التكنولوجيات البديلة» التى يقصد بها العمل الحرفى وفلاحة الارض القائمة على استعمال المحراث البدائى ، الخ . بيد أن هناك فى الواقع احكاما ايديولوجية تكمن وراء هذه الدعوات الرومانطيقية الى العودة للماضى . فحين يرى ممثلو هذا الاتجاه فى العلم والتقنية مصدرا لجميع مصائب البشر ، انما يتركون فى الظل ، عن ارادة او عن غير ارادة منهم ، الناحية الرئيسية ،

وهى ان آثار التقدم العلمى التقنى الهدامة لا ترتهن بالعلم والتقنية بحد ذاتهمـــا ، بل بطريقة توظيفهمـــا ، وبالنظام الاجتماعى الذى يقومان بوظائفهما فى ظله .

ومن العوامل البالغة الاهمية فى الوعى الايكولوجى فهـم حقيقة أن الطبيعة ليست مجرد منظومـــة من الموارد المفيدة اقتصاديا ، وليست مجرد شرط لبقاء البشر على قيد الحياة ، بل هى ايضا عامل قوى للتربية الجماليـــة والخلقية ، وعامل لاشاعة النزعة الانسانية فى المجتمع .

أن وضع التدابير الفعالة والعقلانية والمعللة لحمايـــة البيئة لا يتطلب التخلى عن التقدم العلمى التقنى ، ولا يؤدى الى توقف المعرفة العلمية والتطور التكنولوجى . ففى ظروف الاشتراكية المتنامية تتوفر كل الامكانيات لدعم التقدم العلمى التقنى وتكوينه مستقبلا بحيث ينسجـــم عضويا مع التوازن الايكولوجى ومع صيانـــة وحدة الوسط الطبيعى . فالآثـــار السلبية لاستخدام العلم واعتمـــاد التكنولوجيات الجديدة لا يمكن تخطيها الا بواسطة العلم نفسه والتكنولوجيا نفسها . بيد أن هذا يتطلب أن يتم قيامهما بوظائفهما فى مجتمع يتجه بالدرجة الاولى نحو بلوغ اسمى عدالة اجتماعية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الرابع

القوانين الاساسية للجدلية

لقد تطرقنا خلال الفصول السابقة غير مرة الى اشكال وانواع التطور المختلفة . فالمجتمع هو ناتج تطور الطبيعة ، والوعى نتيجة للتطور الاجتماعى ، وبالدرجة الاولى لتطور النشاط العملى . وليس للشيوعية أن تظهر الا فى نتيجة التطور التاريخى المشروط بقوانينه . والتطور يعتبر أهم نوع من الحركة ، لذا فهو يستقطب جل الاهتمام بالنسبة للعلم والفلسفة المعاصرين . وفى هذا الفصل سوف نتناول **الجدلية** المادية **كونها تعليما عن القوانين الاعم للحركة والتطور فى الطبيعة والمجتمع والفكر** . .

مصادر التطور

٤٠١

فكرة التطور . نحن نعلم أن الحركة صفة ملازمة للمادة وشكل وطريقة لوجودها (١٠٩ ، ١١٢) . وبخلاف الميتافيزيقا التى تحصر الحركة فى الانتقال البسيط فى المكان ، تقصد الجدلية بالحركة التغيرات ، أيا كانت . فالثورة الاجتماعية ودوران الكواكب حول الشمس والتفاعل الكيميائى وتغير مزاج الانسان وانفعالاته — كل هذه امثلة مختلفة عن الحركة . ونحن نصادف باستمرار فى حياتنا اليومية ، وفى حقول الانتاج والصراع السياسى شتى التغيرات ، منها ما لا يحظى باهتمامنا ، ويبدو قليل الشأن ، ومنها ما قد تكون له آثار خطيرة بالنسبة لبعض الناس والدول والبشرية جمعاء والطبيعة ، لذا فهى تثير لدينا اهتماما كبيرا . ومن خلال دراسة مختلف انواع واشكال

حركة المادة لاحظ البشر منذ وقت طويل أن بعض التغيرات يتكرر ويعتبر قابلا للارتكاس وبعضها غير قابل للارتكاس ولا يتكرر . وفى سياق بعض التغيرات قد ينشأ ما هو جديد ولم يكن له وجود من قبل . وهذه التغيرات هى التى تستأثر باكبر قدر من الاهتمام .

والعمليات التى تجرى فيها تغيرات غير ارتدادية وينشأ ما هو جديد هى التى تسمى **بعمليات التطور** . امـا مختلف اشكال التطور فى الطبيعة والمجتمع والفكر فتضطلع بدراستها علوم خاصة كالفيزياء وعلم الفلك والبيولوجيا والتاريخ وعلم النفس وعلم اللغة الخ . بينما تتمثل مهمة الفلسفة الماركسية اللينينية ، مهمة الجدلية الماديـة ، فى دراسة وتشخيص المواصفات والخصائص والصفات الاشمل للتطور ، مهما كان الشكل الذى يتجلى فيه .

أن الفكرة القائلة فى العلم والفلسفة بأن كل شىء فى العالم يتطور ، بله فهم ما هو التطور وما هى مصادره ، لم تظهر على الفور بشكل جاهز . صحيح أن فلاسفة اليونـان القديمة ، ومنهم هيرقليطس مثلا ، كانوا يعتقدون أن الطبيعة والمجتمع يتطوران ، بيد ان فهمهم كان ساذجا ، لانه لم يكن يرتكز على معطيات علمية صارمة . ورغم الاعتراف بالتطور فى العالم المحيط كان مفكرو العهود القديمة (١٥٠) يعتبرون الدوران العالمى المتكرر بلانهايـة شكلا رئيسيا للحركة . وكانت العلوم الطبيعية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر تعطى الاولوية فى الدراسة الى الاشكال الميكانيكية للتنقل فى المكان ، كما كانت بعيدة جدا عن ادراك أن الكون باكمله ، ومن جملته الارض والمجتمع البشرى ، فى تطور مستمر . صحيح ان الفيلسوف الالمانى كانط قد اعرب فى القرن الثامن عشر عن فكرة تفترض تطور المنظومـة الشمسية ، وقـام فيلسوف المانى آخر ، هو هيغل ، فى اوائل القرن التاسع عشر بوضع جدليته كتعليم عن تطور الفكر والمجتمع ، بيد أن آراءه لم تجد من يقبل بها بين معظم علماء الطبيعيات ، لانه لم يكن يعترف بالتطور فى الطبيعة ، ويتبنى عقيدة مثالية .

أن الفكرة القائلة بأن التطور هو أهم انواع الحركة فى الطبيعة والمجتمع والفكر ، وبأن من المتعذر فهم العالم المحيط بنا بغير ادراك فحوى التطور ، لم تشرع فى الاستيلاء اوسع فأوسع على عقول العلمـــاء ورجال المجتمع التقدميين الا فى اواسط القرن التاسع عشر ، ولاسيما فى القرن العشرين . وقد حدث ذلك تحت تأثير الكم الهائل من الوقائع العلميـــة المدخرة التى قوضت التصورات الدينية التى تفيد بأن الرب قد خلق العالم مرة والى الابد جاهزا لا يقبل التغير . فقد برهن دارون على وجود التطور فى الطبيعة الحية ، وأبان ان الانسان نفسه هو حصيلـــة تطور أرقى الحيوانات اللبونة . وجرت دراسة قوانين تطور بعض الكائنات الحيـــة والخلية الحية . ووضعت الفيزياء وعلم الفلك فى القرن العشرين تعليما عن نشوء وتطور الكون . ويتوافق هذا التعليم توافقا جيدا مع احدث الارصاد والمعطيات التجريبيـــة . وانتقل علم التاريخ تحت تأثير المادية التاريخية الى دراسة تطور المجتمع بصورة منتظمة . وتتوفر بحوزة الجيولوجيا والجغرافيا معطيات لا ريب فيها تؤكد أن الارض نفسها ، سطحها ، وبواطنها ، تتعرض لتطور دائم . وتم اكتشاف قوانين تطور اللغات المختلفـــة وقوانين تطور نفسية الانسان . على هذا النحو **دخلت وترسخت فكرة التطور الشامل أو فكـــرة التطور فى العلم والفلسفة المعاصرين وفى الوعى الاجتماعى كله .**

واتاحت الجدلية المادية تعميـــم وتعليل تعاليم مختلف العلوم الطبيعية والاجتماعية عن تطور حركة المـــادة (١١٢) باشكال مختلفة . ومن خلال مقارنة وتحليل التطور فى الطبيعة والمجتمع والفكر تكشف الجدلية المادية عن سمـــات التطور الاعم والاشمل التى تميزه عن باقى انـــواع الحركة . وهذه السمات هى ما يلى : ١ — أن للتطور اتجاها فى الزمن ، وهو من الماضى الى المستقبل مرورا بالحاضر ؛ ٢ — أن عمليـــة التطور لا أرتداد فيها ؛ ٣ — يتجلى فى سياق التطور ، أيـــا كان ، ما هو جديد ، ولم يسبق له وجود من قبل ؛ ٤ — أن عملية التطور ترتدى طابعا منطقيا ومشروعا ، وثمة قوانين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

موضوعية لكل نوع من التطور (تضطلع بدراستها العلوم الخاصة) وقوانين للتطور بوجه عام (تضطلع باستقصائها الجدلية المادية) . وهذه السمات تحدد مغزى مقولة فلسفية بالغة الاهمية – هي «التطور» – تعزى الى كل ظواهر الطبيعة والمجتمع والفكر . وبوسعنا الآن ان نطرح ونناقش سؤال لماذا يجرى التطور وما هى مصادره .

٤٠٢

ما هى مصادر التطور ؟ (حوار) . يجيب الجدليون والميتافيزيقيون (٠١٢) جوابا مختلفا عن السؤال المتعلق بمصادر التطور . ولاجل فهم آرائهم وحججهم بصورة افضل ، نورد حوار شخصين مفترضين يعبران عن الفهم الجدلى والفهم الميتافيزيقى للتطور .

الجدلى (ج) : أنا اجزم بأن وراء كل ظاهرة فى حيز التطور سببا خاصا ، أى مصدرا للتطور .

الميتافيزيقى (م) : باعتقادى أن سبب كل عملية تطور هو دافع او محرك أو حالة أو ظرف خارجى ، كأن يكون تغير البيئة أو تأثير قوى خارجية ، الخ .

ج : علام يقوم رأيك هذا ؟

م : على المراقبات . فلكى تتحرك العربة ، لا بد من دفعها . ولئن كفّ الانسان عن انفاق جهده على تحريكها فسوف تتوقف . كما أن تطور الكائن الحى بحاجة الى ظروف خارجية كضوء الشمس والغذاء والماء ودرجة معينة من الحرارة ، الخ . كذلك الحال بالنسبة للدولة ، فهى تتطور نتيجة تفاعلها مع الدول الاخرى .

ج : باختصار ، أن موقفك هو الآتى : «ان وراء كل تغير وكل حالة تطور فى الطبيعة والمجتمع قوى خارجية» . أليس كذلك ؟

م : أجل ، بالضبط .

ج : أذن ، كيف يمكن تفسير تطور الكون عموما ؟ لقد اثبت علم الفلك المعاصر هذه الحقيقة اثباتا لا يرقى اليه الشك . معنى هذا أن ثمة من يشكل هذا الدافع أو المحرّك للعالم بأسره ، وأن هذا المحرك يجب أن يكون خارج الكون .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

م : ربما .

ج : فى هذه الحالة سوف يفضى بك الامر بالحتم الى فكرة الرب كمصدر للتطور العالمى .

م : أنا لم أتحدث عن الكون ، بل عن حالات بعينها .

ج : لنناقش الامثلة التى اوردتهـا . أن مثال العربة لا يدل الا على مجرد انتقال ميكانيكى ، لا على تطور . فحركـة العربة قابلة للارتداد ، ولا يظهر فيها ما هو جديد مبدئيا ، وهى لا تناسب صفات التطـور (٤٠١) . لذا فالاستنتاج المبنى على مثال العربة لا يجوز استخدامه فيما يتعلق بوقائع التطور الحقيقى .

م : وكيف تفسر انت سببها ؟

ج : أن الظروف الخارجيـة كالضوء والهواء والمغذيات ضرورية ، مثلا ، لتطور النبات . غيـر أن المصدر الرئيس للتطور يكمن فى النبات نفسه . فأذا كانت عمليـة الايض ، أى التمثيل الغذائى وفرز نواتـج النشاط الحيوى ، تجرى داخله بصورة صحيحة ، فأن التطور يجرى بصورة صحيحة . أما اذا اختل التمثيـل الغذائى فقد يتباطأ النمو أو يتوقف عموما . أذن ، فالمصدر الرئيس للتطور يكمن داخل جسـم الكائن الحى . كذلك الحال مع تطور الدولة .

ان هذا الحوار يتضمن سردا للفهم الميتافيزيقى والفهـم الجدلى لمصادر التطور . ولاجل أن نفهم بصورة افضل مزايـا المفهوم الجدلى للتطور ، علينا أن نبحـث فى أهم مقولات الجدلية المادية ، وهـى مقولتا «التضاد» و«التناقض» اللتان تتيحان لنا فرصة صياغة القانـون الجدلى الاكثر عموما الذى يتيح لنا بدوره معرفة مصادر التطور ، أيا كان .

٤٠٣

مقولتا «التضاد» و«التناقض» . بالامكـان تناول كل ظاهرة معقدة ، ايا كان قدر تعقيدها ، فى الطبيعة والمجتمع والفكر كمنظومة (١٠٦) . ولاجل ان يتسنى لهذه المنظومة ان تؤدى عملها ، أى ان تقـوم بوظائفها ، وان تتطور لابد من أن يجرى بين اجزائها ، اى بين منظوماتها الثانوية وعناصرها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تفاعل معين وأن يكـــون هناك ترابط وتوافق . فالذرة أو الجسم الحى او المجتمع منظومات معقدة . فالشحنة الاجمالية لنواة الذرة يجب ان تتوازن مع الشحنة الاجمالية لالكترونات غلاف الذرة ، وعلى غرار ذلك بالضبط يجب ان يكـون هناك توافق معين بين عمليتى التمثل والافراز فى جسم الكائن الحى . والمجتمـــع يغدو مستقـــرا اذا كانت علاقاتـــه الانتاجية تناسب قواه المنتجة ، وبناؤه الفوقى يناسب بناءه التحتى وهلمجرا . من هنا يكاد يفصح عن نفسه الاستنتاج التالى : كلما كان التناسب والتوافق بين العناصر والمنظومات الثانوية داخل المنظومة المعنية اكثر ، كان اداؤها لوظائفهـا افضل وتطورها اسرع . بيد أن الامر فى الحقيقة اعقد كثيرا ، وهذا الاستنتاج لا يبدو صحيحا الا للوهلـــــة الاولى ، الا للنظرة السطحية .

فى الواقع ، ليس فى أى موضوع فعـــلى او ظاهرة او عملية ولا يمكن ان يكون هناك البتة توافق تام دائم ومستقر بصورة مطلقة بين كل العناصر والمنظومات الثانوية . علاوة على ذلك ، لابد وأن يكون بينها قدر كبير او ضئيل مـــن التمايز ، وهذا – كما يظهر لنا العلم المعاصر – هو احد اهم شروط عمل وتطور كل ظاهرة او عملية . على سبيل المثال ، تختلف الكترونات الذرة عن نواتها بعلامة الشحنة الكهربائيـة وبالكتلة وغيرها من المواصفات الفيزيائية . وتؤدى عمليـة التمثل فى اجسام الكائنات الحية وظيفة مغايرة تماما لما تؤديه عملية الافراز . مثلا ، يتلقى النبات من الجو المحيط به غاز ثانى اوكسيد الكاربون ويلفظ اليه غاز الاوكسجين . امـا الحيوانات فعلى العكس تتلقى الاوكسجين وتلفظ ثانـــــى اوكسيد الكاربون . وفى عملية تطور الانتاج ، كما نعلم ، تتطور القوى المنتجة اسرع من العلاقات الانتاجية (٢٠٤) ، لهذا ينشأ بينهما باستمرار ويتنامى قدر معين من التمايز . وينشأ تمايز مماثل ايضا بين عناصر القوى المنتجـة ذاتها . ففى عصر التقدم العلمى التقنى نجد أن احدى القوى المنتجة الرئيسية هى العلم الذى يتقدم فى تطوره على التقنية وعـــلى

مراس البشر الانتاجي (٣١١) . وفى نتيجة ذلك تنشأ بين عناصر القوى المنتجة هذه تمايزات كبيرة او صغيرة . كما أن نشوء ووجود مثل هذه التمايزات ليسا طارئين ، بل هما عملية موضوعية ، ضرورية ومشروعة لكل حركة وتطور .

واذا كان التمايز بين المنظومات الثانوية او الجوانب المترابطة من الظاهرة (العملية) المعنية طفيفا وغير ذى اهمية ، قالوا عن وجود **فوارق** . اما أذا كان التمايز جوهريا وكبير الشأن حتى ليبلغ الحد الاقصى ، فسوف تعتبر هذه الجوانب والمنظومات الثانوية **متضادة** . ومقولة «التضاد» الفلسفية هى التى تعكس وجود بعض التمايز والتباين بين الاجزاء المترابطة والخواص وما الى ذلك داخل الظواهر الموضوعية .

ان العلاقة بين الاضداد ، بين الاجزاء والصفات والمنظومات الثانوية (الخ) المتضادة تسمى بالتناقض . هنا يكون من الاهمية بمكان أن نفهم ما يلى : ليس كل الظواهر فى العالم يتخذ بعضها ازاء بعض صفة الاضداد ، بل تلك منها فقط التى تترابط وتتفاعل فيما بينها على هذا النحو أو ذاك خلال سيرورة قيامها بوظائفها وتطورها . فالالكترونات السلبية الشحنة ، مثلا ، تعتبر دقائق مضادة من حيث الشحنة نسبة الى البوزيترونات الموجبة او نسبة الى نواة الذرة الموجبة الشحنة . ويخضع تفاعل هذه الدقائق المتضادة لقوانين فيزيائية معينة ويولد ظواهر فيزيائية جديدة . فى الوقت ذاته ليس هناك ، ولا يمكن ان يكون عموما ، ايما توافق بين اية جزيئة فيزيائية وبطولة العالم بالشطرنج . ومن العبث عزو هاتين الظاهرتين الى الاضداد ، ذلك انهما لا تخضعان لايما قوانين عامة ، ولا تتفاعلان ، ولا تؤثر احداهما فى الاخرى ايما تأثير ، ولا تشتركان فى أية عملية واحدة من عمليات اداء الوظائف او التطور . وليس بين هاتين الظاهرتين ولا يمكن ان تكون هناك اية تناقضات . ويتضح من هذا القول أن مقولتى «التضاد» و«التناقض» تعكسان ليس فقط التمايز بين بعض جوانب الظاهرة والعلاقة بين هذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجوانب المتضادة ، بل وتسجلان الى جانب ذلك الترابط والتفاعل والارتهان المتبادل بين هذه الاضداد .

ان الاعتراف بوجود وحدة وترابط وتناقض فى آن واحد بين الاضداد داخل كل ظاهرة وعملية بعينها يعتبر ابرز وأهم موضوعة فى الجدلية المادية ومفتاحا لفهم جوهر كل عملية من عمليات التطور . ففى المجتمع الطبقى مثلا تعتبر مصالح المستغِلين والمستغَلين متضادة ، ومتضادة ايضا الادوار التى تضطلع بها هذه المصالح فى تنظيم الانتاج ، مثلما تعتبر متضادة العلاقة بملكية أهم وسائل الانتاج . ولكن الى جانب ذلك نجد هذه الطبقات مترابطة . فأحداها تقيض الاخرى ضمن اطار طريقة الانتاج المعنية ، وفى منظومة التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية المعنية . ومع تصفية احدى الطبقات ، كطبقة الرأسماليين مثلا ، تختفى الطبقة المضادة لها ، أى العمال الاجراء . ويبرز مجتمع جديد هو المجتمع الاشتراكى الذى تختلف طبقته العاملة اختلافا جذريا عن طبقة العمال الاجراءالبروليتاريين فى ظل الرأسمالية . وهذا الاختلاف الجذرى لا يلحظه التحريفيون الاصلاحيون . فهم يشوهون التعليم الجدلى عن ترابط ووحدة الاضداد عندما ينكرون الفوارق الجذرية بين مكانة الطبقة العاملة وطبيعتها الطبقية فى المجتمع الرأسمالى وبين مكانتها وطبيعتها الطبقية فى المجتمع الاشتراكى . ويتضح من هذا المثال أن تصور الجدلية المادية الماركسية عن وحدة الاضداد يحمل ليس اهمية فلسفية علمية عامة فحسب ، بل وسياسية تطبيقية ، لان الجدلية هى الاساس لفهم العمليات والتغيرات المعقدة والمتناقضة الجارية فى المجتمع ، والاساس الذى يتيح اعطاء تقويم صائب لها .

بعد أن حددنا ماذا تقصد الجدلية المادية بالتضاد والتناقض والوحدة ، نستطيع الآن ان نخطو خطوة اخرى فى استقصاء مصادر التطور .

٤٠٤

وحدة الاضداد وتحول بعضها الى بعض . أن الجوانب المتضادة للمواضيع المختلفة لا تتعايش فحسب ، بل تتفاعل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تفاعلا جدليـا خاصا . وهذا التفاعل عبارة عن عملية تحول متبادل للاضداد احدها الى الآخر . وهى عملية معقدة لا ينبغى فهمها فهما مبسطا . ولنأخذ بادئ بدء بعض الامثلة .

ان الالكترون والبوزيترون من الدقائق الفيزيائيـــة البسيطة التى تتسم بكتلة سكون متساوية وشحنة كهربائية متضادة ، وحجومها محدودة فى المكان . وعلى الضد من ذلك ، أن الحقول الكهرمغناطيسية ليس لها شكل هندسى أو حجوم دقيقة أو حدود أو كتلة سكون . بهذا المعنى تكون الدقائق والحقول متضادة من حيث الصفات الفيزيائية ، بيد أن الفيزياء العصرية اثبتت أن فى بعض الظروف المعينـــة يجرى تحول متبادل فيما بينها ، مثلا عند تصادم الكترون وبوزيترون بطاقة معينة يجرى ما يسمى بعملية التحول الى الضد (تحول الدقائق الى اضدادها) التى تسفر عن تحول الدقائـق الى حقول ، الى فوتونات ، أى الى ما يشبه دفقات من الضوء .

فى فترة ازدهار الرأسمالية الصناعية أمنـــت العلاقات الانتاجية الرأسمالية تطورا سريعا للقوى المنتجة . ومـــع تطور الرأسمالية تكتسب القوى المنتجة طابعا اجتماعيا (عاما) فتدخل فى تناقض مع الملكية الرأسمالية الخاصة . وتشرع العلاقات الانتاجية القائمة على هذا الشكل من الملكية فـــى عرقلة تطور القوى المنتجـــة ، وعلى هـذا النحو تتحول الى ضدها (٢٠٤ ، ٢٢٠) .

وبوسعنا أن نلاحظ عملية مماثلة فى تطور العلم ايضا . فعندما يخفى أمر ما على العلماء يقومون بوضع مسائل وقضايا جديدة . وتدلنا هذه المسائل على ما نجهله وعلى ما يجـــب علينا أن نعرفه . وفى نتيجـــة الابحاث الطويلة والمعقدة تتكشف وقائع علمية جديدة وتطرح فرضيات وتوضع نظريات جديدة . وهذا يعنـــى ظهور معارف تتيح حل المسألـــة المعنية . فـ«المجهول» الذى صيغ بشكل مسألة يتحول ، عـلى هذا النحو ، الى معرفة جديدة ، أى الى ضده . غير أن القضية لا تتوقف عند هذا الحد . فالمعارف الجديدة تظهر أننا لسنا نعرف بعد كل الامور . فتظهـــر مسائل وقضايا جديدة ،

بعبارة اخرى ، يظهر ما هو ضد المستوى الذى بلغناه مـــن المعرفة ، وتبتدئ من جديد عملية الابحاث العلمية المفضية الى مستوى ارقى فى معرفة ما يهمنا من ظواهر .

وعن طريق مقارنة هذه الامثلـــــة المستمدة من مختلف ميادين الطبيعة والمجتمع والمعرفـــــة يتسنى لنا استخلاص استنتاجات محددة تماما .

أولها ينص على أن الجوانـــــب المتضادة من الظواهر والعمليات ليست مجرد مترابطة ، أى تدخل فى وحدة معينة ، بل تنتقل ويتحول بعضهـــــا الى البعض الآخر . فالجدليون يختلفون عن الميتافيزيقيين لا بأنهـــم — أى الجدليـون — يعترفون بوجود جوانب وصفات متضادة فى هذه او تلك من الظواهر او العمليات ، وبأن خصومهم ينكرونها ، بل بكون الميتافيزيقيين يعتبرون الاضداد أمرا جامدا ، متحجرا ، معطى مرة والى الابد ، فى حين أن الجدليين اذ يعترفون بالاضداد ، انما يرون تحولاتها المتبادلة وتنقلاتها وتغير الادوار التـــى تمارسها فى تطور العمليات المعنية وقيامها بوظائفها .

والاستنتاج الثانى هو أن تحولات الاضداد المتبادلـــــة نفسها تنقسم الى نوعين ، اولهما تعزى اليه تحولات الاضداد الارتدادية المتبادلة . فالنقطة العليا من عجلة العربة تغدو ، فى اثناء حركة العربة ، النقطة السفلى ثم تعود الى موقعها من جديد كنقطـــــة عليا وهلمجرا . هـــــذا نوع من الحركـــة الميكانيكية ، ولكن ليس فى هـــــذا الامر تطور حقيقى ، لان موقع النقطة قابل للارتداد ، وهو يتكرر باستمرار . وعـــلى العكس من ذلك ، أن تحول العلاقات الانتاجية الرأسمالية مـــن شكل وحافز لتطور القوى المنتجة الى عائق لهذا التطور هـــو نموذج للتحول غير الارتدادى . أذ لم يعــد بمقدور العلاقات الانتاجية الرأسماليـــــة أن تغدو مـــرة اخرى شكلا لتطور الانتاج . فهذا يقتضى هدم هذه العلاقات واقامة علاقات جديدة هى العلاقات الاشتراكية . وهذه عملية اجتماعية اعقد واعمق بما لا يقاس . وهنـــــا يطالعنا ايضا حضـــور عملية تحول الاضداد ، بيد أن المقصود هنا لم يعـــــد هو أن دور هذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العلاقات الانتاجية الرأسمالية ووظائفها تتغير ، انما هو انها يجب أن تترك مكانها لضدها ، اى للعلاقات الانتاجية الاشتراكية .

فى سيرورة الانتقال المتبادل للاضداد وتحول احدها الى الآخر تنشأ وتحل بينها تناقضات مختلفة تتميز بها الظواهر والعمليات المعنية . وتقودنا دراسة عملية نشوء وتنامى وحل التناقضات الى فهم مصادر التطور الحقيقية .

٤٠٥

صراع الاضداد وحل التناقضات مصدرا التطور . كانت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) احد افجع احداث التاريخ العالمي واكثرها خطورة . فقد خاضت الصراع فيها ، من جهة ، قوى الامبريالية والرجعية متمثلة فى الفاشية الالمانية والعسكرية اليابانية ، ومن جهة اخرى ، قوى الاشتراكية والديمقراطية ممثلة بالدرجة الاولى فى شخص الاتحاد السوفيتي . وفى هذه الحرب ، كما هو معروف ، احرزت قوى التقدم بثمن باهظ من الضحايا والجهود الانتصار على قوى الرجعية . وبعد الحرب نشأ فى العالم اجمع موقف جديد : فقد ظهرت المنظومة العالمية للدول الاشتراكية ، وابتدأ الانهيار السريع للنظام الاستعمارى العالمى ، وتقلص مجال نفوذ الرأسمالية .

وعندما نتأمل تاريخ المجتمع عموما ، ونمعن التفكير بقواه المحركة ، يتسنى لنا أن نلاحظ أن فى هذا التشابك الزاخر من الحروب والثورات والعلاقات الثقافية والاقتصادية وحالات الركود والنهوض الصناعية يتجلى بأستمرار تصادم مختلف الفئات الاجتماعية والسياسية وشتى الطبقات والدول ، ويدور صراع دائم يخبو اواره تارة ، ويتأجج تارة اخرى . وفى نتيجة هذا الصراع تنشأ علاقات اجتماعية وسياسية جديدة ، وتنحل دول قديمة وتنشأ اخرى جديدة ، وتولد وتشب وتبلغ طور الازدهار تشكيلات اقتصادية واجتماعية جديدة . لهذا السبب بالذات كان مؤسسو الماركسية اللينينية يؤكدون باستمرار أن صراع مختلف القوى الاجتماعية ، ولا

سيما الطبقات ، يعتبـــر أهم وابرز قوة محركة للتاريـــخ ومصدرا حقيقيا لتطوره .

بيد أن تصادم وصراع القـــوى المتضادة والجوانـب المتضادة ليسا صفة خاصة ينفرد بهـــا التطور الاجتماعى . فالصراع والتصادم ، الاحتـــراب وتخطى الاضداد صفات لا تنفصل عن التطور بوجه عام . لهذا يمكن اعتبار مفهوم «صراع الاضداد» بمثابة مقولة فلسفية عموميـــة تصلح للاستخدام حيال كل اشكال حركة المادة . ولا ينبغى فهم كلمة «صراع» بالمعنى الحرفى الصرف .

وليس صحيحا الظن أن حل المسائل الرياضية «تتصارع» خلاله عمليات الجمـــع والطرح والرفع الى الأس واستخراج الجذر ، وان عملية التمثيل الغذائى «يتصارع» فيها تمثـــل وافراز المواد ، وأن الذرة تشهد «صراع» النواة ذات الشحنة الموجبة والالكترونات السلبية الشحنة . ولئن جرى فـــى الجدلية استخدام مقولة «صراع الاضداد» للتدليل على تفاعل الجوانب المتضادة ، فلأن لذلك مسوغات خاصة ، اذ يضفى على هذه المقولة مغزى جدلى خاص . فما هى هذه المسوغات ؟ وما هو هذا المغزى ؟

القضية تنحصر فى احتمال حدوث انواع مختلفة من تصادم الظواهر المتضـــادة . فاذا اصطدمت سيارتـــان تنطلقان باتجاهين متضادين فلن تكون نتيجة الاصطدام تطورا ، بـــل تكون تحطما وكارثة . وعلى العكس من ذلك ، اذا كان اعضاء فريق واحد يتبنون آراء وافكارا مختلفة بشأن كيفية رفـــع انتاجية العمل وتحسين نوعيـــــة المنتوج الخ ، ففى مجرى مناقشة مختلف وجهات النظر ، أى فى سياق تصادم وصراع الآراء يكون بمقدورهم التوصل الى وجهة نظر جديدة مشتركة اكثر صوابا تساعدهم على رفـــع الانتاج بأسره الى مستوى جديد ، وبالتالى يتسنى حل التناقضات بيـن وجهات النظر . وهذا هو ما سيعنى التطور فى تفهمه مهماته الانتاجية . ففى مثال السيارتين كنا بصدد ظاهرتين متضادتين (من حيـــث اتجاه الحركة) لا تربـــط بينهما روابط داخلية مرهونـــة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بقوانين . أن اصطدام مثل هـــذه الاضداد لا يمكن أن يكون مصدرا للتطور . أما فى مثال اصطراع الآراء فقد رأينا وجهات نظر مترابطة . أذ تنشأ لدى اعضاء فريق العمل الواحـــد بالضرورة وجهات نظر مختلفة بشأن حل مسألة واحدة ، ذلك أنهم يحوزون خبرات حياتية وانتاجية مختلفة ومستوى تأهيليا مختلفا ومواقف مختلفة ازاء حل المسائل الماثلة امامهم . ومن تصادم واصطراع الآراء المتضادة فى بعض النواحى ، ولكن المترابطة فى وحدة داخلية ضرورية ينشأ منطقيا فهم مشترك بالنسبة لجميع اعضاء فريق العمل ، فهـــم اكثر عمقا للمهام الماثلة . على هذا النحو ، نجـــد **أن مقولة «صراع الاضداد» الجدلية تعكس وتشخص تفاعل وتصادم وتجاوز ليس كـــل الظواهر المختلف بعضها عن بعض والمتضادة فيما بينها من حيث المظهر فقط ، وكذلك تنقلاتها المتبادلة ، بل تلـــك الظواهر منها فقط التى تترابط فيما بينها بروابط داخلية ضرورية ومشروعة** . وتوجد بين مثل هذه الاضداد على الدوام تناقضات حادة بهذا القدر او ذاك . وهذه التناقضات هى التى ينبغى اعتبارها مصدرا للتطور .

ومن المهم بصفة خاصـــة ادراك أن التناقضات نفسها لا تراوح فى مكانها . فالتناقضات الجامدة والراسخة التـــى تجتاح الجوانب المتضادة ، الثابتـــة ، «المتحجرة» — ان جاز القول — لا يمكن أن تكون مصدرا للتطور . وغالبا ما يساق قطبا المغناطيس الشمـــالى والجنوبى مثالا عـــلى الاضداد المترابطة . فمهما قطّعنا عمـــود المغناطيس الى نصفين ، يغدو لكل نصف منه من جديد قطبان شمالى وجنوبى . بيـــد ان العلاقة بين هذين القطبين تبقى كما هى . لهذا لا ينتج قطبا المغناطيس بحد ذاتهما ايما صفة جديدة ، وأيما تطور لاارتدادى وذى اتجـــاه فى الزمان . والامر يختلف مـــع التناقضات المتغيرة ، المتحركة . مثلا ، تنشأ بين عمليتـــى التمثل والافراز فى جسم الكائن الحى تناقضات تتنامى وتتطور بأستمرار . فجسم الكائـــن الحى ، حيوانا كان أو نباتا ، يستهلك ويهضم فى مختلف فترات حياته هذه المواد تارة ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وتلك تارة اخرى . وبالمقابل يلفظ الى الوسط المحيط بـــه ايضا مختلف نواتج نشاطه الحيوى . واذا كانت كل مـــن العمليتين تعادل الاخرى ، فأن النشاط الحيوى يجرى بصورة طبيعية . بيد أن هذا التوازن يختل باستمرار ، وفى نتيجـــة ذلك تحدث فـــى الجسم عمليات شتى كالنمو والتغيرات الفسلجية والتغيرات فى النشاط الوظيفى وتغيرات الشكـل والمقاسات وهلمجرا . وكل هذه التغيرات تحمل طابعا موجها لاارتداديا . ويرتبط بها ايضا نشوء صفات ووظائف الجسم الجديدة مبدئيا ، بالتالى يجرى تطوره .

ونحن نلاحظ عملية مماثلة — من حيث الجوهر — فـــى تطور الفكر ايضا .

ان لكل شيء عددا لا نهاية له من الصفات والجوانب وما الى ذلك . ومن المتعذر معرفتها جميعا وبالكامل وبنفس القدر من الدقة . وعندما نتأمـــل الشيء ، نستقصى ونتعرف هذا الجانب تارة وذاك تارة اخرى . فالمفاهيـــم والاحكام التى تعكس هذه الجوانب لا يناســـب بعضها بعضا على الدوام . وتنشأ بينها تناقضات معينة . وكلما تراكم فى معارفنا قدر اكبر من التناقضات ، اكتسبت مزيدا من الالحاح الحاجـة الى توحيدها وربطها في كل واحد من المعرفة الاكثر دقة وعمقـــا عن الظاهرة او العملية موضوع البحث . ولا يتسنى ذلك الا عن طريق حل وانهاء التناقضات القائمة . وحصيلة هذا الحل هى المعرفة الجديدة عن الشيء باكملـــه ، وعن الروابط المرهونة بالقوانين بين جوانبه وصفاته المتفرقة . وهذا مـا يتجلى فيه تطور الفكر . على هذا النحو يكون «تصادم» مختلف المفاهيم والطروحات وحل التمايزات والتناقضات فيما بينهـا المصدر الحقيقى لتطور معرفتنا .

بامكاننا الآن عرض الاستنتاجات : توجد بين الجوانـــب والمنظومات الثانويـــة (٤٠٣) المترابطة ، ولكن المتضادة ، للظواهر أو العمليات علاقات لا تقتصر على التحولات المتبادلة والانتقال المتبادل ، بل تشمل ايضا صراع الاضداد . وهـذه العلاقات تؤدى الى نشوء وتفاقم التناقضات ، الامر الذى يغدو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مستحيلا فى نتيجته خلال مرحلة معينة وجود الشيء المعنى او قيامه بوظائفه بالشكل القديم . وتبرز ضرورة موضوعية لحل هذه التناقضات ، ومن هنـــا تنشأ ظاهرة جديدة ، شيء جديد ، صفة جديدة ، الخ . وهذا هـــو ما يعنى أن **صراع الاضداد ، وظهور ونمو التناقضات القائمة بينها ، ولاسيما حل هذه التناقضات ، هى المصدر الحقيقى لكل تطور ، اينما جرى وبأى شكل كان .**

٤٠٦

انواع التناقضات . فى العالم عدد عمـــلاق من التناقضات المختلفة التى تؤثر تأثيرا مختلفا فى عملية التطور وتتطلب اشكالا وطرائق شتى لحلهـــا . وسنكتفى بتناول أهم وابرز انواع التناقضات التى يرتدى فهمها أهمية تطبيقية وعلمية واجتماعية سياسية كبيرة .

١ - التناقضات الداخلية والخارجية

طالما نصادف فى حياتنـــا تناقضات داخلية وخارجية على السواء . وهذه وتلك تؤثر تأثيرا معينا فى مجرى تطور الظواهر المختلفة .

ثمة تناقضات اقتصادية واجتماعية وايديولوجية بيـــن أسرة الدول الاشتراكية ومنظومة الدول الرأسمالية المتطورة صناعيا . وهذه التناقضات تعتبر خارجية بالنسبة الى الاسرة الاشتراكية . بيد أنها تؤثر رغم ذلك بشكل معين فى تطور هذه الاسرة . ولكن هل بامكان هذه التناقضات الخارجية وقف التنمية وكبح عملية تطور وارتقاء النظام الاشتراكى ؟ كلا طبعا .

وللمجتمع الاشتراكى تناقضاته الداخلية ، مثلا بيـــن القوى المنتجة والعلاقات الانتاجية . وتتسم بمثل هذا التناقض (٢٠٤ ، ٢١٣) التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية كافـة . لذا فالتنويه البسيط بوجوده لا يقربنا من فهم القوى المحركـــة والتناقضات الداخلية لكل تشكيلة بعينها . أن القضية تتغير جذريا ، اذا انتقلنا من مجرد تثبيت السُنّة العامة والتناقض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العام الى الاشكال الخاصة لتجليات هذا التناقض فى التشكيلة المعنية او فى طور معين من تطورها وادائها لوظائفها . ففى كل مرحلة من تطور الاشتراكية كانت هذه التناقضات تحل بطريقة معينة ، مما أدى الى تطور الانتاج والمجتمع عموما . مثلا ، في السنوات الاولى من الحكم السوفييتى اقيمت علاقات انتاجية اشتراكية فى الصناعة ، اما مستوى القوى المنتجة التى نال منها الخراب ابان الحرب العالمية الاولى والحرب الاهلية فقد كان منخفضا نسبيا . فبرز تناقض بين العلاقات الانتاجية والقوى المنتجة . وجرى حل هذا التناقض على اساس التصنيع .

ونسوق مثالا آخر على تناسب التناقضات الداخلية والخارجية . أن التناقضات بين الطبيعة والمجتمع تعتبر خارجية بالنسبة الى المجتمع . وكلما كانت هذه التناقضات اكثر شدة ، كان تأثيرها فى تطور المجتمع اكثر سلبية . رغم ذلك ، وكما بيّنا فى الفصل الفائت ، ان حل التناقض بين الانسان والطبيعة يقتضى من المجتمع نفسه ، بالدرجة الاولى ، ان يحل تناقضاته الاقتصادية الاجتماعية الداخلية ، وذلك بالانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية .

أذن ، فبالرغم من أن التناقضات الخارجية والداخلية تؤثر تأثيرا معينا فى عملية التطور ، **تعتبر عملية حل التناقضات الداخلية مصدرا رئيسيا للتطور** . ولهذه الموضوعة من موضوعات الجدلية الماركسية أهمية تطبيقية عظيمة : فعندما نصطدم بهذه او تلك من المعضلات ينبغى لنا بالدرجة الاولى تبيان التناقضات الداخلية وايجاد الطريقة الاصوب لحلها . الى جانب ذلك ، من المهم ألا ننسى أن التناقضات الداخلية والخارجية نفسها تخضع لجدلية تناقلات الاضداد وتحولاتها المتبادلة . **فالتناقضات التى تكون خارجية فى حالة معينة يمكن أن تغدو داخلية فى حالة اخرى** . على سبيل المثال ، أن التناقض بين الاشتراكية والرأسمالية ، كونه خارجيا بالنسبة الى المجتمع الاشتراكى ، يعتبر أهم وأبرز تناقض داخلى للبشرية جمعاء خلال المرحلة الراهنة من التاريخ العالمى . لهذا يقتضى تطور البشرية اللاحق بالضرورة

الموضوعية حل هذا التناقض عن طريق أقامة نظام اجتماعي عادل يخلو من التناقضات التناحرية . وعلى هذا النحو بالضبط يمكن للتناقضات الداخلية فى ظروف معينة أن تتحول الى تناقضات خارجية ، وأن تؤثر فى حلها . على سبيل المثال ، أن التناقضات الداخلية للرأسمالية التى تزداد تأزما بفعل الازمة العامة للنظام الرأسمالى تؤدى الى استثمار غاشم للموارد الطبيعية ، فيشتد جراء ذلك التناقض بين المجتمع والطبيعة .

٢ – التناقضات الاساسية وغير الاساسية

الى جانب التناقضات الداخلية والخارجية ينبغى تمييز التناقضات الاساسية وغير الاساسية . **فالتناقضات التى تؤثر تاثيرا حاسما فى عملية التطور ، والتى يؤدى حلها الى نشوء ظواهر وعمليات جديدة مبدئيا تسمى بالتناقضات الاساسية .** أما سائر التناقضات فتعتبر ثانوية ، غير اساسية . وثمة جم كبير من التناقضات المختلفة بين المنظومات الاقتصادية الاجتماعية فى العالم المعاصر ، ومن ابرزها التناقض المتعلق بمسألة صيانة السلام وتفادى الحرب النووية العالمية . أذ يتوقف على هذا التناقض وجود البشرية بحد ذاته ، وبالتالى مضيها قدما فى مسيرة تطورها . لهذا السبب بالذات تفرد الاحزاب الماركسية اللينينية لبرنامج السلام مكانة حازمة فى نشاطها السياسى . وهذا هو ما يفسر لماذا تلتف كل قوى البشر التقدمية المحبة للسلام حول هذا البرنامج .

ان التناقض الاساس لكل طريقة انتاج ، اى الذى يحدد طابع تطورها ، هو التناقض بين القوى المنتجة والعلاقات الانتاجية . فهما جانبان لعملية واحدة هى عملية الانتاج ، وثمة رابطة داخلية فيما بينهما . وهذه الرابطة التى تجرى ضمنها وحدة جوانب الانتاج المتضادة يتحكم بها قانون ملاءمة العلاقات الانتاجية لطابع ومستوى تطور القوى المنتجة (٢٠٤) . وقد سبق أن رأينا كيف يسرى مفعول هذا القانون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في التطور التاريخي ويحدد تعاقب التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية (٢١٧-٢٢١) وقيامها بوظائفها . ويمكن ، بطبيعة الحال ، أن تنشأ خلال عملية الانتاج تناقضات اخرى ، مثلا بين مختلف عناصر القوى المنتجة والعلاقات الانتاجية . بيد أنها جميعا ترتهن ، في التحصيل الاخير ، بالتناقض الاساس لطريقة الانتاج . وتخطيها يتوقف على حل هذا التناقض الاساس .

أن الاهمية التطبيقية لما قيل تتمثل فيما يلي : عندما نقوم بحل هذه او تلك من المسائل الاجتماعية السياسية أو الانتاجية او الايديولوجية او العلمية المعرفية ، علينا أن نحدد قبل كل شيء التناقضات الاساسية للعملية موضوع البحث . وبعد تحديدها يصبح بامكاننا أن نختار الوسائل والاشكال والطرائق اللازمة لحلها .

٣ — التناقضات التناحرية وغير التناحرية

جرت العادة على تقسيم التناقضات الاجتماعية ، حسب مستوى شدتها وطريقة حلها ، الى تناحرية وغير تناحرية . وقد سبق غير مرة فيما مضى من النص (انظر الفصلين الثاني والثالث) أن تطرقنا الى مثل هذه التناقضات . أن الصفة المميزة للتناقضات التناحرية هي مستوى حدتها الاقصى وتعذر التوفيق بين المصالح المتضادة ، وبين أهداف ومواقف هذه او تلك من الطبقات والفئات الاجتماعية ضمن اطار المجتمع المعني . لهذا يجري حل التناقضات التناحرية في صراع ضار وعنيد ينتهي ، عادة ، بالقضاء على احد الطرفين المتصارعين . فالتناقضات التناحرية بين الطبقة العاملة والبرجوازية ، مثلا ، تحل خلال الثورة الاشتراكية عن طريق القضاء على البرجوازية كطبقة . علما بأن «القضاء عليها» لا ينبغي فهمه فهما مبسطا جدا . فالمقصود هو ليس الابادة الجسدية لابناء هذه الطبقة ، انما هو تصفية الاسس الاقتصادية والسياسية لسيطرة البرجوازية في المجتمع ودحر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقاومتها السياسية عموما كطبقة ، وتصفية الملكية الرأسمالية الخاصة لوسائل الانتاج . كما أن اشكال حل هذا التناقض التناحرى بحد ذاتها يمكن أن تكون متباينة جدا ، تبعا للظروف التاريخية الملموسة فى كل بلد بعينه خلال مرحلة معينة من تطوره . والمثال الآخر على التناقضات التناحرية يمكن ان نجده فى التنقاضات بين الايديولوجيتين البرجوازية والشيوعية . فحل هذه التناقضات لا يمكن أن يتم الا عن طريق التصدى الثابت للايديولوجيا البرجوازية وفضحها والتغلب عليها . ويجرى هذا التغلب لا بمجرد نبذها وشطبها او نكرانها دونما تمييز ، انما يجرى كنتيجة لتحليل نظرى مبدئى جدى يوفر الاساس اللازم لسوق حجج وبراهين علمية ضد الايديولوجيا البرجوازية . فلولا هذه الحجج والبراهين لما كان بالامكان اقناع احد بصحة الايديولوجيا العلمية التقدمية واثبات افضليتها وقدرتها على الادراك الاصوب والاعمق لنزعات العصر وعملياته الاساسية ، وعلى تقديم تقويم لها اكثر صحة وصوابا .

وتمتاز التناقضات غير التناحرية ليس بانخفاض مستوى شدتها فحسب ، بل ايضا بطريقة حلها . أن مثل هذه التناقضات تعتبر مميزة للمجتمع الاشتراكى . فالتناقضات فيه لا يمكن الغاؤها مرة والى الابد . أن التناقضات غير التناحرية الملازمة للاشتراكية تعتبر مصدرا لتطورها ورقيّها .

وبخلاف حل التناقضات التناحرية ، لا يتطلب حل التناقضات غير التناحرية تصفية احد من الاضداد . أذ يجرى حل هذه التناقضات ، عادة ، بطريق سلمى على اساس التقارب الواعى الدائم والثابت بين مواقف ومصالح مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية . غير أن هذا «التقارب» لا يمكن ان يجرى بلا صراع الاضداد . فقانون وحدة وصراع الاضداد لا يفقد مفعوله بمجرد تصفية التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية التناحرية وما تتسم به من تناقضات . وللمجتمع اللاتناحرى تناقضاته المتميزة التى يتمخض عنها تطوره ، والتى تؤثر فى هذا التطور . علاوة على ذلك ، أن التناحرات ، أيا كانت ، اذا

17*

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم يصر الى حلها فى الوقت المناسب ، قد تبلغ درجة كبيرة من الحدة وتشرع فى عرقلة تطور المجتمع . على سبيل المثال ، ان الطرائق الادارية البيروقراطية القائمة على الاوامر والايعازات في تسيير الاقتصاد الاشتراكى فى الاتحاد السوفييتى ، وهى الطرائق التى نشأت خلال الثلاثينيات والاربعينيات تحولت خلال العقود التالية الى تناقضات حادة مع مستلزمات التطور الاجتماعى . وعلى الرغم من عدم وجود مصالح تناحرية طبقية وراء هذه التناقضات ، يرتبط حلها بمصادمات بين وجهات النظر المحافظة (المتزمتة) والتقدمية وما يناسبها من طرائق القيادة ومختلف اهداف الفئات الاجتماعية . لهذا لا يمكن حل التناقضات اللاتناحرية بالقوالب الجامدة او الوصفات الجاهزة ، انه يتطلب موقفا جدليا ابداعيا أزاء الظواهر الجديدة .

٤٠٧

حل التناقضات فى المجتمع الاشتراكى . تختلف التناقضات التى تنشأ وتحل فى ظل الاشتراكية عن التناقضات التى تتسم بها التشكيلات التناحرية السالفة .

ليس فى المجتمع الاشتراكى أساس اجتماعى للتناقضات التناحرية بين الطبقات والفئات الاجتماعية . بيد أن هذا لا يلغى وجود تناقضات بين المصالح الشخصية والاجتماعية ، بين الافراد وفرق العاملين ، بين المسؤولين وفرق العاملين ، بين مختلف المشاركين فى العملية الانتاجية الواحدة . ويحتمل كذلك ان يكون هناك تناقض بين آليات الحوافز المعنوية والمادية ، بين مؤسسات منفردة وفروع انتاجية كاملة ، بين مجهزى السلع الصناعية ومستهلكيها ، الخ . وهناك ايضا انتهاكات وخروق للقوانين ، ومحاولات للعيش على حساب الآخرين ، وحوادث سرقة الممتلكات الاشتراكية ، ومظاهر للبيروقراطية والروتين وما الى ذلك . كل هذه الظواهر تناقض مبادئ الاشتراكية . ولكن لا ينبغى اضفاء صفة مأسوية عليها ، مثلما لا ينبغى التقليل من مخاطرها السلبية . ويتسنى حل وتجاوز هذه التناقضات اذا ما جرى رصدها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبحثها في الوقت المناسب . والمثال على حل تناقضات المجتمع الاشتراكي في المرحلة الراهنة هو البيريسترويكا ، أى عملية التغيير العميقة والثورية من حيث الجوهر ، الجارية الآن في الاتحاد السوفيتي والتى تشمل كل جوانب الحياة الاجتماعية . فالذى املى عملية البيريسترويكا هو أن ثمة ظواهر ركود اخذت ترتسم في المجتمع السوفييتى اواسط السبعينات نتيجة جملة من الاسباب الموضوعية والهفوات الذاتية . فقد تباطأت وتيرة التنمية الاقتصادية وراحت تتخلف بعض فروع الصناعة والزراعة ، ولم تجر تلبية احتياجات السكان المادية والروحية بالقدر الوافي . الى جانب ذلك لم يجر الانتفاع على الوجه الاوفى من افضليات ومنجزات الاشتراكية : فقد اشتدت النزعات البيروقراطية ، ولم يجر بالقدر الكامل استخدام آلية الديمقراطية الاشتراكية والغلاسنوست (العلنية) في مناقشة المعضلات الاجتماعية الملتهبة . كل هذا كان يناقض سنن المجتمع الاشتراكي واهدافه الاساسية . وعندما بلغت التناقضات مستوى معينا أدركها الحزب الذى اهاب بكل الكادحين الشروع في تجديد المجتمع ، وفي اعادة بناء كل الآلية الاقتصادية والاجتماعية ، وفي دعم وتوسيع نطاق الديمقراطية والغلاسنوست . بيد أن هذه التناقضات لا تعتبر تناحرية ، ذلك انها لم تكن وليدة مجابهة بين قوى طبقية لا تتهادن ، بل تكمن وراءها اسباب لا تتطلب ازالتها تصفية هذه او تلك من الطبقات او الفئات الاجتماعية . وتتوفر لدى المجتمع الاشتراكي جملة كاملة من التدابير التربوية السياسية والوسائل الادارية والقانونية والتنظيمية والاقتصادية التى يمكن ويجب بواسطتها ان تحل هذه وغيرها من التناقضات . وفي سياق تطور المجتمع تبرز بأستمرار مهمات تقنية وادارية وتكنولوجية جديدة . وتنفيذها يتطلب في بعض الحالات تطويرا سريعا للقوى المنتجة ، ويقتضى في حالات اخرى تحسين العلاقات الانتاجية ونظام الادارة . وفي غضون ذلك تتخلف بعض عناصر طريقة الانتاج و«تشيخ» ، فيما تتطور عناصرها الاخرى سريعا وتمضى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الى الامام . وهذا النوع من التناقضات بين الجديد والقديم لا يمكن أن تحل مرة والى الابد وفى كل ميادين حياتنا . انهـــا موجودة دائما ، تحل وتبرز من جديد . وهذه نتيجة طبيعيـــة لتقدم المجتمع وتطور كل جوانب حياته باطراد .

ان المجتمع الاشتراكى يسير الى الامام على طريق التقدم الاجتماعى (٤٢٢) ، لهذا تبرز باستمرار تناقضات تســـم التطور الاجتماعى ، ومن جملتها التناقضات بين الوعـــى الاجتماعى والوجود الاجتماعى ، بيـــن البناء التحتى والبناء الفوقى . ويجرى حل مثل هذه التناقضات على اساس العمـــل بشتى الوسائل على رفع مستوى القيادة السياسية للمجتمـــع من قبل الحزب والدولة الاشتراكية .

وفى سياق تطور الاشتراكية يجب ان يجرى توليـــف مبرمج وتطوير متوازن لكل ميادين الحياة الاجتماعية . لـذا ، فالى جانب الوسائل الخاصة لحل كـــل نوع محدد من انواع التناقضات ، هناك ايضا اشكال وطرائق عامة ، بالنسبـــة للنظام الاشتراكى ، لحل التناقضات التناحريـــة ، ويعزى اليها : ١ — القيادة السياسية للمجتمع من قبل الحزب الذى يقوم بوضع أعمق وأصوب استراتيجية وتكتيك لتنفيذ المهام الاجتماعية ؛ ٢ — الادارة المعللة علميا للاقتصاد الوطنى مـن قبل الدولة الاشتراكية وهيئاتها ، والعمل بشكل منتظم عـلى ازالة وتخطى كل انواع البيروقراطية والنزعات المكتبيـــة والمحلية الضيقة ؛ ٣ — النقد والنقد الذاتى كطريقة للكشف عن النواقص وتلافيهـــا ؛ ٤ — المباراة الاشتراكية كشكل لتنفيذ المهمات التطبيقية الماثلة أمام كـــل فريق من فرق العاملين وأمام المجتمع بوجه عـــام ، وتطوير نشاط فرق العاملين وتشجيع روح المبادرة لديهـــا ؛ ٥ — تنمية الادارة الذاتية الاشتراكية ، وتطويـــر الديمقراطية الاشتراكية ؛ ٦ — تطوير علاقات التوزيع التى تؤثر تأثيرا كبيرا فى نمـــو الاهتمام الجماعى والشخصى بأنماء الانتاج الاجتماعى وفـــى مستوى ونمط الحياة ؛ ٧ — تشديد الرقابة على كمية العمـــل ونوعيته ، والاستخـــدام العادل للحوافز المادية والمعنوية ؛

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٨ – توطيد اركان الشرعية والنظام القانونى الاشتراكـــــى والتقيد الصارم بأصـــول الحياة الاشتـــــراكية ؛ ٩ – العمل التربوى السياسى والايديولوجى كوسيلة لبلورة صيغة العقيدة الشيوعية وكأساس لبلوغ اقصى قدر من التوافق التام بين عاملى التطور الذاتى والموضوعى فــــى ظل الاشتراكية ؛ ١٠ – العلنية التامــــة فى مناقشــــة المشاكل والتناقضات القائمة .

٤٠٨

قانون وحدة وصراع الاضداد – جوهر ونواة الجدلية . اجمــالا لما ذكرنا آنفا يمكن ان نضع صيغة لاحد أهم وأبرز قوانيــن الجدلية ، الا وهو قانون وحدة وصراع الاضداد . ومنطوق هذا القانون هو الآتى :

١ – أن كل ظاهرة فى الطبيعة والمجتمع والفكر تنطوى على جوانب وصفـــات ومميزات ومنظومات ثانوية (عناصر) متضادة تتفاعل أو تترابط فيما بينها ترابطــا ضروريا ، أى انها تندرج فى وحدة .

٢ – هناك علاقة تناقض جدلى بين الاضداد المندرجـــة فى وحدة .

٣ – أن مصدر الحركـــة ، أيا كانت ، ولا سيما مصدر التطور ، هو نشوء التناقضات الداخلية الاساسية واستفحالها وحلهـــا . ويعتبر حل التناقضات العامل الحاسم والسبب الرئيسى للتطور .

٤ – يجرى فى سياق التطور انتقال بعض الاضداد الى بعضها الآخر انتقالا جدليا . ويجرى تصادم الاضداد وتفاعلها وتداخلها ،

٥ – فى نتيجـــة صراع الاضداد وتحولهـــا المتبادل وتناقلاتها المتبادلة ، وفى حصيلة حل التناقضات تنشـــأ ظواهر او عمليات أو مميزات الخ . جديدة لاارتدادية ، لم يكن وجود لها من قبل .

ويرتدى قانون وحدة وصراع الاضداد طابعــا عاما متعدد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاغراض . ولفهم هـــذا القانون أهمية عقائدية ومنهجيـــة وايديولوجية كبيرة .

عندما يصطدم الانسان ذو التفكيــــر الميتافيزيقى بالتناقضات فى الحياة الشخصية والاجتماعية أو فى الصراع السياسى او فى حقل الانتاج او فى العلم ، يسعى الى التنصل منها وتحاشيها وتذليلها و«طمس معالمها» وهلمجرا . وهـــو لا يبحث فى كل ظاهرة جديدة ، وخاصة الظواهر المفاجئة ، الا عن الاسباب الخارجية . ان كل هذا لا يعيق فهم الاسباب الحقيقية للتغيرات فى العالم المحيط بنا فحسب ، بل ويعرقل المساهمة الفعالة فى تغييره تغييرا هادفا وواعيا لما فيه خير البشر . وعلى الضد من ذلك نجـــد الانسان ذا التفكير الجدلى يعرف أن مصدر التطور ، أيا كان ، هو صراع الاضداد وحل التناقضات الداخلية . ولهذا فهـــو لا يقر بوجود التناقضات الموضوعية فى الطبيعة والمجتمع والفكر فحسب ، انما يسعى كذلك الى استقصائها ودراستها ، وفصل الداخلية منها عـــن الخارجية ، والاساسية عـــن الثانوية ، والتناحرية عـــن اللاتناحرية ، وايجاد الرابطة والعلاقـــة فيما بينها وتبيان الوسائل والاشكـــال والطرائق اللازمة للتغلب على هـــذه التناقضات وحلها . وبطبيعة الحال ، ليس دائما وليس فى كل وقت يمكن التأثير فى عمليات التطور الموضوعية ، مثلا على نطاق الكون بأسره او حتى على صعيد منظومتنـــا الشمسية . ولكن حيثما يتسنى ادراج ظواهر الطبيعة والحياة الاجتماعيـــة فى نشاط الانسان الملموس ، تتيـــح القدرة على استخدام قانون وحدة وصراع الاضداد فرصا كبيرة لان يؤثر الانسان تأثيرا معقـــولا فى العمليات الطبيعية وفـــى سير التطور التاريخى .

اشكال التطور

٤٠٩

بصدد شكل التطور ، يصف كتاب الكاتب الامريكى الشهير جون ريد «عشرة ايام هزت العالم» بحماسة وتلهف كيف قامت ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى . فالاحداث التى وصفها ريد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت قد هزت العالم بالفعل ، وبدت للكثيرين قفزة مفاجئة وعملاقة فى التطور التاريخى . وكانت هذه القفزة التى جاءت كأنما لتشطر مجرى التاريخ الى عصرين تاريخيين مختلفين تماما ، ثمرة للتطور السالف الطويـــل الامد ، وهو الصراع الطبقى الذى خاضته البروليتاريا فـــــى روسيا ، والنشاط الثورى لحزب البلاشفة بزعامة لينين .

حين نتأمل عمليات التطور فى الطبيعة والمجتمع والفكر ، بامكاننا أن نلاحظ أنها تتصف جميعا بحلول فترات التغيرات المتواثبة ، اى ما يسمى بانقطاعات التدريج ، محل فترات التغيرات التدريجية الانسيابية . فهل هذا وليد المصادفة ؟ أم ان هناك سُنّة ما ، صلة موضوعية بين مثل هذه الفترات ؟ الجواب عن هذه الاسئلة يقدمه التعليم الجدلى عن شكـــل التطور .

أن لكل ظاهرة وعملية شكلها ومضمونها (١١١) . وقد اوضحنا فى القســـم السابق أن مضمون التطور ومصدره يشكلهما صراع الاضداد الداخلية الاساسية وحل التناقضات القائمة بينهما . والتغيرات الناجمة عن ذلك يمكن أن تكون تدريجية ، متواصلة او متقطعة ، متواثبة . والصلة بين هذين النمطين من التغيرات هى التى تحدد شكل عملية التطور ، أيا كانت . لهذا يجب علينا حين نتطرق الى عملية التطور ان ندرس شكلها بانتباه ، أى ان ندرس ترابط المتواصل والمتقطع ، التدريجى والمتواثب خلال جميع تجلياته فـــــى الطبيعة والمجتمع والفكر . وهدف هذه الدراسة هو ايجاد وصياغة القانون الموضوعى الذى يحدد شكل التطور أيا كان .

٤١٠

حوار حول المتواصل والمتقطـــع ، التدريجى والمتواثب فى عملية التطور . نشأ فى تاريخ الفلسفة موقفـــان متضادان ونظرتان متعارضتان الى شكل التطور . ولاجل فهم ذلك بشكل افضل ، نعود مرة اخرى الى الحوار بين الجدلى والميتافيزيقى .

الجدلى (ج) : أملى منك ألا تنكر أننا نصادف فى العالم المحيط بنا بأستمرار تغيرات تدريجية وأخرى متواثبة .

الميتافيزيقى (م) : هذا ، على اقل تقدير ، ما نستدله من رصدنا للظواهر ومن تجربتنا الحياتية ، ان امكن الاعتماد عليها .

ج : ما الذى يثير الشك لديك ؟

م : مسألة ما هو نمط التغيرات الموجود فى الواقع ، وأى الانماط هو السائد والاساسى . أفبالامكان أن تجرى فى كل ظاهرة متنامية تغيرات متواصلة ومتقطعة تدريجية ومتواثبة فى آن واحد ؟

ج : لماذا ترفض هذا الاحتمال ؟ أفلا يمكن ابدا اجتماع المتقطع والمتواصل ؟

م : لان الطبيعة نفسها والمادة نفسها يجب فى هذه الحالة أن تكون متقطعة ومتواصلة فى آن واحد ، بينما هما امران متعارضان . وقد لفتت هذه الصعاب انظار مفكرى الماضى . فى سبيل المثال ، كان هيراقليطس يقر بتواصل التغيرات عندما يقول أن كل شىء يجرى وكل شىء يتغير . لهذا كان يقول أن من المتعذر على المرء أن يسبح فى نفس النهر مرتين : فعندما يثب المرء الى النهر فى المرة الثانية يكون الماء قد جرى والنهر قد تغير . وذهب تلميذه قراتيلس الى ابعد من ذلك حين قال أن من المتعذر على المرء أن يسبح فى نفس النهر حتى ولو مرة واحدة . ذلك أن مجرى النهر يتغير كل لحظة ، وبالتالى فهو ليس النهر نفسه . وكان هذا وانصاره يعتقدون أن كل الاشياء والظواهر تبدو وكأنها تغدو فى كل لحظة أشياء وظواهر اخرى ، وما دام الامر كذلك فليس بالمقدور أن نقول عنها شيئا دقيقا ومحددا : فريثما ندلى باقوالنا يكون الشىء قد تغير .

ج : ولكن كانت هناك آراء اخرى .

م : هذا صحيح . فالفيلسوف اليونانى زينون (حوالى ٤٩٠ – ٤٣٠ ق . م) كان له الرأى التالى : أن السهم المنطلق يكون كل لحظة فى نقطة معينة ، وفى اللحظة التالية يكون فى نقطة اخرى ، وهذا يعنى أن الحركة متقطعة وتجرى بشكل قفزات . غير أن السهم الى جانب ذلك ينتقل من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نقطة الى نقطة تدريجيا ، ويتجاوز فى الوقت ذاته عددا غفيرا من النقاط فى كـــل قطاع من مساره . اذن ، فالحركـــة متواصلة ، تدريجية . وكل ادعاء ، كما نرى ، يناقض الآخر .

ج : وماذا تستنتج من ذلك ؟

م : لقد توصل زينون واتباعه الى استنتاجـــات بعيدة المرامى . وما دامت هذه الادعاءات متناقضة ، فليس ثمة ما يدعو الى الحديث عن الحركة والتطور . فالحركة ليست سوى ترتراء . أن كل الاشياء الواقعية ثابتة ودائمة ومكافئة لذاتها . أذن ، فالحركة لا وجود لها أصلا . وعليه فلا داعى للتخمين : أهى تدريجية أم متواثبة هذه أو تلك من تجليات الحركة .

ج : ينبغى أن نضيف الى ذلك أن الجدل حول المتواصل والمتقطع ، التدريجى والمتواثب ، قد استمر فى الفلسفـــة والعلوم الطبيعية ابان العصر الحديث ايضا . مثـــلا ، كان ديكارت يعتقد أن المادة تتألف من دقائق منفردة ، وهـــى فى حركة متواصلة . اما سبينوزا فقد ذهب الى ان اصـــل العالم ينطوى على اصل مادى لجميع الاشياء ، واحد لا يقبل التجزئة ، هو الجوهر . وكان علماء الفيزياء يقرّون حتى حلول القرن العشرين بوجود وسط عالمى متواصل هو الاثير وبوجود دقائق معزولة لا علاقة لها بالاثير بتاتا هى الجزيئات والذرات الخ .

م : وما هى وجهة النظر الى تتبناها أنت ؟ هل تعتقـد أن الحركة والتطور ينحصران فى التغيرات المتواصلـــة والتدريجية أم فى التغيرات المتواثبة والمتقطعة ؟ وهل يعتبر العالم المادى نفسه «متواصلا» بلا انقطاعات أم هو متقطـــع ومتجزئ ؟

ج : انا واثق من أن كلتا وجهتى النظر هاتين مغلوطتان . فهما تقطعان الرابطة الموضوعية الواقعية بين مختلف انماط التغيرات وتضعان بعضها نقيضا للآخر . وهذا مـــا يتمثل فيه النقص الرئيسى لمنهج التفكير الميتافيزيقى . أما الجدَلية فتسعى الى ايجاد الوحدة الحقيقية بين المتقطع والمتواصل ، بين التدريجى والمتواثب . وبالاستناد الى قانون وحـــدة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وصراع الاضداد تتوجه الجدلية الى الواقع ذاته وتبحث كيف تترابط انماط التغيرات هذه فيما بينها .

ليس من اليسير بتاتا فهم الترابط الجدلى بين التدريجى والمتواثب ، بين المتقطع والمتواصل . فأمتلاك ناصية الموقف الجدلى من هذه المسألة يقتضى النظر فى جملة من المقولات الفلسفية الجديدة واستيعاب الترابط العميق فيما بينها وتبيان صلتها بالعلم المعاصر والممارسة الاجتماعية . آنئذ فقط تغدو أفضلية النظرة الجدلية امرا لا جدال فيه .

٤١١

الكمية والكيفية والحد والقفزة . لقد تعلم البشر من خلال ما يصادفونه من أشياء وعمليات مختلفة فى الحياة اليومية والاجتماعية وفى حقل الانتاج تمييز هذه الاشياء بعضها عن بعض والمماهاة بينها وجعل بعضها نقيضا للآخر . ويغدو هذا ممكنا لان مختلف الظواهر فى الواقع الموضوعى ذاته تتسم بنوع من الاستقرار . فعلى امتداد فترة طويلة او قصيرة من الزمن تبقى تلك السمات التى تميزها عن سائر الظواهر والعمليات ثابتة ، أى مكافئة لذاتها . ويرمز لهذه الخاصية التى تسم ظواهر العالم الموضوعى ، عادة ، بواسطة مفهوم «الكيفية» (النوعية ، الكيف) . وقد تتغير نفس تلك الظواهر والعمليات ، كونها دائمة وثابتة الى درجة ما ، دون أن تتحول الى ما هو مغاير لها ، اى تبقى مثلما كانت فى الماضى . ويرمز لخاصيتها هذه بمفهوم «الكمية» (الكم) . مثلا ، يتعرض مظهر الانسان على امتداد حياته لتغيرات مختلفة : اذ يتغير لون بشرته ، يشيب أو يتساقط شعره ، يتغير وزنه وعدد وتوزع التجاعيد على وجهه ، الخ . وهذه التغيرات يمكن وصفها بالكمية . ورغم ذلك ، عندما نتفحص هذا الانسان او صوره الفوتوغرافية الملتقطة فى اوقات مختلفة ، نستطيع القول بأننا نرى نفس الوجه ونفس الشخص ، وبالتالى بأن مواصفاته الكيفية تبقى فى الاساس كما هى .

يمارس مفهوما «الكيفية» و«الكمية» دورا حاسما بالنسبة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لدراســـة كل اشكال الحركة والتطور ، ولهذا فهما يندرجان فى عداد أهم المقولات الفلسفية . بيد أن الفلسفة ما كان لها ان تكون اختصاصا علميا لو كانت تقتصر على اقتباس مقولاتها من الحياة اليومية دون أن تعمقها وتمحصها . فما هو المغزى الفلسفى لهذه المقولات ؟

أن كل ظاهرة تصادفها يمكن تناولها كمنظومة (١٠٦) . فالمنظومة بالنسبة للطبيب هى جسم الانسان المؤلف مـن عشرات الاعضاء واجزائها ومختلف الروابط والعلاقات فيما بينها . والمنظومة بالنسبة للعمال والمهندسين هى المؤسسة المعنية التى تضم عددا من الورش والفرق وخطوط التجميع ومكائن الانتاج وما يجمع بينها من علاقات وروابط تكنولوجية . وعلى مدى فترة معينة من الزمن تبقى المنظومات الثانويـــة الاساسية والعناصر والروابط التى تؤمن وجود كل منظومة من هذه المنظومات ونشاطها الحيوى مستقرة الى هذا القدر او ذاك ، وتحتفظ بسماتها ومواصفاتها الاساسية فتضمـــن بذلك وحدتهـــا المتكاملة وتكافؤهـــا مع ذاتها . وعليه **فأن مجموع العناصر الاساسية والروابط والعلاقـات التى تؤمن خلال فترة معينـــة من الوقت استقرار المنظومة المعنيـــة ووجودها وتطابقها مع ذاتها ، والتى تميزها فى عين الوقت عن سواهـــا من المنظومات ، تعكسه مقولة «الكيفيـة» أو «التعيُّن الكيفى» .**

وتسمى بعض تجليات الكيفية **بالخواص** ، لهذا لا يندر القول أن الكيفية هى نسق مستقر من الخواص المعينة . مثلا ، أن مادة «السكر» العضوية عبارة عن كيفية محددة تمامـــا ، اما اللون الابيض الذى يتسم به السكر او قدرته على استثارة المذاق الحلو وقابليته على الذوبان فى الماء وما الى ذلك هى خواص منفردة له .

من المعروف جيدا ان كل الظواهر والعمليات تتعـرض بمرور الوقت لهذا القدر أو ذاك من التغيرات الملحوظة . فبتقدم السن يتغير تركيب دم الانسان ، وتظهر وتتـــلاشى وظائف فسلجية مختلفة ، وتتغير مقاسات الاعضاء المختلفة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهلمجرا . وفى المؤسسة الصناعية تختفى مكائن الانتاج القديمة وتظهر اخرى جديدة ، وكذلك الحال بالنسبة لخطوط التجميع والورش وفرق العمل . ويحتفظ الانسان والمؤسسة على السواء خلال ذلك بتعيئنه الكيفى . لذا فان **تلك الروابط والعلاقات التى يؤدى تغيرها فى حدود معينة الى تغير بعض خواص ومواصفات المنظومة المعنية ، لكنه لا يخل بتعينها الكيفى ، تسمى بالكمية ، اما المقولة التى تعكسها فتسمى بالكم أو التعين الكمى .**

والتعين الكمى موضوعى ، شأنه شأن التعين الكيفى . وقد تحدث داخل الكيفية المعنية تغيرات كمية تدريجية فى بعض السمات أو المواصفات . ويمكن قياس هذه التغيرات ومقارنتها حسب درجة او فاعلية تناميها او ضمورها . ويمكن على الدوام التعبير عن نتائج التغيرات بمساعدة الارقام ، لذا يمكن استخدام الرياضيات لدراسة ووصف التغيرات الكمية . وتشكل دراسة التغيرات الكمية اساسا لاستخدام الرياضيات فيما يتعلق بشتى العمليات الجارية فى الطبيعة والمجتمع والفكر (٥١٤) .

فى تعريف الكمية الذى اوردناه نصادف التعبير المهم التالى : «الحدود المعينة» ، وهو جدير باهتمام خاص ، ذلك أن التغيرات الكمية ، أى تغيرات الروابط والعناصر والمنظومات الثانوية التى لا تخل بالتعين الكيفى للظاهرة المعنية ، لا يمكن ان تجرى الا لحدود معينة . وبتجاوز هذه الحدود تؤدى التغيرات الكمية الى انقطاع الصلات والعلاقات الكيفية ، والى تهدم المنظومات الثانوية والعناصر الاساسية . وهذه الحدود تسمى **بالحد** * . ولكل ظاهرة تتمتع بكيفية خاصة وتنماز عن سواها من الظواهر حدها الخاص . والاخلال بالحد يؤدى الى تهدم الكيفية المعنية . فالروابط والعلاقات

---

* مصطلح الحد لا يعبر تعبيرا وافيا عن كلمة «mère» التى تعنى ايضا المعيار ، المعدل ، الكيل ، المقياس ، الخ — **المترجم .**

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القديمة تتقطع وتتلاشى جزئيا او كليا ، وتتهدم وتتغير العناصر والمنظومات الثانوية السالفة . وتقوم فى محلها روابط وعلاقات وعناصر ومنظومات ثانوية اساسية جديدة ، وبالتالى تنشأ كيفية جديدة . **وهذا الانقطاع فى الروابط والعلاقات الكيفية القديمة ، وتهدم او تبدل العناصر والمنظومات الثانوية المعنية باخرى جديدة يسمى بالقفزة (الطفرة)** . ومفهوم «القفزة» مقتبس هو الآخر من الحياة اليومية ، لكنه يكتسب فى الفلسفة مغزى خاصا . والمغزى الفلسفى الرئيس لهذا المفهوم هو ليس حدوث انتقال سريع او تغير مواقع او وثبة فى المكان ، انما هو انقطاع وتحول الروابط والعناصر والمنظومات الثانوية الكيفية الاساسية المستقرة للظاهرة المعنية . وبطبيعة الحال ، أن مثل هذا الانقطاع غالبا ما يجرى بصورة سريعة نسبيا ، اذا قورن بالفترة السالفة من التغيرات الكمية . لهذا تبدو لنا التغيرات الكمية انسيابية ، تدريجية ، «رتيبة» او بطيئة ، بينما تبدو القفزات او التغيرات الكيفية وكأنها انقطاع التدريج ، كأنها تغير فورى او «انفجارى» . اما فى الواقع فأن القفزة فى هذه الحالة قد تكون طويلة الامد ومعقدة الى هذا القدر او ذاك . وما «قصر امدها» سوى امر اصطلاحى ، ولا يجوز التحدث عنه الا بالمقارنة مع التغيرات الكيفية السالفة . فمن المعروف ، مثلا ، أن التغيرات الكيفية عند الانتقال من عصر جيولوجى فى تاريخ الارض الى عصر آخر كانت تستغرق ملايين السنين . ولا يمكن ان تبدو قصيرة الامد وفورية الا بالمقارنة مع المراحل السالفة من التغيرات الجيولوجية الكمية البطيئة نسبيا والتى استغرقت مئات ملايين السنين . فالاكتشافات العلمية الكبرى كأكتشاف كم الفعل الفيزيائى على يد عالم الفيزياء الالمانى بلانك ، تبدو فى بعض الاحيان وكأنها استبصار فورى ، او قفزة خاطفة فى المعرفة العلمية . وبالفعل ، فقد استغرقت صياغة فكرة الكم بحد ذاتها بضعة أيام ، وهذه المدة لا تبدو قصيرة الا بالمقارنة مع السنين الطويلة من العمل الدؤوب السالف الذى خلص بلانك خلاله الى صيغة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه الفكرة الجديدة مبدئيا ونوعيا فى الفيزياء المعاصرة . ويبدو أقصر امدا كذلك التفجير الذرى الذى يجرى خلاله تحول كيفى لطاقة الرابطة الداخلية لنواة الذرة الى طاقة اشعاعية وحرارية . ولكن من الاهمية بمكان من الناحية الفلسفية أن نفهم أن الصفة الرئيسية للعمليات التى تعكسها مقولتا «التغيرات الكمية» و«التغيرات الكيفية» («القفزة») هى ليست المدة التى تستغرقها العملية ، بل مضمونهما ، أى جوهرها ، ذلك أنه لا يجرى فى الحالة الاولى سوى تغيير بعض روابط العناصر والمنظومات الثانوية ضمن اطار الكيفية المعنية ، أما فى الحالة الثانية ، فهى تتهدم وتتقطع ، وتنشأ كيفية جديدة . ويرتدى هذا الاستنتاج اهمية خاصة بالنسبة للتغيرات الكمية والكيفية فى المجتمع .

٤١٢

الارتقاء والثورة . للوهلة الاولى لا يبدو أن ثمة علاقة ما بين الاكتشاف العلمى وتبدل العصور الجيولوجية والثورة الاجتماعية . ولكن للوهلة الاولى فقط . فعند تمحيص العمليات المعنية بمزيد من الانتباه يمكن ادراك انها جميعا عبارة عن قفزات كيفية وانقطاعات معينة فى سير الاحداث التدريجى ، انقطاع فى العملية المتواصلة . هنا يبرز السؤال التالى : هل ثمة رابطة موضوعية مشروعة بين التغيرات الكمية والكيفية ، بين سير الاحداث الانسيابى التدريجى المتواصل وتغيراتها المتواثبة ؟ لقد اعطيت اجابات متباينة عن هذا السؤال .

ان الله ، حسب المعتقدات الدينية ، خلق العالم مرة والى الابد جاهزا ومكتملا . لهذا لا تحدث فيه ايما تغيرات عميقة حقا . وتعتبر شتى ضروب التغيرات الكيفية والقفزات فى الطبيعة والمجتمع مجرد ظواهر طارئة يستعصى فهم مغزاها على الانسان . وقد تعزى هذه القفزات والكوارث الى مكائد الشيطان . اما فى الواقع فليس هناك تحولات كيفية ولا يمكن ان تكون ثمة ظواهر جديدة كيفيا .

ومع تطور العلم تراكمت وقائع غير قابلة للدحض تثبت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن سطح الارض بحد ذاته كان يتغير كيفيا على مدى تاريخ الارض . اذ ظهرت قارات جديدة وجزر وجبال جديدة ، وتغيرت امام انظار البشر احيانا مجارى الانهار وتضاريس سواحل البحار . واكتشف البشر أن العهود القديمة شهدت انواعا من الحيوانات والنباتات ليس لها وجود فى الوقت الراهن . ليس هذا فحسب ، بل وتعلموا كيف يمكنهم اشتقاق فصائل جديدة من الحيوانات والنباتات . على هذا النحو جرى تقويض ودحض الفكرة القائلة بعدم تغير العالم كيفيا . وحلت محلها وجهتا نظر متضادتان بشأن عملية التطور .

اطلق على الاولى نعت «الكارثية» ، وهى تتجلى باوضح صورة فى اراء عالم الحيوان الفرنسى ج . كوفييه (١٧٦٩ - ١٨٣٢) . ففى مسعى منه الى تفسير انقراض بعض الانواع البيولوجية وظهور غيرها ، تقدم بفرضية مفادها ان تاريخ الارض تتعاقب فيه على الدوام فترات تكون حالة الطبيعة فيها ساكنة وثابتة واخرى تحدث فيها كوارث مروعة هى الجوائح . وفى الفترة الزمنية بين الجوائح لا تحدث تغيرات فى الحيوانات والنباتات . اما فى سياق الجائحة فيهلك كل الاحياء تقريبا وتظهر فى الظروف الجديدة انواع جديدة من الحيوانات والنباتات لا علاقة لها بتاتا بالانواع السالفة . وتعذر على فرضية كوفييه الاجابة عن سؤال لماذا يوجد هذا العدد الكبير من اوجه الشبه فى بنية اجسام الكائنات الحية التى كانت على قيد الحياة قبل الجائحة وبعدها . عدا عن ذلك ، اظهرت دراسة تاريخ الارض ان «الانقلابات الجيولوجية» نفسها غالبا ما كانت تستغرق فترات امدها آلاف ومئات آلاف وحتى ملايين السنين وأن الحياة على الارض لم تنقطع خلال هذا الوقت . وبالرغم من أن اراء كوفييه قد دحضت على هذا النحو ، انتشرت وجهة النظر القائلة بأن التطور يتألف من مراحل غير مترابطة فيما بينها من السكون والكوارث انتشارا معينا فى فهم العمليات الاجتماعية . وتجسدت فى نظريات الفوضويين والمتطرفين السياسيين ونشاطهم السياسى . اذ كان هؤلاء جميعا مزهوين بثوريتهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المتطرفة ويعتقدون ان بامكانهم فى اية لحظة وفى اية مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى القيام بانقلاب ثورى والقضاء على سلطة الدولة وتصفية الملكية الخاصة بلمح البصر واقامة نظام اجتماعى جديد . وقد اثبت لينين بطلان هذه «الثورية» الكامل . أن الفوضوية والتطرف والارهاب فى الواقع تعبير عن تذبذب البرجوازية الصغيرة وافتقارها الى التنظيم وعدم ثقتها بطاقاتها . وابانت ممارسات الحركة الثورية العالمية ان الثورات الاجتماعية العميقة والجادة لا يمكن أن تحدث الا حين يحضرها كل مجرى الاحداث التاريخية الموضوعى السالف . فاستلام سلطة الدولة وتصفية الطبقات التناحرية وبناء الاشتراكية مرحلة منطقية ومشروعة من مراحل تطور المجتمع .

واطلق على وجهة النظر الثانية نعت «الارتقائية» . ففى اواسط القرن التاسع عشر وضع داروين نظريته الارتقائية على اساس تعميمات مادة وثائقية غزيرة . وحاول الداروينيون الاجتماعيون نقل نظرية الارتقاء البيولوجى وتطبيقها على المجتمع (٣٠٧) . وهذا هو الذى افضى الى ظهور المذهب الارتقائى . ولا يجوز الخلط بينه وبين نظرية الارتقاء . فالارتقاء هو مجرى عملية تسوده التغيرات الكمية التدريجية . والارتقائية تحصر التطور كليا فى الارتقاء وتنكر دور التغيرات الكيفية الثورية . وتفضى الارتقائية فى مجال فهم العمليات الاجتماعية الى الاصلاحية والتحريفية . فالاصلاحيون السياسيون والتحريفيون هم من حيث الجوهر مطايا الايديولوجيا البرجوازية داخل الحركة العمالية . وفى رأيهم ان الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية هو عملية ارتقائية رتيبة بلا قفزات ولا هزات ثورية . وهو يتم بواسطة الاصلاحات السلمية المفضية الى تغيرات كمية محضة فى مجال دفع اتعاب العمل وعدد ساعات العمل اليومى . وتعرض على العمال كمية معينة من اسهم المؤسسات التى يعملون فيها ، وبذا — كما يدعى الاصلاحيون والتحريفيون — ينمحى بالتدريج الخط الفاصل بين العمال والرأسماليين ، اما الرأسمالية «فتتطور الى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اشتراكية» بلا صراع طبقى وبلا ثورة . واذا اخذنا بالاعتبار أن نمو الاجور لا يغطى نمو الغلاء ، وان تقليص ساعات العمل يقترن بتكثيف العمل ، وأن الرأسمالية عندما تقدم الاسهم لعشرات او مئات العمال تحكم على الملايين بالبطالة ، فسوف يتضح بجلاء المغزى الحقيقى للاصلاحية والتحريفية . وبطرح الارتقائية البرجوازية بديلا للماركسية اللينينية الثورية يكرس الاصلاحيون المعاصرون فى الواقع استغلال الانسان للانسان ويسعون الى اطفاء جذوة الصراع الطبقى وتفادى التحويل الفعلى للمجتمع .

على هذا النحو نجد ان الفهم الميتافيزيقى الوحيد الجانب للتغيرات الكمية والكيفية فى عملية التطور يندرج فى اساس مختلف النظرات اللاماركسية الى عملية التطور . فأحدى النظرتين (الكارثية) لا ترى ان التغيرات الكيفية الجذرية تمهد لها وتسببها التغيرات الكمية التدريجية . والنظرة الاخرى (الارتقائية) تحصر كل التطور فى التغيرات الكمية وتنكر اهمية التغيرات الكيفية وبالتالى تعجز عن تفسير من أين تنشأ الظواهر الجديدة فى الحياة الاجتماعية . اذن فالفهم الصحيح للتطور يتمثل فى اكتشاف ودراسة الترابط الفعلى بين هذين النمطين من التغيرات . **أن الجدلية المادية تؤكد بالاستناد الى تجربة التطور التاريخى وبالتطابق التام مع معطيات العلم الحديث ان التغيرات الكمية التدريجية لأية ظاهرة او عملية تؤدى بالضرورة وبحكم قوانين التطور ، عند المرور عبر حد معين ، الى تغيرات كيفية جذرية تنشأ فى نتيجتها كيفية جديدة وظاهرة او عملية جديدة .** بعبارة اخرى ، أن الارتقاء ، ايا كان ، يوفر عاجلا أو آجلا الظروف اللازمة للثورة . كما ان العملية الثورية الناجزة توفر بدورها الممهدات اللازمة للتطور الارتقائى الجارى على اساس كيفى جديد . وهذا ما تتجلى فيه الوحدة الجدلية الحقيقية للكمية والكيفية ، بصفتهما جانبين متضادين ، ولكن مترابطين ، لعملية التطور .

الترابط الجدلي للتغيرات الكمية والكيفية . كيما نتيقن من الطابع العام والمشروع للترابط الجدلي الذي وضعنا صيغته توا بين التغيرات الكمية والكيفية ، بين المرحلتين الارتقائية والثورية لعملية التطور ، سوف نتناول بعض الامثلة :

١ – من المعروف أن المواد الكيميائية تغير حالتها التركيبية تبعا لتغير طاقة الترابط بين الجزيئات والذرات . في سبيل المثال ، أن للماء في حالة الضغط الجوي الطبيعي والحرارة دون درجة الصفر المئوية بنية بلورية ويعتبر جسما صلبا هو الجليد . ومع تغير درجات الحرارة تتغير بعض صفات الجليد ، لكن مواصفاته الكيفية المتعلقة بالبنية البلورية وبقدرة كل جسم صلب على الاحتفاظ بشكله الهندسي تبقى كما كانت . وعند التسخين الى ما فوق درجة الصفر يبتدىء ذوبان الجليد . فالطاقة المكتسبة عند التسخين تقطع الروابط التي توحد جزيئات الماء في بلورات . وتسمى هذه العملية من وجهة نظر الفيزياء بالانتقال الطوري . وقد تستغرق هذه العملية وقتا طويلا أو قصيرا حسب سرعة التسخين . اما من وجهة النظر الجدلية فهي قفزة كيفية : اذ تتقطع بعض الروابط الكيفية وينشأ غيرها . وفي نتيجة ذوبان الجليد ينتقل الماء الى حالة تركيبية جديدة هي السيولة . فجزيئات H_2O في البلورات تراوح في مكان محدود قرب نقاط بعينها هي العقد البلورية . وفي الحالة السائلة تتحرك الجزيئات حركة فوضوية خاضعة لقوانين الحركة البراونية . وترتبط بالحالة الكيفية الجديدة مواصفات كمية جديدة ايضا . فالماء السائل لا يخضع لقوانين فيزيائية اخرى فحسب ، بل وتغدو صفاته الكيميائية والفيزيائية مغايرة ايضا . مثلا ، انه مادة مذيبة جيدة للعديد من المواد الكيميائية علما بأن قدرته على اذابة المواد تتنامى عند التسخين تدريجيا ، بلا قفزات . وللماء في درجة +١ ودرجة +٩٩ مئوية صفات مختلفة . ففي الحالة الاولى تشعر اليد المغمورة فيه بالبرد وفي الحالة الثانية تصاب بحروق . رغم ذلك انه اختلاف كمي ، ذلك ان

الماء لا يتغير من حيث صفاته الفيزيائية الكيميائية وحالتـــه التركيبية ، اى من الناحية الكيفية . ويجرى تسخين المـــاء بشكل رتيب ، بلا انقطاع فى الصفات الكيفية الفيزيائيـة ، وترتهن النتائج التى تسببها هذه العملية بتغير طاقة وسرعة حركة الجزيئات . ولكن عند تجاوز حد درجة ١٠٠ مئوية يختل حد وحدة التعينات الكمية والكيفية للحالة التركيبية السائلة ، ويبتدىء انتقال طورى جديد هو الغليان . وهذا يعتبر مـن وجهة النظر الجدلية قفزة كيفية جديدة . ونتيجته هى مرة اخرى انقطاع الروابط والصفات الفيزيائية القديمة وظهور اخـــرى جديدة . فالماء فى حالته التركيبية الغازية لم يعد خاضعـــا لقوانين الهيدروديناميك بل لقوانين الديناميك الغازى . مثلا ، أن الماء لا ينضغط تقريبا فى حين تتقبل الغـــازات بيسر الضغط القوى . وهذا بالمناسبة ، هو الاساس الذى يقوم عليه عمل المحركات البخارية . اذن ، فالحالة الكيفية الجديدة تتسم ايضا بمواصفات كمية جديدة لا تتسم بها حالة المـاء الصلبة ولا حالته السائلة .

٢ — أن تبدل التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية (٢١٧ — ٢٢١) ليس عملية فيزيائية بل تاريخية ، ولكن يتجلى فيهـــا بوضوح ايضا الترابط الجدلى بين التغيرات الكمية والكيفية . ان نظام المشاعية البدائية يتغير تدريجيا تحت تأثير تطور ورقى القوى المنتجة البطىء للغاية : ادوات العمل الحجرية ، ومن ثم المعدنية وما يناسبها من مراس البشر . وتتنامى ببطء انتاجية العمل وكمية المنتجات . وابتداء من ظرف معين ، حين تستنفد امكانيات العلائق الانتاجية الجماعية ، تبلـــغ التغيرات الكمية حدا معينا وينشأ تضارب بين العلاقـــات الانتاجية والقوى المنتجة . ويغدو استمرار تطور الانتـاج مستحيلا ، فتبتدىء عملية التغير الكيفى لطريقة الانتـــاج ، وهذا — كما نعلم — يؤدى الى تهدم كل الروابط والعلاقات الاجتماعية للنظام المشاعى القبلى . ويتهدم البناء التحتـــى القديم وما يقوم عليه من بناء فوقى ، وتجرى تغيرات كيفية عميقة فى المجتمع بأسره . وهذه ، من الناحية التاريخية ،

هى اول ثورة اجتماعية (٢١٤) . وتختلف التشكيلة العبودية الحديثة العهد اختلافا كيفيا عن التشكيلة السالفة بتكـوّن علاقات الملكية الخاصة الانتاجية ونشوء الطبقات التناحريـة وظهور الدولة والقانون وهلمجرا . ولحالة المجتمع الكيفيـة الجديدة ما يناسبها من المواصفات الكمية الجديدة والثوابت الجديدة . وبالفعل فالنظام المشاعى البدائى يتطور على مدى عشرات الاف السنين . ويشمل تاريخ المجتمع العبودى قرابة اربعة الاف سنة . وكمية المنتوجات المادية التى انتجت خلال عصر العبودية ، بما فى ذلك الابنية والطرق ومنشآت الرى وادوات العمل والاسلحة وما الى ذلك ، تفوق ما صنـع على نفس تلك البقعة الجغرافية طوال فترة التشكيلة السالفة . وينمو نموا حادا عدد السكان ويتسارع تطور الثقافة التـى تكتسب طابعا مغايرا كما وكيفا ، وتظهر ايضا مواصفات لم يكن لها وجود فى المجتمع السابق كعنف وحدة النزاعـات الطبقية .

وعندما تبلغ قوى المجتمع العبودى المنتجة حدا معينـا تدخل مرة اخرى فى تناقض مع العلاقات الانتاجية . وتبتدىء ثورة اجتماعية جديدة ، قفزة كيفية جديدة . ولكن حتى هذه الثورة لا تجرى بلمح البصر ، بل تستغرق عشرات ومئـات السنين . وهى تسفر عن نشوء المجتمع الاقطاعى بمواصفاته الكيفية . وفى اوربا تستنفد التشكيلة الاقطاعية نفسها بالنظر لتصاعد الصراع الطبقى ، وفى المرحلة المتأخرة بالنظر ايضا لتسارع تطور الاقتصاد الذى يؤدى الى نشوء القوى المنتجة الرأسمالية . وبالتدريج يشمل اشتداد وتصاعد التناقضات فى منظومة العلاقات الانتاجية والقوى المنتجة كل المجتمـع الاقطاعى ، وتتكرر مرة اخرى عملية انتقال التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية جذرية . وتتجلى هذه الاخيرة فى شكـل ثورات برجوازية تفضى الى تكوين التشكيلة الـرأسمالية . ويتسم المجتمع الرأسمالى ايضا بمواصفات كميـة خاصة . اذ تزداد سرعة العملية التاريخية زيادة حادة . ولا يفصـل بين الثورات البرجوازية الاولى والثورة الاشتراكية الاولى فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اكتوبر عام ١٩١٧ سوى اقل من اربعة قرون . فالقوى المنتجة تتطور بوتيرة متسارعة . وكمية السلع التى ينتجها الانسان ، مثلا فى مجرى سنة واحدة ، تتساوى تدريجيا مع انتاجية كل الطبيعة «غير المتحضرة» ، ومن ثم تتفوق عليها . ويغدو تكثف الاستغلال الرأسمالى للطبقة العاملة المؤشر الكمى الاساسى . ويسبب التصاعد الكمى لتناقضات المجتمع الرأسمالى انتقالا ثوريا ، أى كيفيا ، الى التشكيلة الجديدة ، وهى التشكيلة الشيوعية .

سوف نتوقف فى ادناه (٤١٦) عند كيفية تجلى الترابط الجدلى بين التغيرات الكمية والكيفية فى ظل الاشتراكية ، ولكن حتى فى المثال الذى اوردناه يتضح بجلاء ان التغيرات الكمية تؤدى عند تجاوز حد معين الى قفزة كيفية ، ويتسم ظهور الكيفية الجديدة هو الآخر بثوابت كيفية جديدة وبنمط جديد من التغيرات الكمية .

٣ — لقد دار الحديث فى المثال الاول حول التغيرات الكمّية والكيفية فى ظاهرة طبيعية ، وفى المثال الثانى حول هذه التغيرات فى التطور الاجتماعى . وسنرى الآن كيف تترابط الكمية والكيفية فى تطور الفكر ذاته وتطور الوعى .

ان الطفل الوليد لا يحوز القدرة على الكلام ، أى القدرة على التفكير والتعبير عن فكرة بلغة مفهومة . وفى مجرى السنة الاولى من حياته يجرى تراكم كمى تدريجى للمراس الذى له علاقة بذلك . وتجرى القفزة الكيفية الاولى فى اواخر هذه الفترة وتتجلى فى الكلام المفهوم : أذ يشرع الطفل فى تلفظ كلمات منفردة . ويؤدى استمرار توسع احتياطى المفاهيم الاولية والمفردات المعبرة عنها الى قفزة كيفية جديدة هى ان الطفل يشرع فى تلفظ جمل منفردة . بعد ذلك يتغير تفكير الطفل الى درجة تجعله قادرا على تكوين طروحات او استنتاجات منطقية معقدة الى هذا القدر او ذاك ، وعلى التعبير بشكل مترابط ومتواصل عن رغباته واحاسيسه ومعارفه عن العالم المحيط به ، وبذا تحل مرحلة جديدة مبدئيا فى تكوّن الفكر . على هذا النحو نرى هنا ايضا نفس جدلية الترابط والانتقالات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المتبادلة للتغيرات الكمية الى كيفية وبالعكس . ومن خلال اجمال ما أوردناه من امثلة وتبيان سماتهـــا العامة يتسنى لنا تبيان وصياغة قانون الجدلية الذى يحدد شكل التطور .

٤١٤

قانون تحول التغيرات الكمية الى كيفية والكيفية الى كمية .

يسمى القانون الذى يحدد الشكل العام للتطور بقانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات كيفية والتغيرات الكيفية الـى كمية . ويمكن ان يصاغ هذا القانون بشكل الموضـــوعات التالية :

١ – ان كل ظاهرة او عملية هى عبارة عن وحدة كمية وكيفية ، بعبارة اخرى ، انها تتسم بتعين كيفى وكمـــى يميزها هى وحدها .

٢ – ان التغيرات الكمية تجرى بصورة تدريجية ، رتيبة ، متواصلة الى حد معين . وفى نطاق هذا الحد لا تسبب تغيرات فى الكيفية المعنية . والتغيرات الكمية ، عادة ، ارتدادية . وهى تتسم بالحجم والدرجة والكثافة ويمكن قياسها والتعبير عنها برقم معين بواسطة وحدات قياس مناسبة .

٣ – عند تجاوز الحـــد الذى يسم الموضوع المعنـــى (المنظومة المعنية) تسبب التغيرات الكمية تغيرات كيفيـــة جذرية تفضى الى تشكل كيفية جديدة .

٤ – تجرى التغيرات الكيفية بشكل قفزة ، أى انقطاع فى التدرج . وليس لزامـــا أن تجرى القفزات بشكل انقطاع خاطف ، بل يمكن أن تستغرق فترة زمنية طويلة أو قصيرة .

٥ – تتسم الكيفية الجديدة الناشئة فى نتيجة القفـــزة بخواص او ثوابت كمية جديدة ، وكذلك بحد جديد من وحدة الكمية والكيفية .

٦ – ان مصدر تحول التغيرات الكمية الى كيفية والكيفية الى كمية هو وحدة وصراع الاضداد وتنامـــى التناقضات وحلها .

ويسرى مفعول قانون الجدلية الذى اوردنا هنا صيغته على الطبيعة والمجتمع والفكر . وهو يتجلى تجليا خاصا فى كل

حالة بعينها . ولهذا يتطلب استخدامه فيما يتعلق بتنفيذ المهمات التطبيقية المتسمة بتفرد كبير القدرة على استخدام الموضوعات العامة للجدلية مع مراعاة المواصفات الفردية لكل حالة بعينها وكل مهمة بعينها . وسنوضح هذه الموضوعة بمثال تحليل بنية الثورة الاشتراكية خلال المرحلة الراهنة من تطور الاشتراكية .

٤١٥

التغيرات الكمية والكيفية فى بنية الثورة الاشتراكية . كانت الثورة الاشتراكية فى روسيا عام ١٩١٧ قفزة كيفية كبرى فى تاريخ البشرية . فهى لم تكن رمزا للانتقال من تشكيلة الى اخرى فحسب ، بل كانت ايضا رمزا للانتقال العام من مرحلة «تشكيلات» التطور الى التطور الاجتماعى الجارى بلا تعاقب تشكيلات . وكان على هذه الثورة أن تطبق تحويلات كيفية فى مجمل حياة المجتمع : فى السياسة والاقتصاد والثقافة . ولهذا يمكننا أن نشخص ضمن اطارها بضع عمليات ثورية مترابطة هى : الاستيلاء على السلطة ، اقامة دكتاتورية البروليتاريا كأداة لبناء المجتمع الاشتراكى ، تكوين العلاقات الانتاجية الاشتراكية والبناء التحتى الاشتراكى للمجتمع ، الثورة الثقافية التى تتمثل فى بناء ثقافة جديدة ، اشتراكية ، على اساس تحويل الايديولوجيا العلمية للطبقة العاملة الى اساس ايديولوجى للمجتمع الاشتراكى ، والتى تحدد تطور الوعى الاجتماعى بأكمله . لقد كانت الثورة الاشتراكية فى روسيا بمقياس التاريخ العالمى فترة قصيرة الامد من الهدم الجذرى للعلاقات الاجتماعية القديمة واقامة المجتمع الجديد نوعيا . وانجزت بعد مضى عقدين تقريبا على انقلاب اكتوبر الثورى عام ١٩١٧ بأنتصار الاشتراكية ، أى بتكون الطور الاول من المجتمع الشيوعى . ولئن قارنا هذا ببضعة قرون من التطور السالف للرأسمالية ، فسوف نجد أن الثورة كانت عملية قصيرة الامد ومكثفة الاحداث الى اقصى درجة . بيد انها كانت تنطوى على عمليات معقدة ومديدة الى هذا القدر او ذاك ، هى عمليات التحويلات الاجتماعية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لم تكن انتفاضة اكتوبر المسلحة التى تكللت بالاستيلاء على السلطة سوى خطوة اولى ، واقتضى الامر فترة زمنية لا يستهان بها ، من ضمنها سنوات الحرب الاهلية كى تتم اقامة السلطة السوفيتية على كل أراضى البلد . وعلى مدى فترة زمنية معينة جرى هدم ماكنة الدولة القديمة (٢٠٧) والاستعاضة عنها بأجهزة دكتاتورية البروليتاريا . وتطلب هذا تشكيل منظومة كاملة من منظمات العمال والفلاحين الكادحين الجماهيرية ، وتوطيد وتعميق التحالف فيما بينهم ، وتاليف منظمات شبابية ونسائية ونقابية وغيرها من المنظمات التى شاركت تحت قيادة الحزب الشيوعى فى البناء الاشتراكى ، وفى نتيجة هدم ماكنة الدولة القديمة واخماد مقاومة الطبقات المستغِلة المدحورة جرى تكوين البناء الفوقى السياسى للمجتمع الاشتراكى (٢٠٥) ، ونشأت منظومة سياسية جديدة كيفيا وبنية طبقية جديدة كيفيا للمجتمع تضم الطبقة العاملة وفلاحى الكولخوزات – وهما الطبقتان الاساسيتان اللاتناحريتان – ومثقفى الشعب الذين يشكلون شريحة اجتماعية .

يعتبر الاستيلاء على سلطة الدولة وتوظيفها لحل التناقضات التناحرية اهم وأبرز شرط لتطبيق التحويلات الاشتراكية فى الاقتصاد ، وهدف هذه التحويلات هو اقامة العلاقات الانتاجية الاشتراكية وجعلها مناسبة لطابع ومستوى تطور القوى المنتجة التى نشأت على اساس الانتاج الآلى الكبير . ان مثل هذه العلاقات الانتاجية لا يمكن أن تنشأ فى رحم النظام الرأسمالى ، علما بأن تكوّنها فى الصناعة والزراعة هو عبارة عن عملية معقدة ومديدة كفاية . فقد اخذت المؤسسات الصناعية الكبيرة تتحول الى ملكية دولة الشعب باسره فى اواخر عام ١٩١٧ وطوال عام ١٩١٨ ، كما انجز كليا تأميم المؤسسات المتوسطة والصغيرة ، وجرى تطبيق التحويلات الاشتراكية فى الاقتصاد خلال عملية التصنيع واشاعة المزارع الجماعية فى الريف . أن هذا الطريق لبناء المجتمع الاشتراكى لا يجوز بتاتا اعتباره

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الطريق العام والوحيد الممكن ، بل قررته الظروف الملموسة التى حدثت فيها الثورة الاشتراكية فى روسيا بقاعدتها الصناعية الضعيفة التطور وزراعتها المتخلفة . اما فى البلدان الاخرى الاكثر تطورا ، التى تسلك طريق التحويلات الاشتراكية ، فيمكن تطبيق نماذج اخرى لبناء الاشتراكية واعتماد اشكال ووتائر اخرى للتحويلات الاقتصادية والاجتماعية . فطريقة بناء الاقتصاد الاشتراكى التى اعتمدت فى الاتحاد السوفيتى كانت ترتبط ببعض الانحرافات عن مبادئ البناء الاشتراكى التى وضعها لينين ، فعلى الرغم من توجيهاته القاضية بتطوير الحركة التعاونية على نطاق واسع جرى تقييد النشاط الاقتصادى والفردى والتعاونى ، وقلصت الادارة الذاتية للمؤسسات الى الحد الادنى ، وكانت عملية اشاعة المزارع الجماعية تقترن فى احيان غير نادرة باجراءات قسرية ، وطبقت عملية التصنيع بطرائق ادارية تقوم على الاوامر والايعازات ، وكانت وتائر تطبيقها تنتهك موازنات الاقتصاد الوطنى . وعلى الرغم من أن عمليتى اشاعة المزارع الجماعية والتصنيع قد اتاحتا للبلد فى السنوات التى سبقت الحرب أن يشيد قاعدة تقنية لاعلاء قدرته الدفاعية ، أدت كل هذه النواقص فى وقت لاحق ، ولا سيما طرائق القيادة الفردية الادارية القائمة على اصدار الاوامر الى كبح مسيرة التقدم ومن ثم الى الركود . ويستدل من ذلك أن عملية البناء الاشتراكى لا توجد ولا يمكن أن تكون فيها قوالب ومساطر جاهزة .

ان ما تناولناه هنا من توالى وترابط التغيرات الثورية فى بنية الثورة الاشتراكية يعكس قبل كل شيء التجربة التاريخية للاتحاد السوفييتى . اما فى البلدان الاخرى التى سلكت طريق التحويلات الاشتراكية فى ظروف تاريخية مغايرة ، وأفادت من تجربة الاتحاد السوفييتى التاريخية ما يناسب ظروفها وخصائصها ، فأن المراحل والاشكال الملموسة لهذه التحويلات تنماز بقدر كبير او قليل من التفرد . وهذا أمر يسهل فهمه ، ذلك أن بعض هذه البلدان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان قبيل بدء الثورة الاشتراكية يتمتع بصناعة وزراعة رفيعتي التطور . وكان بعضها الآخر يشغل مراتب اوطأ من التطور الاجتماعي والاقتصادي . والعديد من هذه البلدان لم يتحرر من التبعية الاستعمارية الا منذ وقت قريب ، لذا كان عليه أن يجتاز مرحلة الثورات الوطنية التحررية والتحويلات الديمقراطية . لذا فالاشكال الملموسة لمجرى التحويلات الاشتراكية في مختلف البلدان تمتاز بتنوع كبير ، بيد ان هناك سمات مشتركة وسننا عامة (٢١٢) تميز ذلك المضمون الواحد الذي يلازم كل الثورات الاشتراكية ، أيا كان الشكل الملموس الذي تتجلى فيه .

وهذا هو ما يجعل لموضوعة تناسب التغيرات الكمية والكيفية في عملية الثورة الاشتراكية أهمية عامة .

حين نتأمل بنية الثورة الاشتراكية نلاحظ أن هذه الثورة ، بصفتها قفزة كيفية من وجهة نظر التطور وتعاقب التشكيلات ، تتألف هي نفسها من طائفة عمليات متنامية تدريجيا تختتم كل منها بتحويلة كيفية جذرية في أهم ميادين النشاط البشري : السياسي والاقتصادي والثقافي . على هذا النحو ، ليس ثمة فاصل منيع بين التغيرات الكمية التدريجية والتغيرات الكيفية الجذرية ، انما هي مترابطة فيما بينها ترابطا وثيقا .

٤١٦

جدلية الكمية والكيفية خلال المرحلة الراهنة من تطور الاشتراكية . لننظر الان كيف هي الحال مع التغيرات الكمية والكيفية خلال المرحلة الراهنة من تطور المجتمع الاشتراكي . عند التطرق الى التغيرات في حياة هذه او تلك من التشكيلات الاجتماعية او حياة دولة بعينها او نظام اقتصادي اجتماعي بعينه ، ينبغي لنا أن نتذكر ان التغيرات الكمية التدريجية لا تمس الظواهر الايجابية فحسب ، ولا تقتصر على كونها توطد المجتمع وتساعد على تطوره . انما يمكن ان تمس أيضا الظواهر السلبية ، ذلك اننا نلاحظ في جميع ميادين الحياة الاجتماعية نزعات متناقضة . ونلاحظ كيف يسري مفعول

قانون وحدة وصراع الاضداد (٤٠٥ ، ٤٠٨) . ويستدل من ذلك أن التغيرات الكمية التدريجية تشمل فى آن واحد الظواهر والعمليات الايجابية والسلبية على السواء . ويتلخص السؤال فى تحديد أى من العمليات والنزعات والآليات الاجتماعية هى الحاسمة التى تقرر النزعة الاجتماعية العامة . ففى المجتمع الاشتراكى الذى تطور فى ظروف تاريخية معقدة جدا كان المطلوب فى المقام الاول هو تنفيذ المهمات الاقتصادية الاجتماعية الاساسية ، أى اعتماد طريقة انتاج جديدة وتحقيق مواءمة بين البناء الفوقى والبناء التحتى الاشتراكى وتوطيد كيان الدولة الاشتراكى وحماية الوطن الاشتراكى من تطاولات الاعداء الخارجيين والتغلب على مقاومة المستغلين المدحورين . لقد جرى تنفيذ كل هذه المهمات ، بيد ان هذا تطلب اعداد جهاز دولة جبار واحلال نظام قانونى اشتراكى متميز ، ولكن ابتداء من اواسط السبعينات اخذت تتجلى اكثر فاكثر ، الى جانب النزعات الايجابية السائدة فى حياة المجتمع السوفيتى ، اخطاء ذاتية تتعلق باعادة تقويم البرمجة المركزية وبالتخلى عن تنمية العلاقات البضاعية النقدية وبأشتداد الطرائق «الارادية» غير الاقتصادية فى ادارة نشاط المؤسسات والدوائر الاشتراكية . فلماذا تسنى لكل هذه الامور أن تحدث ؟ وهل تنسجم هذه الظواهر السلبية مع المبدأ نفسه ، مع روح الاشتراكية ؟

لقد حذر لينين فى بداية الثورة من أن البيروقراطية والتخلى عن اشراك الجماهير فى ادارة شؤون المجتمع يشكلان خطرا كبيرا على الاشتراكية . ولكن على خلفية النجاحات الكبيرة التى تم تحقيقها خلال العقود القلائل التى اعقبت الحرب اشتدت بين اوساط جزء من القادة الحكوميين والحزبيين امزجة الرضا عن النفس والاطمئنان غير المبرر ، ونشأ اعتقاد بأن المضى قدما بتطوير ادارة شؤون الحياة الاجتماعية والبحث عن اشكال اكثر حداثة للتنظيم والقيادة أمر فائض عن اللزوم . وتطلب الامر وقتا معينا كيما يصار الى ادراك الآثار السلبية للاطمئنان غير المبرر والاخطاء

الذاتية . وتمثلت حصيلة هذا الادراك فـــى البيريسترويكا المبدئية ، الثورية من حيث الجوهر ، الجارية الآن فى الاتحاد السوفييتى وباقى بلدان الاسرة الاشتراكية .

والمهم من الناحية الفلسفية أن نستوضح ان هذه القفزة الاجتماعية المتميزة فى نوعها والتى تؤمن الانتقال الى حالـــة جديدة نوعيا للمجتمع . فهـــى تشمل : ١ – تحديث القوى المنتجة وتنميتها السريعة استنادا الى منجزات التقدم العلمى التقنى ؛ ٢ – ضمان تلبية عادلة اوفـــى على هذا الاساس لاحتياجات اعضاء المجتمع كافـــة ، المادية منها والروحية ؛ ٣ – تحقيق الانسجام بين العلاقات الانتاجية والقوى المنتجة عن طريق تحسينها ؛ ٤ – التجاوز التام للبيروقراطية وتطويـر الاشكال الديمقراطية لاتخاذ القرارات والادارة على جميـــع المستويات ، ابتداء من المؤسسة المنفردة وانتهاء بالدولة ككل ؛ ٥ – تنشيط العامل البشرى باعتباره القوة الحاسمة لتسريع التقدم الاقتصادى الاجتماعى ؛ ٦ – تطوير جميـــع المؤسسات الثقافية والاجتماعية والتشريعات والقضاء وحماية النظام العام .

على هذا النحو ، تجرى خلال المرحلة الراهنة ايضا ، الى جانب التغيرات الكمية الكبيرة الشأن ، تغيرات كيفية جذرية ايضا . وهى ، بخلاف الثورة الاجتماعية عند الانتقال مـــن الراسمالية الى الاشتراكية ، لا تهدم النظام الاجتماعى القائم ، بل – على العكس – توطد اركان النظام الاجتماعى الاشتراكى .

ويتيح التحليل الفلسفى ايضا فهم جانب مهم آخر تمتاز به الاشتراكية ، وهو ان غياب التناقضات التناحرية يمكـــن المجتمع من أن يدرك بشكـــل نشيط ويصحح بشكل فعال اخطاءه ونواقصه وهفواته التى لا يمكن بدونها ان تكون هناك تحويلات تاريخية كبيرة تطبق لأول مرة .

وللمجتمع الرأسمالى كذلك اخطاؤه وهفواته . وهو قادر كذلك فى بعض الاحيان على الارتقاء الى مستوى ادراكها ، فى اقل تقدير ، عـــلى يد بعض ممثليه التقدميين . غير ان التغيرات الجذرية لا يمكن ان تحدث فى ظل الرأسمالية دون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صراع طبقى ودون مقاومة ضارية من قبل القوى التى تشكل التحويلات الكيفية فى المجتمع البرجوازى تهديدا لسيطرتها .
ولهذا يمكن القول بان القدرة على التطور الذاتى والتحويلات الكيفية سمة مميزة للمجتمع الخالى من التناقضات التناحرية (٤٠٦) .

اتجاه التطور

٤١٧

حوار حول اتجاه التطور . يتسم التطور ، بصفته نوعا متميزا من انواع الحركة ، لا بشكله ومصادره الداخلية فحسب ، بل وباتجاهه . وكيما نفهم بأى معنى يمكن الحديث عن اتجاه التطور ، نعود ثانية الى اجراء حوار بين شخص جدلى وآخر ميتافيزيقى .

الميتافيزيقى (م) : ان الجدلية المادية تتحدث عن اتجاه التطور . ولكن يبقى غامضا المغزى الذى يستخدم فيه هذا المصطلح .

الجدلى (ج) : ما هو وجه هذا الغموض ؟

م : ان الاتجاه صفة مميزة لانتقال الاجسام فى المكان . وهو نسبى ويرتهن بموقع المراقب . مثلا ، لو وقفنا ظهرا الى ظهر ، فالسيارة التى تمر من امامنا تسير الى الامام من وجهة نظرك والى الخلف من وجهة نظرى . لهذا لا يصلح استخدام مفهوم «الاتجاه» بخصوص التطور ، لذا اعتقد بأن من غير الجائز الحديث عن اتجاه التطور .

ج : ان المثال الذى اوردته لا يصور سوى قيمة واحدة لمفهوم «الاتجاه» . وهى غير صالحة للاستخدام بخصوص الاشكال الاكثر تعقيدا لحركة المادة . فنحن نسمع ، مثلا ، باتجاه التفاعلات الكيميائية التى تنشأ فى سياقها مواد كيميائية جديدة . ونسمع كذلك باتجاه الارتقاء البيولوجى الذى تنشأ فى سياقه انواع جديدة . وهناك ايضا اتجاه التاريخ الذى يتجلى فى نشوء قوى منتجة جديدة وعلاقات انتاجية جديدة وطبقات جديدة وتشكيلات اقتصادية اجتماعية جديدة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

م : فكيف ينبغى ، اذن ، ان نفهم المقصود من اتجاه التطور ؟

ج : أن الجدلية تقصد باتجاه التطـــور ليس الانتقال المكانى ، بل تشكل ظواهر جديدة نوعيا . وعليه فان اتجاه التطور هو الحركة من القديم الى الجديد . وهذه العملية غير قابلة للارتداد ، وبالتالى فالجديد لا يمكن ان يتحول مرة اخرى الى ظواهر قديمة سالفة .

م : ان آرائى تختلف مع آرائـــك . فهل يمكن القول أن النباتات تنمو ، اذا كانت نبتة من نبات الهندباء البرية ، مثلا ، تكرر اساسا نفس المراحل من النمو ؟ وكل شىء يتكرر ايضا فى تاريخ الدول المختلفة . فالدول تنشـــأ وتتطور وتزول . وتمر الدول الجديدة التى تنشأ على انقاض الدول القديمة – باستثناء بعض التفاصيل – عبر نفس المراحل . انه تداور محض . اما اذا تخلينا عن فكرة التداور ، فينبغى الا نتحدث عن الجديد والقديم ، بل عن ظواهر او مراحـــل للحركة متباينة وغير مترابطة فيما بينهـــا . اذن ، لا يمكن الحديث اصلا عن أى اتجاه للتطور ، انما يمكن فقط الحديث عن بعض التغيرات ، لكنها عديمة الاتجاه ولا تفضى الى شىء .

ج : انت تفهم ترابط القديم والجديد فهما مبسطا جدا . انت تتصور ان الجديد هو اما تكرار بسيط للقديم واما هناك انقطاع تام بين هذا وذاك . اما الجدليـــة فتنطلق من وحدة الاضداد ، من تطابق واختلاف القديم والجديد فى آن واحد ، وتؤكد ان الانتقال من القديم الى الجديد يخضع لقانون خاص . وهذا القانون هو الذى يحدد اتجاه اية عملية تطور فى الطبيعة والمجتمع والفكر . وكيما نفهم هذا القانون يجب ان نتعرف جملة من المقولات الجديدة وان ندرس ترابطها الداخلى .

٤١٨

الطابع اللولبى للتطور . كيما نستوضح بشكل افضل التضاد الجذرى بين الفهم الجدلى والفهم الميتافيزيقى لطابع واتجاه التطور سوف نتناول المثال التالى :

نعين على دائرة نقطة ما ونباشر منها بالحركة باتجاه عقرب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الساعة . اننا سنعود عاجلا او آجلا الى نفس النقطـــــة مرة اخرى . ولئن كررنا حركتنا الدائرية فسوف نمر مرارا عبر كل نقاط الدائرة . بهذا المعنى يتكرر كل شيء فى الحركة الدائرية تكررا تاما ، ولن تكون هناك أية نقطة جديدة لم نمر عبرها من قبل . وبالعكس ، اذا اخترنا نقطة ما على خط مستقيم وباشرنا بالتحرك منها بأحد الاتجاهين فلن نعود اليها ابدا . عندئذ سوف نفقد كليا الصلة بمنطلق الحركة القديم أى نقطة البداية . وتصلح هاتان الطريقتان الهندسيتان للحركة نموذجين يعبران عن الفهم الميتافيزيقى للتطور . فالتطور من وجهة النظر الميتافيزيقية يشبه اما الحركة الدائرية التى تتكرر فيها كل المراحل ، وأما الحركة بخط مستقيم ، التى يغيب فيها التكرر غيابا تاما ، ولكن يغيب فيها كذلك الارتهان المتبادل لهذه المراحل . بمعنى ان الصلة بين القديم والجديد مقطوعة ، والماضى والحاضر لا يرتبطان بالمستقبل .

ان خير ما يصور لنا المفهوم الجدلى للتطور هو الحركة بخط لولبى صاعد . فلنعين على احدى لفات اللولب منطلقا ، ولنقم بتحريك النقطة (أ) منه على اللولب باتجاه صاعد . فمن جهة ، سوف تبتعد النقطة (أ) خلال انتقالها من لفة الى لفة عن موقع الانطلاق وكأنها تسير بخط مستقيم ولن تعود الى الوراء مطلقا . ومن جهة اخرى ، نجدها فى كل لفة تمر بموقع يعتبر مسقطا لموقع الانطلاق ، كما لو كانت النقطة (أ) تكرر المرور عبره ولكن على مستوى آخر ، أى كما لو كانت تعود الى الوراء ولكن ليس كليا بل جزئيا . على هذا النحو **يحمل التطور طابعا لولبيا** ، وهو ينطوى باستمرار على **ما هو جديد** ، الى جانب ذلك **يبدو وكأنه عودة الى القديم** . هكذا بالذات يجرى التطور فى الطبيعة والمجتمع والفكر .

ويعتبر النفى والتوارث الجدليان أهم مفهومين يسمـــان وحدة الضدين اللذين هما ظهور الجديـد وبقاء بعض خواص ومواصفات القديم .

٤١٩

النفى والتوارث الجدليان . كان هيغل اكثر من تعمق فى بحث

مسألة دور النفى خلال عملية التطور فى الفلسفة ما قبل الماركسية . فبصفته مثاليا ، تناول هيغل عملية تطور الافكار . فالفكرة العالمية المطلقة ، لدى هيغل ، تشرع فى تطورها من منطلق معين اسماه بالاطروحة . وبالنظر لتعرض هذه الاطروحة لتغيرات كمية دائمة تتحول فى آخر الامر الى نقيضها ، اى الى اطروحة مضادة . هذه قفزة كيفية ، لكنها فى الوقت ذاته نفى جدلى للمنطلق . والاطروحة المضادة لا تكتفى بشطب والغاء المنطلق ، اى الاطروحة ، بل وتستوعب كل ما كانت الاطروحة تنطوى عليه من امور قيمة . ويؤدى التغير اللاحق للاطروحة المضادة مرة اخرى الى قفزة كيفية ، ويجرى نفى جديد او نفى النفى كما اسماه هيغل . وفى نتيجة هذا النفى الثانى تحل مرحلة ثالثة فى تطور الفكرة المطلقة او الروح العالمية . وتبدو الفكرة وكأنها تعود الى نقطة الانطلاق ، لكنها ليست بالعودة البسيطة . لقد أسمى هيغل ما حصل فى نتيجة النفى الثانى بالمركّب او الاطروحة المركبة . اذ تبدو الفكرة المطلقة وكأنها قد اغتنت بكل ما كان قيما ونفيسا فى مراحل التطور السالفة . ويبدو هذا وكأنه عودة الى القديم ، بيد ان المركب ينطوى الى جانب ذلك على كل ذلك الجديد الذى لم يكن له وجود فى نقطة بداية التطور .

ان هذا الطرح الهيغلى المجرد ينطوى على ثلاثة اخطاء مبدئية . أولا ، ان المقصود يقتصر على تطور الافكار ، اما التطور فى الطبيعة فلا يحظى عموما بالاعتراف . ثانيا ، ان كل انواع التطور تدرج فى ثلاث مراحل الزامية هى : الاطروحة ، الاطروحة المضادة ، الاطروحة المركبة ، رغم ان التطور الفعلى أعقد كثيرا ويمكن أن ينطوى على العديد من المراحل وحالات النفى المتعاقبة . ثالثا ، ان التطور يتوقف عندما يبلغ مرحلته الختامية . وبما ان تطور الروح المطلقة يعتبر نموذجا لكل انواع التطور الاخرى ، فقد اقحمت جدلية هيغل المثالية عنوة كل تنوع العمليات المتنامية فى صيغة مثالية مطلقة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تتألف من ثلاث مراحل وقد اطلق عليها نعت الثالوث (او المثلث) .

فمن اين جاء هذا المخطط الهيغلي للتطور ، وهل كان ينطوي على ما هو قيم ؟ ان المخطط الهيغلي للتطور هو – في واقع الحال – عبارة عن تصوير مثالي مجرد لعمليـــة التفكير الفعلية . فقد شهد كل فرد منا عشرات المرات كيف يتجادل الاشخاص المعنيون بالتوصل الى معرفة صحيحة وصادقة فـي موضوع ما . اذ نرى شخصا يتقدم بنقطة بداية او فرضية او لغز . ونرى اخر يعترض ويجادل ويسوق براهينه وحججه . وفي آخر المطاف ، يغدو بامكان المتجادلين من خلال معارضة احدهما للآخر ، ومن خلال سعيهما في الوقت ذاته الى تبيان كل ما هو قيم في آراء وحجج محدثه ، ان يتوصلا عن طريق افعال النفي المتعاقبة لما يطرحانه من وجهات نظر الى استنتاج مشترك ينطوي على كل ما هو قيم وصحيح قد تم الكشف عنه واقراره في سياق النقاش . ان طريقة التفكير والمعرفة هذه هي التي انعكست انعكاسا مثاليا في ثالوث هيغل .

لقد نبذ مؤسسو الماركسية اللينينية مثالية هيغل ومعها تعليمه المثالي عن الثالوث . لكنهم تمكنوا خلال ذلك من تبيان وصيانة كل ما كان قيما في تعليم النفي الجدلي ، ومن اخضاعه لمعالجة مادية .

فما هو ، يا ترى ، **النفي الجدلي** ؟

انه عملية **لا تتعرض خلالها الكيفية القديمة للالغاء التام ، بل يبقى الجوهري الاكثر قيمة والقادر على ضمـــان استمرار تطور الظاهرة المعنية ، ويدخل ضمن تركيب الكيفية الجديدة .** على هذا النحو يجري النفي الجدلي خلال عملية الانتقال الكيفي . وهو يختلف جذريا عن الالغاء الميكانيكي . فحبة القمح التـي تجد ظروفا ملائمة ، مثلا ، تنبت وتتحول الى نبتة نامية . وهذا نفي ، لكن حبة القمح في نتيجة هذا النفي لم تتلاش ، ذلـك ان كل عناصرها القادرة على التطور ، مثلا جزيئـــات حامض الديزوكسيريبو نوكلين الذي يتحكم بالصفات الوراثية وبآليات النمو ، قد حفظت وانتقلت الى النبتة ، الى خلاياها ، وانخرطت

فى عملية النشاط الحيوى الفعالة . وبالعكس ، فحبة القمح التى تقع تحت رحى المطحنة تتحول الى طحين وتتعرض لهدم ميكانيكى فتتعذر عليها المشاركة فى عمليـــة تطور النبات اللاحقة . كذلك الحال مع النفى الجدلى فى المجتمع والفكر . ففى سياق الثورة الاشتراكية فى روسيا ، مثلا ، جرى كذلك تطبيق الثورة الثقافية التى جاءت فى نتيجتها ثقافة المجتمـــع الاشتراكى لتحل محل الثقافة البرجوازية . وعلى الرغم من ان هذه الثقافة الجديدة تختلف من حيث المضمون اختلافا نوعيا عن الثقافة البرجوازية ، فقد نشأت ليس على اساس الالغاء التام لكل منجزات الماضى الثقافية ، بل على اساس صيانة كل ما هو قيم وتقدمى وحيوى انتجته الثقافة على مدى التشكيلات السالفة . لقد ادرجت ارقى منجزات الادب والموسيقى والفن التشكيلى والفكر الاجتماعى فى الماضى ضمن تركيب الثقافة الاشتراكية الجديدة ، ونالت فيها مزيدا من التطور . بيد ان التاريخ قد شهد ايضا حالات هـدم ميكانيكى للثقافات . على سبيل المثال ، عندما قام المستعمرون الاسبان بالقضاء التام على الدول القديمة لقبائـــل الاينكيين والاتزتيكيين ، اقدموا ايضا على هدم ثقافة هذه القبائل حتى توقف تطورها توقفـــا تاما . نجد المثال على النفى الجدلى فى الفكر العلمى متمثلا فى الانتقال من الهندسة الاقليدية الى الهندسة غير الاقليدية (١١٥) . فهذه الاخيرة تنفى جملة كاملة من احكام الهندســـة الاقليدية كالتعليم المتعلق بالخطوط المتوازية ، وبـ«استقامة» الفضاء وما الى ذلك ، لكنها الى جانب ذلك لا تنبذها كليا ولا تلغيها ولا تعتبرها خاطئة ، بل تضم جزءا من احكامها وبديهياتها الاساسية كمنطلقات اساسية بالغة الاهمية .

ان كل عملية تطور تشهد ليس حالة واحدة بل حالات عديدة متعاقبة من النفى الجدلى . فمن حيث الجوهر **ان كـل انتقال جديد من حالة كيفية الى اخرى هو عبارة عن نفى جدلى للمرحلة السالفة يبقى ويدوم فى ظله كل ما هو قيم وحيوى ويندرج بشكل متحول الى الكيفية الجديدة . وقد جرت العادة على تسمية هذا البقاء والديمومة بالتوارث** . ويمكن وصف كل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نفى جدلى جديد وصفا مجازيا بأنه لفة جديدة من لفات لولب التطور (٤١٨) . اذن ، فالتوارث ليس تكرارا بسيطا للقديم وليس هدما ميكانيكيا له . انه يعنى وحدة صفتين متضادتين هما بقاء القيم والحيوى ونبذ ما عفى عليه الزمن وبات يعيق التطور . وعليه فان مفهوم «التوارث» مقولة فلسفية مهمة تعكس ترابط واختلاف القديم والجديد فى كل ظاهرة متنامية . وحقيقة كون النفى الجدلى عملية متكررة مرارا يمكن ان نلاحظها بجلاء فى جميع عمليات التطور الطويلة الاجل كفاية .

انظروا ، مثلا ، الى جدول مندلييف الشهير ، جدول العناصر الكيميائية . انها موزعة فى العديد من السطور والاعمدة . والرقم التسلسلى للعنصر تحدده الشحنة الموجبة لنواة ذرة العنصر المعنى . وابتداء من السطر الثانى نلاحظ السنة التالية : عند التحرك من اليسار الى اليمين ، من عنصر الليثيوم الى الفلور مع ازدياد الرقم الذرى للعناصر الواقعة فى هذا السطر تتضاءل الصفات الفلزية ، وبالتالى تتضاءل القدرة على تكوين القلويات ، وتتنامى الصفات الهالوجينية ، وبالتالى تتنامى القدرة على تكوين الحوامض . اى يجرى ما يشبه نفى بعض الصفات وتنامى بعضها الآخر . والعنصر الاخير فى هذا السطر هو النيون ، وهو غاز خامل لا يدخل فى التفاعلات الكيميائية فى الظروف الاعتيادية ، بل يبدو وكأنه نفى تام للفاعلية الكيميائية . والسطر التالى يبتدئ مرة اخرى بفلز واضح المعالم هو الصوديوم ، اى يبتدئ بنفى الخمول الكيميائى ، وبعد ذلك يجرى من جديد نفى متتال للصفات الفلزية وتنام للصفات الهالوجينية . ويختتم السطر مرة اخرى بعنصر خامل هو الارغون . وتستمر عملية تعاقب الصفات الكيميائية هذه مع بعض التلاوين .

ويطالعنا النفى المتكرر فى العملية التاريخية ايضا . فكل تشكيلة اقتصادية اجتماعية هي عبارة عن نفى جدلى للتشكيلة السالفة . وفى مجرى الثورات الاجتماعية تتهدم العلاقات الاجتماعية القديمة والنظام الاقتصادى والبناء الفوقى القديمان ، ولكن يبقى الى جانب ذلك بعض من عناصرها كالتقنية وبعض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عناصر القانون والثقافة والعلـــم والفن ، الخ ، التى تندرج بشكل محول ضمن بنية التشكيلة الجديدة .

على هذا النحو نجد ان كل لفة من لفات لولب تطور أية ظاهرة او عملية متنامية تشهد ظهور الجديد وتهدم القديم ، ولكن تجرى الى جانب ذلك اعادة انتاج جدلية ، اى توارث لكل ما هو قيم انتجه التطور السالف ، وتؤمن استمرار السير الى الامام . وهذا ما تتجلى فيه وحدة النفى والتوارث الجدليـــة وتنكشف الوظيفة الابداعية للنفى الجدلى .

٤٢٠

الامكانية والواقع . ان الظواهر او العمليات الجديــــدة التى تنشأ فى نتيجة النفى الجدلى للقديـــم لا تتكون فى فراغ . فممهداتها واسسها وظروفهـــا تنبثق ويستمر وجودها فى الظواهر والعمليات السالفـــة . ويرمز عادة لمجمـــوع هذه الممهدات والظروف التى لم تؤد بعد الى تشكل ظاهرة جديدة ، اى الى نشوئها ، بمفهوم «الامكانية» . اما العملية نفسها ، التى نشأت وبات لها وجود وراحت تؤدى وظائفها وتتنامى فيرمز لها بمفهوم «الواقع» . وعليه **فان الامكانية والواقـــع مفهومان مترابطان ترابطا وثيقا واحدهما يتمم الآخر ، وهما يميزان خاصية بالغة الاهمية لأية عملية تطور ، ولهذا يعتبران مقولتين متزاوجتين من مقولات المادية الجدلية .**

ولأجل أن تتحول هذه الامكانية او تلك الى واقع يقتضى الامر أن تكون عملية هذا التحول مناسبة لقوانين موضوعية معينة من قوانين الواقع ، وأن تتوفر كل الظروف اللازمة لهذا التحول . واذا كانت هذه الظروف غير كافية ، فسوف تعتبر الامكانية مجردة وشكلية . وبقدر توفر الظروف اللازمة تتحول الامكانية المجردة ، او الشكلية ، الى امكانيـــة ملموسة او واقعية .

ان معظم النباتات تنتج كمية كبيرة من البذور . ولكـــن لا تتوفر الا امكانية شكلية بأن كل بذور النبتة المعنية ، كالهندباء البرية مثلا ، سوف تنبت وتعطـــى بدورها بذورا جديدة . وهذه الامكانيـــة تناسب كليـــا قوانين التكاثر

البيولوجية ، ولكن الظروف اللازمة لتحولها الى واقـــع غير متوفرة . فالبذور لا تجد تربـــة ملائمة أو تلتهمهـــا الطيور والحشرات أو تقضي عليها السموم الكيميائية ، الخ . ولـــو توفرت كل الظروف اللازمة لغطت ذرية نبتة هندباء بريـــة واحدة كل الكرة الارضية خلال بضع سنوات .

ان تحول الامكانية الى واقع هو عبارة عن عملية حالات نفي جدلية متعاقبة . فالامكانية المجردة ، الشكلية ، تتحول الى امكانية واقعية ملموسة ، ثم تتحول هذه الاخيرة الى واقع . والواقع بدوره يتمخض خـــــلال عملية تطوره عن امكانيات جديدة ، مجردة فى بادئ الامر ، ومن ثم ملموسة يمكن فى حالة توفر ظروف واسباب معينة أن تتطور الى واقع جديد وهكذا دواليك . ويتجلى هذا الامر بوضوح حتى فى مثال التطور البيولوجى وظهور علم الهندسة الوراثية . فالجينات (المورثات) الداخلة فى تركيب جزيئات الديزوكسيريبونوكلين التى تتحكم بالصفات الوراثية للكائنات الحية يمكن ان تتوالف بطرائق شتى . ولهذا تتوفر فى الطبيعة على الدوام امكانية نشوء وترسخ صفات وراثيـــة جديدة ، وبالتالى نشوء انواع جديدة . بيد أن تحول هذه الامكانية الى واقع يتطلب مجموعة كاملة من الظروف . وهى تتكون فى سياق الارتقاء البيولوجى ، فى سياق الاصطفاء الطبيعى والصراع على البقاء . ان التوليفة الكاملة للظروف اللازمة لنشوء الانواع الجديدة ليست متوفرة دائما . ولهذا قلما تظهر فى الطبيعة انواع جديدة . ولكن مع نشوء الهندسة الوراثية تعلم البشر التحكم بالوراثة ، بل وحتى استحداث انواع جديدة . وفى الوقت الراهن تتحول امكانية «تصميم» الانواع الجديدة الى واقع . ويجرى الآن وسيجرى مستقبلا استحداث كائنات حية مجهرية جديدة ونباتات جديدة وانواع وفصائل جديدة من الحيوانات . وهذا يفتح امكانيات جديدة منقطعة النظير . وتبدو طريقة تكون الانواع القديمـــة التى كانت قائمة منذ ملايين السنين وكأنها تتعرض بنفسها للنفى ، لكن هذا النفى ليس تاما ، أى لا يشكل الغاء او هدما لهذه الطريقة . انه نفى جدلى لأنه يضم فى اساسه آلية تكونت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى سياق عملية تطور الطبيعة هى آلية توليف العناصر الداخلة فى تركيب الديزوكسيريبونوكلين .

وتتجلى جدلية الممكن والواقعى بوضوح خاص فى التطور الاجتماعى . فتحول الامكانية الى واقع وايجاد امكانيات جديدة على اساسه مرتبطان هنا بنشاط البشر الواعى . فلنتناول هذا الامر من خلال مثال التحليل الذى قدمه لينين للوضع الثورى .

٤٢١

جدلية الممكن والواقعى فى الوضع الثورى . ان امكانية الثورة الاشتراكية يمليهـــا تطور واشتداد التناقضات الداخليــة للرأسمالية ، وبالدرجـــة الاولى التناقضات بين الملكيــة الرأسمالية الخاصة والطابع الاجتماعى للقوى المنتجة . وعندما يبلغ هذا التناقض اقصى درجة مـــن الحدة تترتب الشروط الموضوعية للثورة الاشتراكية . وتتجلى هذه الشروط فـــى اشتداد استغلال الكادحين وتردى ظروف حياة سكان البلـــد المعنى ، وفى التأزم الشديد للتناقضات الطبقية ونشوء شتى الصعاب الاقتصادية وتفاقم ظواهر الازمات فى مجمـــل حياة المجتمع الروحية . كل هذا يؤدى الى تصاعد الروح الثورية لدى الجماهير واقترانه بمد شديد فى نشاطها السياسى . ويدل مجموع كل هذه الشروط الموضوعية على ظهور امكانية واقعية ملموسة لقيام الثورة الاشتراكية . وتسمى هذه الامكانيــــة بالوضع الثورى . غير ان الشروط الموضوعية لتحول امكانية الثورة الى واقع ثورى لا تكفى وحدها ، ذلك أن تحول الوضع الثورى ، أى تحول امكانية الثورة الى ثورة واقعية يقتضى وجود وعى ثورى متطور وفعل ثورى يناسب هذا الوعى . وهذا يعنى ليس فقط ادراك الاسباب المؤدية الى الوضـــع الثورى ، وادراك أن تطور المجتمع لا يمكن ان يتم بغير الثورة كما لا يمكن بدونها تحسين حياة الكادحين ، بل – والاكثر اهمية من ذلك – وضع برنامج ايجابى يبين مـا الذى ينبغى القيام به وكيف يجب بناء الحياة الجديدة وما هى الاسس التى يجب ان يشيد عليها صرح المجتمع الجديد . على هذا النحو يجب رفد العامل الموضوعى للوضع الثورى بالعامل الذاتى ، أى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوعى الثورى والنشاط التنظيمى الثورى . ان تكوين مثل هذا الوعى وممارسة مثل هذا النشاط التنظيمى خلال عملية نضوج الثورة الاشتراكية امر لا يمكن ان تضطلع به سوى الاحزاب الماركسية اللينينية الجديدة الطراز . واول حزب من هذه الاحزاب ، وهو حزب البلاشفة ، اسسه لينين وانصاره .

لقد تمكن حزب البلاشفة الذى تزعم النضال الثورى للبروليتاريا والفلاحين الكادحين فى روسيا ، مستغلا الوضع الثورى الملموس ، من أن يحول فى اكتوبر عام ١٩١٧ امكانية الثورة الى ثورة اشتراكية واقعية اصبحت فاتحة مرحلة جديدة فى تطور البشرية . وتعتبر هذه العملية الثورية مثالا ساطعا على جدلية الامكانية والواقع فى التطور الاجتماعى .

٤٢٢

ما هو التقدم الاجتماعى ؟ هكذا نرى أن فى عملية التطور الاجتماعى ينشأ بأستمرار شىء ما جديد ويفنى القديم . وما كان فى الماضى مجرد امكانية يتحول الى واقع ، وبالعكس ، فأن ما كان فى الماضى واقعا يتغير او ينقرض بمرور الوقت فاسحا فى المجال للامكانيات الجديدة . وتعاقب كل هذه الحالات هو ما يسمى عادة بتطور المجتمع . وخلال ذلك يبرز السؤال التالى : هل يحمل هذا التطور معه تحسينا ما لحياة البشر أم لا يجلب سوى الويل والثبور ؟ ان الاجابة عن هذا السؤال الذى يبدو للوهلة الاولى بسيطا ليست بالامر الهين بتاتا . وبالفعل ، فحين نتساءل هل يحسن تطور المجتمع حياة الانسان ، يجب أن تكون فى حوزتنا معايير دقيقة وتعاريف واضحة وفهم عام لما نعتبره جيدا وما نعتبره رديئا ، وفيم تتمثل السعادة وفيم تتمثل التعاسة ، وما هو الهدف الذى يجب أن نسعى اليه وما هو الامر الذى يجب أن نقاومه فى حياتنا الشخصية والعامة .

فى سبيل المثال ، لقد نادى شاعر الماضى القديم المعروف هسيودس (القرن ٨ — القرن ٧ ق . م) بأسى أن عصر البشرية الذهبى قد مضى . كما مضى عصرها الفضى وحل محله عصر

قاس هو العصر الحديدى . وكان هذا الشاعر يردد أن كل شيء يسير نحو الاسوأ . اذ يزداد العنف والشر والجور . فكرماء الناس يفلسون والارذال يغتنون . الشرفاء يتعرضون للملاحقات والظلم والانذال يستولون على مقاليد الحكم . وليس من الصعب علينا أن نفهم تشاؤم هسيودس ، فقد عاش فى عصر خراب العلاقات القبلية القديمة ، حين راح الافلاس يطارد وجهاء القبائل السابقين ، والكثير من الناس الاحرار وغير التابعين يتحولون الى تابعين ، ذلك أن الملكية الخاصة قد فتحت الطريق الى ذرى السلطة لا أمام اكارم الناس بل امام اكثرهم ثروة وحبا للسلطة .

وكلما يصيب الانحطاط هذا النظام لاجتماعى أو ذاك ترى مؤدلجيه والمدافعين عنه ينكرون التقدم ويصرون على أن كل شيء يسير نحو اسوأ . ولكن من الخطأ الظن بأن ممثلى الطبقات والقوى الاجتماعية المعنية بأقامة النظام الاجتماعى الجديد كانوا على الدوام مبشرين بالتقدم الاجتماعى . فقد كان رائد التنوير الفرنسى الشهير جان جاك روسو مؤدلجا وممثلا للبرجوازية الفرنسية الصغيرة ، وبحكم ذلك كان أحد ابرز المنظرين للثورة البرجوازية والمبشرين بها . فى الوقت ذاته نراه يقول فى رده على سؤال : هل يساعد تقدم العلم على تطور الاخلاق ، أن النمو السريع للمعارف العلمية لا يساعد على تعزيز الوجه الاخلاقى للمجتمع . فلماذا كان يظن هذا الظن بالذات ؟ ذلك انه لم يكن قادرا ، وهو الذى عاصر النمو السريع للعلم وانتشار افكار التنوير ، على التغاضى عن حقيقة ان عليّة المجتمع الفرنسى فى القرن الثامن عشر كانت نهبا للانحلال الشديد والتقلبات المعنوية والخلقية . ومن خلال الربط بين هذين الامرين وجد روسو المسوغات للاعتقاد بأن التقدم فى مجال معين لا يلغى احتمال الانحطاط ، أى التقهقر فى مجال آخر . وهذا ما تجلت فيه بالضبط تلك الجدلية فى طروحاته ، التى اشاد بها مؤسسو الماركسية .

وبالفعل ، فالتطور الاجتماعى ينطوى على تصاعد واشتداد دائم لبعض النزعات ، أى عناصر التقدم ، وعلى انخفاض دائم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بنفس القدر ، بل وحتى على تلاشى نزعات اخرى ، أى عناصر التقهقر . وفى كل مرحلة بعينها نجد عمليات تقدمية واخرى تقهقرية فى نفس الوقت . على سبيل المثال ، أن عملية أتمتة الانتاج الصناعى واشاعة استعمال الروبوتات فيه تؤديان ، من جهة ، الى ازدياد انتاجية العمل ، وتحرران جزءا من اليد العاملة ، وتتيحان اعادة توجيه الانتاج بسرعة ، وتغنى الناس عن عناء العمل الشاق والرتيب . بهذا المعنى تعتبر الاتمتة واشاعة الروبوتات ظاهرة تقدمية . بيد أن نفس هذه العملية ، من جهة اخرى ، تؤدى الى انقراض جملة من المهارات الانتاجية والى اختفاء طائفة من المهن ، كما تؤدى فى ظروف الرأسمالية الى اشتداد وطأة البطالة . وبهذا المعنى تبدو هذه العملية نفسها تقهقرية .

فما هى معايير التقدمية ؟ يقال احيانا أن المعيار هـو انتاجية العمل أو غزارة الخيرات المادية أو حرية التنقل داخل حدود الدولة وحرية مغادرتها . غير ان ايا من هذه الملامح ، اذا اخذ بمفرده ،لا يعتبر معيارا وشرطا لتقدمية المجتمـع المعنى والتطور الاجتماعى بعامة . فلئن ترافق تكثيف العمل مع اشتداد الاستغلال ، واقترنت البطالة الجماعية بالخوف من فقدان العمل ، فليس فى هـذه العملية ما يمكن وصفـه بالتقدمية . واذا كانت الثروات المادية الهائلة متاحة لبعض اعضاء المجتمع وكان الآخرون محكوما عليهم بالجوع والفقر ، فأن انتـاج هذه الثروات لا يعتبر - هو الآخر - معيارا للتقدمية . واذا كان بمقدور العاطـل او المشرد ان يجوب الآفاق بحثا عن عمل او مسكن ، فليس هذا الامر دليلا على حريته .

ان معيار التقدم الاجتماعى من وجهة نظر المادية التاريخية يجب أن يتمثل فى تطور الانتاج المادى وتحسن ظروف حياة الناس والازدهار الشامل لكل شخصية مبدعة ونهضة الثقافة الروحية والطابع الابداعى للعمل . وعليـه فان كل النزعات والعمليات فى التطور الاجتماعـى التى تناسب هذا المعيار تعتبر تقدمية موضوعيا . امـا تلك الجوانب والعمليات من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التطور الاجتماعى التى تعرقــل تحقيق الاهداف التاريخيـــة المذكورة ولا تناسب معايير التقدم الاجتماعى فتعتبر تقهقرية .

وثمة مراحل تقدمية وتقهقرية داخل كل تشكيلة اقتصادية اجتماعية . وفى كل مرحلة توجد وتتفاعل نزعات تقدميـــة وتقهقرية . ولكن بوجه عام ، اذا اخذنا مدى تاريخيا على ما يكفى من الاتساع ، فسوف نجد ان البشرية تسير على طريق تحقيق قدر اكبر من الحرية ، وبلوغ درجة اوفى وأشمل من تطور الفرد . صحيح ان هذا الطريـــق معقـــد ومتناقض ودراماتيكى . ولكن البشرية حين تحقق الانتقال الى الاشتراكية والشيوعية سوف توفر الظروف اللازمة للتطور التقدمـــى المستمر الذى تطبق فيـه القوانين التاريخية الموضوعيـــة (٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٩) .

٤٢٣

قانون نفى النفى الجدلى . لنضع الآن صيغة الاحكام الاساسية للقانون الجدلى الذى يحدد اتجاه التطور فى الطبيعة والمجتمع والفكر .

لقد جرت العادة على تسمية هذا القانون ، حسب التقليد الذى يرتقى الى هيغل (٤١٩) بقانون نفى النفى . ويجدر بنا أن نتذكر خلال ذلك أن الجدلية المادية تتناول ليس حالتين من حالات النفى المتضادة . بل عملية التطور اللامحدودة التى تفتح فيها حالات النفى الجدلى الطريق من القديم الى الجديد وتضمن الى جانب ذلك ترابط الجديد والقديم والتوارث فيما بينهما . والاحكام الاساسية لهذا القانون هى ما يلى :

١ – فى عملية التطور ينشأ بأستمرار شىء جديد لم يكن له وجود فى الماضى ، وهو عبارة عن نفى جدلى للقديم .

٢ – فى عملية النفى يبقى كل ما هو قيم وحيوى ويندرج فى الجديد بشكل محول . ولا يتعرض للفناء الا جزء معين من القديم هو الجزء الذى عفى عليه الزمن وبات يعرقـــل التطور .

٣ – ينطوى التطور على ما يشبه العودة الى المراحـــل المقطوعة وتكرارها ، ولكن على مستوى جديد اكثر رقيا ،

ولهذا يتسم بطابع لولبى وليس دائرى أو مستقيم .

٤ – فى عملية التطور توجد موضوعيا نزعات تقدمية واخرى تقهقرية عند الانتقال من القديم الى الجديد . ويتحدد النمط التقدمى او التقهقرى للتغيرات الجارية فى الظاهرة المعنية عموما تبعا للنزعة التى تكون لها الغلبة من هذه النزعات المترابطة جدليا .

وعند مقارنة قانون نفى النفى بباقى قوانين الجدلية الاساسية يتيسر لنا أن نلاحظ الترابط العميق فيما بينها . ويتجلى هذا الامر بوضوح خاص عند مقارنة بعض المقولات مثل «حل التناقضات» و«القفزة الكيفية» و«النفى الجدلى» . فكل قفزة كيفية ، من حيث الجوهر ، هى عبارة عن حل للتناقضات الداخلية الاساسية للظاهرة المعنية . وعلى هذا النحو بالضبط يبين لنا النفى الجدلى أن عملية الانتقال المتواثب من الكيفية القديمة الى الكيفية الجديدة تنطوى على عامل بقاء او توارث الى جانب عامل الفناء والهدم . وتترابط المقولات التى يصاغ بمساعدتها قانون وحدة وصراع الاضداد وقانون تحول التغيرات الكمية الى كيفية وقانون نفى النفى اعمق ترابط فيما بينها لانها تعكس من جوانب مختلفة ومن زوايا مختلفة ابرز السمات والخصائص التى تتصف بها كل ظاهرة متنامية .

وتقدم القوانين الاساسية للجدلية معارف وافية عن مصادر وشكل واتجاه التطور وبذا تتحدد وحدتها الداخلية .

ولكون الجدلية تعليما عن القوانين الاعم للتطور فى الطبيعة والمجتمع والفكر ، فهى تحمل كذلك أهمية اجتماعية سياسية تطبيقية عظيمة . لذا فان امتلاك ناصية الجدلية يعنى تناول كل الظواهر فى ترابطها الداخلى وارتهانها السببى المتبادل . فمن يتناول ما ينشأ فى الحياة التطبيقية من قضايا بصورة معزولة انما يتعامل معها كميتافيزيقى . ويجدر تناول القضايا والمسائل المترابطة كذلك فى حركتها وتطورها المستمرين لأن الحياة نفسها والواقع الذى يتمخض عنها بحد ذاته يتغيران ويتطوران . وتعلمنا الجدلية الا نتجاهل تناقضات الحياة ، بل أن نشخصها ونكشف عنها ونعمل على حلها ، ذلك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ان حل التناقضات الداخلية الاساسية هو المصدر الحقيقى لكل تطور . وعندما نصطدم بتغيرات كمية دائمة وغير ملحوظة فى بعض الاحيان ينبغى أن نراعـــى باستمرار انها ستؤدى عاجلا او آجلا الى تحولات كيفية جذرية . الى جانب ذلك أن نشوء الظواهر الجديدة نوعيا لا يعنى القضاء كليا على الظواهر القديمة . فكل ما هو قيم وحيوى انتجه التطور السالف فـــى سياق القفزة والنفى الجدلى يبقى وينال مـــا يشبه «حـــق الديمومة» . ولقد علّمنا لينين أن احدى ابرز وأهم مسائل قيادة المجتمع السياسية العلمية الصحيحة هى القدرة على رؤية براعم الجديد فى القديم واسناد هذه البراعـــم فى الوقت المناسب ومساعدتها على التطور والانتصار .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الخامس

نظرية المعرفة

لقد تناولنا فى الفصول السالفة الحل المادى للجانب الاول من المسألة الاساسية فى الفلسفة ، واوضحنا كيف ظهر الوعى وما هى خصائصه وكيف يتجلى تفاعل الوجود الاجتماعى والوعى الاجتماعى فى التطور التاريخى . والآن ينبغى لنا ان ننتقل الى الجانب الثانى من المسألة الاساسية للفلسفة الا وهو مسألة كيف يعرف الانسان العالم المحيط به وكيف يمكن التأكد من صحة معارفنا عن الطبيعة والمجتمع والفكر البشرى بحد ذاته .

جدلية عملية المعرفة

١٠٥

ماذا يعنى ان نعرف ؟ تتوفر لدى الانسان المعاصر معارف واسعة ومراس متنوع للغاية . فبعض الناس يعرفون كيف يمكن تشغيل مكائن الانتاج الاتوماتيكية ، وفريق آخر يجيد صنع مركبات الفضاء واستخدامها فى الرحلات الفضائية ، وفريق ثالث يتمكن من فلق نواة الذرة واستثمار طاقتها . وبالمقارنة ، مثلا ، مع اواخر القرن الماضى نمت معارفنا عشرات المرات اذا اكتفينا حتى ولو بالحكم على عدد ما نشر من الكتب والمقالات فى المجلات العلمية . ويعلم كل فرد منا جيدا ان المعارف ، ولا سيما العلمية ، تعتبر قوة مهمة محركة للانتاج . فلا يتسنى الا على اساسها فقط تذليل التناقضات الحادة بين الطبيعة والمجتمع ، وتحويل هذا المجتمع نفسه بشكل معقول ، وجعل حياة البشر اكثر نقاء ومعقولية ومتعة . ولكن ليس بامكان كل فرد ان يجيب عن سؤال ما هى المعرفة وكيف تنشأ واين يكمن مصدرها وكيف يمكن تمييز المعرفة

الصحيحة عن المعرفة الخاطئة ، وهل لدينا ما يضمن كوننا قادرين عموما على معرفة ذاتنا والعالم المحيط بنا .

قبل ٥٠٠ سنة كان الناس يعتقدون ان الارض هي مركز العالم ، والشمس والكواكب تدور حولها . اما الآن فكل تلميذ يعرف ان الارض والكواكب الاخرى تدور حول الشمس . بيد ان مراقباتنا اليومية لا تزال تدل على إن الشمس تشرق من الشرق وتغيب في الغرب . وكان العلماء حتى اواخر القرن التاسع عشر يعتقدون ان الذرات هي اصغر دقائق المادة وغير قابلة للانشطار . وقبل ثلاثين سنة كانوا يعتقدون ان الدقائق البسيطة هي التي تعتبر غير قابلة للانشطار . ونحن نعلم الآن (١٠٤) ان هذه التصورات غير صحيحة هي الاخرى . فللدقائق البسيطة بنيتها الداخلية . وقبل الرحلات الى القمر كان العديد من العلماء يعتقدون ان القمر تكون نتيجة انفصال قطعة كبيرة من كتلة الارض الحامية تحت تأثير جسم سماوى عملاق مرق بمحاذاتها . ولكن المعطيات المستحصلة من القمر اظهرت ان الفرضيات السالفة غير صالحة ، وان الامر يتطلب ابحاثا اضافية كي يتسنى تكوين تصور اصح عن نشأة القمر . كل هذا يرغمنا على التفكير بالسؤال التالى : هل هناك معارف راسخة وموثوق منها ؟ نحن نعتقد الآن اننا نعرف جيدا ظاهرة ما من الظواهر ، وغدا يتضح ، مثلما حدث في الماضي غير مرة ، ان معارفنا خاطئة . فالجواب عن سؤال ما هي المعرفة ليس بالامر الهين ، وقد صاغ غيوته هذه الفكرة بوضوح على لسان فاوست :

ماذا يعني ان نعرف ؟ هذا هو السؤال يا صديقي .
بهذا الشأن ليست الامور لدينا على ما يرام .
اما قلة الناس التي تغلغلت في جوهر الاشياء ،
وكشفت للجميع الواح الروح المحفوظة ،
فقد تعرضت للقتل حرقا او صلبا ،
كما تعرف مذ اقدم العهود . *

* غيوته . المؤلفات . موسكو ، ١٩٧٦ ، المجلد ٦ ، ص ٢٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه الاسطر توضح توضيحا صائبا ان المعارف ، ولا سيما اذا كانت تزعزع المعتقدات البالية وتناقض ايديولوجيا الطبقات المسيطرة فى المجتمـــع التناحرى وتناقض العقيدة الدينية او تعلل ضرورة التحويلات الاجتماعية ، لا يندر ان تستقبل بأسنّة الحراب وتثير مقاومـــة شديدة لدى خصوم التقدم الاجتماعى . فنحن نعلم ان رجال الكنيسة اعدموا حرقا كلا من جوردانو برونو الذى كان يدعو الى نظرية كوبرنيكوس ، وسيرفيت الذى اكتشف الدورة الدموية ، كما كان الرجعيون على اختلاف مشاربهم يلاحقون نظرية داروين عن منشأ الانسان ، واقترن مجيء الفاشية الهتلرية الى السلطـــة بملاحقة العلماء التقدميين .

ما هى المعرفة ، وكيف تنشأ ، وكيف تتغير وتتطور ، وكيف يقوم توافقها مع الواقع الموضوعى — كل هذا ليس مجرد اسئلة جوفاء . فحلهـــا يعتبر احدى ابرز المهمـــات المتميزة للفلسفة ، ذلك ان المواد العلمية الاخرى لا تضطلع بدراسة خصائص عملية المعرفة . ان نظرية المعرفة (١١٠) هى التى تشكل ذلك القسم من الفلسفـــة الذى يجيب عن المسائل التى طرحناها توا .

٥٠٢

المعرفة كانعكاس . ينطلق الماديون جميعا من ان المعرفة هى عبارة عن شكل متميز لانعكاس الواقع . ففيـــم تتمثل هذه الخاصية ؟ نحن نعلم الآن (١١٨) ان الانعكاس صفة عامة للمادة . بيد ان هذا لا يوفر المسوغات للاعتقاد بان المعرفة موجودة على جميع مستويات الانعكاس . فهى لا تنشأ الا مـــع نشأة الانسان .

ان جميع المعارف المتوفرة لدينا تعزى اما الى ظواهر وعمليات معينة واما الى افعال معينة وانواع معينة من نشاط الانسان . فعند الحديث عن ضرورة جمع او ضرب عددين من الاعداد يجب علينا ان نعرف ليس فقط ما هو العدد ، بل وكيف تجرى عمليتا الجمع والضرب . وحين نشرع فـــى انشاء مبنى يجب علينا ان نعرف ليس فقط ما هو الاجر وهيكل

البناء وما الى ذلك ، بل وكيف يجرى تنفيــــذ الاعمـــال الانشائية .

وتعبر المعارف على الدوام فى اللغة بهيئة مفردات او مجاميع من المفردات تصاغ بواسطتها المفاهيم ، وكذلك بهيئة جمل توصف بواسطتها صفات الاشياء والعلاقات فيما بينها او مختلف انواع النشاط البشرى . وبامكان هذه او تلك من الجمل ان تصف كذلك انفعالات الانسان الداخلية او العمليات النفسية . وبما انه لا يوجد بين المفردات او مجاميع المفردات او الجمل من جهة ، وبين ظواهر العالم المحيط بنا من جهة اخرى ايما شبه خارجى او تماثل يمكن تحديده بواسطـــــة الحواس ، فنحن حين نقول ان معارفنا تعكس الواقع انما نقصد بذلك وجود توافق متميز بين المفاهيم والطروحات (الاقوال) وبين ظواهر العالم المحيط بنا والافعال المعينة التى يقوم بها الانسان . وهذا يعنى ان هناك ظواهر او عمليات او انواع نشاط معينة تماما توافق مفاهيم معينة . وهذا يعنى ايضا اننا نستطيع بواسطة طروحات معينـــة ان نصف ونشخص صفات وعلاقات معينة تماما بين ظواهر وعمليات الواقـــع الموضوعى . وهذا يعنى ، اخيرا ، اننا حين نصوغ قواعد نشاط معينة ونصدر او نتلقى اوامر وتوجيهات ، انما نعرف (ندرك) اية افعال وتصرفات ينبغى او لا ينبغى القيام بها بغية تحقيق هذه او تلك من الاهداف . وهذا بالذات هو مغزى القول بان معارفنا تعتبر انعكاسا للواقع الموضوعى .

والمعارف لا توجد بحد ذاتها ، انما هى نتيجة لعملية متميزة هى عملية المعرفة او نشاط الانسان المعرفى . وعليه فلاجل ان نفهم فهما اصح واعمق جوهر المعارف وان نجيب عن سؤال ماذا يعنى ان نعرف ، لابد من دراسة **عملية المعرفة ومصادرها ومراحلها الاساسية** التى تتكون خلالها المعرفـــة البشرية . ومن المهم كذلك ان نفهم باى شكل يجرى التأكد والتثبت من توافق معارفنا مع الواقع الموضوعى وماذا يجب القيام به لاجل جعل هذا التوافق اوفى واعمق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٥٠٣

حوار حول مصادر المعرفة . لقد نوقشت مسألة مصادر معارفنا ومم تبتدئ معرفة الواقع فى تاريخ الفلسفة منذ عهود سحيقة . اذ كان الماديون ، كديموقريطس وابيقور مثلا ، يعتقدون ان المعارف تنشأ نتيجة تأثير الذرات المادية فى حواسنا . وكان المثالى افلاطون يرى الانسان وكأنه نزيل كهف تسبح امام مدخله اخيلة تلقى ظلالها على جداره الخلفى . وحين نتفحص هذه الظلال التى كان افلاطون يماهى بينهـــا وبين الاشياء المادية ، انما نحاول ان نتذكر ونستحضر الاخيلة التى القت هذه الظلال ، اى الافكار . والافكار الازلية والثابتة هى التى تعتبر — فى رأيه — مصدرا للمعرفة . وفى العصر الحديث تكون بوضوح اتجاهان هما التجريبية والعقلانية . وكان انصار التجريبية يذهبون الى ان مصدر المعرفة هو الاحاسيس وما يقوم عليها من تجربة . اما انصار العقلانيـــة فكانوا يعتقدون بان المعارف يولدها العقل البشرى نفسه ، والقدرة على التفكير بحد ذاتها بادعاء انها كانت صفة ملازمة للانسان منذ البدء . وترتبط بالتجريبية ارتباطا وثيقا النزعة الحسية . وغالبا ما كان ممثلو النزعة الحسية ينكرون اهمية الاشكال النظرية والمجردة للمعرفة ويحصرون المعارف كليا فى المجال الحسى . وكان من بين انصار النزعة الحسية عدد لا يستهان به من الماديين الذين كانوا يعتقدون بان منشـــأ الاحاسيس هـــو العالم الخارجى ، بيد ان الاشكال المتطرفة للنزعة الحسية ، التى تنطلق من ان الواقع الوحيـــد هو الاحاسيس ، كانت تؤدى مباشرة الى المثالية الذاتية واللاأدرية (٥١٠ ، ٥١١) . ولاجل الاطلاع على حجج التجريبيين والعقلانيين يجدر بنا ان نصغى لحوار يجرى بين ثلاثة اشخاص يعبرون عن مواقف العقلانيـــة والتجريبية والمادية الجدلية .

التجريبى (ت) : ان كل انسان سوي حين يجيب عن سؤال من اين له ان يعرف ان الوردة حمراء وشذية ، يستند الى احاسيسه ويقول اننى ارى زهرة حمراء واشم شذاها . اذن فالاحاسيس هى المصدر الحقيقى للمعرفة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العقلاني (ع) : لكننا لا نواجه ما يمكن تحسسه ومراقبته فحسب . فمن اين ، مثلا ، تاتى المعارف عن ان مجموع زوايا المثلث يساوى زاويتين قائمتين ، او المعارف المتعلقة بالدقائق البسيطة او المعارف عن قوانين التطور الاجتماعى ؟ اننا لا نستطيع رؤيتها وشمها ولمسها .

ت : بامكاننا ان نرسم عددا من المثلثات المختلفة وان نقيس زواياها بضع مرات ثم نقوم بتعميم وصياغة النظرية المتعلقة بمجموع الزوايا الداخلية . اما بخصوص الدقائق البسيطة فنحن نرى مؤشرات الاجهزة المختلفة ونطلق على نسق هذه المؤشرات تارة اسم الكترون ، وتارة اخرى بروتون ، وتارة ثالثة بوزيترون وهلمجرا . ولا يوجد واقعيا سوى الانطباعات الحسية عن عقارب الجهاز ، وما مفاهيم «الالكترون» و«البروتون» الخ . سوى مفردات ترمز لهذه الاحاسيس . اما بخصوص قوانين التطور الاجتماعى (كالصراع الطبقى ، مثلا) فهى ايضا مفاهيم ترمز لانطباعات حسية متباينة . فالناس يقيمون المتاريس وينظمون الاضرابات والمظاهرات ، ويشعرون خلال ذلك باحاسيس وانطباعات يطلقون عليها اسم «الصراع الطبقى» وما الى ذلك . وليس هناك اى واقع آخر وراء هذه الكلمات ، وهذا امر ينبغى الاقرار به صراحة .

ع : لكننا والحالة هذه نجد انفسنا اسرى مختلف الاحاسيس ، وبينها عدد كبير من الاحاسيس الخاطئة . فالمعروف ان هناك حالات مختلفة من الهلوسة وخداع البصر او السمع الخ . واذا صدقنا بكل هذه الامور فسوف نقع دائما فى تناقضات . فكيف يتسنى لنا التمييز بين الاحاسيس الصحيحة والخاطئة ؟ نحن نعلم ان من غير الجائز التاكد من بعض الاحاسيس بواسطة بعضها الآخر الذى لا يمكن التعويل عليه هو ايضا .

المادى الجدلى (م . ج) (مشاركا فى الجدال) : ينبغى ان نضيف الى ذلك ان العلم وحتى الحياة اليومية تحتوى على قدر لا يستهان به من المفاهيم والآراء التى لا يجوز حصرها بطريقة بسيطة فى الاحاسيس والانطباعات الشعورية . ففى

الفيزياء ، مثلا ، يقال ان سرعـــة الضوء تساوى ٣٠٠ الف كيلومتر فى الثانية . ونحن نستطيع ان نفهم معنى ذلك لكننا نعجز عن الاحساس بهذه السرعة لان حواسنا غير مؤهلـــــة لذلك . والمعروف ان المصابين بعمى الالوان لا يستطيعون التمييز بين اللون الاحمر واللون الاخضر ، فى حين نستطيع نحن التمييز بينهما . فبأحاسيس من يجب أن نصدق ؟ فى الرياضيات تجرى البرهنة على نظريـــة الاجسام فى الفضاء المتعدد الاحداثيات . وعلى الرغم من ان هذه النظريات دقيقة الى درجة لا يرقى اليها الشك ، فمن غير الممكن تكوين صورة حسية لمثل هذا الفضاء .

ت : ولكن ما اهمية هذه النظريات اذا كانت غير قابلـة لان تعزى الى الاحاسيس ؟

م . ج : اننا نستطيع بواسطتها وبواسطـــــة الكثير من الطروحات الاخرى غير المنسوبة الى الاحاسيس ان نحصل على نتائج تطبيقية مهمة وان نتعلم التحكم بالعمليات الفيزيائية والكيميائية . والشيء نفسه يجرى فى العلوم الاجتماعية ايضا . فلو كانت مفاهيم «الصراع الطبقى» و«قوانين التطور الاجتماعى» مجرد تسميات بسيطة لنسق من الاحاسيس ، لكان بالامكان التخلص منها بيسر وذلك بتغيير الانطباعات والاحاسيس . لكن القضية هى ان الصراع الطبقى وتطور المجتمع يجريان بصورة مستقلة عن ارادة البشر ووعيهم واحاسيسهم وانطباعاتهم .

ع : فى هذه الحالة اقترح اعتبار العقل البشرى مصدرا لمعارفنا .

ت : ما معنى ذلك ؟

ع : ينبغى الاقرار بان الانسان يتسم بقدرة فطرية على التفكير . فهو قادر على استجلاء المعارف الاساسية العميقة عن العالم التى غرسها اللـــه او الطبيعة فى روحـــه . لقد كان ديكارت ، مثلا ، يعتقد بان الله هو الذى خلق هذه المعارف ، والمادى سبينوزا يعتبرها وليدة جوهر مادى . ولكن مهما يكن من امر نحن نستطيع حين نجـــد او نبتكر او نكتشف هذه المعارف ان نستنبط منهـــا كل الامور الاخرى عملا بقوانين

المنطق ، بعد ذلك فقط نستطيع بواسطة التجربة او المراقبة ان نتأكد من مدى صلاحها للاستخدام فيما يتعلق بالعالم . المهم هو استنباط المعارف بعضها من بعض ، وخطوة فخطوة ، على التوالى ، دون تفويت اى منها .

ت : ولكن بهذه الصورة يمكن تمرير اية حكاية كما لو كانت علما من العلوم . اذ يكفى التحدث بصورة مرتبة ومنطقية عن المشعوذين والساحرات وما الى ذلك والقول بانكم وجدتم المعارف الاولية فى ارواحكم لكى تصدقوا باية فرية .

ع : لكننى ذكرت ايضا التأكد بواسطة التجربة والمراقبة .

ت : هذا هو الدليل على تضارب افكارك . فقد ذكرت انت نفسك ان الاحاسيس وبالتالى المراقبات المبنية عليها يمكن ان تكون خادعة . انا لا ارى اية مزايا تقدمها العقلانية .

م . ج : ان كلتا وجهتى نظركما وحيدة الجانب ، وكلتاهما يمكن ان تقود عاجلا او آجلا الى المثالية . فالتجريبية حين تدعى ان المصدر الوحيد للمعرفة هو الاحساس تنزلق الى المثالية الذاتية واللاأدرية (١٠٠) . معنى هذا ان لا شيء يكمن وراء الاحاسيس ويتلاشى العالم المادى . اما العقلانية فتفضى الى المثالية الموضوعية لانها تعترف بوجود معارف فطرية ازلية لا علاقة لها بالظروف الاجتماعية الواقعية ولا علاقة لها بالتجربة السالفة ونشاط البشر التطبيقى .

ت : وماذا تقترح ؟

م . ج : ان كلتا وجهتى النظر نتيجة للفصل الميتافيزيقى بين المعرفة الحسية (التجريبية) والمعرفة العقلانية وجعل احداهما نقيضة للاخرى . لكن الخطأ الرئيس هو انكما تضفيان على المعرفة كلها شكلا مبسطا ثنائى الحدين هو : «الانسان — العالم المواجه له» ولا تريان ايما ترابط بين هذين الحدين . اما فى الواقع فهناك ترابط معقد بين الانسان والعالم الخارجى . وهو يتجلى فى نشاط بشرى متميز هو الممارسة (التطبيق) التى يتكون اساسها من الانتاج المادى والنشاط الشيئى — الادواتى . فالممارسة هى التى تعتبر اساس ومصدر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معرفتنا ووسيلة التأكد من صحتها . والتيقن من صحة وجهة النظر هذه يتطلب منا ان نستجلي بمزيد من التفصيل كيف تجرى عملية المعرفة : ما هو الدور الذى تلعبه فيها الاحاسيس وكيف تنشأ المفاهيم والمعارف المجردة وما هو دور نشاط البشر المادى فى هذه العملية .

٥٠٤

دور الاحاسيس فى عملية المعرفة . تنشأ الاحاسيس فى نتيجة تأثير موضوعات العالم الخارجي فى حواسنا . وسنتناول هذه العملية من خلال مثال تكون الاحاسيس البصرية .

ان ضـوء الشمس الذى يتألف من سيـول حقـول كهرومغناطيسية (فوتونات) تحوز طاقة معينة ، حين يقع على شيء ما ، وليكن تفاحة مثلا ، ينعكس جزئيا عن سطحهـا ، وتمتصه التفاحة جزئيا . وتقع الاشعة المنعكسة (المرتدة) عن سطح التفاحة فى عين الانسان . وتبعا لبنية السطح الفيزيائية والكيميائية تتغير طاقة الاشعة المرتدة . وفى عين الانسان تتعرض الاشعة لجملة من التحولات والتحورات . وعندمـا تنكسر الموجات الضوئيـة فى بلورة العين ، حسب قوانين البصر ، تترك على شبكية العين صورة مصغرة مئات بل وحتى الوف المرات للاشياء التى ارتدت عنها . وتقوم خلايا الشبكية عبر الالياف العصبية بنقل النبضات البيوكهربائية التى تسبب فى خلايا المركز البصرى فى الدماغ تحولا خاصا تتمثل نتيجته فى شتى الاحاسيس البصرية باللون والشكل . وتتحد هذه الاحاسيس فى كل واحد او – كما يقولون – تتركب فى ما نسميه بصورة الشيء البصرية (التفاحة ، مثلا) .

ومن خلال استجلاء عملية نشوء الصورة البصرية نخلص الى الاستنتاجات التالية : ان الصورة البصرية موجودة فى دماغ الانسان ، اذن فهى ذاتية . وهى تنشـأ فى نتيجة تحولات وتحورات عديدة للموجات الضوئية المادية المرتدة عن سطح الشيء . وتتبأر الامواج فى نبضات بيوكهربائية خاصة تتحول مرة اخرى الى احاسيس لونية وهندسية مجسمة فى خلايـا الدماغ . وفى النتيجة تكون الصورة المستحصلة فى الدماغ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مطابقة تماما للشيء المعنى بالذات ، وتساعد على تمييزه عن سواه من الاشياء الاخرى كافة . بهذا المعنى نقول ان الاحساس البصرى هو انعكاس للشيء الموضوعي . وقد نوه لينين واصفا دور الاحاسيس فى عملية المعرفة بان الاحاسيس هى «صورة ذاتية للعالم الموضوعي» وهى الى جانب ذلك «تحول طاقة المؤثر الخارجى الى واقع الوعي» * .

والاستنتاج المهم الآخر هو ان طابع الاحاسيس يرتهن ليس فقط بتركيب الجهاز البصرى ، اى عين الانسان ، وليس فقط بخصائص الشيء ، بل وبتفاعلهما . اما هذا التفاعل نفسه فيجرى بشكل نشاط مادى تطبيقى ومن دونه لا يؤدى بوجه عام الى تكوين صورة صحيحة للشيء المعنى . فصورة العمارة الشاهقة فى شبكية العين لا تشغل سوى بضعة مليمترات ، فى حين يقوم دماغنا ، عندما يكون الصورة البصرية لهذا المبنى العملاق ، بمقارنته اوتوماتيكيا وبلا وعى بالاشياء الاخرى فنحصل على تصور صائب عن حجمه . ان قدرة العقل هذه ليست فطرية ؛ فالاطفال الحديثو الولادة لا يحوزون هذه القدرة ، بل تتكون خلال عملية تدرب تطبيقى طويل على اساس التجربة الشخصية والممارسة الاجتماعية . واليكم مثالا آخر . فى غرفة مظلمة تعرض على شخص دون سابق انذار ، وبمساعدة شريط سينمائى مقلوب ، شمعة مشتعلة . لسان النار والدخان متجهان الى الاسفل ، غير ان الدماغ الذى زودته حياتنا التطبيقية سلفا بالمعلومات اللازمة يصحح تلقائيا «خطأ» مشغّل العارضة السينمائية فنرى الصورة الاعتيادية المألوفة للشمعة ذات الشعلة المتجهة الى الاعلى . والمعروف ان عمال التراكيب العالية والاشخاص الذين يصعدون لاول مرة مرتفعات شاهقة يقدرون تقديرا متباينا حجم الاشياء الموجودة على الارض . وسكان الغابات والسهوب يرون المنظور المكانى رؤية متباينة . وهذا يرتهن لا بتركيب اجهزتهم البصرية بل بتلك الممارسة الشخصية والاجتماعية وبمستوى التلقى الذى يستوعبونه مع التربية وفى سياق الحياة .

* لينين . المجلد ١٨ ، ص ١٢٠ ، ٤٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ما الذى يمكن قوله الآن عن دور الاحاسيس فى المعرفة ؟ ان الاحاسيس عبارة عن صورة ذاتية تعكس العالم الموضوعى . غير انها ليست عملية انعكاس بسيطة كما فى المرآة ، مثلما يعتقد التجريبيون ، بل عملية انعكاس معقدة جدا تنطوى على جملة من التحويلات الكيفية وحالات النفى الجدلية . والاحاسيس تقدم لنا المعلومات الاولية عن الاشياء المنعكسة . بيد ان هذه المعلومات لا تتوقف على خصائص الاشياء وجهازنا العصبى فحسب ، بل هناك قسط مهم فى تكوين الاحاسيس تسهم به تجربة الانسان والممارسة الاجتماعية ومجمل الثقافة الناشئة تاريخيا والتى تعمم التطور التاريخى . ولهذه الموضوعة فى المادية الجدلية اهمية اساسية بالنسبة لفهم دور الاحاسيس فى عملية المعرفة .

٥٠٥

دور التجريدات فى عملية المعرفة . منهج الارتقاء من المجرد الى المحدد . ليس بمقدور الانسان ان يكتفى فى نشاطـــه بالاحاسيس والصور الشعورية وحدها ، ذلك انها غير كافية لفهم العالم ، ناهيك عن تغييره . ولكن لماذا ؟ اولا ، لاننا لا نستطيع ان ننقل للآخرين احاسيسنا وان كـــان بامكاننا ان نتحدث عنها ، كما لا نستطيع ان نتحسس الصور الموجودة فى ادمغة الآخرين ، رغم اننا نستطيع ان نعلم بها خلال الحديث او مطالعة الكتب . ثانيا ، نحن نصادف فى الحياة اليومية وفى العلم على السواء معارف يتعذر الحصول عليها او تكوينهـــا بواسطة التلقى الحسى اى عملية الاحساس . مثلا ، لا يمكن رؤية او سماع او شم او لمس العدد او العملية التاريخية او المادة الخ ، رغم امكانية رؤية تفاحتيـــــن او حضور احداث تاريخية كالحرب او اطلاق اول قمر صناعى او لمس وشم شىء مادى معين كالزهرة او فنجان القهوة . فلاجل تكوين معارف معقدة عن العالم ككل وعما يجرى فيه من عمليات ، ولاجـــل نقل وخزن وتكوين معارف جديدة لابد لنا من المفاهيم (١٠١) وما يرتبط بها من عمليات منطقية . فما هى علاقة هذه الانواع من المعارف بالاحساس ؟ وكيف تنشأ ؟

غالبا ما تسمى عملية تكوين المفاهيم بعملية التجريد ولهذا يسمى المفهوم كذلك بالتجريد . وتمر عملية التجريد عبر بضع مراحل . خلال المرحلة الاولى يجرى ما يشبه تصنيف الاشياء المختلفة التى تثير لدينا احاسيس وصورا شعورية متشابهة . على سبيل المثال ، ان للتفاحة الناضجة وزهرة القرنفل والجزرة ودم الحيوان اللبون صفة مشتركة ، ورغم كل الفوارق ، وبفضل هذه الصفة تثير هذه الاشياء لدينا احساسا لونيا متشابها هو اللون الاحمر . فنحن نسهو عما يميز هذا الشيء عن سواه ، اى نتجرد وكأننا ننبذ كل الفوارق. وفى المرحلة الثانية نبدو وكأننا نطابق ونماهى بين مختلف تلاوين او بدائل الصفة التى نحن بصددها . فنحن نستطيع ، مثلا ، ان نماهى بين كل تلاوين وظلال لون واحد بعينه . وعندما نقارن بين العامل جون وصاحب المصنع سميث ، بين المؤجر فرانس ومالك الارض السيد ميوللر ، بين صياد السمك الفقير عبود وصاحب مصنع التعليب الشيخ محسن ، نستطيع التغافل عن الفوارق فى العمر والطباع والانتماء القومى واللغة الخ ، وفرد الصفة المشتركة وهى ان شخصا يجنى الارباح من مجهود الآخر . ونحن لا نعنى خلال ذلك بحجم وشكل الربح وكذلك بباقى التفاصيل ، بل نقارن ونطابق فحسب نمط العلاقات الاجتماعية . وفى المرحلة التالية نبدو وكأننا نثبت الصفات والعلاقات التى افردناها بالشكل المثالى «الخالص» الذى ربما لا نصادفها فيه فى الطبيعة نفسها وفى المجتمع . ولهذا السبب يسمى هذا النمط احيانا بعملية اضفاء الصفة المثالية . واخيرا ، اى فى المرحلة الرابعة ، يجرى تثبيت الصفات التى افردناها فى اللغة . وهذه هى مرحلة التسمية . اذ تعطى للصفة المعنية بواسطة مفردة او مجموعة مفردات تسمية معينة . هكذا ينشأ المفهوم المعبر عنه فى اللغة . ويشكل نسق الاشياء الذى يتسب اليه المفهوم معناه ، فى حين تشكل الصفة او العلاقة المثبتة والمنعكسة فى المفهوم مغزاه . فمغزى مفهوم «اللون الاحمر» هو قدرة الاشعة الضوئية لطاقة معينة على ان تثير لدينا احساسا لونيا محددا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تماما . ومعنى هذا المفهوم هو الاشياء التى تعكس اشعـــــة الطاقة المعنية . ان مغزى مفهوم «الاستغلال» هو جنى المنفعة من مجهود الآخرين ، اما معناه فهو نمط معين من العلاقات الانتاجية .

والتجريد ، شأنه شأن الاحاسيس ، عبارة عن انعكاس للواقع الموضوعى . وهما فى واقع الحياة يتكونان ويدققان خلال فترة زمنية طويلة . ومنطلقهما هو الاحاسيس والصور الشعورية . بيد ان التجريدات ، بخلاف الاحاسيس ، تعكس ليس فقط الجانب الخارجى المدرك حسيا للعمليات والاشياء المادية ، ولا تعكسه بقدر ما تعكس علاقاتها وروابطها الداخلية غير المتاحة للادراك الحسى المباشر . لهذا السبب قال لينين ان التجريدات تعكس الواقع بصورة اوفى وادق واعمق . وهذا ما كان يرى فيه الغرض الرئيس منها .

فباى صورة تساعد التجريدات او المفاهيم المجردة على فهم الروابط الداخلية العميقة لمـــا يحيط بنـــا من ظواهر وعمليات ؟

ان للاشياء فى عالم الواقع المادى عددا غفيرا من الصفات والاوجه والروابط . وكل تجريد يؤخذ بمفرده يعكس رابطة ما او صفة من الصفات كاللون والشكـــل والارتهان السببى لظاهرة ما بظاهرة اخرى الخ . الا ان هذه الصفات او الروابط المأخوذة على انفراد تنعكس باقصى قدر من الدقة والكمال . ولاجل التعمق فى معرفة الاشياء الواقعية المحددة ذات الروابط والصفات غير المحدودة العدد ، اى انعكاسها فى وعينا ، يجب جمع وربط التجريدات المنفردة بشكل معين فى مفهوم جديد **محدد** يعطى اوفى معرفة بالنسبة للزمن المعنى والعصر المعنى عن الشيء **المحدد** . اذن ، **فالمفهوم المحدد** هو اشبه **بمجموع او نسق من التجريدات المختلفة او المفاهيم المجردة التى تعكس صفات واوجها وروابط معينة للشيء المعنى** . ومع تطور معرفتنا تغدو المفاهيم التى تعكس العالم الموضوعى اكثر تحددا . على سبيل المثـــــال كان مفهوم القمر فى عصر علم الفلك القديم مجردا جدا . وكان ينطوى على بضعة ملامح .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالقمر يدور حول الارض وقرص القمر اكبر قليلا من كف اليد. والقمر يضيء ليلا . وبفضل تطور علم الفلك وصنع التلسكوبات البصرية بات معروفا فى القرن التاسع عشر وجود الجبال على القمر ووجود فوهات البراكين القمرية ، كما جرى استخراج قياسات القمر الحقيقية ، وتحديد بعده عن الارض ، واثبات تأثيره فى حالات المد والجزر البحرية وما الى ذلك . وفى الوقت الراهن ازدادت زيادة عظيمة المعلومات عن تربة القمر وتركيبه الكيميائى ومعادنه والكثير من الخصائص الاخرى لتابع الارض الطبيعى بفضل هبوط المركبات الاوتوماتيكية والانسان على القمر . واصبح مفهوم القمر غنيا جدا ووفير المضمون واكثر تحددا مما كان عليه قبل ١٠٠ سنة ، بل وحتى قبل ٢٠ عاما . فتطور العلم يقترن على الدوام بتنامى تحدد المفاهيم العلمية .

ويجب التمييز بين الاشياء المحددة والمفاهيم المحددة وعدم الخلط بينها . فالاولى موجودة فى الواقع الموضوعى ذاته خارج الوعى وبصورة مستقلة عنه ، اما الثانية فهى نتيجة نشاط البشر المعرفى . وتنشأ المفاهيم المحددة فى نتيجة اضافة وتصويب وتوسيع وتركيب التجريدات المنفردة التى تعكس مختلف اوجه وروابط الاشياء المحددة . ويسمى الانتقال من التجريدات المنفردة الى المفاهيم المحددة **بمنهج الارتقاء من المجرد الى المحدد** . وهذا الارتقاء لا يجرى كيفما اتفق ، بل حسب قواعد وقوانين معينة ، ابرزها هو ان يعكس الترابط بين التجريدات المنفردة المندرجة فى المفهوم المحدد الاوفى والادق الترابط الواقعى الموضوعى بين صفات واوجه وخواص الظواهر والعمليات المنعكسة فى المفهوم المحدد . واذا كان ترابط التجريدات داخل المفهوم المحدد مسايرا للترابط الواقعى بين صفات وخواص الظاهرة او العملية موضوعة البحث فسوف نحصل على اصح واعمق معرفة تناسب الواقع الموضوعى ذاته .

اذن ، فالمفاهيم ليست متأصلة فى الانسان من الطبيعة ولم يخلقها الرب ، انما تنشأ تاريخيا وتتكون فى سياق عملية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التجريد . ومنطلقها هو الاحاسيس ، اما وسيلة التعبير المادى عنها فهى اللغة . وتنطوى عملية التجريد ايضا على عناصر معينة من التخيل والابداع . فالانسان حين يسهو عن بعض الملامح ويفرد ويجمع بعضها الآخر انما يبدى موقفا معينا فعالا تجاه الواقع . وهو يسترشد خلال ذلك بالاهداف والمهمات التى تضعها الحياة امامه ، وبالاحتياجات الموضوعية التى تظهر فى سياق نشاطه الانتاجى والمعيشى والاجتماعى . لذا فالمفهوم لا يعكس الواقع الموضوعى فحسب ، بل ويعكس آثار فعالية البشر ونشاطهم الابداعى . واذا دخلت الفعالية الابداعيـــة القادرة على تكوين المفهوم فى تناقض مع الصفات والروابط الموضوعية للاشياء ، فقد تظهر فى عملية التجريد ايضا مفاهيم خاطئة تعكس الواقع الموضوعى بصورة شائهة ومحرفة . وثمة حضور دائم لاحتمال ظهور مثل هذه المفاهيم ، وهذا يمكن فى ظروف معينة ان يفضى الى المثالية .

٥٠٦

الجذور المعرفية للمثالية . بطبيعة الحال ليس كل مفهوم خاطىء وليس كل خطأ فى عملية التجريد يفضى الى المثالية . على سبيل المثال ، ان مفهوم «القطة الخضراء» او «المثلث الطيب» مجرد ضرب من السخافة . اذ ليس فى الواقع ما يوافقهما من اشياء . فقد جرى فيهما بشكـــل غير صحيح جمع و«لصق» صفات وملامح غير مترابطة بتاتا فى الواقع الموضوعى . ان ما يؤدى الى المثالية هو تلك المفاهيم التى تنشأ فى نتيجة الفصل الميتافيزيقى لبعض الصفات الموجودة فى الواقـــــع الموضوعى عن هذا الواقع بحد ذاته . فقد يكون عمر الانسان طويلا او قصيرا ، وقد يكون هو نفسه جيد او سيىء الاطلاع على مختلف الاشياء ، او يتمتع بقوة بدنية معينة الخ . ولكن يكفى ان نفصل صفة الاطلاع والقوة وامتداد العمر عن الاشخاص الموجودين فى الواقع ، ويكفى ان نبالغ بها ونضخمها ، كى ينشأ مفهوم خيالى عن كائن عليم وجبار وخالد هو الرب . وعلى نفس المنوال يكفى عند دراسة المادة المتحركة فصل الحركة عن الاجسام المادية ، ووضع الطاقة نقيضا للمادة ، وفصل الزمان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عن المكان ، كي ينشأ مفهوم الحركة والطاقـــة الموجودتين بصورة مستقلة عن المادة والمناقضتين لها ، وهذه خطوة مباشرة نحو المثالية «الفيزيائية» ، نحو تعليم يدعى ان العالم المادي يمكن ان يتلاشى او ان لا يكون له وجود بوجه عام فى حالة خلود الطاقة ، الامر الذى يستنتج منه ان الطاقة غير مادية ، اى مثالية .

تتلخص الجذور المعرفية للمثالية فى احتمال ان تظهر فى عملية المعرفة الجدلية المعقدة تحورات خاطئة ومبسطـــة تؤدى الى نشوء مفاهيم تعكس الواقع بشكل شائه وتبيح الظن بان الافكار والمفاهيم نفسها موجودة بصورة مستقلـــة عن المادة او سابقة لها .

ولكن ليس لزاما ان تؤدى الجذور المعرفية بحد ذاتها الى المثالية . انها مجرد امكانية ظهور المثالية . فلاجل ان تظهر المثالية وتتوطد بالفعل ، لابد من توفر ظروف اجتماعيـــة معينة ، وطبقات وفئات معينة لها مصلحة فى العقيدة المثالية كأساس لسيطرتها الطبقية . وتسمى هذه الظروف **بالجذور الاجتماعية** للمثالية . وبتعبير مجازى ان المثالية هى زهرة عاقر على شجرة المعرفة الحية ، وبالتالى فهى بحاجة الى جذور اجتماعية ومعرفية . وبما ان الجذور الاجتماعية للمثالية فى ظل الاشتراكية تختفى فى نتيجة تحويل الحياة الاجتماعية ، فان ما يطرح فى المقام الاول هو مكافحة جذورها الاجتماعية . وهذا يقتضى امتلاك ناصية الجدلية المادية ونظريـــة المعرفـــة الماركسية اللينينية بشكل واع وفعال .

٥٠٧

ما هى الحقيقة ؟ اننا نستخدم فى سياق عملية المعرفة مفاهيم مترابطة وليست معزولة . ويجرى هذا الترابط بواسطـــة الاحكام والاستدلالات . فنحن نثبت او ننكر بواسطة الاحكام والاستدلالات امرا ما بشأن الصفات او الترابطات او التفاعلات فى العالم المحيط بنا . ان مفاهيم «البيت» و«الموقع» و«الجبل» المنفردة لا تكاد تبلغنا بشيء عن موقع البيت المطلوب . وعلى الضد من ذلك ان الحكم او القول بان «البيت يقع على الجبل»

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقدم لنا المعلومة المطلوبة . والاستدلال هو سلسلة من الاحكام المبنية بحيث يستدل على كل منها ، حسب قوانين المنطق ، من الاحكام الاخرى . مثلا ، حين نعرف العنوان المطلوب نستطيع الاستدلال : «اذا كان البيت الذى نطلبه يقع على الجبل ، فالمطلوب منا ان نرتقى هذا الجبل». بيد ان الاحكام والاستدلالات التى يكوّن الانسان بواسطتها اهم واثمن المعلومات عن العالم المحيط يمكن كذلك ان تعكس هذا العالم بصورة صحيحة او غير صحيحة . ولاجل تمييز الاحكام التى تعكس العالم بشكل صحيح عن تلك التى تعكسه بشكل خاطئ ، نستخدم مفهومين خاصتين هما : «الحقيقة» و«الكذب» . فما هى الحقيقة ؟

ان هذا السؤال معقد جدا ويعتبر احدى القضايا المركزية فى نظرية المعرفة . وهو يعالج معالجات متباينة فى الفلسفة المثالية والمادية .

كان ارسطو يعتقد ان الحقيقة هى المعارف التى يحكم فيها حكما صحيحا على العالم المحيط . وفى وقت لاحق وافق العديد من العلماء على ان الحقيقة هى توافق الفكر مع الواقع ، وتوافق المعارف مع ما نعرفه . بيد ان هذه الصيغة اخذ بها المثاليون والماديون على السواء لانهم كانوا فى ردهم المتباين على المسألة الاساسية للفلسفة يفهمون فهما متباينا ايضا توافق الفكر مع الواقع . فالمثالى الموضوعى افلاطون ، مثلا ، كان يرى ان الحقيقة تتلخص فى توافق معارفنا مع الافكار الازلية الثابتة . فمعرفة العالم المادى ، فى رأيه ، لا يمكن ان تكون حقيقية لان العالم المادى متغير . اما الحقيقة فيجب ان تعزى الى ما هو ازلى وثابت . وكان المثالى الموضوعى هيغل يرى ان الحقيقة هى توافق معارفنا مع الروح المطلق ، مع الفكرة المطلقة . وهدف المعرفة البشرية هو التطابق التام مع الفكرة المطلقة . وفى هذا التطابق بالذات ، فى اعتقاده ، تكمن الحقيقة . وكانت اغلبية الماديين ما قبل الماركسية تعتقد ان الحقيقة تتلخص فى توافق معارفنا مع العالم المادى الموضوعى . ولكن فى هذا المضمار بالذات برزت الصعوبة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرئيسة . كيف يمكن التحقق من هذا التوافـــق ؟ اذا كانت الوسيلة او المعيار او المقياس هو الاحساس ، فسوف يبرز الكثير من الصعاب . فالاحاسيس نفسها يمكن ان تكون خادعة . اما اذا كان معيار الحقيقة كامنـــا فى العقل البشرى نفسه ، فسوف يفضى هذا عاجلا او آجلا الى المثالية (٥٠٣) .

ولم تتمكن الا المادية الجدلية التى حققت انقلابا ثوريا فى نظرية المعرفة من التقدم بتعليم جديد مبدئيا عن الحقيقة واصولها ومعاييرها . فما هو هذا التعليم ؟

ان المفاهيم والاحكام والاستدلالات التى نعبر بواسطتها عن معارفنا بخصوص العالم المحيط بنا وبخصوص انفسنا تعتبر ليس فقط انعكاسا لهذا العالم ، بل وثمرة لنشاطنا . اذن فالمعارف تنطوى على امر ما يرتهن بالانسان الذى ينتج هذه المعارف ، اى بذات المعرفة . وبمـــا انهـــا تعكس العالم الموضوعى ، فهى تنطوى على مضمون لا يرتهن لا بالانسان ولا بالبشرية ، وبالتالى لا يرتهن الا بالعالم الموضوعى . **ويسمى مضمون معارفنا وتصوراتنا هذا ، الذى لا يرتهن لا بانسان بعينه ولا بالبشرية عموما بالحقيقة الموضوعية .**

مثلا ، ان القول بان المـــاء فى ظروف الضغط الجوى الاعتيادى وحرارة + ١٠٠ درجة مئوية يغلى ويتحول الى بخار يعتبر حقيقة موضوعية . وبالرغم من ان كوننا نقيس درجة حرارة الغليان بالمقياس المئوى وليس بالفهرنهايت او مقياس ريومر أمر يتوقف على الانسان ، فأن واقع غليان الماء وتحوله الى بخار لا يتوقف لا على الانسان ولا على البشرية .

ان المعرفة اليقينية (الحقيقية) ، شأن العالم الموضوعى نفسه ، تتطور حسب قوانين الجدلية . وكان الناس فى القرون الوسطى يعتقدون بان الشمس والكواكب تدور حول الارض . فهل كان هذا كذبا ام حقيقة ؟ بما ان الانسان كان يراقب حركة الكواكب من «نقطة مراقبة» واحدة هى الارض ، فقد ادى ذلك الى استنتاج خاطئ مفـــاده ان الشمس والكواكب تدور حول الارض . وهنا يتجلى ارتهان معارفنا بذات المعرفة . غير ان هذا الادعاء كان يحوى كذلك مضمونا لا يرتهن لا بالانسان ولا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالبشرية ، وهو معرفة ان كواكب المجموعة الشمسية تتحرك . وكان هذا الامر ينطوى على ذرة من الحقيقة الموضوعية . وكانت نظرية كوبرنيكوس تقول بان مركز منظومتنا الشمسية هى الشمس التى تدور حولها الارض والكواكب الاخرى بمدارات دائرية متراكزة . هنا باتت نسبة المضمون الموضوعى اعلى كثيرا مما فى التصورات السالفة ، ولكن ليس كل شىء فى هذه النظرية كان يتفق كليا مع الواقع الموضوعى ، ذلك انه لم تكن هنا مراقبات فلكية تكفى لذلك . وقد اظهر كيبلر ، بالاستناد الى مراقبات معلمه تيخو براغه ، ان الكواكب تدور حول الشمس لا بمدارات دائرية بل بمدارات اهليلجية . وكانت هذه معرفة اصح ونسبة الحقيقة فيها اكثر . وقد توصل علم الفلك المعاصر الى تعيين مدارات وقوانين دوران الكواكب بمزيد من الدقة . ويتضح من الامثلة التى اوردناها ان **الحقيقة الموضوعية تتطور تاريخيا** . واكتمالها يتنامى مع كل اكتشاف جديد .

يسمى شكل التعبير عن الحقيقة الموضوعية ، الذى يتوقف على الظروف التاريخية الملموسة ، والذى يميز مستوى دقتها وصرامتها واكتمالها المحقق على مستوى المعرفة المعنى بالحقيقة النسبية . على هذا النحو يعتبر كل تطور المعرفة البشرية ، بما فى ذلك تطور العلم ايضا ، تبدلا دائما لبعض الحقائق النسبية باخرى تعبر عن الحقيقة الموضوعية بمزيد من الدقة والاكتمال . وعليه فان عملية المعرفة هى عبارة عن معرفة اكثر دقة واكتمالا للحقيقة الموضوعية .

وتسمى المعرفة الدقيقة ، الشاملة ، الوافية ، والكاملة تماما لظاهرة ما من الظواهر بالحقيقة المطلقة . وكثيرا ما يطرح السؤال التالى : هل يستطيع الانسان ان يدرك ويصوغ الحقيقة المطلقة ؟ ان اللاأدريين (٠١٠) يجيبون عن هذا السؤال بالنفى . ولاثبات رأيهم يستندون الى اننا لا نتعامل خلال عملية المعرفة الا مع الحقائق النسبية . ويقولون ان كلا منها تغدو بمرور الوقت غير مكتملة وغير دقيقة تماما ، مثلما هى الحال مع مثال المنظومة الشمسية الذى اوردناه . اذن ،

فالمعرفة التامة الوافية لا يمكــن بلوغها . ان هذا حكم خاطئ وميتافيزيقى . فالميتافيزيقيون يدعون ان بالامكان معرفــة الحقيقة المطلقة والتعبير عنها فى لحظة معينة من نشاطنا مرة والى الابد . وكثيرا ما يبدو ان بالامكان بلوغ المعرفة المطلقة فى الحالات البسيطة جدا . أفليست حقيقة مطلقــة ان نقول : «ان موسكو عاصمة الاتحاد السوفييتى» ؟ ولكن هل يعطى هذا القول معرفة وافية عن عدد سكان موسكو ومساحتها وعدد ابنيتها ، ومتى اصبحت موسكو عاصمة للاتحاد السوفييتى وما الى ذلك ؟ وحتى اذا ذكرت هذه المعلومات بواقع يوم ١ كانون الثانى /يناير/ العام الجارى ، فسوف تغدو غير دقيقة بعد مرور عام او عامين . لهذا نرى ان الحقيقة التى تبدو مطلقة للوهلة الاولى هى فى الواقع حقيقة نسبية لانها لا تنطوى على معرفة كاملة ووافية وصحيحة مرة والى الابد عن عاصمة الاتحاد السوفييتى . وكلما كانت هذه الظاهرة او تلك اكثر تعقيدا بات اكثر صعوبة بلوغ الحقيقة المطلقة ، اى المعرفة الكاملة والوافية عنها . رغم ذلك ان الحقيقة المطلقة موجودة وينبغى فهمها بصفتها ذلك الحد ، ذلك الهدف الذى تسعى اليه المعرفة البشرية . وكل حقيقة نسبية هى درجة او خطوة تقربنا من هذا الهدف .

وليس صحيحا الزعم بوجود ثلاثة انواع من الحقيقة هى الموضوعية والنسبية والمطلقة . ففى واقــع الحال ليست الحقيقة النسبية والمطلقة سوى مستويين او شكلين مختلفين للحقيقة الموضوعية . ان معرفتنا دائما نسبية لانها تتوقف على مستوى تطور المجتمع والتقنية وحالة العلم الخ . وكلما كان مستوى معرفتنا ارقى ازددنا اقترابا من الحقيقة المطلقة . غير ان هذه العملية يمكن ان تستمر بلا نهاية لاننا نكتشف فى كل مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى جوانب وصفات جديدة فى العالم المحيط بنا ونصنع فيه معارف اكثر اكتمالا ودقة . وهذه العملية الدائمة ، عملية الانتقال من بعض الاشكال النسبية للحقيقة الموضوعية الى اخرى ، تعتبر اهم مظهر للجدلية فى عملية المعرفة . على هذا النحو نجد ان كل حقيقة نسبيــة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تنطوى على نصيب من الحقيقة المطلقة . وبالعكس : ان الحقيقة المطلقة هى الحد الاعلى لتوالى الحقائق النسبية الذى لا نهاية له .

ويحق لنا الآن ان نتساءل : كيف يمكن التثبت والتحقق من الحقيقة الموضوعية ومن اين تأتى هذه الحقيقة ، وما الذى يتيح تمييز المعرفة الحقيقية عن الكاذبة ؟

٥٠٨

دور الممارسة فى عملية المعرفة . ان اهم نوع مـــن انواع النشاط البشرى هو **الممارسة** ، وهى عبارة عن **نشاط حسى مادى يرمى الى تحويل العالم المحيط بنا والطبيعة والمجتمع ، ويندرج فى اساس كل الانواع الاخرى من النشاط الاجتماعى والروحى ، بما فيه عملية المعرفة** . اذن ، فالممارسة **تنطوى ليس على عملية العمل فحسب ، بـــل على كل نشاط البشر الاجتماعى والتحويلى الثورى** . ولئن كنا حتى الآن قد تناولنا الممارسة بالدرجة الرئيسة من حيث كيفية تأثيرها فى تطور وترقى قابليات الفكر البشرى والنشاط الاجتماعى ، فسوف نتناولها الآن من جانب جديد . **ان اهم اسهام ثورى للمادية الجدلية فى نظرية المعرفة هو ادراك الدور الاساس للممارسة فى النشاط المعرفى ، واكتشاف ان الممارسة هى التى تجعل هذا النشاط ممكنا وتتيح تمييز المعرفة الحقيقية عن المعرفة الكاذبة** .

لم يكن ممثلو جميع المدارس والاتجاهات فى الفلسفة ما قبل الماركسية يفهمون دور الممارسة فى عملية المعرفة . اذ كان بعضهم يعتقد ان مصدر المعرفة هـــو العقـــل والافكار والمبادئ التى وهبها الله للانسان او غرسها فى صلبه . وبعضهم الآخر كان يعتبر الاحاسيس المصدر الوحيد للمعارف . وقد رأينا الى اية صعاب وتناقضات مستعصية على الحل كانت تفضى هذه الآراء (٥٠٣) . وحتى ماديو ما قبـــل الماركسية ، ومنهم فورباخ ، لم يتمكنوا من الارتقاء الى فهم دور الممارسة فى عملية المعرفة . وكانوا يذهبون الى ان المعارف تنشأ على اساس الاحاسيس الشعورية «الخالصة» خلال عملية المراقبـــة

السلبية وتأمل الواقـــع . وقد رأى ماركس النقص الرئيس للمادية التأملية فى عجزها عن فهـم الدور الابداعى الفعال للانسان بصفته ذات المعرفة . ففيم يتمثل هذا الدور ؟ انه يتمثل فى كون الانسان ليس مجرد يراقب او يتأمـل العالم المحيط به ، بل يقوم بتغييره فى سيـاق نشاطه الحيوى ، وبالدرجة الاولى فى العمل . وبفضل هذا بالذات تجرى المعرفة الاكثر عمقا لتلك الصفات والروابط للعالم المادى ، ومن ضمنه المجتمع ، التى ما كان لها ان تكون متاحة للمعرفـــة البشرية لو اقتصرت على التأمل البسيط أو المراقبة السلبية. وبما ان ممارسة الانسان متحركة ومتغيرة وتتطور باطراد ، فان المعارف التى نحصل عليها فى نشاطنا العملى تتعقـــد وتصوب وتتطور . اذن فالممارسة ليست فقط **مصدرا** للحصول على المعارف ، بــل هى ايضـــا **اساس** تطور وترقى هذه المعارف .

عندما ناقشنا دور الاحاسيس فى عملية المعرفة توصلنا الى ان نشوء الصور الحسية للعالم الموضوعى يتوقف بحد ذاته والى درجة كبيرة على نشاط الانسان العملى (٥٠٤) وعلى الثقافة عموما . اذن ، فالممارسة تقتحم عملية المعرفة وتؤثر فيها منذ المراتب الاولى ، اى على المستوى الذى تتكون فيه المعرفة الحسية او التجريبية . ويتجلى بمزيد من الوضوح تأثير الممارسة فى عملية تشكل المفاهيم والاحكام (٥٠٥) . اذ ان مراسيم تصنيف الاشياء فى مجموعات حسب صفات معينة وفرز ومقارنة هذه الصفات ، نقول ان هذه المراسيم بحد ذاتها هى عبارة عن نوع معين من النشاط . صحيح انه نشاط ذهنى او روحى او ثقافى ، لكنه ينشأ ويتطور تحت تأثير النشاط الشيئى المادى ، اى الممارسة . اما حين تنتهى عملية تكوين المفاهيم (التجريدات) والاحكام التى تتضمنها ويتوجب علينا ان نقرر اى من هذه الاحكام حقيقية واى منها كاذبة ، فنحن نعود ثانية الى الممارسة التى تبرز هذه المرة بصفة وسيلة للتحقق من مصداقية معارفنا ، اى **كمعيار للحقيقة** . لهذا كتب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لينين : «من التأمل الحى الى التفكير المجرد **ومنه الى الممارسة** — ذلكم هو الطريق الجدلى لمعرفة **الحقيقة** . . .» *

وتعتبر الممارسة نوعا مـــن النشاط يمتاز به البشر وحدهم . فحتى اعقد نشاط للحيوانـات لا يمكن اعتبـاره ممارسة ، لان العمـــل (١٢٢ ، ١٢٥) هـو اساس وصلب الممارسة . لهذا السبب بالذات لا تتسنى للحيوانـات سوى معرفة الروابط الشيئية الاسترشادية السطحية ، بينمــا لا يتسنى لها معرفة الروابط العميقة ، اى القوانين الموضوعية . فالمعروف ان النمل يتسم بسلوك معقد جدا . فهو ، بالتحديد ، يحمى وحتى يفك اشتباك حشرات اخرى هى قمل النبـات ويتغذى بما يفرزه قمل النبات مـن رحيق غذائى . بيد ان النمل لم يتمكن خلال ملايين عديدة من سنى هذا «التعاضد» الذى يسمى بالتعايش الحيوى من اشتقاق فصائل اكثر ادرارا من قمل النبات الذى يسمى احيانا بـ«بقرات النمل» . اما البشر الذين بدأوا بمزاولة الزراعة وتربية الماشية قبل بضعة الاف عام فقط ، فقد تيقنوا بفضل نشاطهم العملى الفعال وعن طريق الكثير من التجارب والاخطاء والاختبارات من امكانية التأثير فى ادرار الحيوانات الداجنة والنباتات . فأكتشفوا وصاغوا قواعد زراعة المحاصيل وتربية الحيوان ، وتعلموا بفضل ذلك اشتقاق فصائل وانواع جديدة تماما لا وجود لها فى الطبيعة العذراء . هكذا جرى خلال الممارسة اكتشاف الحقائق الموضوعية الجديدة المتعلقة بالزراعة وكذلك التحقق منها واستخدامها .

ومهما راقبتم الاجسام الصلبـــة وخصائص السوائل ، كالماء مثلا ، لن تتيح لكم هذه المراقبة السلبية القول كيف يتغير وزن الجسم المغمور فى الماء . ومن خلال التعامل فى النشاط العملى الوف المرات مع الاجسام المغمورة فى الماء عن قصد او بطريق المصادفة اكتشف الناس فى آخر الامر ان وزنها يغدو اقل كلمـــا ازداد وزن المـــاء المزاح (قانون ارخميدس) . وقـــد استخدم هذا الاكتشاف فى وقت لاحق بنجاح كبير فى ممارسة صناعة السفن .

* لينين . المجلد ٢٩ ، ص ١٥٢ـ١٥٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى اواسط القرن التاسع عشر خلص ماركس وانجلس من خلال اجمال وتعميم ممارسة الصراع الطبقى طوال قرون عديدة الى استنتاج مفاده ان القانون الموضوعى للتاريخ هو تخطى التناقضات الطبقية التناحرية واقامة مجتمع لاطبقى . وحاول خصومهما ان يشككوا ويماروا بالمصداقية الموضوعية لهذا القانون . وكان افضل توكيد له هو ممارسة البناء الاشتراكى فى الاتحاد السوفييتى التى ادت الى اقامة مجتمع ليست فيه تناحرات طبقية .

على هذا النحو تعتبر الممارسة فى معرفة الطبيعة وفى معرفة المجتمع على السواء مصدرا واساسا لتطور المعرفة ومعيارا لمصداقية المعارف المستحصلة .

٥٠٩

الظاهرة والجوهر . جدلية عملية المعرفة . لاجل اجمال ما ذكرناه فى هذا القسم ينبغى لنا ان ننظر فى مقولتين فلسفيتين مهمتين هما «الجوهر» و«الظاهرة» .

عندما يتفحص الانسان تفاحة ويشمها ويلمسها ويذوقها يتلقى احاسيس مختلفة تتكون منها صورة حسية معينة . والهيئة التى يبدو لنا فيها الشىء الموضوعى المعطى لنا فى الاحساس يسمى **بظاهرة** الشىء المعنى . وتنطوى الظاهرة على معلومات عن الصفات الموضوعية للاشياء والعمليات المحيطة بنا . وترتهن الهيئة التى يبدو ، اى يظهر لنا بها هذا الشىء ، كما اسلفنا (٥٠٤) ليس فقط بالمواصفات الموضوعية ، بل وبتركيب الحواس والجملة العصبية ، ومنها الدماغ ، واخيرا بالنشاط العملى . فعندما نتفحص التفاحة بالبصر نراها حمراء وكروية . وهذه إن صح القول — هى ظاهرة النسق الاول . واذا تفحصنا مقطع التفاحة عبر المجهر فسوف نرى تركيبها الخلوى . وهذه هى ظاهرة النسق الثانى . واذا استخدمنا على التوالى جهاز الاشعة السينية والمكروسكوب الالكترونى وما الى ذلك ، فسنستطيع رؤية التركيب الداخلى لخلايا التفاحة وما يجرى داخلها من عمليات جزيئية . وهذه يمكن ان نسميها بظواهر النسق الثالث والرابع الخ . اذن ، **فمقولة «الظاهرة»**

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعكس الجانب الخارجي الموضوعي للعمليات والاشياء المحيطة بنا ، وهو الجانب الذى نصادفه فى نشاطنا العملى التجريبى . ونحن نتلقى هذا الجانب الخارجى تلقيا مباشرا او عبر الاجهزة والادوات والمعدات المختلفة الخ . فما الذى تعكسه مقولـــة «الجوهر» ؟

عندما نحصل على احاسيس بصرية نتعرف على الخصائص الفردية : لون وشكل وحجم التفاحة . فهذه هى السمات التى تميزها عن سواها من الاشياء . بعدئذ نتعرف على التركيب الخلوى الذى تتميز به كل ثمار هذا النوع من النبات . وعندما نواصل البحث نحصل على تصور عن العمليات الفيزيائيـــة والكيميائية الجارية فى الخلايا التى تتميز بهـــا ليس فقط النباتات ، بل والكائنات الحية بوجه عام . وكلما توغلنا اعمق فاعمق فى تركيب التفاحة الداخلى تتسنى لنا معرفة الروابط الضرورية والاكثر استقرارا التى تتحكـم بنمو وتطور هذا النوع من الثمار وكذلك بعملياته الفسلجية . بعبارة اخرى ، عندما ننتقل من ظاهرة النسق الاول الى ظاهرة النسق الثانى الـــخ ، وحين نتعرف على جانبهـــا الداخلى نكتشف السنن الموضوعية للظواهر المعنية ، وهذه السنن هى التى تشكل جوهر الظاهرة . **اذن ، فمقولـــة «الجوهر» تعكس الصفات والروابط الداخلية العميقة التى تتحكم بعمليات تطور الاشياء والعمليات موضوعة البحث وادائها لوظائفهـــا .** وهى تعكس كامل مجموع السنن الداخليـــة للظاهرة او مجموعة الظواهر المعنية . لهذا اكد لينين ان مقولتـــى «الجوهر» و«القانون» تعتبران مقولتين من نفس النسق . ومن الاهمية بمكان ان نراعى ذلك عند دراسة الظواهر الاجتماعية المعقدة .

ان الكادحين ينظمون دوما فى المجتمع الرأسمالى المعاصر اضرابات كثيرة . وهى متاحـة بصورة مباشرة لمراقبتنـــا الحسية . وعلى الرغم من تباين المطالب التى تطرح فى مختلف الاضرابات نجدها تتطور باشكال متباينـــة وتقترن باحداث مختلفة ، غير ان جوهرها هو نضال الطبقة العاملة الاقتصادى من اجل مصالحها . وبامكاننا ايضا استجلاء الجوهر الاعـــم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والاعمق لمختلف اشكال الصراع الطبقى للبروليتاريا ، اى الاقتصادى والايديولوجى والسياسى . وهى تؤول فى التحصيل الاخير الى الضرورة التاريخية الموضوعية للاستعاضة عن طريقة الانتاج الرأسمالية بالطريقة الاشتراكية . على هذا النحو يكمن وراء تنوع الظواهر الاجتماعية الخارجية جوهرها الموضوعى الواحد . وكما نرى فليس هناك حد كؤود فاصل بين الظواهر والجوهر . فالامر الذى لا تتسنى مراقبته اليوم ويعتبر جوهرا للشيء المعنى قد يصبح غدا متـــاحا للمراقبة ويتحول الى ظاهرة . ان مقولتى «الظاهرة» و«الجوهر» تبدوان ، من جهة ، وكأنهما متضادتان لانهما تعكسان الجانب الخارجى الاكثر تغيرا والجانب الداخلى الاكثر استقرارا لكل شيء ، وهما فى الوقت ذاته مترابطتان جدليا وكل منهما تتحول الى الاخرى . فالظواهر والجوهر لا يوجدان بصورة منفصلة فى الواقع نفسه . لهذا نوه لينين بان الجوهر يظهر والظاهرة جوهرية . وقد اراد بذلك ان الجانب الداخلى الخفى يتجلى على الدوام عبر الجانب الخارجى المتاح للمراقبة ، والجانب الخارجى يقيضه الجانب الداخلى الذى يعتبر سببا له . الى جانب ذلك تعبر مقولتـــا «الظاهرة» و«الجوهر» عن اتصال وترابط مراحل المعرفـة . فنحن نتعرف على الظاهرة فى مستوى المعرفة الحسية والتأمل الحى . اما الجوهر فينكشف فى مرحلة التفكير المجرد بواسطة المفاهيم والاحكام .

لقد ادعى الفيلسوف الالمانى كانط فى محاولة للتوفيق بين التجريبية والعقلانية (٥٠٣) اننا لا نستطيـــــع بواسطة حواسنا سوى معرفة الظواهر ، اى كيفما تبدو لنا الاشياء . اما جوهر الاشياء الذى اطلق عليه نعت «الشيء فى ذاتـه» فلا نستطيع معرفته . وباستخدامه لمصطلح «الشيء فى ذاته» يبدو كانط وكأنه يؤكد ان اشياء العالــم الخارجى موجودة بصورة مستقلة عن معرفتنا . وبذا يكون قد قام بخطوة معينة باتجاه المادية ، ولكنه حين ادعى ان «الشيء فى ذاته» غير متاح للمعرفة ، انما قدم تنازلا الى اللاأدرية والمثالية الذاتية (٠١٠) فوقع فى تناقض يستعصى على الحل . كيف يا ترى

يمكن القول بان «الشيء فى ذاته» موجود موضوعيا اذا كانت معرفته امرا متعذرا ؟ وللتهرب من هذا التناقض اتجه كانط نحو الايمان ، نحو العقل الاسمى الذى يقف فوق المعرفة الحسية . نحن نعلم بوجود «الاشياء فى ذاتها» لاننا نؤمن بها . وقد تعرض كانط بسبب هذا التذبذب لانتقادات الماديين والمثاليين على السواء . فالماديون انتقدوه لانه كان يعتقد ان «الشيء فى ذاته» غير متاح للمعرفة وبذا يكون قد حفر هوة سحيقة بين الظاهرة والجوهر . ووصف لينين ذلك بـ«النقد من اليسار» . اما المثاليون فقد انحوا باللائمة على كانط لانه يقر بموضوعية «الاشياء فى ذاتها» ، اى الاشياء المادية التى لا ترتهن بالوعى . ووصف لينين ذلك بـ«النقد من اليمين» . ان نظرية المعرفة فى المادية الجدلية ترى — بالاستناد الى تجربة ومنجزات العلوم المعاصرة كافة — ان ليس هناك «اشياء فى ذاتها» غير متاحة للمعرفة ، بل هناك فقط اشياء واحداث وعمليات مختلفة لم تتم معرفتها بشكل واف ، ولكن يمكن ان تتم معرفتها مع تعمق وتوسع نشاطنا العملى والمعرفى .

ان جدلية المعرفة الحقيقية تنطلق من ان العالم المتنامى ينعكس فى المعرفة المتنامية بفضل التغير والتطور الدائم لممارستنا الانتاجية الاجتماعية . وفى عملية المعرفة ننتقل دائما من الظاهرة الى الجوهر ، ومن بعض الحقائق النسبية الى بعضها الآخر الاكثر عمقا ، ونتحقق منها دائما خلال الممارسة ، وننبذ بلا رحمة الاحكام او الاستدلالات الخاطئة والكاذبة .

اشكال ومناهج المعرفة العلمية

٥١٠

النظرية والفرضية . العلم هو اسمى شكل للمعرفة . وتأثيره فى جميع جوانب حياة المجتمع يتنامى فى الوقت الراهن بلا انقطاع . واساس هذا التأثير هو استخدام المنجزات العلمية فى الانتاج وفى ادارة شؤون المجتمع ، الذى يفضى الى التقدم العلمى التقنى (٣١١) . فما هى اهم وابرز الخصائص المميزة للمعرفة العلمية ؟

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لقد كان منجمو بابل القديمة ، كما تفيد قصص التراث ، يعرفون جيدا مواقع النجوم والكواكب . وتسنت لهم مراقبة العشرات من حالات الكسوف والخسوف . لكنهم لم يتمكنوا من تحديد مساراتهـــا ومن التنبؤ الدقيق بحالات الكسوف والخسوف المقبلـــة ، ناهيك عن الرد على تساؤلات : لماذا تتحرك الاجرام السماوية ولماذا يحدث الكسوف والخسوف . اما الآن فليس الطلاب فحسب ، بل وحتى تلاميذ الصفوف المتقدمة يستطيعون الاجابة عن هذه التساؤلات بيسر ، اما علماء الفلك فبامكانهم التنبؤ ، وبدقة هائلة ، بحركـــة ليس الكواكب فحسب ، بل ومنظومات نجمية كاملة ، وبمقدورهم تفسير ما يجرى على النجوم النائية من عمليات فيزيائية . فكيف يتسنى ذلك ؟ انه يتسنى بفضل كون العلم المعاصر يستند الى نظريات علمية . وهى التى تتيح تفسير الظواهر القائمة والتنبؤ بالظواهر الجديدة . اما فى عهود منجمى بابل القدماء فلم تكن هناك نظريات علمية ، كما لم يكونوا مؤهلين لوضعها . فما هى النظرية العلمية ؟

ان النظرية العلمية المتطورة هى عبارة عـن منظومة او سلسلة من قوانين العلم المترابطة . ويمكن خلال ذلـــك استخراج بعض القوانين بمساعدة قواعد المنطق والتحويلات الرياضية من بعضها الآخر . وبفضل هذه التحويلات نحصل فى نهاية المطاف على معـــارف عن هذه او تلك من ظواهر الطبيعة الموجودة فى الظرف الراهن او التى سيكون لها وجود فى المستقبل . وابسط مثال على النظرية العلمية هو نظرية دوران الكواكب حول الشمس التى وضعها كيبلر . وهى تضم ثلاثة قوانين معبر عنها بصيغة رياضية . فعندما يحوز عالم الفلك بعض المعطيـــات الاوليـــة المستحصلـة عن طريق المراقبات ، لم يعد ملزما باجراء مراقبات جديدة ، كما كان يفعل علماء بابل القدماء ، بل يستطيع ادراج هذه المعطيات فى الصيغ التى تعبر عن قوانين كيبلر ، واجراء حسابات ومن ثم يستطيع القول بدقة اين يقع هذا الكوكب او ذاك فى الوقت المقصود . واذا اضفنا الى قوانين كيبلر قانونى الحركـــة

والجاذبية الكلاسيكيين اللذين اكتشفهما نيوتن فسوف نحصل على نظرية جديدة اعظم قدرة هى الميكانيك السماوى التى يمكن بواسطتها ليس فقط تفسير مواقع الاجرام السماوية والتنبؤ بها فحسب ، بـل وتشخيص اسباب حركاتهـا الخ . اذن فالنظريات يمكن ان تشمل ميادين واسعة بهذا القدر او ذاك من ظواهر العالم المادى وان تقدم عنها معارف عميقـة جدا ويمكن التعويل عليها تتيح لنا الحصول على كل المعلومات اللازمة دون ان نرجع بين فترة واخرى الى المراقبات المعقدة والمضنية .

وللنظريات العلمية مزايا حميدة اخرى . فهـى تبدو وكأنها تقدم لنا ارشادات وقواعد يعول عليها لمزاولة النشاط العملى وتتيح لنا تنظيم وتصنيف ظواهر العالم الموضوعى . فبفضل ماذا تحوز القوانين الداخلة فى النظريات العلمية مثل هذه الامكانيات ؟ القضية هى ان **قوانين العلم تعتبر انعكاسا لقوانين الواقع الموضوعى** (١٠٨) . ان قوانين الواقع موجودة موضوعيا بصرف النظر عن كون الانسان قد اكتشفها أم لا . بيد ان الانسان لا يستطيع استخدامها والاعتماد عليهـا فى نشاطه وتوظيفها لما فيه خير المجتمع الا بعد ان يتم اكتشاف هذه القوانين ومعرفتها وصياغتهـا بشكل قوانين علمية . ولنوضح ذلك من خلال مثال قانون منديلييف الشهير .

ان جدول العناصر الكيميائيـة يعكس الترابط الداخلى الضرورى الموضوعـى بين التركيب الفيزيائى والصفـات الكيميائية لذرات مختلف العناصر . وبالاعتماد على هذا القانون يمكن **تفسير** الصفات الكيميائية لاى عنصر من خلال معرفـة موقعـه فى الجدول . وبمساعدة هذا القانون يمكـن **التنبؤ** بصفات عناصر كيميائية لا تزال مجهولـة . وبهذه الصورة تنبأ منديلييف نفسه بصفات الالمنيوم الذى كان مجهولا فى عهده . وفى الوقت الراهن تمكنت مجموعة من العلماء السوفييت بالاعتماد على قانون منديلييف ونظرية ميكانيك الكم من صنع عنصر اصطناعى جديد لا وجود له فى الطبيعة اطلق عليه اسم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«كورتشاتوفيوم» * . وكانت صفات هذا العنصر وبنيته قد فسرت وجرى التنبؤ بها سلفا . عدا عن ذلك ، قدمت النظرية العلمية ما يشبه الارشادات لمزاولة النشاط التجريبي فيما يتعلق بتركيب العنصر الكيميائـــي الجديد . وكان من غير الجائز في هذه الحالة استخدام طريقـة التجربة والخطأ التي كان الناس يستخدمونها طوال آلاف السنين عند معالجة المسائل الاعتيادية الاكثر بساطة . اذ لا يمكن التوصل الى الاكتشافات العصرية الا بواسطة نظرية علمية جادة . فمن دون ميكانيك الكم والنظرية النسبية الخاصة لا يجوز استحداث العمليات النووية الحرارية التي يمكن التحكم بها واللازمة لانتاج الطاقة . ومن دون البيولوجيا الجزيئية النظرية يتعذر وضع الهندســة الوراثية واشتقاق الانواع البيولوجية الجديدة .

على هذا النحو نجد ان النظرية العلمية تيسر وتسرع عملية المعرفة عشرات ومئات المرات ، وتجعل معارفنا اعمق واسلم ، وتتيح لنا ان نشيد عليها كاساس كل نشاطنا العملي . لهذا كان لدى بولتسمان ، وهو احد كبار علماء الفيزياء في القرن التاسع عشر ، كل الحق في ان يقول : «ليس هناك ما هو اكثر صلاحا للممارسة والتطبيق من النظرية الجيدة» . فكيف توضع النظريات العلمية وما يشكلها من قوانين العلم ؟

ان اهم شكل لنشوء القوانين والنظريات العلمية هـــو الفرضية . وتمتاز الفرضية العلمية عن الافتراضات والتخمينات العادية بانها يجب ان تكون معللـــة تعليلا جيدا بالوقائع الموضوعية والمراقبات والتجارب ، وان تكون مسايرة لما يتوفر من المنجزات العلمية المثبتة اثباتا راسخا . والفرضيات يمكن ان تنشأ بطريقتين . ففي الحالة الاولى تنشأ الفرضية كتعميـم لعدد كبير بهذا القدر او ذاك من المراقبات المدخرة التي لا يمكن لسبب ما ايجاد تفسير لهـــا في النظريات السالفة . وتسمى هذه الفرضيات بالتعميمات التجريبية (اي القائمة على التجربة) . فقد تقدم العلماء منذ وقت طويل ، نتيجة الوف

* تكريما لعالم الفيزياء الذريـــــة السوفييتي كورتشاتوف (١٩٠٢/١٩٠٣-١٩٦٠) - **المترجم** .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المراقبات لحالات المد والجزر البحرية ، بفرضية مفادها ان هذه الظاهرة تتوقف على موقع القمر . وفى وقت لاحق جرى على اساس المراقبات والحسابات الدقيقة التأكد من صحة هذه الفرضية فاكتسبت صفة القانون العلمى . وفى الحالة الثانية تنشأ الفرضيـات كتخمينات عالم ابداعيـــة تراعى القوانين والنظريات الاخرى المثبتة اثباتا راسخا . على سبيل المثـال طرحت فى النظرية النسبية العامة فرضية مفادها ان المكان يغير انحناءه تبعا لكتلة الاجسام المتحركة فيه . ولم يتسن التحقق من صحة هذه الفرضية ردحا طويلا ، ذلك انه كان من الصعب فى الفضاء المحيط بالارض قياس تغير انحنائه . بيد ان هبـــوط المختبـــرات الفضائيـــة السوفييتيـــة الدقيـــق على كـــوكب الزهـــرة ، والـــذى وضعت حساباته على اساس هذه الفرضية ، كان من بين الادلة على وجوب اعتبار هذه الفرضية قانونا موضوعيا مثبتا اثباتـــا راسخا . ونحن نرى **ان نشوء الفرضيات** بحد ذاته ، **والتحقق من صحتها واختيار اكثرها دقة وصوابا تجرى بواسطـــة المراقبات والتجارب العلمية** . فالفرضية التى يتم اثباتهـــا والتحقق منها بالمراقبات والتجارب تكف عن ان تعتبر مجرد تخمين او افتراض محتمـــل بهذا القدر او ذاك . ويشرع العلماء فى اعتبارها قانونا علميا ، اى حقيقة موضوعية تعكس الروابط المستقرة والضرورية للواقـــع موضوع البحث بحد ذاته . و«تحول» الفرضية الى قانون علمى مرحلـــة مهمة من مراحل المعرفة العلمية للعالم . وهذا التحول بحد ذاته لا يمكن ان يتم الا على اساس الممارسة التى تتمثل عناصرها الجوهرية فى التجربة والمراقبات العلمية .

٥١١

التجربة والمراقبة فى المعرفة العلمية . اذا كان عالم الفلك يستطيع بواسطة الراديوتلسكوب اقتناص الامواج اللاسلكية او الاشعة السينية القادمة من اعماق الكون الخفية الغامضة ، فبمقدوره ان يكتشف نجما او تجمعا من النجوم التى لا ترى بالتلسكوب البصرى المألوف . ومن خلال مراقبـــة سلوك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحيوانات فى المختبر او الظروف الطبيعية يستطيع عالم البيولوجيا اكتشاف سنن غير معروفة سابقا لهذا السلوك . والمراقبة تقوم على عملية معرفة الانطباعات الشعورية والاحاسيس البصرية والسمعية وغيرها . ويقوم جزء ملموس من المعلومات التى يتلقاها الانسان فى الحياة اليومية ، فى حقل الانتاج او فى البحث العلمى ، على المراقبة . بيد ان المراقبات العلمية تمتاز نوعيا عن المراقبات اليومية . فهى تجرى ، اولا ، بواسطة اجهزة وادوات ومعدات خاصة ، وهى تجرى ، ثانيا ، حسب برنامج خاص ، عادة ، حسب خطة معينة على اشياء معينة سلفا . ثالثا ، انها ترمى الى بلوغ هدف معين بصرامة هو ليس الادخار البسيط لوقائع غير مترابطة ، بل جمع وقائع تبيح التقدم بفرضيات جديدة او التحقق من فرضيات سبق طرحها . رابعا ، انها تجرى غالبا على اشياء وعمليات لا نصادفها ، عادة ، فى الحياة اليومية . خامسا واخيرا ، انها مطالبة بان تكون مماشية لمستلزمات الدقة العالية والتوثيق وما الى ذلك . رغم ذلك لا تتيح حتى اعقد وادق المراقبات العلمية التغلغل فى اعمق اعماق الظاهرة ، اى فى جوهرها . لماذا يا ترى ؟

ان اية مراقبة ، حتى اذا اجريت بواسطة اكثر الاجهزة تطورا ، تترك الظاهرة موضوعة البحث بالشكل الذى كانت عليه فى الطبيعة ، دون ان تغيره او تحوله . ولاجل فهم الروابط الداخلية العميقة لهذا الشىء او ذاك ، يجب تحويله وتغييره واستجلاء كيف سيكون سلوكه خلال عملية التحويل . وهذا يقتضى انتزاع الشىء المعنى من الروابط والشروط المألوفة ، ووضعه فى ظروف جديدة ، وتغيير نظام نشاطه ، وتفكيك اجزائه ، وجعله يتصادم مع الاشياء الاخرى ، وحمله على ان يؤدى وظائفه ونشاطه فى الظروف غير المتوقعة . وهذا هو ما يشكل مضمون التجربة العلمية او البحث التجريبى . اذن فالتجربة هى شكل علمى خاص للممارسة . وفى سياق التجربة تجرى المراقبات لا بصورة سلبية بل بصورة ايجابية

فعالة ، بشكل «تأمل حى» . وبما ان التجربة تجرى حسب قواعد محددة تحديدا دقيقا وبهدف معطى سلفا هو اثبات او دحض هذه او تلك من الفرضيات والحصول على وقائع جديدة لاجل وضع قوانين ونظريات جديدة ، فهى تعتبر اهم وابرز وسيلة للمعرفة العلمية .

ومن المتبع تمييز عدة انواع من التجارب العلمية هى : ١ - تجارب **البحث** الرامية الى اكتشاف الظواهر الجديدة والصفات الجديدة او الروابط غير المعروفة سابقا بين الظواهر ، ٢ - تجارب **التحقق** التى يتمثل هدفها فى اثبات او دحض الفرضيات وتقدير دقتها ، ٣ - التجارب **التركيبية** التى يجرى خلالها صنع او تركيب مواد جديدة او تراكيب جديدة لم يكن لها سابقا وجود فى الطبيعة ، ٤ - تجارب **الفحص** الرامية الى فحص وضبط الاجهزة والادوات وآلات القياس .

وغالبا ما تتداخل كل هذه الانواع من النشاط التجريبى فى تجربة واحدة . مثلا ، اتاح اطلاق المختبرات الفضائية الى كوكب الزهرة اثبات صحة جملة من بنود النظرية النسبية العامة (تجربة تحقق) ، واكتشاف ظواهر جديدة فى جو الكوكب وعلى سطحه (تجربة بحث) ، وجرى خلال ذلك صنع تراكيب واجهزة جديدة تماما (تجربة تركيب) ، والتأكد من دقة وصلاحية الاجهزة العاملة (تجربة فحص) .

وتتمثل خاصية العلم المعاصر المميزة فى ان التجربة كمنهج علمى عام للمعرفة تستخدم الآن على نطاق واسع لا فى العلوم الطبيعية والتقنية فحسب ، بل وفى الحياة الاجتماعية .

وفى ظروف التقدم العلمى التقنى تنتشر المناهج التجريبية لمعرفة وتحويل الواقع انتشارا واسعا فى جميع ميادين الصناعة والزراعة والادارة . فالمصانع والمعامل والمجمعات الصناعية الزراعية والاتحادات الانتاجية تجرى المزيد والمزيد من التجارب المنظمة علميا من اجل ايجاد او فحص الاشكال الجديدة لتنظيم العمل والادارة ، واعتماد التقنية الجديدة والتكنولوجيا المتقدمة . وتتجلى فى ذلك احدى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الآليات الجبارة لتأثير العلم فى الممارسة الاجتماعية . وهذا هو ما يفسر لماذا يحتاج كل انسان واع الى فهم دور التجربة فى المعرفة والنشاط العملى .

٥١٢

اضواء على بعض المناهج العلمية العامة للمعرفة . يتطور العلم المعاصر تطورا سريعا . وهو يدرس مختلف الاشياء فى الطبيعة والمجتمع ، ابتداء من الجزيئات البسيطة وانتهاء بالنجوم ، من الكائنات الحية الى الروبوتات ، من نفسية الفرد الى التحويلات الاجتماعيـة على صعيد المجتمـع باسره . وهذا يؤدى الى استحداث علوم جديدة . وتسمى هذه العملية **بتمايز** المعرفة العلمية . ويؤدى تمايز العلم الى ظهور عدد كبير من مختلف المناهج العلمية الخاصة للمعرفة . الى جانب ذلك تجرى ايضا عملية معاكسة هى **تكامل** العلم . وهو يتجلى فى ان القوانيـن والسنن التى اكتشفتها بعض العلوم تجد مجالا للاستعمال فى العلوم الاخرى . فالمفاهيم التى وضعت صيغهـا فى اطار الفيزياء او الكيميـاء تستخدم عند دراسة الكائنات الحية . وتستخدم السنن الاقتصادية لدراسة تاريخ المجتمع ، كمـا تراعى منجزات علم النفس عند تصميم الروبوتات وهلمجرا . بيد ان اهم وابرز تجل لتكامل العلم هو تطور وتعمق المناهج العلمية العامة للمعرفة الجارى استخدامها على نطاق واسع فى جميع انواع البحث العلمى . وتعتبر دراستهـا مهمة كبيرة الشأن فى نظرية المعرفة .

١ — منهجا المعرفة الاستدلالى والاستقرائى

تشكل قوانين وفرضيات ونظريات كل علـم من العلوم مستوى متميـزا من المعرفـة يسمى **بالنظرى** . فالمعـارف القائمة على المراقبة المباشرة والتجربة ، اى على التلقى الحسى تشكل مستوى آخر هو المستوى **التجريبى** للمعرفة . وثمة علاقات معقدة للغايـة بين المستويين النظرى والتجريبى للمعرفة فى العلـم المعاصر . ومرد ذلك هو ان نظريات وفرضيات وقوانين الفيزياء والسيبرنيطيقا والفلك والبيولوجيا

وغيرها من العلوم المعاصرة مجردة ، ولا يمكن التعبير عنها بصور ايضاحية وبمفاهيم واحكام تصلح لان تعزى او تستخدم فيما يتعلق بالظواهر المدركة حسيا . ان كل هذه المعارف يجرى التعبير عنها عادة بشكل رمزى معقد فى هيئة معادلات رياضية وفى صيغ منطقية مجردة . ويقتضى استخدامها فيما يتعلق بالواقع والتحقق من مصداقيتها مقارنة مستوى المعرفة النظرى بمستواها التجريبى . ويستخدم لاجل ذلك **منهج المعرفة الاستدلالى** . وهو يتلخص فيما يلى : ان القوانين والفرضيات الاولية الاساسية للنظرية المعنية يجرى تحويلها بصورة متواصلة بواسطة قواعد منطقية ورياضية محددة بصراحة . وفى نتيجة هذه التحويلات تظهر سلاسل طويلة او منظومات من الصيغ والافتراضات او التخمينات التى تعبر عن هذه او تلك من السنن او التى تصف خواص وروابط معينة للاشياء موضوعة البحث . وتسمى عملية استنباط مثل هذه المعارف الاشتقاقية من القوانين والفرضيات الاولية الاساسية بالاستدلال ، اما المعارف المستحصلة فتسمى بالاستدلالية (الاستنباطية) .

ويتيح منهج المعرفة الاستدلالى الحصول عن طريق مختلف التحويلات المنطقية والرياضية على عدد هائل من النتائج المستمدة من عدد صغير نسبيا من البنود والقوانين الاساسية للنظرية المعنية . وبخلاف البنود الاولية للنظرية المفتقرة الى الصفة الايضاحية تكون النتائج قابلة للاستخدام فيما يخص الواقع المادى المدرك حسيا . ولاجل ذلك يضفى عليها مغزى ومعنى تجريبى ، اى مدرك حسيا . على سبيل المثال ، تجرى مقارنة الكميات المتغيرة التى تتضمنها المعادلات الرياضية بمعطيات مؤشرات اجهزة معينة وبمعطيات مختلف الكواشف الكهربائية او بالمراقبات البصرية والصوتية المألوفة الخ . على هذا النحو يجرى بمساعدة المنهج الاستدلالى استنباط ترابط المستوى النظرى للمعارف مع المستوى التجريبى ، وبالتالى مع التجربة والمراقبة والممارسة بالمعنى الاوسع للكلمة . على سبيل المثال ، ان القوانين الاساسية لميكانيك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكم غير قابلة للاستخدام المباشر فيما يخص الواقع نفسه ، ولا يمكن مقارنتها بنتائج المراقبات التجريبية . وبطبيعة الحال ان النتائج المستحصلة منها بواسطة التحويلات الرياضية يمكن التحقق منها تجريبيا . وبفضل ذلك يتسنى ليس فقط اثبات مصداقية القوانين الاساسية لميكانيك الكم ، بل وايجاد اوسع استعمال تطبيقى لها .

ولئن كان المنهج الاستدلالى يتيح اجراء الانتقال من المستوى النظرى الى التجريبى ، فان **المنهج الاستقرائى للمعرفة العلمية** يتيح تحقيق الانتقال بالاتجاه المعاكس . ففى سياق الممارسة والمراقبة العلمية والتجربة يدخر العلماء كمية كبيرة من الوقائع المتشابهة ، بهذا القدر او ذاك ، والمنسوبة الى هذه او تلك من ظواهر الطبيعة والحياة الاجتماعية . هنا يبرز السؤال التالى : كيف يمكن ان نستخلص من الوقائع المتفرقة المعرضة لتأثيرات وتغيرات طارئة معارف عن القوانين الموضوعية المتحكمة بها ؟ ان المنهج الاستقرائى لبناء المعارف العلمية هو بالضبط عبارة عن مجموع القواعد التى تتيح الانتقال من المراقبات الحسية والمعارف التجريبية عن الوقائع المنفردة الى المعارف النظرية عن القوانين المندرجة فى اساس هذه الوقائع والمكونة لجوهرها (٥٠٩) . ويرتبط استخدام المنهج الاستقرائى بالاستخدام الواسع فى المعرفة العلمية للاحصاء الرياضى ونظرية الاحتمال اللذين يتسنى بواسطتهما اعطاء تقدير كمى لاحتمال وقوع هذا الحدث او ذاك ، واحتمال ظهور هذه الصفة او تلك فى سلسلة كاملة من التجارب الخ . ولئن كان مستوى احتمال ان تكون العملية المعنية او الصفة المعنية مستقرة يعتبر مرتفعا جدا ، فان المعارف عن مثل هذه العمليات او الصفات يمكن تناولها كقوانين علمية . هكذا بالضبط جرى اكتشاف قوانين توزع الطاقة فى المنظومات الفيزيائية المعزولة (القانون الثانى لعلم الحركة الحرارية الكلاسيكى) ، وقانون دارون فى الاصطفاء الطبيعى والكثير غيرها من قوانين العلم المعاصر . واذ يتيح منهج المعرفة الاستقرائى الانتقال من المراقبات الخاصة

المنفردة الى المعارف النظرية الاكثر عموما ، انما يمارس دورا مهما فى تطور العلم المعاصر . صحيح ان المنهجين الاستدلالى والاستقرائى للمعرفة متضادان ظاهريا من حيث الاتجاه ، لكنهما يشكلان داخليا وحدة جدلية عميقة تؤمن التطور السريع لمجمل منظومة المعرفة العلمية .

٢ – التحليل والتركيب

حين يشرع العلماء فى دراسة شىء جديد لا يكون بحوزتهم ، عادة ، سوى معارف عامة مجردة عنه تعكس بعضا من صفاته وخصائصه . وهذه المعارف غير كافية لفهمه فهما عميقا ، ناهيك عن الاستخدام التطبيقى للظواهر او العمليات موضوعة البحث . ولاجل الحصول على كل المعلومات اللازمة عنها واكتشاف القوانين المتحكمة بها ، لا بد من تصور الشىء المعنى بهيئة منظومة متميزة . بعد ذلك يجرى بشكل متواصل تقسيم وتجزئة هذه المنظومة الى جملة من المنظومات الثانوية المختلفة المستويات ، وصولا الى عناصرها المنفردة (١٠٦) . وعملية التجزئة المتواصلة للمنظومة (الكل) الى منظومات ثانوية (الاجزاء) وعناصر ، والدراسة المرحلية لهذه المنظومات الثانوية والعناصر تسمى **بالتحليل** . وفى مجرى التحليل تتراكم المعلومات عن الخصائص والصفات المنفردة وعن اجزاء وعناصر الشىء موضوع البحث . لكننا نبدو خلال ذلك وكأننا نفقد تصورنا الاولى عن الشىء ككل متكامل . ولاجل الحصول على معرفة جديدة محددة تماما فى هذه المرة وغنية المضمون عن الشىء لابد من القيام بمرحلة جديدة من المعرفة تسمى **بالتركيب** . فكل المعارف المدخرة فى سياق التحليل توحد وتربط حسب قواعد معينة بحيث تعكس بأدق واصح صورة الصفات والخصائص والعلاقات والروابط بين المنظومات الثانوية للشىء موضوع البحث وعناصره . وعندما يتم توحيد او تركيب المعارف نحصل من جديد على تصور متكامل ، على معرفة متكاملة عن الشىء . ولكن بخلاف المعرفة الاولية تكون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه المعرفة المتكاملة لا مجردة بـــل محددة (٥٠٥) ، وتقدم حجما من المعلومات يتيح تغيير وتحويل الاشياء موضوعـــة البحث واستخدامهــا فى النشاط العملى لاجل بلوغ الاهداف المرسومة . وقد تتكرر عملية الانتقال من التحليل الى التركيب مرارا . ويؤدى كل تكرر لمراسيم التحليل والتركيب الى ما يشبه لفة جديدة من المعارف . وتتكرر مناهج المعرفة ولكن على مستوى جديد من لولب المعرفة الجدلى .

٣ – منهجا المعرفة المنطقى والتاريخى

ان كل منظومة معقدة بقدر ما فى الطبيعة والمجتمع يمكن تناولها من زاويتين . فى الحالة الاولى يجرى تناول موضوع المعرفة كما لو كان ناجزا ومكتمل التكوين بهذه الدرجة او تلك . وفى الحالة الثانية يجرى التركيز على دراسة عملية تطور وصيرورة هذا الموضوع (الشىء). ويتيح التناول الاول تبيان قوانين اداء الشىء موضوع البحث لوظائفه او قوانين نشاطه الحيوى . وفى التناول الثانى يجرى استجلاء ودراسة القوانين الموضوعية لتطوره ونشوئه وصيرورته وتغيره .

ان منهج المعرفة الذى نستخدمه فى الحالة الاولى يسمى عادة **بالمنطقى** . وهو يتمثل فى تبيـــان السمات والخصائص والمواصفات الاساسية الجوهرية الاكثر اهمية وفى الانتقال المتواصل من المفاهيم الاولية التى تعكس هذه السمـــات والصفات الى المفاهيم المحددة المتنامية التعقد باطراد والتى تقدم لنا معرفة شاملة اوفى عن الظواهر والعمليات الجارى بحثها . ويتيح لنا استخدام هذا المنهج معرفة الشىء بالشكل الذى يظهر فيه فى سماته الجوهريـــة الآن ، اى فى اللحظة التى تجرى فيها عملية المعرفة .

وفى الحالة الثانية نقوم خطوة فخطوة باستحضار عملية التطور التاريخى الواقعية التى ليست دائما بسيطة ومستقيمة . ويتمثل المنهـــج **التاريخى** للمعرفـــة فى التناول والوصف المتواصل لجميع مراحل نشوء وتطور وصيرورة الظواهر او

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العمليات الجارى بحثها . وهو يتابع كل لفات عملية التطور اللولبية الواقعية المعقدة بكل تعرجاتها وارتكاساتها . لهذا يعتبر منهج المعرفة التاريخي هو المنهج الاكثر اجهادا ويتطلب بذل قدر كبير من الجهود والوقت . الى جانب ذلك انه يتيح الاجابة عن الكثير من الاسئلة التى لا يستطيع منهج المعرفة المنطقى اعطاء اجوبة وافية عنهـــا . وتعزى الى عداد هذه الاسئلة مسألة توالى واتجاه التطور التاريخي للاشياء الجارى بحثها . لذا فان المنهجين المنطقى والتاريخى ليسا متضادين ، بل يتمم احدهما الآخر .

على سبيل المثـــال ، عند دراسة اعراض المرض يفرد الطبيب اهم وابرز ملامح المرض : تغير درجة حرارة الجسم ، التغيرات فى تركيب الدم ، وجود جراثيم معينة ، تغيرات بعض اعضاء الجسم ، وفى الختام يقوم عن طريق الربط المنطقى بين المعطيات المستحصلة بوضع التشخيص ، اى يحصل على معرفة محددة تماما عن حالة المريض الصحية بشكل مرض . بيد ان هذا التشخيص وحده لا يكفى للعلاج الفعال . فالمطلوب هو معرفة تاريخ المرض وتوالى ظهور اعراضه وتطور بعض مظاهر المرض (المضاعفات) وتغير مختلف مواصفات الجسم وحالة المريض الصحية وهلمجرا . فقط بعد رفد المعارف المحصلة سابقا بمثل هذه المعلومات التاريخية يستطيع التحقق نهائيا من صواب التشخيص وتحديد العلاج الفعال . علاوة على ذلك ، تقتضى عملية العلاج نفسها متابعة دائمة لعملية شفاء المريض فى تطورها وديناميتها وتغيرها .

ان منهجى المعرفة المنطقى والتاريخى يرفد احدهما الآخر رفدا جدليا ايضا عند دراسة الظواهر الاجتماعية المختلفة . مثلا ، عندما نبحث فى الاقتصاد المعاصر لبلد من البلدان ، نحرص قبل كل شىء على استجلاء بنيتـــه وتحليل العلاقات الانتاجية الاساسية والنظر فى مقومات الاقتصـــاد الاساسية (الصناعة ، الزراعة ، التجارة ، مجال الخدمات ، المالية ، نظام الضرائب ، الخ) ، واهم وابـــرز فروع الاقتصاد الوطنى ، ونصيب التكنولوجيات الجديدة (البيوتكنولوجيا ، التكنولوجيا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الاعلامية وما الى ذلك) . ويجرى هذا البحث ضمن اطار التناول المنطقى الذى يتيح إفراد العقد الاساسية للنظام الاقتصادى وترابطاتها وتفاعلها وتأثيراتها المتبادلة ، الخ .

اما لاجل الاجابة عن سؤال : لماذا نشأ فى هذا البلد مثل هذا الاقتصاد بالذات ، وما هى نزعات وآفاق تطوره ، ولماذا يختلف فى بعض المؤشرات عن اقتصاد البلدان الاخرى ، فلابد من القيام بتناول تاريخى واجراء بحث مفصل فى نشوء كل مقومات هذا الاقتصاد فى سياق ظهور وصيرورة وضعف او تقوى بعض عناصره فى المستقبل القريب والبعيد .

ويترابط المنهجان المنطقى والتاريخى ترابطا وثيقا ويتمم احدهما الآخر . فالمنهج المنطقى اذ يفرد المقومات والعناصر الاساسية للنظام الاقتصادى المعنى انما يبين لنا اية آليات لهذا النظام ينبغى تناولها بالتحليل التاريخى ، وما هو بالضبط الامر الاكثر اهمية فى البحث التاريخى بالنسبة لفهم الوضع الاقتصادى الراهن . اما المنهج التاريخى فحين يتناول توالى المراحل والروابط السببية لنشوء النظام الاقتصادى المعنى وانتقاله من الحالات السالفة الى حالته الراهنة ، يتيح لنا التعمق فى فهم السنن التى كشف عنها التحليل المنطقى وتفسير خصوصية وتفرد الوضع الاقتصادى الذى نحن بصدده .

على هذا النحو نجد ثمة ترابطا داخليا عميقا بين منهجى المعرفة المنطقى والتاريخى . فالمنهج المنطقى يتيح لنا تبيان النواحى المفصلية الاساسية المطلوب بحثها بحثا تاريخيا ، اما المنهج التاريخى فيتيح لنا تحديد وتدقيق ورفد نتائج منهج المعرفة المنطقى .

٥١٣

النماذج والنمذجة فى المعرفة العلمية . تعتبر النمذجة احد اكثر مناهج المعرفة المستخدمة فى العلم المعاصر انتشارا وشيوعا . فما هى النماذج والنمذجة ؟

كثيرا ما نصادف فى الحياة ان هذا الشىء او ذاك غير متاح للدراسة والبحث . فقد يكون كبيرا جدا او باهظ الثمن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

او بالغ التعقيد او لا وجود له فى المكان المعنى الخ . فى هذه الحالة يجرى صنع او ايجاد شيء آخر شبيه بالشيء او العملية التى تعنينا من ناحية ما جوهرية . انـه شيء — نائب . واذا كان بمقدورنا ان ندرس الشيء — النائب وان نطبق بعدئذ ما حصلنا عليه من نتائج مع تعديلات وتصويبات مناسبة على الشيء الذى يعنينا واستخدامها لاجل معرفته ، فان هذا الشيء — النائب يسمى **بالنموذج** . وعملية صنع او اختيار النموذج ودراسته واستخدام المعطيات المستحصلة لاجل معرفة الشيء الاساسى تسمى بعملية **النمذجة** .

من المعروف ان القردة الراقية تشبه الانسان من نواح عديدة . وقد اكتشف العلماء منذ وقت طويل اوجه شبه فى تركيب دم بعض القردة ودم الانسان . ومن خلال دراسة دم هذه القردة اكتشفوا صفات خاصة اطلقوا عليهـا مصطلح «العامل الريصى» («عامل ريزوس») . وبالاستناد الى تشابـه تركيب الدم استخدموا النتيجة المستحصلة على دم الانسان فاكتشفوا فيه صفات مماثلة . فى هذه الحالة كان دم القردة نموذجا لدم الانسان .

وفى التقنية غالبا ما يسبق صنع النموذج ودراسته صنع الاصل ، مما يتيح تحاشى الكثير من الاخطاء والصعـاب فى تصميمه . فقبل ان يجرى تشييد محطة كهربائية عملاقة يجرى صنع نموذج تقنى مصغر لهـا وتجرى عليه سلسلة من التجارب . وتراعى المعطيات المستحصلة فى وقت لاحق عند تصميم بناء المحطة .

فى الامثلة التى اوردناها تبرز اشياء مادية تماما بصفة نماذج . ولكن يستخدم فى العلم المعاصر على نطاق واسـع ايضا ما يسمى بالنماذج المثلى . ويعزى اليها ، مثلا ، مـا يسمى بالتجربة الذهنية . فقبل الشروع فى تجربة معقدة جدا وباهظة الثمن يبدو العالم كما لو كان يصنع فى مخيلته كل مجموعة الادوات اللازمة ويقوم او يمثل معها مختلف الافعال ، ويلجأ احيانا الى المخططات والرسوم كوسيلة مساعدة . وبعد ان يقوم بكل ذلك نجده اما يتخلى عن التجربة الفعلية (اذا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كانت التجربة الذهنية فاشلة) واما يسرّع فى تنفيذهـا فى الواقع التطبيقى .

وتعتبر النمذجة الرياضية نوعـا من انواع النمـاذج والنمذجة . اذ تؤخذ بمثابة الشيء – النائب ليس العمليات والاشياء المادية ، بل منظومات من المعادلات الرياضية . وعن طريق تضمين هذه المعـادلات مختلف المعطيات الرقميـة المستحصلة من المراقبات والتجربة ، ومن خلال حلهـا ، يستطيع العلماء اعطاء تقدير صحيح بشأن المواصفات الكمية لمختلف العمليات والتنبؤ بالصعاب التى قد تنشأ فى الممارسة . ويطرح الاستخدام الواسع للنماذج الرياضية فى جميع ميادين العلم المعاصر ، ولا سيما فى التقنية ونظرية الادارة مسألة دور الرياضيات فى المعرفة العلمية .

٥١٤

اشاعة استخدام الرياضيات والعلوم المعاصرة . عوضا عن ان نقيس بالمسطرة مساحة حقل مثلث يكفى ان نقيس ضلعين من اضلاعه المتعامدة ، ثم نضرب الارقام التى حصلنا عليهـا بواسطة جدول الضرب ونقسمها على اثنين لنحصل على هذه المساحة خلال ثوان معدودات . وتقـوم اهمية واستخدام الرياضيات فى العلم والتقنية والنشاط العملى على اننا نستطيع بواسطة مختلف طرائق القياس ان نضفى على الاشياء المادية وصفاتها ارقاما معينة ، بعد ذلك نوظف هذه الارقام حسب قواعد رياضية معينة عوضا عن بذل مجهود جم على التعامل مع هذه الاشياء . وبامكاننا ان نستخدم الارقام المستحصلة فى نتيجة ذلك مرة اخرى فيما يتعلق بالاشياء المادية والانتفاع منها فى معرفة صفاتها وخصائصها الاخرى . ويتجلى فى ذلك بوضوح الترابط الجدلى بين الكمية والكيفية (٤١١) . وفى حدود معينة تتيح الرياضيات تشخيص الخصائص الكيفيـة المتنوعة بلا نهاية للاشياء وصولا من خلالهـا الى الخصائص الكمية . وبما ان هذه الاخيـرة يمكن ان توصف بواسطة القواعد الرياضية المعبر عنها بالمعادلات والصيغ الدقيقـة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والبسيطة والواضحة نسبيـــا ، فان عملية معرفة الواقـــع الموضوعي تتبسط وتتسارع وتتيسر .

في الوقت الراهن اخذت الرياضيـــات تقتحم الكثير من الفروع العلمية ، والعلماء اليوم يستخدمون تجريدات (٥٠٥) تتعقد باطراد ولا يتسنى حصرها في الصور الحسية . وفي هذه الحالة لا بد من صياغة القوانين والنظريات بواسطة المعادلات الرياضيـــة المعقدة . ومنذ اواسط القـرن العشرين اخذت الحاسبات تتطور تطورا جامحا وتتيح بواسطة برامج معدة سلفا انجاز حسابات بالغة التعقيد وحل مسائل اما يتعذر حلها على الانسان او يتطلب منه مجهودا كبيرا ، علما بانها تنجز ذلك بسرعة ودقة يعول عليها .

والرياضيات تقوم على اساس النظريات والقواعد المثبتة باحكام التي تعتبر ، حسب التعريف اللينيني (٥٠٧) ، حقائق موضوعية لا ترتهن بارادة احد ، ولهذا تتيـــح الحصول على معارف معينة عن العالم المحيط بنا . ولكن مثلما لا يجوز فصل الكمية ووضعها نقيضا للكيفية ، كذلك لا يجوز فصل المناهج الرياضية للمعرفة عن المناهـــج المتنوعة كيفيـــا للعلوم المختلفة . ان وحدة كل مناهج المعرفة العلمية المعاصرة هي وحدها التي تضمن مصداقيتها الموضوعية وتأثيرها المتعاظم في التقدم العلمي التقني .

٥١٥

العلم والمجتمع . ان كل اشكال الوعي الاجتماعي — الاخلاق ، الوعي الفني والفن ، الوعي السياسي والقانوني — تؤثر تأثيرا معينا في تطور المجتمع (٢٢٦-٢٣١) . الى جانب ذلك ، في ظروف التقدم العلمي التقنـــي يتطلب حل مختلف المعضلات المتعلقة بنمو القوى المنتجة وحماية البيئة وتحسين الرعاية الصحية ورفع مستوى الرخاء المادي للمجتمع الاشتراكي الخ ، الاعتماد بالدرجة الاولى على منجزات العلم . لذا فمن الاهمية بمكان ان نفهم مكانة ودور العلم في المجتمع المعاصر .

قبل ٣٠٠ سنة قدم الكاتب الانجليزي الساخر جوناثان سويفت صورة تهكمية جدا عن العلوم التي عاصرهـا . ففي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معرض حديثه عن رحلة غوليفر الى بلاد العجائب صور فريقا من العلماء الغريبى الاطوار واصحاب المشاريع الخيالية الذين يحاولون الامساك بضوء الشمس بواسطة القثاء الاخضر كـــى يتسنى بعدئذ استخدامه لاغراض التدفئة ، ويزاولون صنع الاقمشة من شباك العناكب ، واستخدام الالــواح والاسلاك المعدنية فى تصميم ماكنة يمكن الاستعاضة بها عن المجهود الذهنى . لقد تغير الموقف من العلم فى الوقت الراهن تغيرا جذريا ، وليس فقط لانه اكتشف بالفعــل قانون تفاعل ضوء الشمس والنباتات الخضراء وتعلم صنع خيوط ادق وامتن آلاف المرات من شباك العنكبوت ، وصنع الحاسبات الالكترونيـــة القادرة على تيسير المجهود الذهنى ، بل بالدرجة الرئيسة لان التقدم العلمى التقنى (٣١١) المتسارع باطراد ابتدأ بفضل اعتماد نتائج العلم فى الانتاج . وقد تحول العلم نفسه فى الوقت الراهن الى ميدان لانتاج المعارف على نطاق واسع .

واصبحت الابحاث العلميـــة احد انواع النشاط البشرى التى تتطلب اكبر قدر من الاموال والجهود . وبانفاق اموال طائلة على صنع المسرعات الجبارة للدقائق البسيطة والاجهزة والمعدات المختلفة ، وعلى اعداد العلماء ، يحق للمجتمع ان ينتظر من العلم نتائج تطبيقية كبيرة .

ولا يقتصر دور العلم فى المجتمع المعاصر على كونه يساعد على تطور التقنية والتقدم التقنى . فالمجتمع الاشتراكى يعتمد على المعارف التى تقدمها العلوم الاجتماعيـــة — الاقتصاد ، التاريخ ، القانون ، الخ . — عند معالجة المسائل الاقتصادية الاجتماعية البالغة الاهمية . وتتطلب ادارة تنمية المجتمـــع معرفة عميقة للاقتصاد وعلم النفس وعلم الاجتماع ونظريـــة الاخلاق . بطبيعة الحال ، ان تسريع تنمية القوى المنتجـــة وبلوغ ارفع مستوى لانتاجية العمل يبقيان هما المهمة الابرز طوال فترة تطور المجتمع الاشتراكى وانتقاله الى الشيوعية . الى جانب ذلك ، ان هذه العملية لا يمكن ان تجرى دون ترقى الوعى الاجتماعى والفردى ، ودون التطور الشامل للثقافة . وهذا يقتضى كذلك اساسا علميا متينا يعتمد على الفهم المادى

للتطور الاجتماعى ونظرية الشيوعية العلمية . على هذا النحو يؤثر العلم المعاصر تأثيرا قويا فى تكوين مجمل الثقافة الروحية وفى ترقى الوعى الاجتماعى وتطور الفرد من جميع الجوانب . وينسحب هذا ليس فقط على العلوم الاجتماعية ، بل يشمل كذلك العلوم الطبيعية والتقنية ، وهذا ما يتجلى فيه دورها المتميز فى المجتمع الاشتراكى .

ويكتسب العلم فى الوقت الراهن طابعا معقدا وشموليا . اذ يتطلب حل المسائل التقنية والاقتصادية والادارية فى الوقت ذاته اجتذاب فرق علمية كبيرة تتألف من علماء من مختلف الاختصاصات . ولا يقتصر تكامل المعارف على توثيق الروابط بين العلوم المختلفة . فبفضل التطوير السريع للتعليم واتاحة فرص نيله امام الجميع فى المجتمع الاشتراكى تتسرب المعارف العلمية الى جميع اشكال الوعى الاجتماعى . فلاجل ان يرسم الفنان لوحة تصور معركة ما عظيمة ، كذلك الاديب الذى يكتب رواية عن تاريخ الحرب ، لا بد له من الرجوع الى علم التاريخ . ولأجل ان يحدد المؤرخ بمساعدة التحليل النظائرى عمر الآثار القديمة تحديدا دقيقا لا بد له من الرجوع الى الطرق الفيزيائية . وعندما نقوم بوضع تعليم عن السلوك الخلقى يجب علينا ان نستند الى منجزات علم النفس المعاصر وعلوم اخرى . ان العلوم الاجتماعية ، وفى مقدمتها العلوم الاقتصادية والتاريخ وعلم الاجتماع ، تعكس مباشرة الوجود الاجتماعى . فهى اذ تكتشف القوانين الموضوعية لتطور المجتمع انما توفر بذلك الاساس اللازم لمشاركة الجماهير بشكل واع فى العملية التاريخية . وهذه المشاركة بحد ذاتها لا يمكن ان تتم الا شريطة ان تمتلك اوساط الكادحين الواسعة ناصية اصول العلوم الاجتماعية واستخدامها فى الواقع التطبيقى . ولم يعد الوعى الاجتماعى فى ظروف المجتمع الاشتراكى يتكون بصورة عفوية ، مثلما هى الحال فى التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية السالفة ، بل بات يتكون على اساس علمى راسخ . وتؤثر فيه تأثيرا فعالا خلال ذلك ليس العلوم الاجتماعية وحدها ، بل والعلوم الطبيعية التى تعكس الطبيعة ، والعلوم التقنية التى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تضع قواعد وقوانين صنع المعدات التقنيـة . والنتائج التى تحصل عليها هذه العلوم توسع تصوراتنا عن الكون ، عن ترابط ووحدة الطبيعة الحية والجامدة ، وتعمق معارفنـا عن تفاعل الطبيعة والمجتمع . وهى تندرج فى منظومـــة العقيدة وتساعد على وضع تعليل افضل للنظرة المادية الى مكانـــة الانسان فى العالم ، واستيعاب مغزى نشاطه والغرض منه . على هذا النحو ترتبط العلوم الطبيعية والاجتماعية والتقنيـــة ارتباطا وثيقـا باشكال الوعى الاجتماعى الاخرى وتشارك فى تطورها ورقيها . والعلم ، بصفتـــه اليوم اهم قوة منتجة ، يتفاعل فى الوقت ذاته تفاعلا نشيطا مع باقى ميادين حيـــاة المجتمع . لهذا يجب التعامل معه تعاملا جدليا . فهو يعتبر ، من جهة ، اسمى شكل للمعرفة ولانعكاس الواقع الموضوعى ، ومن جهة اخرى ، نراه يندرج عبر التقدم العلمى التقنى فى منظومة الانتاج المادى . ووحدة الاضداد هـذه هى المصدر الجبار لتطوره .

تشكل الفلسفة الاساس المنهجى والعقائدى (٣٠٠ ، ٤٠٠) للمعرفة العلمية . لهذا السبب يتطلب استيعاب اصول المعارف العلمية ، ناهيك عن المشاركة الفعالة فى نشاط البحث العلمى استيعابا عميقا وابداعيا لفلسفة المادية الجدليـة . ويرتهن ترقى العلم نفسه من نواح كثيرة بتطور مناهج البحث العلمى . لذا فان نظرية المعرفة فى المادية الجدلية ، اذ تبحث بحثا شاملا فى جدلية المعرفة العلمية ، انما تساعد على تطور منهجية هذه المعرفة .

ان ترابط الفلسفة ، ولا سيما نظرية المعرفة ، مع تطور العلم يؤكده ايضا مجمل تاريخ ترابط المعارف الفلسفيـــة والعلمية . ففى البلدان والفترات التى تطور العلم فيها تطورا سريعا تطورت وترقت كذلك التعاليم الفلسفية عن المعرفـة ومناهجها . وهذا امر طبيعى : فكلما كان تطور العلم جامحا ، ظهر فى طريقه المزيد من الصعـــاب والمفاجآت والمشاكل ، واضطر العلماء اكثر فاكثر الى إعمال الفكر فى جوهر المعرفة بحد ذاته ، وفى شروط ومعايير مصداقيته . وفى كيفية انماء

وتصويب المعارف العلمية . فى الوقت ذاته نرى ان الانحطاط العام للعلم والثقافة يرافقه ، عــادة ، انخفاض فى مستوى الابحاث الفلسفية . لذا فان حالــة الفكر الفلسفى ومستوى معالجة المعضلات المنهجية للمعرفة العلمية اشبه بالبارومتر الذى يبين لنا بأى اتجاه وبأية وتيرة يجرى تطور العلــوم الطبيعية والاجتماعية والتقنية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل السادس

الانسان والمجتمع

٦٠١

محادثة عن جوهر الانسان ومغزى الحياة . سندشن هذا الفصل الختامى بمحادثة . وسيجريها هذه المرة قارئ استوعب كل المادة الفائتة وفيلسوف يتبنى مواقف المادية الجدلية .

القارئ (ق) : لقد جاء فى مطلـــــع الكتاب ان الالمام بالفلسفة ، وبالدرجة الاولى الماركسية اللينينية ، امـــــر ضرورى لاجل فهم جوهر الانسان ، ومكانته فى العالم الراهن ، ومغزى حياته والغرض منهــــا ، ولاجل ادراك فحوى اكثـــر معضلات العصر حدة والتهابا .

الفيلسوف المادى الجدلى (ف) : هذا صحيح تماما ، لقد ناقشنا دائما هذه المسائل بالفعل . ففـــى الفصل الاول ، مثلا ، تناولنا المسألة الاساسية فى الفلسفة ، وهى مسألة علاقة الوعى بالمادة . وهذه هى ، من حيث الجوهر ، علاقة الانسان بالعالم ككل . وفى الفصل الثانى واصلنا المناقشة فتناولنا علاقة الوجود الاجتماعـــى بالوعى الاجتماعى ونشاط البشر الانتاجى المادى والروحى . وفى الفصل الثالث اوضحنا علاقة المجتمع البشرى بالطبيعة .

واخيرا ، بعد ان درسنا قوانين الجدلية واطلعنا عـــلى نظرية المعرفة فى المادية الجدلية ، نكون قد تهيأنا للنظر فى باقى المسائل المعلقة .

ق : فلننظر فيها الآن . ما هو جوهر الانسان ؟ وما هو

مغزى حياته ؟ لاى غرض يحيا الانسان ؟ ان مـن الصعب جدا العثور على اجابة عن هذه الاسئلة .

ف : ما الذى ، فى اعتقادك ، يعرقل حل هذه المسائل ؟

ق : فى العالم ، كما نعلم ، بضعـة مليارات من البشر القاطنين فى بلـدان مختلفة ، بشر من مختلـف القوميات والاعراق ، من الرجال والنساء ، من الشيـب والشباب المنتمين الى مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية . وهم عـلى مستويات مختلفة من التعليم والتربية ولديهم طباع واهداف مختلفة ، وهم يفهمون الحياة ومكانتهم فيها فهما متباينا . فهل يمكن ، والحالة هذه ، ان يدور الحديث بوجه عام عن جوهر واحد للانسان ؟ او عن هدف عام او عن مغزى الحياة المقبول لشخصين على الاقل ، ناهيك عن المجتمع ككل ؟

ف : ان سؤالك بحد ذاته يتطوى على امكانيـة ارتكاب خطأ . فهذه الفوارق ، فى اعتقادك ، من الكبر والاتساع بحيث تستبعد وجود اهداف عامة ومغزى عـام للحياة بالنسبة الى الطبقات والفئات الاجتماعية . وانت تظـن ان ليس هناك اى جوهر عام للانسان . وليس ثمة ما يجمع بيـن الناس . انه تطرف اشبه بتطرف الظـن بان الناس جميعا متشابهون ، وبأنهم جزيئات اجتماعية عديمة الهوية . بيد ان هناك وحدة جدلية بين العـام والخاص والفردى (٢١٢) . وفلسفتنا لا تسعى الى ان ترسم لكل فرد كل اهدافه الشخصية ، ولا تقرر سلفا كل فعل منفرد الخ . فالانسان والمجتمـع فى وحدة جدلية ، لذا فالاجابة عن هذا السؤال لا يمكن ان نظفر بهـا الا بشرط اقرارنا باوجـه الاختلاف والائتلاف بين البشر ، وبترابط المصالح الشخصيـة والاجتماعية والارتهان المتبادل للنشاط الاجتماعى والشخصى . ولا يتسنى فهم ما هو جوهر الانسان وما هو مغزى حياته الا من خلال مثل هذا التناول ،

ق : فما هو هذا الجوهر ؟

ف : لقد شهد تاريخ الفلسفة بهذا الصدد الكثير مـن الاجوبة المختلفة . مثـلا ، كان فلاسفة اليونان القديمـة يعتقدون بان جوهر الانسان يتمثل فى انه هو نفسه العالـم

الاصغر اى عالم صغير حى متحرك وكأنه يكرر بشكل مضغوط العالم المحيط به ، اى العالم الاكبر . بيد ان تطور العلم لاحقا اظهر ان نشاط الانسان الحيوى يخضع لقوانين التطور الاجتماعى ، بينما يتطور العالم المحيط حسب قوانين الطبيعة . ودحضت الحياة فهم الاقدمين لجوهر الانسان . وكانت الفلسفة المسيحية في القرون الوسطى ترى جوهر الانسان فى منشأه الالهى ، وفى كونه يحوز روحا . بيد ان الله خلق الروح مرة والى الابد ، بينما البشر متباينون تماما . فهم يتعادون ويتصارعون ويرتكبون اعمالا مختلفة جدا وحتى منافية لتعاليم الرب . كما ان نمط حياتهم واذواقهم وآراءهم وفهمهم للحياة بحد ذاته امور تتغير من عصر الى عصر . ولم يصمد الفهم المسيحى لجوهر الانسان هو الآخر لاختبار الزمن . فقد التقى الفلاسفة البرجوازيون ، رغم كل تنوع آرائهم ، فى كونهم يرون جوهر الانسان وهدفه الرئيس فى السيطرة على الطبيعة وعلى الآخرين .

ق (مقاطعا) : وما هو مغزى الحياة ، وما هو التجلى الاسمى للنزعة الانسانية ؟

ف : ان الاغلبية الساحقة من البشر هى الكادحون ، المستغَلون فى ظروف المجتمع التناحرى . فهم لا يتقاضون الارباح ، ولا يجنون النفع من هذه السيطرة . علاوة على ذلك ، انها – كما نعلم – تحط من قيمة الانسان وتعيث خرابا فى الطبيعة . اذن ، فالسيطرة وجنى الارباح بأى ثمن لا يمكن ان يكونا جوهرا ومغزى للحياة بالنسبة لاغلبية البشر ، انما يحددان فقط جوهر وهدف حفنة من المستغِلين .

ق : اذن كيف تفهم الفلسفة الماركسية جوهر الانسان وهدف ومغزى حياته ؟

ف : ان الفلسفة الماركسية تنطلق من ان الانسان بالدرجة الاولى كائن اجتماعى . فقد ظهر وانعزل وانفصل من عالم الحيوان بفضل العمل . اما افعال الانسان واهدافه وآراؤه ونواياه فتحددها فى التحصيل الاخير العلاقات الاجتماعية التى يعيش فيها وفى مقدمتها العلاقات الانتاجية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ق : اذا كان جوهر البشر فى عصر معنى تحدده العلاقات الاجتماعية ، افلا يجب ان يكون الناس جميعا ، فى المجتمع المعنى على الاقل ، متشابهين كالتوائم ؟ فلماذا ، اذن ، يختلف سلوك البشر واذواقهم وآراؤهم وطباعهم واهدافهم الحياتية ؟

ف : لا تنس ان نفس الجوهر قد يتجلى تجليات مختلفة ، لان ظروف تجليه مختلفة على الدوام . فجوهر كل اصناف الماس واحد ، وهو يتحدد بان الماس يتألف من ايونات الكاربون المقيدة فى شبكات بلورية معينة ، ولكن ليس فى الطبيعة بلورات ماسية متشابهة تشابها مطلقا . فهى تختلف ، وان قليلا ، فى الحجم واللون والشفافية والشكل ووجود الشقوق وما الى ذلك . وهذه نتيجة لكونها قد نشأت فى ظروف مختلفة ، فى حين ان البشر وظروف حياتهم اعقد واكثر تنوعا بمليارات المرات . ان تجلى الجوهر البشرى هو الشخصية . وليس هناك شخصان لهما نفس الشخصية تماما .

ق : وما هى الشخصية ؟ وما الذى يحددها ؟

ف : انها تتوقف بالدرجة الاولى على جوهر الانسان ، اى على العلاقات الاجتماعية المتغيرة تاريخيا . ولهذا تختلف شخصية عصر معين تنتمى الى طبقة معينة اختلافا جوهريا عن شخصية عصر آخر وطبقة اخرى ، وما يؤثر فى تكوين الشخصية هو موقف الانسان من عمله ومن طبقته ، والتربية العائلية والمدرسية ، ومستوى التعليم ، وسعة الاطلاع ، ومدى تطور القابليات الطبيعية لهذا الانسان . ويؤثر فى الشخصية كذلك طبع الانسان وموقف الآخرين منه وتقديره لذاته وهلمجرا . لهذا تكون كل شخصية فى ظل وجود الجوهر العام متميزة وفريدة . وهذا ما تتجلى فيه جدلية العام والخاص والفردى .

ق : استنتج من ذلك ان فهم كل شخصية محددة يتطلب منا معرفة ليس جوهر الانسان ككائن تاريخى اجتماعى

فحسب ، بل كذلك تفاصيل حياته وخصائص تربيته وسيرته ، الخ .

ف : صحيح تماما .

ق : هنا يبرز سؤال جديد . ان العلاقات الاجتماعية ، وبالتالى جوهر الانسان ايضا ، تتغير من عصر الى عصر . علاوة على ذلك ، ان هذا الجوهر يتجلى فى مليارات الشخصيات المختلفة ، ولكل هذه الشخصيات اهداف مختلفة وموقفها من الحياة متباين . فهل يمكن والحالة هذه ان يدور الحديث حول مغزى حياة وهدف حياة واحد بالنسبة للبشرية او بالنسبة لعصرنا على الاقل ؟

ف : يمكن ، بالتأكيد . وهذا الهدف الاسمى هو بلوغ حرية كل فرد وحرية المجتمع ككل .

ق : وماذا ستقدم لنا هذه الحرية ؟

ف : انها ستقدم لنا فرصة حياة كاملة القيمة ، اى حياة ابداعية ، وفرصة لتحقيق الذات تحقيقا تاما .

ق : ولكن لماذا كل هذه الاهمية للابداع ، للحياة الابداعية ، وماذا يعنى تحقيق الذات ؟

ف : ان كل عملية تطور ، كما تعرف ، هى نشوء الجديد (٤٠١) . ففى الطبيعة تذهب ملايين او مئات آلاف السنين على تكوّن القارات او الجبال او الانهار . ويستغرق نشوء الانواع الجديدة من النباتات والحيوانات كذلك الوفا او مئات عديدة من السنين . بينما يقوم الانسان المعاصر بانشاء انهار وبحيرات صناعية ويغير طبيعة الارض خلال سنوات او اشهر . لقد تعلمنا خلال فترة قصيرة من الزمن اشتقاق انواع جديدة من الكائنات الحية ذات صفات معطاة سلفا . والابداع هو بالذات الصنع الخلاق والهادف لما هو جديد خدمة لمصالح الانسان ولاجل تلبية احتياجاته المادية والروحية . لقد كان البشر على الدوام يزاولون الابداع ، لكنه كان فى اغلب الاحيان عفويا . علاوة على ذلك ، كان الابداع فى المجتمعات الاستغلالية من نصيب قلة قليلة من الناس ، وليس دائما فى صالح البشر . اذ كان ملايين الناس يعملون بحكم الفاقة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وانصياعا لارادة غيرهم ، ولاجل اهداف لا يفهمونها . وكانت قدراتهم الفطرية غير متطورة او تطورت تطورا وحيد الجانب . ولم يكن مستوى القوى المنتجة ونمط الحياة وطابع العلاقات الانتاجية تتيح للبشر تحقيق افكارهم ومؤهلاتهم وآمالهم ومثلهم خلال عملية العمل المادى وفى الحياة الاجتماعية . ولم تكن تتوفر لاجل ذلك بوجه عام ظروف موضوعية .

وتحقيق الذات هو عملية تحقيق الافكار الهندسية والتقنية والقواعد الخلقية والفنية ومثل النظام الاجتماعى العادل وتجسيدها فى اشياء مادية وقيم روحية ، وفى حياة الانسان نفسها . وهو — اى تحقيق الذات — يرتبط ارتباطا لا ينفصم بالابداع ، وبالابداع الخلاق تحديدا . وهذا الابداع لا يمكن ان يتم الا فى حالة وجود الحرية الحقيقية التى لا يمكن بلوغها الا فى نتيجة تطور البشرية الطويل والمعقد .

ق : ولكن اذا اصبح البشر احرارا وراح كل منهم يفهم الحياة على طريقته ويسعى لتحقيق اهدافه وما الى ذلك ، افلا يقود هذا الى صدامات لا نهاية لها بين البشر ؟ فقد يرغب شخص لاجل تحقيق ذاته فى تأليف موسيقى ، ويظل يعزفها على البيانو من الصباح الى المساء ، وشخص آخر سوف تزعجه هذه الموسيقى ، ذلك انه بحاجة الى هدوء تام لاجل ان يحل مسألة رياضية . ثم ماذا ستكسب البشرية ككل اذا راح كل فرد يزاول تحقيق الذات الابداعى ويتصرف بحرية دون مراعاة للآخرين ؟ كما ان فى المجتمع اعمالا شاقة ، غير ابداعية ، وغير مستحبة كثيرا .

ف : انت تخلط بين العسف والحرية الحقيقية . اذ لا يمكن ان يكون حرا من يسبب بتصرفاته ضررا للآخرين او للمجتمع . لاجل ان نفهم ماذا تكسب البشرية من العمل الابداعى لكل فرد منها ومن تحقيقه لذاته وماذا يكسب الفرد خلال ذلك ، لننظر بمزيد من التفصيل فى جميع هذه المسائل ، ولنبتدئ من تناول ما هى الحرية وما هى الضرورة .

٦٠٢

الحرية والضرورة . كانت مسألة ما هي الحرية وهل بامكان الانسان ان يكون حرا احدى المسائل الازلية في الفلسفة. وفيها تتجلى مسألتها الاساسية ، اى مسألة علاقة الانسان بالعالم المحيط به .

لا ينبغي الخلط بين مفهوم الحرية الفلسفي والتصور العادى عن الحرية . فالحرية بالنسبة للفرد العادى تعني التصرف الارتجالي التعسفي وتلبية كل رغبة تحدوء . فهل هذه الحرية ممكنة ؟ لنفترض ان شخصا في صحراء محرقة رغب فجأة في ان يسبح فورا في جدول بارد . هذه رغبة غير قابلة للتحقيق لان هذا الشخص لا يراعى الضرورة الموضوعية وظروف الواقع . ولنفترض ان شخصا آخر ساورته رغبة في ان يطير كالطيور . انه لا يستطيع الافلات من الجاذبية الارضية مهما رفرف بيديه كما يرفرف الطير بجناحيه . وهنا ايضا تصطدم الضرورة الموضوعية برغبته . ولكن أيعنى هذا ان الانسان عبد دائم للضرورة وانه لا يستطيع تجاوزها والتصرف وفقا لرغباته ؟

كان فلاسفة الماضي القديم يعتقدون ان الحرية غير متاحة الا للآلهة . اما الانسان فمجرد لعبة في يد الآلهة . انه عبد لاهوائه وللضرورة الخارجية . وكانت هذه النظرة تعكس ذلك المستوى من التطور الاجتماعى ، حين كان الانسان ضعيفا واعزل في الصراع مع قوى الطبيعة ومع الاستغلال الطبقى . وكان علماء اللاهوت والفلاسفة المسيحيون يعتقدون بان الانسان يمكن ان يكون حرا ، لكنهم كانوا يفهمون الحرية فهما ضيقا جدا . فالحرية ، في رأيهم ، تتمثل في امكانية اختيار احد طريقين : القيام بافعال ترضي الرب ، وجزاء ذلك دخول الجنة ، او القيام بافعال ترضي الشيطان ، وجزاء ذلك الذهاب الى الجحيم .

كان سبينوزا ، وهو مفكر مادى هولندى من القرن السابع عشر يعتقد ان الضرورة هي التي لها الغلبة في الطبيعة . اما الانسان الحائز للعقل فباستطاعته معرفة هذه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الضرورة . وبفضل ذلك يغدو حرا . فالحرية ، عند سبينوزا ، هى معرفة الضرورة . فهل هذا صحيح ؟ أتكفى معرفة الضرورة الموضوعية لتجاوزها وانهاء التبعية لها ونيل الحرية ؟

ان الرغبات وحدها لا تكفى لان تظهر فى الصحراء القائظة بركة مياه صالحة للسباحة . بل تقتضى الضرورة اجراء اعمال رى معينة : شق اقنية وجداول ، ايجاد مصادر للمياه ، تعلم صيانة وتوزيع المياه بشكل صحيح ، الخ . وهذا يتطلب - بدوره - معرفة قوانين الطبيعة واختيار مشروع البناء الصحيح واتخاذ قرار معلل علميا . غير ان القرارات والمشاريع وحدها لا تكفى . فالضرورة تتطلب القيام بعمل عظيم وتحويل المشروع الذى وقع عليه الاختيار الى واقع . آنئذ فقط يستطيع الانسان التحرر من وطأة القيظ وتحقيق رغبته .

والرغبة وحدها لا تكفى لان يطير الانسان فى الهواء . ففى العالم يسرى مفعول قوانين موضوعية مختلفة وضرورات عديدة مختلفة . فالى جانب قانون الجاذبية الارضية هناك ايضا قوانين مقاومة الهواء للاجسام المتحركة فيه . ونحن لا نستطيع التحرر من اى من هذه القوانين ، ومن اى من هذه الضرورات . لكننا اذا عرفنا الضرورات الموضوعية فسوف نتمكن من تجاوز مفعول احداها بالاعتماد على اخرى غيرها . وهذا بالذات ما يفعله مصممو الطائرات ، مستخدمين مقاومة الهواء لتجاوز قوة الجاذبية الارضية . لكن معرفة الضرورة وحدها لا تكفى هنا ايضا . فبالاعتماد على المعرفة يجب اتخاذ قرار صائب واختيار انجح تصميم وصنع الطائرة فى واقع الممارسة . آنئذ فقط يستطيع الانسان ان يطير فى الهواء بحرية .

على هذا النحو نجد ان الفهم الماركسى للحرية لا يحصرها فى معرفة الضرورة فحسب ، بل يربطها بنشاط البشر التطبيقى . **ان يكون المرء حرا معناه ان يستطيع معرفة الضرورة الموضوعية ، وان يضع - بالاعتماد على هذه المعرفة - اهدافا صحيحة ، وان يتخذ ويختار قرارات**

معللة ، وان يحول فى الممارسة هـذه القرارات الى واقع .
لهذا كان انجلس يؤكد ان الحرية تتمثل ليس فى الاستقلال المتخيل عن الضرورة الموضوعية ، بل فى القدرة على اتخاذ قرارات قائمة على الالمام بالامور .

والحرية بهذا المعنى متاحة للانسان ، ولكن الا بصفتـه كائنا اجتماعيا . فمن غير الممكن ان يكون المرء حرا بمنأى عن المجتمع . فالانسان المعزول تماما ، حتى اذا تمكن من معرفة الضرورة الموضوعية ، لا يستطيع تنفيذ حتى اكثـر القرارات حكمة . لقد كتـب لينين ، ردا على المفكريـن البرجوازيين الذين يعتقـدون ان الانسان ملزم قبل كل شيء بالتحرر من التزاماته امام المجتمع : «ان من غير الممكن ان يعيش المرء فى المجتمع وان يكون متحررا منـه» * . اذن ، فحرية كل فرد لا يمكن بلوغها الا فى ظروف تاريخية معينة ، وبالتحديد فى الظروف التى يكـون فيها المجتمع بأسره متحررا . فما هى هذه الظروف ؟

فى التشكيلات التناحريـة تتسلط على الانسان قوتان قسريتان قاهرتان ، اى نمطان من الضرورة الخارجية . فهـو مرهون ، اولا ، بالضرورة الطبيعيـة ، وثانيا ، بالضرورة الاجتماعية . وتتجلى هذه الضرورة الاجتماعية فى شرطيـة الاستغلال التاريخية . فالمستغَلون ليـس بمقدورهم ان يكونوا احرارا لانهم لا يملكون الامكانيات المادية والروحيـة اللازمة لتلبية احتياجاتهم . اما المستغِلون فبسبب حيازتهـم للثروات المادية والسلطة السياسية يتمتعون بمرتبة معينة من الحرية . لكنها هى الاخرى مؤطرة جدا ، وفى المقام الاول بأطر الملكية الخاصة . وبالفعل ، لاجل ان يكون المرء حرا ، عليه ان يعرف الضرورة التاريخية وان يتخذ القرار الصحيـح ويجسده فى واقع الحياة . بيد ان الضرورة التاريخية تفضى فى نهاية المطاف الى الغاء الملكية الخاصة ، وبالتالى تدخل فى تصادم مع مصالـح الطبقات المسيطرة المرتكزة على هذه

---

* لينين ، المجلد ١٢ ، ص ١٠٤ .

الملكية . ولهذا لا تستطيع هذه الطبقات معرفة هذه الضرورة حتى النهاية ، وتضطــــر الى اتخاذ قرارات والقيام بافعال تناقض هذه الضرورة ، وبالتالى ليس فى مقدورها ان تتمتع بالحرية الحقيقية . على هذا النحو ، لا يمكن ان تكون هناك حرية حقيقية فى المجتمعات الاستغلالية ، ومن ضمنها المجتمع الرأسمالى . فالكادحون ليسوا متحررين من الاستغلال ومـن غياب الظروف المادية والمعنوية اللازمة لتطور الفرد من جميع الجوانب . اما المستغلون فهم غير متحررين مــــن القيود السياسية والقانونية التى اوجدوها هم انفسهم ، وهى القيود اللازمة لحماية وتعزيز الملكية الخاصة العائدة لهم . فالحرية ، اذن ، ظاهرة تاريخية . والمرء لا يمكن ان يكون حرا فـــى المعرفة وحدها ، فى الفكر والخيال فحسب . هذه ليســـت حرية حقيقية . انها ذاتية ، اى امكانية مجردة لحرية حقيقية . اما الحرية الحقيقية فلا يمكن ان تعم الا فى ظل ظروف موضوعية مناسبة . ويجرى توفير هـــــذه الظروف عند الانتقال الى الشيوعية . وكل فترة البناء الاشتراكى عبارة عن عملية تنام مطرد لحرية كل فرد من افراد المجتمع ، وبالتالى لحريـــة المجتمع بـــأسره . «. . . ان التطـــور الحر لكـــل فرد ، — كما نوه ماركس وانجلس ، — هـــو شرط التطور الحر للجميع» * .

ويتطلب تحقيق الحرية لكل فرد وللمجتمع ككل تنفيـذ الشروط التالية البالغة الاهمية : قبل كل شيء اقامـة قاعدة مادية تقنية جبارة . وهذا امر ممكـــــن ، **اذا اجتمعت فقط منجزات التقدم العلمى التقنى مع افضليـــات الاشتراكية .** ويجب ان يرتفع تطور القوى المنتجة الى المستوى الذى يحرر الانسان بأقصى قدر من العمل الشاق والمضنى ، ومن التبعية للطبيعة . وهذا يوفر الظروف لنيل التعليم الشامل الكامـــل القيمة وازدهار كل مؤهلات الفرد ، الامر الذى يزيد بدوره زيادة ملموسة امكانيات المجتمع فى تلبية الاحتياجات المادية

* ماركس ، انجلس . المؤلفات ، المجلد ٤ ، ص ٤٤٧ .

والروحية لافراده كافة . الى جانب ذلك سوف تنفتح آفاق منقطعة النظير للمضى قدما بالتحويل والتطوير الابداعي لمجمل الحياة الاجتماعية .

ولا يقل اهمية عن ذلك تطور وعى الناس نفسه وفهمهم العميق للتناسب الصحيح بين المصالح الشخصية والاجتماعية ، وتكوين الاحتياجات المعقولة ، والضبط الذاتى ، والاحترام المتبادل والتقيد الصارم بقواعد الاخلاق والنظام العام . ومن دون هذا الشرط يتعذر بوجه عام تحقيق الحرية . فالحرية لا يمكن ان تكون الا اذا كان بمقدور كل فرد ان يحد بنفسه من افعاله ونواياه ، دون ارغام خارجي كي لا ينتهك حرية الآخرين . وما دام هذا المستوى من الوعى غير محقق ، فان وظيفة التحكم بالعلاقات الاجتماعية يجب ان يضطلع بها كالسابق ليس فقط المواطنون انفسهم ، بل ومختلف المنظمات والمؤسسات الاجتماعية . ومع نمو الوعى ، سوف يضطلع افراد المجتمع انفسهم اكثر فاكثر بهذه الوظائف . لهذا يعتبر التطوير الشامل للوعى اهم ممهدة لبلوغ الحرية على صعيد المجتمع بأسره ولصالح كل فرد من افراده . وبما ان كلا هذين الشرطين لا يمكن ان يطبق الا فى فترة الانتقال الى الشيوعية ، فقد كان لدى رواد الماركسية اللينينية كل المسوغات لاعتباره انتقالا من ملكوت الضرورة الى ملكوت الحرية .

اذن ، فبلوغ الحرية - بالمعنى الذى تفهمه به الماركسية اللينينية - هو الهدف التاريخى للبشرية ، ذلك ان الانسان الحر الذى يعيش فى مجتمع حر هو وحده القادر فى الواقع على ان يكشف كشفا عمليا عن كل طاقاته الابداعية لما فيه خيره وخير الآخرين . وعندما يجرى توظيف هذه الطاقات الابداعية لا لاجل خوض الحروب ، ولا لاجل تحقيق اهداف مغرضة ، بل فى سبيل التطوير اللامحدود لمؤهلات الفرد وترقية مستوى الحياة البشرية ، آنئذ فقط يحل ملكوت الحرية . لكنها لا تنشأ على الضد من الضرورة الموضوعية ، بل بفضلها ، بفضل تخطى التناقض بين الحرية والضرورة ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذى اوجده تطـــور التشكيلات الاقتصادية الاجتماعيـــة التناحرية .

٦٠٣

دور الفرد والجماهير الشعبية فى تطور وحياة المجتمع . كان مؤدلجو الطبقات المستغلة يؤكدون على الدوام ان الحريـــة والابداع لا يمكن ان يكونا متاحين الا لنخبة قليلة مـــن البشر . اما اغلبية الناس التـــى يطلق عليها بازدراء نعت الرعاع ، فليست قادرة الا على الانصياع ، وعلى ان تجســد بعملها الاجبارى افكار الشخصيات الفذة ، صانعة التاريـــخ والثقافة . على هذا النحـــو ترتبط مسألة الحرية والابداع ارتباطا وثيقا بمسألة دور الفرد والجماهير الشعبية فـــى العملية التاريخية .

وبالفعل ، هل يمكن وصف العملية التاريخية بعمليـــة تنامى الحرية البشرية اذا كانـــت هذه الحرية غير متاحة الا لبعض الافراد ؟ وهل يمكن القول بأن الانتقال المنطقـــى والمشروع من ملكوت الضرورة الى ملكـوت الحرية يعنى ان ملكوت الحرية هذا لن يتيح فرصـــة الكشف عن المؤهلات الابداعية الا لافراد معدودين ، بينما تبقى اوسع الجماهيـــر الشعبية خلفيـــة لهؤلاء الافراد ، ومجرد منفذ لارادتهـــم ونواياهم ؟ لقد أكد رواد الماركسية اللينينية ، ردا على هذه الاسئلة ، ان المجتمع الشيوعى هو ملكوت الحرية الحقيقـى لاجل الجميع ، وان التطور التاريخى يجـــب ان يفضى الى استعادة حرية الجماهير الشعبية الواسعة التى هى الصانـــع الحقيقى للتاريخ . ان مفهوم «الشعب» او «الجماهير الشعبية» بحد ذاته يختلف باختلاف التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية .

ان الشعب فى المجتمعات التناحرية هو ليس كل سكان البلد المعنى او الدولة المعنية ، بل هو فقط الجزء الاكبر من السكان . وهو بالدرجة الاولى **الجماهير الكادحة** التى تصنع كل القيم المادية والثقافـــة المادية للمجتمع . ويتحدد دور الشعب فى العملية التاريخية بكونه يشكل القوة المنتجـــة الرئيسة ، وبهذا المعنى هو **الصانع الحقيقى للتاريخ** . بيـد

ان نشاط الجماهير الشعبية لا يقتصر عـــلى الانتاج المادى وحده . فالكادحون يصنعون ايضا اساس الثقافة الروحية ، اى اساس نتاجات الفنون الشعبية ونماذج الابداع الانشائـــى العمارى الشعبى ، ويطورون اللغات القومية ، وهم صانعـــو وحملة القيم الروحية البالغة الاهمية والموقف المخلص مـــن العمل والروح الوطنية والوعى الذاتى القومى وهلمجرا .

الى جانب ذلك ، يختلف دور الجماهير الشعبية ومستوى فاعليتها الابداعية باختلاف العصور التاريخية . فعندما نطالع الكتب التى تبحـــث فى تاريخ المجتمـــع ونزور المعارض الفنية ونستمع للمؤلفات الموسيقية العظيمة تواجهنا باستمرار أسماء شخصيات لامعة من رجال الدولة والقادة والفنانيـــن والموسيقيين . اما اسماء الملايين مـــــن الكادحين البسطاء فتبقى مجهولة . وعلى مثل هذه الوقائع بالذات يستنـــــد المؤدلجون البرجوازيون حين يدعون ان التاريخ تصنعـــــه الشخصيات الفذة ، اما الشعب فليس سوى مادة خاملة لصنع التاريخ . الا ان القضية فى واقع الحال ليست كذلك . فقد كان بين ملايين الكادحين البسطاء الذين ظلوا مجهولين عدد لا يستهان به مـــــن الموهوبين والمتفوقين فى الذكـــــاء والمؤهلات ، الذين لم تنل قدراتهم التطور والتوظيـــــف المطلوب لان المجتمع التناحرى لم يكن بحاجة الى مؤهلاتهـــم من جهة ، ولم يفسح لهم فى المجال كى يتطوروا ، بل كـــان يعمد الى خنق «المواهب الفائضة» ، من جهة اخرى . ولكـــن لماذا كانت الحال على هـــــذه الصورة ؟ أفلم تكن الطبقات المسيطرة تكسب وتنتفع من تطور مؤهلات الكادحين كافة ؟ يتضح ان تطور المؤهلات هذا ليس فقط فائضا عـــن اللزوم فى المجتمعات الطبقية التناحرية ، بل – والاهم من ذلـــك كثيرا – انه يتنافى مع طرائق الانتاج الاستغلالية ، ذلـــك أن النشاط الاجتماعى للجماهير الكادحة وابداعها يعملان على تصعيد الروح الثورية والوعـــى الذاتى ومقاومة الاستغلال . لهذا السبب بالذات تعرقل الطبقات المسيطرة تطور المؤهلات الابداعية حقا للجماهير الشعبية الواسعة . لهذا لم يحفظ لنا

تاريخ التشكيلات التناحرية سوى اسماء قلة قليلة من الشخصيات الفذة .

ان الكادحين يصنعون الجديد على الدوام ، وبهذا القدر او ذاك ، حتى اذا كانوا مشغولين بعملهم الاجبارى المنهك الرتيب . غير ان نشاطهم مقيد بمستوى تطور القوى المنتجة وبشكل العلاقات الانتاجية السائد . وحتى فى ظروف التطور السريع نسبيا للانتاج الصناعى فى ظل الرأسمالية يصبح العمال مجرد توابع للتقنية . ولا تحظى روح الابتكار لديهم ولا يحظى نشاطهم الرامى الى ترشيد الانتاج ومؤهلاتهم التنظيمية ومبادراتهم الابداعية بالدعم الا حين يعود ذلك بارباح اضافية . لذا تغدو ظروف الوجود الاجتماعى نفسه فى ظل المجتمع الاستغلالى كابحا لمبادرات وابداع الجماهير الشعبية .

ولكن **فى لحظات التاريخ الانعطافية الحادة** ، ومع اشتداد التناقضات التناحرية ، وفى فترات الثورات الاجتماعية **يتنامى نموا حادا نشاط الجماهير الشعبية السياسى الواعى** (٤٢١) . وفى كل مرة يفضى هذا الى نمو كيفى فى النشاط الاجتماعى والسياسى . وهذا ما يؤكده تاريخ الحركة الثورية والوطنية التحررية فى بلدان العالم كافة . اذ تبرز من بين اوساط الشعب نفسه شخصيات فذة من رجال السياسة والقادة المفكرين ومنظمى الانتاج الخ . وعلى هذا النحو نخلص الى استنتاج مفاده ان هناك علاقات موضوعية معينة بين الجماهير الشعبية والشخصيات المنفردة فى العملية التاريخية .

ان المادية التاريخية لا تنكر دور الفرد فى التاريخ والحياة الاجتماعية . فعلى الضد من المثاليين الذاتيين الذين يدعون ان الشخصيات الفذة ، بحكم موهبتها ومؤهلاتها الفائقة ، تحدد مصائر الشعوب ، وتوجه حسب اهوائها تطور الثقافة ، بينما الجماهير ليست سوى منفذة لافكار هذه الشخصيات ، ترى الفلسفة الماركسية اللينينية ان بمقدور الفرد ان يؤثر تأثيرا ملحوظا فى مجرى الاحداث الاجتماعية

فى ظل ظروف موضوعية محددة تماما . فما هى هذه الظروف ؟ ان بمقدور هذا القائـــد او ذاك أن يؤثر فى سير الاحداث التاريخية ، اذا كان يعكس بأصح واعمق صورة مصالح طبقة او فئة اجتماعية معينة ، ويجيد تنظيم نضال الجماهير من اجل اهداف معينة ، واذا كان يعتمد على دعم قوى اجتماعية معينة ، ناهيك عن ان يعتمد على دعم الشعـب باسره . وبامكان هذا الفرد ان يترك أثرا ملحوظا فى تطور المجتمع اذا كان يعكس فى نشاطه وفى نواتج ابداعه بأعمق صـوره احتياجات عصره ويقترح طرقا لحل المعضلات المختمـرة . وبامكاننا الان ان نقدر بمزيد من الدقة دور الفرد فـــى العملية التاريخية . وبمقدور هذه الشخصية الاجتماعية البارزة او تلك ان تعتبر تقدمية ، اذا كانت تعبر عن مصالح طبقات وقوى المجتمـع التقدمية ، وتكرس حياتها لتحقيق المثل الاجتماعية التقدمية . وتتحدد تقدمية الفرد التاريخية الواقعية بمدى عمله على تنفيذ المهام الاجتماعية التاريخية الماثلـــة امام الشعب المعنى او الدولة المعنية ، ذلك التنفيذ الذى يرتهن به تطور المجتمع باطراد . والتقدمى هو من يمهـــد لحرية الانسان ، ولبلوغ اسمى درجـــات العدالة الاجتماعية ، ولتحسيـــن الوسط المعيشى ، ولتحقيق مثل الانسانية وتطوير الديمقراطية وبلوغ الحقيقة . وبامكان مثـــل هذه الشخصيات ان تؤثـر تأثيرا ملحوظا ، بل وكبيرا جدا فـــى بعض الاحيان فى العمليـــة التاريخية . بيد ان التقسيم الصارم والوحيد المدلول لجميع الشخصيات التاريخية الى تقدمية ورجعية من شأنـه ان يكون تقسيما ساذجا وبدائيا جدا . فالبشر جميعا ، ومن جملتهـم زعماء المجتمع ، معقدون ومتعددو المداليـــل ، ولا يندر ان يغيروا مواقفهم وآراءهم ، ويتصرفون تصرفات متباينة فـــى مختلف المواقف التاريخية . وهنا ايضـــا يعتبر النشاط الاجتماعى الحى معيارا للحقيقة واساسا للتقويم الصحيح .

٦٠٤

القرد والجماهير فى المجتمع الاشتراكى . يجرى نشـــوء الاشتراكية فى صراع شاق وطويل غالبا . بيد ان المجتمـع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجديد ، حين ينشأ ويترسخ ، يفتح فرصا جديدة تماما امام تطور الفرد . والعامل الحاسم للتطور الاجتماعى يبقى فى ظل الاشتراكية ايضا هو الجماهير الشعبية . فبفضل ابداعها الثورى بالذات يجرى توفير اشكال جديدة للحياة وبنية اجتماعية جديدة ، وثقافة وعلاقات جديدة بين البشر . وفى مسعى الى تصوير الاشتراكية بمظهر مشين ، يردد خصومها باصرار ان التوجه نحو تطوير ابداع الجماهير الثورى بشتى السبل يجعل المجتمع الجديد مجتمعا جماعيا لا مكان فيه للشخصيات اللامعة ولتطور الصفات الفردية . ولئن كانت القوة الحاسمة فى الانتاج وفى الحياة الاجتماعية السياسية وفى التحويلات الاجتماعية كافة هى الجماهير ، واذا كانت الاحزاب الشيوعية والعمالية هى القوة القائدة ، فان الفرد ، كما يزعمون ، يلعب فى مثل هذا المجتمع دورا لا يزيد بتاتا عن دور برغى صغير فى النشاط الحيوى لمصنع كبير . لذا فان التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية الجديدة لا تعد الشخصيات اللامعة والمتفردة ، فى رأيهم ، بشىء . بيد ان هذه الطروحات مجانبة للصواب تماما من الناحيتين النظرية والتطبيقية .

ان الجماهير الشعبية ، أى جماهير الكادحين الواسعة ، هى القوة الحاسمة فى التاريخ بأكمله ، وفى التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية كافة . رغم ذلك يختلف دورها ووظائفها وبنيتها ، وكذلك علاقاتها مع الفرد فى التشكيلات التناحرية اختلافا نوعيا عما هى عليه فى ظل الاشتراكية . ويحتمل هنا النموذجان التاليان :

يتلخص النموذج الاول فى ان الشخصية اللامعة الاصيلة او المجموعة التى تضم شخصيات كهذه تشكل نخبة متميزة ، قوة من المختارين الذين يقودون سواهم من الناس ، أى الجمهور ، ويفرضون عليه تصورات ثقافية واذواقا وقوالب حياة ومساطر سلوك ، ويقتادونه على الطريق الذى اختاروه هم انفسهم له نحو اهداف رسموها هم انفسهم كالراعى الذى يقود قطيعا من النعاج . ويتمثل النموذج الآخر فى ان الجماعة البشرية نفسها ، أى الجمهور نفسه ، يتألف من افراد

لامعين ، مستقلين ، ذوى فكر ابتكارى وعلى نصيب كبير من الثقافة . وكل فرد منهم يشارك تبعا لقابلياته وميوله في وضع الاهداف الاجتماعية السياسية وصنع القيم الثقافية وتكوين نمط الحياة واصول السلوك .

في الحالة الاولى نرى حشدا من الافراد المتجانسين ، المتسمين بسمات القاسم الوسطى والعديمى الهوية الذين يمكن الاستعاضة عن بعضهم ببعض ، وبالتالى ليست لهم قيمة اجتماعية . وفي الحالة الثانية يطالعنا نسق من البشر اللامعين ، المتطورين من جميع الجوانب ، والتائقين الى اقصى قدر من تحقيق الذات ، مع مراعاة المصالح العامة وقواعد الاخلاق والعدالة الاجتماعية (٦٠١) . وهذا النموذج الثانى هو الذى يعتبر نموذجا لعلاقات الجماهير والفرد فى ظروف الاشتراكية .

وهذا لا يعنى ان هذا النموذج الثانى سوف يسرى مفعوله فورا فى المجتمع الاشتراكى ، حالما ينشأ ويترسخ ، وان كل فرد يغدو بصورة تلقائية شخصية لامعة ، شجاعة ، مبدعة ، حرة الفكر ومتطورة من جميع الجوانب . فالامور فى الحياة الواقعية اكثر تعقدا بكثير . اذ يدخل الناس فى الاشتراكية حاملين معهم خصائصهم الفردية ومصالحهم الفئوية وقوالب سلوكهم التى ورثوها من الماضى ، وهم يواصلون لفترة طويلة اخرى من الزمن ، بحكم القصور الذاتى الاجتماعى ، نقل آرائهم وعاداتهم ونمط حياتهم وسلوكهم للاجيال الصاعدة ، وذلك عن طريق تربيتها على ما تربوا هم انفسهم عليه . لذا فليس بالامر البسيط والهين تنشئة وتنمية الانسان الجديد ، وخلق الشخصية الجديدة حقا ، وليس الفرد الواحد فحسب ، بل وجمهور الافراد الاحرار ، المبدعين ، الواعين ، الذين يحترم بعضهم بعضا ، كما يحترمون قواعد الحياة الاجتماعية . انه امر يتطلب جهودا غير قليلة ، ويجرى فى خضم الصراع مع من يعيق التقدم عن وعى او عن غير وعى ، ويعرقل تكون الموقف الحياتى الفعال لكل فرد على سبيل المثال ، ادى الركون الى السكينة وقصر النظر والتزمت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والبيروقراطية لدى جزء من قيادة المجتمع السوفييتي منـــذ اواسط السبعينات الى تباطـــؤ وتاثر التنمية الاقتصادية الاجتماعية فى الاتحاد السوفييتي والى التخلف فى العلم . على هذا النحو تنشأ فى المجتمع الاشتراكى ، بحكم جملة مـــن الاسباب ، صعابه وتناقضاته الجدلية (٤٠٧) التى يتطلـــب تخطيها عزما واصرارا كبيرين . لذا فكل من ينتقد الاوضاع غير المرضية ويكشف عن النواقص ويسعى الى تغيير الوضع القائم وتنشيـــط وتطوير كل انواع النشـــاط الاجتماعى والسياسى والروحى يثير لدى المتزمتين موقفا معاديا . ولهذا السبب ايضا يجرى تكون النشـــاط الفعال للفرد التائق الى تحقيق مثل الاشتراكية ، هو الآخـــر ، فى صراع لا يحدث بدونه ولا يمكن ان يحدث تقدم . ولـــن يكون المجتمع حرا ومزدهرا الا اذا اصبح فيه كل فرد حرا وبات يتمتع بحريته لما فيه خير المجتمع ، وبالتالى لما فيه خير الفرد نفسه .

لذا فالاقرار بالدور المتعاظم للجماهير الشعبية الواسعة فى ظل الاشتراكية ليس فقط لا يلغى ، بل – على العكس – يفترض ويتطلب توفير الظروف والضمانات اللازمة لتنمية كل مؤهلات الفرد ومواصفاته الشخصانية الى اقصى درجة . وكلما ازداد فى المجتمع عدد الافراد اللامعين الموهوبين المتحلين بنكران الذات والاخلاق الرفيعة ، عاد هذا بالمزيد من النفع على المجتمع نفسه .

٦٠٥

الديمقراطية الاشتراكية والتربية الشيوعية . يقتـــضى بلوغ مثال الاشتراكية الاسمى تحقيق ارفع مستوى من العدالة فى توزيع الخيرات المادية والثقافية والتقيـــد التام بالقانون والنظام العام وتطبيق حقوق الانسان كافـــة . وفى ظروف المجتمع الاشتراكى تغدو السياسة (٢٢٦) والتربية من أهم وأبرز الادوات التى يتم بواسطتها بلوغ هذه الاهداف . غير ان الادوات لا تمارس فعلها تلقائيا . فالانسان يحتل مركـز النشاط السياسى والتربوى . لكن ألم يكن الانسان عـــلى الدوام وفى كل المجتمعات يزاول النشاط السياسى وتربيـــة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الآخرين ، وخاصة الاجيال الصاعدة ؟ فما الذى يجرى فى ظل الاشتراكية من جديد فى هذا الصدد ؟

لقد كانت المبادرة السياسية ، شأنها شأن الوظيفة التربوية الرئيسة ، للطبقات المسيطرة فى المجتمعات التناحرية ، أى لممثليها كالكهنة والمؤدلجين ورجال الدولة والبرلمان . وكان هؤلاء هم ذات هذا النشاط وقوته الفاعلة ، اما الجماهير الشعبية فقد كانت موضوعا سلبيا ، أى «حقلا» — ان جاز القول — يحرثه ويبذره ممثلو النخبة المسيطرة كيفما يشاؤون .

تتمثل السمة المميزة للاشتراكية فى ان اوسع اوساط الكادحين فى ظلها هى فى نفس الوقت ذات وموضوع التربية والنشاط السياسى . فهى التى تدير شؤون المجتمع وتضع قواعد واصول السلوك الاجتماعى . واداة هذا النظام الجديد للاشياء هو الديمقراطية الاشتراكية .

ان «الديمقراطية» تعنى فى اصلها اليونانى القديم سلطة الشعب . وتطلق صفة الديمقراطية عادة على طريقة تنظيم السلطة عندما تقوم الجماهير الشعبية الواسعة بانتخاب الشخصيات السياسية التى تتزعم الدولة وتصدر القوانين . فقد كان البالغون من افراد المجتمع الاحرار فى المدن الصغيرة التى كانت قائمة فى بلاد الاغريق القديمة يشاركون فى انتخابات مختلف ذوى المناصب والمسؤولين والحكام الذين كانوا يشرفون على تنفيذ القوانين ويطبقون القضاء ويضطلعون بنشاط الدولة اليومى وشؤونها الدفاعية ، ويديرون الشؤون الدولية . وكانت القوانين فى هذه الدول — المدن القديمة تسن هى الاخرى عن طريق الاقتراع العام ، ولكن ينبغى ان نأخذ بعين الاعتبار ان الديمقراطية هناك كانت ترتدى طابعا طبقيا محدودا ، ذلك ان المشاركة فيها كانت محظورة على العبيد المحرومين من حقوق الانتخاب او الترشيح .

وفى الدول المعاصرة تطبق الديمقراطية عبر نظام النواب الذين يجرى انتخابهم حسب قوانين معينة ويوليهم الناخبون

خلال الفترات بين الانتخابات العامة حق النيابة عنهم في مزاولة التشريع والرقابة على السلطة التنفيذية ومناقشة كل القضايا التي تهم المجتمع . على سبيل المثال ، هناك الآن ديمقراطيات برجوازية معاصرة . لكن هذه الديمقراطيات في الواقع تمنح شكليا فقط حقوقا متكافئة لجميع المواطنين ونصيبا - يدّعى انه متكافئ - من المشاركة في مزاولة السلطة . فالمساواة الشكلية امام القانون ، والحقوق والواجبات المتكافئة لافراد المجتمع يشطبها في الواقع التفاوت الاقتصادي ووجود الاغنياء ، والفقراء . وتتركز وسائل الاعلام الجماهيري والدعاية الانتخابية والتحكم بالرأى العام في يد من يحوز وسائل مادية ومالية جبارة .

ولا تتوفر لاول مرة الا في ظل الاشتراكية الظروف اللازمة للمساواة الحقيقية ، لا القانونية الشكلية فحسب ، بل والاقتصادية الاجتماعية لافراد المجتمع كافة ، وهذا لا يعني ان اقامة سلطة الشعب الحقيقية تجرى في كل البلدان الاشتراكية بسهولة ويسر ، دون صعاب ودون انحرافات ، وبلا حوادث انتهاك للعدالة الاجتماعية . بيد ان قوة ومزايا المجتمع الاشتراكي تتلخص في كونه قادرا على ان يدرك ادراكا تقديا الاخطاء والانحرافات عن مثل الاشتراكية ، وعلى تخطيها واجتثاثها . وعملية التخطي هذه لا يمكن ان تجرى دون صراع بين انصار التقدم والمتزمتين ، بين البيروقراطيين والمدافعين عن الديمقراطية . ولكن في خضم هذا الصراع بالذات تنشأ القناعات السياسية الحقيقية ويتوطد الوعي السياسي الديمقراطي .

ان نائب هيئات السلطة العليا والمحلية في المجتمع الاشتراكي ملزم حسب القوانين والدستور بالمثول للمساءلة امام الناخبين . واذا لم ينفذ ارادة الناخبين ، ولم يدافع عن مصالحهم دفاعا مقبولا ، ولم يذد عن القرارات الديمقراطية ، ولم يناضل في سبيل العدالة الاجتماعية ، فبامكان الناخبين ان يسحبوا الثقة منه وأن ينتخبوا نائبا آخر . وفي سياق الحملة الانتخابية تستطيع مختلف المنظمات الاجتماعية وفرق

العاملين ترشيح شخصيات مختلفة وذات آراء مختلفة فـــى مسألة كيف ينبغى الدفاع عـــن مصالح الشعب وحل ابرز المعضلات الاجتماعية المختمرة والملحة .

وتستخدم الديمقراطية فى المجتمع الاشتراكى على نطاق واسع فى عملية ادارة الاقتصاد الوطنـــى وتوزيع الخيرات المادية وتنظيم نشاط فرق العاملين فى المؤسسات الصناعية والزراعية والتعاونيـــات ودوائر التصميم والبحث العلمى . فبامكان كل عضو من اعضاء فريق العاملين ، اذا كانت تتوفر لديه المعارف والخبرة اللازمـــة ، واذا كان يتمتع باحترام رفاقه وكانت لديه ميول شخصية مناسبة ، ان ينتخب لاشغال منصب قيادى . اما فـــى المجتمع الراسمالى فان رئاســة المؤسسات والاتحادات والشركات فوق القومية لا ينتخبها من يعمل فى هذه المؤسسات ، بـــل يقتصر انتخابها على اصحاب المؤسسات وحملة الاسهم . وعلى الضد من ذلك تعتبـــر الديمقراطية فى المجتمع الاشتراكى ديمقراطية تامة ، اذ ليس فيها تمييز لاسباب عرقية او قوميـــة او دينية او اسباب تتعلق بالملكية او مستوى التعيين او الجنس .

لقد نوه الفيلسوف الفرنسى غيلفيتسى الذى عاش فـــى القرن الثامن عشر بان الانسان يربى منذ بدء حياته لا بالكلام ولا بملاحظات معلميه وتوجيهات ذويه ، بقدر ما يربيه الواقع ذاته ومجمل ظروف الحياة والبنية الاجتماعية التى يعيش فيها والنشاط الذى يشارك فيه . ولا ينبغى الظن ان الناس فى المجتمع الاشتراكى مجردون من الاهواء والميول ومشاعـــر النفور والاعجاب وسمات الطبع الفردية الساطعة . عـــلى العكس ، انهم يتسمون بكل هـــذه الصفات بأوفى قدر . ان العلنية الواسعة عند مناقشة كل القضايا التى تهم كل مواطن واهتمامه بمصير فريق العاملين الذى ينتمى اليه ومساهمتـه الفعالة على جميـــع مستويات النظام الاقتصادى والحكومى لاتخاذ القرارات وتنفيذهـــا تتيح الفرصة لتجلى كل هـــذه السمات التى تسم الفرد تجليا تاما . وعلى كل فرد فى ظروف الديمقراطية الاشتراكية حين يحقق ذاته ان يراعى فى الوقت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نفسه مراعاة تامة مصالح الآخرين وخصائصهم واهدافهم الشخصية . على هذا النحو تتوفر في ظل الاشتراكية امكانيات منقطعة النظير لتنشئة الشعور بالروح الجماعية ولتكون السمات الفردية الساطعة وتفتح مؤهلات كل فرد على السواء . ولاول مرة فى التاريخ تتطابق اهداف ومصالح المجتمع تطابقا تاما وكاملا مع اهداف ومصالح الفرد .

٦٠٦

تسريع التقدم الاقتصادي الاجتماعي . البيريسترويكا والعامل البشري . يشكل التقدم الاقتصادى الاجتماعى والروحى (٤٢٢) سمة ملازمة للمجتمع . لكنه يجرى فى مختلف العصور ومختلف التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية (٢١٣ ، ٢١٧–٢٢٠) جريانا متفاوتا ، وبسرعة متباينة ، ولا يندر ان تتخلله فترات مديدة من الركود وحتى التقهقر . ويمكن لفترات الركود هذه ان تحدث ايضا فى تطور المجتمع الاشتراكي . ففي الاتحاد السوفييتي ، وبصرف النظر عن الوتائر السريعة للتنمية الاقتصادية الاجتماعية طوال العقود العديدة التى اعقبت الثورة الاشتراكية عام ١٩١٧ ، أدى التخلي عن المناهج الاقتصادية فى الادارة ، والمركزية المفرطة ، والتخلي عن مبادئ الديمقراطية الاشتراكية ، واعتماد الطرائق الفردية الى اشتداد نزعات الركود .

كل هذا فرض فى اواسط الثمانينات الاقرار بضرورة اعادة تركيب الاقتصاد والحياة الاجتماعية والسياسية بشكل جذرى . وتمس عملية اعادة التركيب (البيريسترويكا) هذه كل ميادين الحياة الاجتماعية ، وكل المؤسسات الاجتماعية والمنظمات السياسية . وهى تتطلب القضاء على البيروقراطية والفساد وانتهاكات القانون وحقوق الانسان ، وعلى النزعة الذاتية فى القيادة السياسية . وتشمل البيريسترويكا ايضا الحزب الشيوعى الذى تبنى طريق اشاعة الديمقراطية الداخلية وجعل النشاط السياسى الفعلى مسايرا تماما للمبادئ النظرية وايديولوجيا التجديد . ويراد من تطبيق هذه البيريسترويكا التى تتضمن استقلالية اقتصادية كبيرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لفرق العاملين فـــي المؤسسات وتوسيع رقعـــة النشاط الاقتصادي التعاوني والفردي ان توفر الممهدات اللازمـــة لتسريع التقدم العلمي التقني والاجتماعي ، وتسريع كـــل اشكال النشاط الاجتماعـــي والاقتصادي والروحي الثقافي . ويرتبط التوجه نحو تسريع التنمية الاقتصادية الاجتماعيـــة ايضا بأعادة النظر الفلسفية في فهم العامل البشري ودوره .

من غير الصحيح ان نفهم العامل البشري فهما مبسطا ، باعتباره مجموع الاسباب التي تنشط فاعلية الناس الانتاجية والاجتماعية . فالانسان لا يعمل ولا يشارك فقـــط في الحياة السياسية ، بـــل ويكون اسرة ويستجم ويطالـــع ويعاشر اصدقاءه ويزاول هذه او تلك من الاعمال غير الانتاجية فـــي اوقات فراغه ، ويربي اطفاله ويتسلى ويحلم وهلمجرا . اما اذا حرم من المسرات والهموم اليومية واثقلت عليه الاجراءات البيروقراطية واستنفدت قواه العصبية الاجهاد التقنيـــة المختلفة ، فلا يمكن ان يكـــون مواطنا كامل القيمة ورب اسرة وصانع مصيره وعضوا كامل الحقوق في هذه او تلك من فرق العاملين . واذا لم يجر توفير الظروف الملائمة لمزاولة كل انواع النشاط الحيـــوي البشري الطبيعي ، فقد يتحول العامل البشري من آلية للتقدم الى كابح لهذه الآلية ، فتضعف جراء ذلك فاعليـــة الناس وينخفض نشاطهم الاجتماعـــي والانتاجي والسياسي والشخصاني . وتتمثل أهميـــة الادراك الفلسفي لدور العامل البشري في تطور المجتمع تمثلا واضحا في فهم تناقضاته وفي ضرورة حفز جوانبـــه الايجابية حفزا واعيا وهادفا وخفض جوانبه السلبية الى الحد الادنى ، وهي الجوانب التي تظهر عندما لا تجرى مراعاة هذه او تلك مـــن امور واقع الحياة البشرية وواقع مصالح البشر واحتياجاتهم . في الوقت ذاته ، توجد فـــي الحياة الاجتماعية ذاتها نزعات مختلفة وغالبا ما تكون متناقضة . لهذا يحدث حتى فـــي المجتمع الذي تبنى طريق الاشتراكية تباين معين في الملكية وفوارق في نمط حياة مختلـــف اوساط السكان والفئات الاثنية والمهنية . وهناك ايضا توجهات خلقية روحية مختلفة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا تتطابق دائمـــا مع مثـــل ومبادئ العدالـة والانسانية والديمقراطية . وثمة فرص للاجرام والفساد والبيروقراطية وبعض مظاهر اللاشرعية والخمـــول الاجتماعي وما الى ذلك . لذا فالسعي الى تنشيط العامل البشري يعني ، بالدرجـــة الاولى ، الحرص على جعل الناس يدركون حقيقـة ان اجتثاث كل هذه الظواهر السلبية لا يمكن ان يتم باجراءات القسر ورقابة الدولة فحسب ، أو بالتأثير من الجهات العليا فقط . ان التحويل الحقيقي للحياة وتطبيق البيريسترويكا الجذرية فيها ليسا سوى نتيجة الجهود والمساعي الدائمة للفرد والمجموع .

٦٠٧

الطريق الى الحضارة الجديدة . يفتح تسريع التقدم الاقتصادي الاجتماعي بصفته سُنّة موضوعية للاشتراكية الفعلية آفاقـا جديدة لتطور وارتقاء الحضارة الشيوعية . فما هي الحضارة ؟

نحن كثيرا ما نتحدث عـــن المجتمع المتحضر والبشر المتحضرين والسلـــوك الحضاري وهلمجرا . ويعتبر مفهوم الحضارة مقولة من أهم وأبرز مقولات المادية التاريخية تميز السمات الجوهرية والنزعات والخصائص البنيويـــة من تطور المجتمع . فما هي هذه السمات والخصائص والنزعات ؟

ان مقولة «التشكيلـــة الاقتصادية الاجتماعية» (٢١٣) تصف المجتمع من حيث العامل الذي يحدد تطوره . وهـــي ترينا ان بنية المجتمع واكتماله الكيفي والقوانين الموضوعية لتطوره التاريخي ، وكذلك توالي وتعاقب هـــذه الاكتمالات ترتهن بطريقة انتاج الخيرات الماديـــة . بيد ان الماديـة التاريخية لم تحصر قط ولا تحصر كل اشكال وانواع النشاط الاجتماعي ، وكذلك مضمـــون الثقافة الروحية في الانتاج المادي وحده . فكلما كان المجتمع اكثر تطورا ، وكلما كان مستوى تطوره كتشكيلـــة أرقى وأرفع ، اكتسب الفـــن والاخلاق والعلم والفلسفة والقانون مزيدا من الاهمية فـــي حياته ، وازدادت اشكـــال السلوك الاجتماعي تعقيـــدا ، واصبحت انواع الروابط والاتصال والاختلاط بين البشر اكثر ثراء وتنوعا . وكل هذه الجوانب من الحياة الاجتماعية ، التي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تشمل عناصر المجتمع المادية والروحية على السواء ، باعتباره «جسما اجتماعيا» ومنظومة دينامية متميزة (١٠٦) ، هى التى تنعكس فى مفهوم الحضارة .

ظهر هذا المفهوم لاول مرة فى الادب الفلسفى البرجوازى فى القرن الثامن عشر . واستخدم رواد التنوير الفرنسيون ، ومن ثم المفكرون البرجوازيون فى بريطانيا والمانيا وروسيا مفهوم الحضارة لوصف حياة وثقافة المجتمعات المتطورة ، العالية الثقافة نسبيا ، والتى تتمتع بنظام معين للدولة والقانون . وكانوا يضعون المجتمع المتحضر نقيضا للمجتمع غير المتحضر ، أى الهمجى ، الوحشى ، البدائى . لهذا كانت مختلف مفاهيم الحضارة تستخدم فى احيان غير نادرة فى تبرير «الرسالة الحضارية» المتميزة للبلدان الراسمالية المتطورة تجاه البلدان والشعوب المتخلفة ، وتتخذ فى واقع الحال كتعليل لسياسة الاحتلال الاستعمارية التى تنتهجها الدول البرجوازية . اما حقيقة ان البلدان والشعوب المتخلفة فى تطورها كانت فى احيان غير نادرة تحوز ثقافة وحضارة عريقة متفردة خاصة بها ، فغالبا ما كانت تسقط من الحساب ، مما أدى الى خراب الكثير من آثار الثقافة النفيسة والحاق ضرر لا يعوض بالتقاليد الثقافية القومية .

كان الفيلسوف ومؤرخ الثقافة الالمانى الرجعى شبنغلر (١٨٨٠-١٩٣٦) يعتبر الحضارة مرحلة تأزم استثنائية فى تطور كل ثقافة تاريخية مغلقة . وتتسم هذه المرحلة ، فى رأيه ، بتطور التقنية ، وباكتظاظ المدن الكبيرة بعدد عملاق من البشر ، وبانحطاط الاخلاق والنظام العام ، وبضياع الاهتمام بالقيم الثقافية ، وبتدهور الفنون الخ . وكان المؤرخ الانجليزى توينبى (١٨٨٩-١٩٧٥) لا يفهم الحضارة الا كطريقة ، كوسيلة يجرى بواسطتها فرز وتسجيل ودراسة جوانب معينة من كل ثقافة متميزة قائمة . وكما نرى ، فان مفهوم «الحضارة» كان ولا يزال يؤدى دورا ملحوظا فى تحليل الظواهر الاجتماعية المعقدة . بيد ان الفهم العلمى حقا لهذه المقولة لم تقدمه سوى الفلسفة الماركسية اللينينية .

الحضارة هى مرتبة معينة فى تطور الحياة الاجتماعية تتسم بتقسيم متميز للعمل وبما يقوم فوقه من عمليات اجتماعية ، وكذلك باشكال مختلفة من تفاعل البشر . وفى المجتمع الاشتراكى الذى لا توجد فيه الا الطبقات والفئات الاجتماعية المتآلفة تسم الحضارة مستوى تطور الثقافة والعلاقات الاجتماعية ، وكذلك مستوى تطور النشاط الانتاجى الاجتماعى ، فى تفاعلها العضوى الجدلى . وتتطلب الحضارة الجديدة مجتمعا ذا ثقافة روحية ومادية عالية التطور ، تسوده اصول وقواعد الاخلاق الشيوعية ، مجتمعا يتمثل مبدأه الخلقى ومبدأ سلوكه ونشاطه فى التعاضد والتآخى والموقف الابداعى ازاء الفرد والتقيد الواعى بالنظام العام وارتفاع مستوى ضوابط العمل والانتاج والتنفيذ . والحضارة الجديدة لا تنشأ فورا بشكل جاهز ، انما تتكون فى خضم الصراع مع ترسبات الرأسمالية فى الوعى والمعيشة ، ومع قواعد السلوك والافعال المنافية للثقافة والاخلاق ومبادئ التنظيم الاجتماعى الاشتراكية . والسمة المميزة للحضارة الشيوعية الجديدة هى السعى الى تخطى التخلف الثقافى والاقتصادى لبعض الشعوب والقوميات ، وتوفير ظروف متكافئة لتطور جميع البلدان والشعوب التى سلكت طريق بناء الاشتراكية والشيوعية . ويتنافى التحضر الشيوعى الجديد مع ما يسمى بـ«الرسالة الحضارية» التى كان مؤدلجو البرجوازية يعتبرونها امتيازا لقلة قليلة فقط من الدول الرأسمالية العالية التطور . وهذا هو ما يجعل الحضارة الشيوعية الجديدة على هذا القدر من الجاذبية فى انظار الملايين من البشر ، وما يجعل النضال من اجل صيانتها وتطويرها هدفا لنشاطهم الاجتماعى والشخصى . ويتطلب استمرار نمو وتطور الحضارة الجديدة فهما واضحا وعلميا لآفاقها واهدافها القريبة والبعيدة .

٦٠٨

النضال من اجل السلام ومصائر البشرية . يعتبر النضال من اجل تفادى الحرب النووية وفى سبيل تعزيز وصيانة السلام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

احدى ابرز وأهم قضايا العصر المرتبطـــة بمستقبل وجود الانسان وامكانية هذا الوجود بحد ذاتها .

لقد كان ثمة وجود للحــروب ، كشكل معين من اشكال العنف ، منذ عقود سحيقة من الزمن . ومـــع نشوء الطبقات والدول اصبحت الحرب شكـــلا متميزا للعنف السياسى . فالحرب امتداد للسياسة بوسائـــل اخرى . والحرب امتداد لسياسة هذه الطبقة أو تلك فى كل مجتمع طبقي – فـــى المجتمع العبودى والاقطاعـــى والرأسمالى – ، وكانت هناك حروب تشكل امتدادا لسياسة الطبقات المضطهِدة ، وأخرى تشكل امتدادا لسياسة الطبقات المضطهَدة . على هذا النحو ، هناك حروب عادلة وأخرى جائرة ، احتلالية ودفاعية ، حروب فى صالح الطبقات المسيطرة وحروب تحررية ثورية فـــى صالح الكادحين .

وكانت اغلبيـــة الحروب التى وقعت فـــى المجتمعات الاستغلالية حروبا جائرة ، احتلاليـــة ، لصوصية . وكانت تعود بالنفع على الطبقة المسيطرة وتسبب للكادحين ويلات ومصائب جمة . وكانت الحروب فى المجتمع العبودى احـــد المصادر الاساسية لتوريد العبيد . يقول الفيلسوف اليونانى القديم هيراقليطس : «أن الحرب أم وملكة كل ما فـــى الوجود . . جعلـــت بعض ابنائها عبيدا وبعضهم الآخـــر احرارا» * .

وبالرغم من ان المسيحية قد ادانت الحـرب بالاقوال ، اقترنت كل فترة القرون الوسطى المسيحية بحروب نهـــب متواصلة وحملات صليبية وحروب اقطاعيـــة داخلية وما الى ذلك . ولكن الحروب فى عصر الرأسمالية اصبحت اشدهـــا ضراوة واكثرها اراقة للدماء . ففى الحروب والحملات الكثيرة الرامية الى احتـــلال المستعمرات واستعباد الشعوب الاخرى تجلت بوضوح خاص الصفة اللاإنسانية للمجتمع الرأسمالى الذى يتمثل هدفه الرئيس فى جنى الارباح وزيادة الملكيـــة

---

* ماديّو بلاد الاغريق القديمة . موسكو ، ١٩٥٥ ، ص ٤٦ .

الخاصة بأى ثمن . فالاعتياش على حساب الاخرين والاثراء وتوطيد ملكية وسلطة الطبقات المسيطرة هى المضمون الرئيس للحروب الجائرة . وعلى العكس ، كانت الحروب العادلة تنشأ فى سياق الثورات الاجتماعية وفى اثناء الانتفاضات الشعبية .

وبما أن الحروب ترتبط بهلاك البشر وتدمير القيم المادية والروحية ، فقد كانت مسألة امكانية التخلص منها على الدوام احدى أهم وأبرز المسائل العقائدية الفلسفية . فمنذ العهود القديمة ، ولاسيما فى العصر الجديد ، كان الكثير من المفكرين البارزين ، كانسانيى عصر النهضة ورواد التنوير الفرنسيين (روسو ، مونتيسكيو ، كوندورسه) ، وكانط وآخرين يندوون تنديدا شديدا بالحروب ، ويطرحون مشاريع سلام دائم ويدعون الى انفاق الاموال لا على التسلح ، بل على تطوير المجتمع سلميا . بيد ان كل هذه النوايا الحميدة كانت مجردة ، ولم تراع حقيقة ان المجتمع القائم على الملكية الخاصة بما يلازمه من تناقضات تناحرية عميقة (٤٠٦) يتمخض عن الحروب بحكم الضرورة الموضوعية .

وأشتدت مسألة تفادى الحروب فى فترة الامبريالية ، حين يجعل تطور التقنية الحروب اكثر دموية ودمارا . فقد اودت الحربان العالميتان الاولى (١٩١٤-١٩١٨) والثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) اللتان اضرمت نارهما الدول الامبريالية العدوانية بحياة عشرات الملايين من البشر ، وأدتا الى خراب مئات المدن وآلاف المراكز السكانية ، والى فناء القوى المنتجة والكثير من قيم الثقافة . وتتجذر الحروب الاحتلالية العدوانية فى طبيعة الامبريالية ذاتها . الى جانب ذلك ، تتمخض أزمة الرأسمالية العالمية ، والانتقال الى المجتمع الاشتراكى الجديد الذى يشكل مضمون العصر الراهن ، وانهيار نظام الامبريالية الاستعمارى عن جملة كاملة من الحروب الاهلية والوطنية التحررية العادلة . ومن الامثلة على هذه الحروب الحرب الاهلية فى روسيا وحرب الشعب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفيتنامى الوطنية التحررية وحرب الشعب السوفييتى الوطنية العظمى (١٩٤١-١٩٤٥) .

واذ تقر الماركسية اللينينية بوجود اسباب اقتصادية واجتماعية موضوعية للحروب فى المجتمع الطبقى وفى ظروف اشتداد التناقضات الاجتماعية التى تتناهش البشرية المعاصرة ، فهى ترى ان ليس هناك حتمية قدرية للحرب العالمية . وتدل جدلية الحرية والضرورة (٦٠٢) على ان الانسان قادر على فهم القوانين الموضوعية فهما صحيحا ، وعلى اتخاذ وتطبيق القرار الصحيح بالاستناد الى هذه القوانين . وتندرج هذه الثقة فى اساس النضال المنتظم والعنيد الذى تخوضه الاحزاب الشيوعية والعمالية وبلدان الاسرة الاشتراكية وسائر قوى البشر الطليعية التقدمية من اجل تفادى الحرب النووية العالمية .

ان الحروب كافة تؤدى الى هلاك البشر . وفى بعض الحالات لا يكون هناك اطلاقا ما يبرر هذه الضحايا ، وفى حالات اخرى - كما فى حالة الحروب الثورية والتحررية - تقدم هذه التضحيات قربانا لحرية واستقلال وسعادة الاكثرية من اعضاء المجتمع . بيد ان الحرب النووية العالمية تطرح امام البشرية لا مجرد مسألة التضحيات المبررة او غير المبررة ، بل مسألة فناء كل الاحياء على الارض ، ومن ضمنها الانسان نفسه .

على هذا النحو يغدو تفادى الكارثة النووية معضلة يتوقف على حلها مصير البشرية نفسه ووجود المجتمع وامكانية استمرار التقدم التاريخى . لهذا تكتسب هذه المعضلة أهمية عقائدية ، فلسفية ، لها الاولوية .

ومع ظهور المجتمع الاشتراكى واسرة البلدان الاشتراكية تظهر لاول مرة فى التاريخ امكانية تفادى الحروب العالمية ، فمن اين تنشأ هذه الامكانية ؟ القضية هى ان مبدأ حب السلام متأصل فى المجتمع الاشتراكى وفى طبيعة الاشتراكية ذاتها . فالمجتمع الذى ليس فيه طبقات تناحرية وملكية خاصة لا مصلحة له فى خوض الحروب . وحتى اذا اضطر الى خوض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حروب دفاعية عادلة ، فهو يفعل ذلك فقط كرد على الاعمال العدوانية للدول الامبريالية . فالاشتراكية فى جوهرها ذاته معنية بالسلام كشرط اساس للتطوير السريع للانتاج المادى والثقافة الروحية لما فيه خير المجتمع بأسره . علاوة على ذلك ، ان الاسرة الاشتراكية العالمية ليست فقط معنية بصيانـــة السلام ، بل وتحوز ما يكفى من القدرة الاقتصادية والسياسية والعسكرية للتصدى للنوايا العدوانية التى تبنتها الامبريالية العالمية . وليست هذه القوة سوى ضمانة مهمة لصيانة السلام وتوطيده .

ان وثائق الحزب الشيوعى السوفييتى تعلن احكاما بالغة الاهمية عن النضال من اجل السلام وتفادى الحرب النوويـة والاستثمار العالمى للفضاء الكونى ، وعن التعايش السلمى بين الدول ذات الانظمة الاقتصاديـــة الاجتماعية المختلفة . ويدافع الحزب الشيوعى والدولة السوفييتية عـن برنامج بناء واسع يتضمن تدابير ترمى الى وقف سباق التسلح ونزع السلاح وضمان سلام وأمن الشعوب . ويتطلب هذا البرنامج تلاحما وثيقا بين القوى التقدمية المحبـــة للسلام فى جميع بلدان ومناطق العالم على اساس الادراك الشامل والعميق لتلك الآثار الخطرة على البشر التى يمكن ان تفضى اليهـــا الحرب الصاروخية النووية . ان أهم وأبرز استنتـــاج فلسفى فى الظروف الراهنة هو الادراك الواضح لحقيقة ان مصالح صيانة السلام ، وبالتالى صيانة البشرية ، تبدو فى مواجهة الخطـــر النووى العالمى وكأنها تتقدم لتشغل المقام الاول ، بينمـــا تتراجع المصالح الفئويـــة الى المقام الثانى . لذا فالقـوى المناضلة من اجل السلام تعبر عن اعمق المصالح البشريـــة العامة .

٦٠٩

المستقبل المنتظر . ان الفلسفة الماركسية اللينينيـــة هى بالدرجة الاولى فلسفة الفعل . وليس عبثا ان يؤكد ماركس ولينين فى معرض الحديث عن مهمتها الرئيسة ان الماديـــة الجدلية ، بخلاف سائر المنظومات الفلسفية السالفة ، لا تقتصر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على تفسير العالم ، بل تعين الطريق المفضى الى تغييره وتعلل ضرورة هذا التغيير . ولاجل ممارسة الفعل لابد من حيازة القدرة على برمجة النشاط ، ولاجل برمجته لابد من امتلاك القدرة على التنبؤ بالمستقبل وتصوره . لهذا السبب بالذات كان البشر على الدوام ، بصفتهم كائنات عاقلة وهادفة النشاط ، يحاولون تمزيق حجب الضباب والاطلال على المستقبل . بيد ان الحياة نادرا ما كانت تنصاع حتى لاشجع الرؤى والتنبؤات . فلماذا يا ترى ؟

تعتبر المستقبلية من احدث اتجاهات الفكر الاجتماعى البرجوازى المعاصر وأكثرها شيوعا . ويحاول المستقبليون البرجوازيون ، بالاعتماد على ما يدعون انه مناهج علمية ، رسم لوحات متنوعة لمستقبل البشرية البعيد والقريب .

تصور احدى هذه اللوحات بشر القرن الحادى والعشرين بهيئة حشد عملاق من المراكز الصناعية الضخمة . فآلاف المؤسسات المجهزة كليا بالروبوتات تجعل مجهود الانسان المتوسط فائضا عن اللزوم ، فيغدو مليارات البشر أناسا فائضين عن الحاجة من سكان الارض . وسيتولى العباقرة ادارة شؤون البشر ، ويظهر تنظيم خاص للسلطة هو حكم العباقرة . وسيقضى على المليارات من البشر المستنزفين ، الكالحين ، العديمى الهوية بالانقراض ، وستنشأ الحاجة الى صناعة تسليات عملاقة لملء اوقات فراغهم . ولن يكون هؤلاء الفاقدون للاهتمام بالحياة وللارادة فى الكفاح ومزاولة النشاط سوى عبارة عن عبء ثقيل على النخبة الحاكمة . وليس لدى هؤلاء البشر أيما آفاق سوى الانقراض التدريجى .

وتصور اللوحة الاخرى للمستقبل عملية تبدو وكأنها مضادة للاولى . فالمدن العملاقة تخلو تدريجيا من السكان ، اذ سيحاول البشر العودة الى الطبيعة ، الى المستوطنات الصغيرة . وعن طريق استعمال التقنية العصرية ، ومنها الكمبيوترات الصغرى سيقومون بانشاء مؤسسات صغيرة ومتوسطة . وسينشأ الكثير من المؤسسات والطوائف المستقلة ، المعزولة ، المتنافسة فيما بينها . وسيحاول البشر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على اساس صناعى جديد احياء «العصر الذهبى» لورشات حرفيى العصور الوسطى التى ستنتج سلعا عصرية . وفى هذه الظروف فقط ، كما يدعى واضعو سيناريوهات المستقبل هذه ، يتسنى حتى ولو ادنى قدر من صيانة شخصية الانسان وصفته الفردية . وبعكس ذلك سيفقد الناس هويتهم فقدانا تاما ويتحولون الى كائنات «وحيدة البعد» ، الى توابع بسيطة للمؤسسات الصناعية العملاقة والشركات فوق القومية . فانشطار المجتمع الى طوائف متفرقة سيكون ثمن صيانة حتى ولو الشخصية البائسة .

وثمة لوحة اشد قتامة يرسمها اصحاب تلك السيناريوهات التى تقول بحتمية الكارثة النووية وانقراض البشر جراء عواقبها المدمرة . فالبشر المرضى والمشوهون اما لن يتسنى لهم تشغيل المعدات التقنية العصرية وتأمين حاجتهم الى الغذاء والمسكن ، واما سيتحولون الى عبيد للروبوتات «الخالدة» والمتقنة والمعصومة من الخطر .

لن نخوض فى تفاصيل كل هذه السيناريوهات للمستقبل ، بل نكتفى بالاشارة الى خاصيتها الرئيسة : انها تنبع جميعا من فكرة خلود الرأسمالية . ويجرى تحويل الاحساس القاتم بحتمية هلاكها الى تخمينات متشائمة بنفس القدر من القتامة . فالمستقبليون البرجوازيون على استعداد للقبول بفكرة هلاك البشرية وانتصار ملكوت الروبوتات وسيطرة الحضارات الخيالية الوافدة من اعماق الكون وما الى ذلك ، حسبهم الا يقروا بانتصار الاشتراكية والشيوعية .

ان فكرة انتصار المجتمع الاشتراكى والنظام الاجتماعى الجديد العادل لم تنشأ أمس . فقبل ظهور مؤلفات ماركس وانجلس بوقت طويل كانت هناك الاشتراكية الطوباوية (٢٣٣) . وقد رسم اكثر ممثليها موهبة لوحات ساطعة عن المستقبل الاشتراكى وأفعموها بأعجب التفاصيل . فقد وصفوا وصفا مفصلا ملابس ومعيشة سكان هذا المجتمع ، ووضعوا فى مؤلفاتهم تصاميم مفصلة لمساكنهم وجدول نشاطهم اليومى ، ودساتير وقوانين الطوائف الاشتراكية المقبلة ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحددوا سلفا كيف ستعقد عقود القران وكيف سيربى الاطفال.
وكان ممثلو هذه الاشتراكية الطوباوية الحالمة يؤمنون بأنها ستنشأ لا فى نتيجة صراع الكادحين الجماهيرى الثورى ، بل فى نتيجـــة نشاط المفكرين الافذاذ التنويرى . ولا داعـى للتنويه بأن احلامهم هذه ظلت مجرد احلام ولـم تتجسد فى واقع الحياة ، لان الاشتراكيـــة والشيوعية يمكن ان يشيدا فى النضال الضارى والعنيد ، وبجهود اوسع الجماهير الشعبية التى تقودها احزاب طليعية ترتكز على نظرية الشيوعية العلمية وليس على الاشتراكية الطوباوية .

ان الاساس النظرى والمنهجى لنظرية الاشتراكية العلمية هو بالضبط الفلسفة المادية الجدلية . فبعد اكتشاف القوانين الاكثر عمومية لتطور الطبيعة والمجتمـع والفكر ، واثبات ان الوجود الاجتماعى هو الذى يحدد الوعى ، وان التحويل الثورى ، بصفته اعظم قفزة تاريخيـــة من ملكوت الضرورة الى ملكوت الحرية ، يجب ان يبتدئ بالذات من تحويل الوجود الاجتماعى نفسه ، عللت المادية الجدلية الضرورة الموضوعية للانتقال الى التشكيلة الشيوعية .

وباثبات الحتمية التاريخية للشيوعية ، لا تقترح الفلسفة الماركسية اللينينية ايما لوحات طوباوية للمستقبل . وهى لا تفرض على المستقبل ايما تفاصيل حياتية تقوم على التصورات والانجازات الراهنة . ولئن راعينا وتائر التقدم العلمى التقنى المتنامية باطراد فسوف نجد ان من غير الممكن اصلا التنبؤ بمثل هذه التفاصيـــل . عوضا عن ذلك ، تقوم الفلسفـــة الماركسية عن طريق تعميم تجربة التطور التاريخى والحركة الثورية العالمية ، وبموثوقية علمية ، بتبيان المراحل الاساسية للانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، ومن طور الشيوعية الاول ، أى المجتمع الاشتراكى ، الى طورها الثانى الاسمى ، أى الشيوعية التامة . ويمكن ان يجرى هذا الانتقال بأشكال مختلفة مع مراعاة الخصائص الملموسة لكل بلد ، واصطفاف القوى الطبقية والوضع الدولى والوقت الذى تبتدئ فيه العملية الثورية (٢١٤) . ولكن مهما كان تنوع الاشكال ، يبقى مضمون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذه العملية كما هو عليه . وهو ينطوى على مراحل بنـــاء المجتمع الاشتراكى وتطوره الشامل وصولا الى الشيوعية .

ومع تراكم خبرة البناء الشيوعى تغتنى التصورات العلمية عن الطور الاسمى للمجتمع الجديد وتتحدد بشكل ملموس . أما محاولات استباق الزمن واعتماد المبادئ الشيوعية ، دون مراعاة مستوى نضوج المجتمع ماديا وروحيا ، فمحكوم عليهـا بالفشل ، كما تبين التجربة ، ويمكن ان تترتب عليها عواقب ، سواء اقتصادية أو سياسية الطابع .

كيف ومتى سيسلك كل شعب وكل بلد طريق التحويلات الاشتراكية والشيوعية ، وبأى توال ستطبق هذه التحويلات — تلكم اسئلة يجب ان يجيب عنهـــا التاريخ . أما الفلسفـــة الماركسية اللينينية فتكتفى بالبرهنة على ان مثل هذه التحولات لا مفر منها . ولهذا فهى تعلل — دون تنبؤ بتفاصيل المستقبل — الضرورة التاريخية لحلول المجتمع الشيوعى ، مؤكدة ان الطريق اليه ليس معبدا وسهلا ، لكنه منطقى ومشروع . وهذا هو ما يحدد اسهام الفلسفة الماركسية اللينينيــة فى تكوين العقيدة العلمية ، ويجعلهـــا أهم وأبرز اداة لتنشئة الوعى الشيوعى وتكوين الموقف الحياتى الفعال لدى الانسان الجديد . على هذا النحو ، عند الحديث عن المستقبل وازاحة الحجب التى تخفيه لا ترسم الفلسفة الماركسية اللينينية تفاصيل ودقائق خيالية ، لكنها تشير الى القوانين الاساسية ومراحل الطريق الذى يجب ان يفضى الى الشيوعية .

حديث اخير مع القارئ*

القارئ* الذى يشرع فى مطالعة هذا القسم الختامى ، الاخير من الكتاب يكون قد اطلع على مضمونه . فما الذى يمكن قوله الآن عن الفلسفة العلمية المعاصرة ؟ وكيف يمكن الاجابة عن سؤال : ما الغرض منها ؟ وأى نفع يجنيه من أطلع على معضلاتها الاساسية ومنهجها ومضمونها ؟

يقال ان ثمة معبدا يونانيا قديما فى مدينة ديلفى ، حيث تنبأت الكاهنة بثونيسا بالمستقبل ، كان يحمل على واجهته عبارة «ايها الانسان ، اعرف نفسك» . ويدل تاريخ الفكر البشرى وتاريخ البشرية الطويل عموما على ان هذا المطلب ليس بالمهمة الهينة . فقد شيد الناس وهدموا مدنا ودولا باكملها ، وحولوا الاراضى الجرداء الى جنان غناء ، وجعلوا المراعى الجميلة والغابات العظيمة صحارى قافرة . وانجز البشر نتاجات فنية باهرة وروائع ادبية عظيمة ، لكنهم هم انفسهم دمروا أعظم آثار فن العمارة واحرقوا المكتبات وطاردوا وقتلوا احيانا كبار الفلاسفة وعلماء الفلك والفنانين والشعراء ورجال السياسة . كان الناس يتحاربون ويتصالحون ، يصنعون الشر والخير ، يناضلون من اجل العدالة وينكرون حتى امكانية تحقيقها . لقد وهبوا الابطال الى العالم ، لكنوم هم انفسهم قدموا غلاة المجرمين ايضا . فما هو هذا الانسان يا ترى ؟ وكيف السبيل الى معرفته ؟ وهل هذه المعرفة ممكنة اصلا ، وفيم تتمثل قيمتها ؟

ان العالم المحيط بنا الذى تدرسه العلوم الطبيعية معقد

وروائع . ونحن نعلم الآن كيف تبدو بنيــة الذرات والدقائق البسيطة . ونعرف الكثير أيضا عن الكون المرئى الذى يبلغ قطره زهاء ٢٥ مليار سنة ضوئية . لقد ارتاد الانسان الفضاء الكونى وصنع الكمبيوترات التـــــى تقوم بعشرات مليارات العمليات فى الثانية ، والقادرة على حل مسائل لم تكن حتى وقت قريب متاحة الا للانسان ، بل وحتى بعض المسائل التى كان من غير الممكن حلهـــا بوجه عام من دون حاسبـــات الكترونية . ولكن كل افعال الانسان وكل تصرفاته متناقضة جدا وغير متجانسة ، ومتنوعة وغالبا ما يخالف بعضها بعضا .

ليس من اليسير بتاتا معرفة الانسان والمجتمع الانسانى ، ناهيك عن التنبؤ بمستقبل البشرية . فمعرفة العالم المحيط بحد ذاتها لا تكتسب المغزى والاهمية الا أذا تسنى لنا ان تجيب عن سؤال : لماذا نحن بحاجة الى هذه المعرفة ، ومـا الذى تقدمه للبشر ؟ ان أيا من العلوم التخصصية لا تعطى ولا يمكن ان تعطى مثل هذا الجـواب . فى الوقت ذاته نحن نعرف الآن ان الانسان هو الذى يقوم بمعرفة العالم ولاجل تلبية احتياجاته . اذن ، فالعالم لا يمكن معرفته دون ان نفهم ما هى هذه الاحتياجـــات ، وما هو مغزى الوجود البشرى . وبالعكس ، لا يجوز فهم الانسان دون ان نفهم العالم ، ذلك ان الانسان هو جزء منه ، هو اكليل التطور الطويل والمعقد . هكذا يتضح ان مسألتى معرفة العالـم بمعزل عن الانسان ، ومعرفة الانسان الواقف فى مواجهـــة العالم وبمعزل عنـــه تستعصيان تماما على الحل اذا اخذ كل منهمـــا بمفرده . ولا يتيح لنا الاقتراب من الجواب الصحيح الا تخطى التناقضات الخارجية لهاتين المسألتين وتبيان وحدتهما الداخلية العميقة .

ولن يتسنى لنا ان نفهم ما هو مغزى الوجود البشرى وما هى رسالة الانسان ، الا اذا عثرنا على المنهج الحقيقى لمناقشة مسألة مكانة الانسان فى العالم وجوهر العلاقة بين الانسان والواقع الخارجى . والماديـــة الجدلية هى التى تقـدم هذا المنهج . وهو يبين لنا ان الانسان يسير على طريق وعر هو طريق الاخطاء والاكتشافات والكفاح الدؤوب والبحث المضنى

عن الحقيقة صوب اهدافه المنشودة . أى الحرية والعدالـــة والابداع اللامحدود والازدهار المتناسق لمؤهلاته وقابلياته . وتعلمنا كل الاديان السماوية ان عملية الابداع العظمى — اى خلق العالم — حكر على الرب . بيد ان الانسان يستطيـــع ترسيخ نظام اجتماعى عادل ومعقول وانسانى لن يكون فيــه أناس مهانون ومظلومـــون ، مستغَلون ومسلوبو الحقوق ، مطارَدون ومطارِدون ، حكام مستبدون ورعايا خانعون . ان بامكان مثل هذا المجتمع ان يتعايش مع الطبيعة بانسجام تام ، عوضا عن السيطرة عليها ، وبامكان كل فرد ان يتمتع بهباتها دون ان يلحق ضررا بالاخرين .

الى مثل هذا المثال الاجتماعى الاسمى ، الى المجتمع الذى كل شيء فيه من صنع الانسان ولخير الانسان نفســه ، كان يسعى خيرة مفكرى الماضى . ولكن ما الذى أعاقهم عن تحقيق احلامهم ؟ ان جميع مصلحى البشرية و«مُحسنيها» العاثرى الحظ كانوا يرون سبب ذلك فى تحجر البشر وتزمتهم وجهلهـــم وميولهم المعيبة وانجرارهم الى الخطيئة . ولكن مهما جرى فضح هذه النواقص ، ومهما كان التشبث بأفضل جوانب الطبـــع البشرى حماسيا ومتوقدا ، لم تتغير الاوضاع على مدى قرون طويلة ، وظلت العدالة والحرية بعيدتى المنال . وظلت دعوة بثونيستا الى معرفة الانسان ، او بعبارة اخرى ، الى معرفة جوهر المجتمع بمنأى عن التحقق .

ولم يجر لاول مرة الا بظهور الفلسفة الماركسية اللينينية الثورية اثبات وتوكيد معطيات العلم لكون جوهر المسألة يكمن فى تغيير المجتمع وبنيته الاقتصادية الاجتماعية . فعندما وضع انصار العقيدة الماركسية الفهم المادى للتاريخ وشكلوا تنظيما سياسيا ثوريا قادرا على تزعم نضال قوى المجتمع التقدمية من اجل تحويله اجتماعيا ، اظهروا ان فهم الانسان يعنى تناوله كتعبير وتجل مكثف للعلاقات الاجتماعية المحددة تاريخيـــا . فوعى الانسان يرتدى طابعا اجتماعيا . وتغيير الوعى الاجتماعى يتطلب تغيير الوجـــود الاجتماعى بشكل ثورى . ولاجل ان تتنحى الاهواء الدنيئـــة وحب التسلط والجشـــع والارادة

التخريبية وغيرها من الجوانب السلبية للسلوك البشرى ليحل محلها الابداع الانسانى وحب المعرفـــة والشعور الانسانى والاخلاق الرفيعة ، لابد قبـــل كل شيء من تغيير الواقـــع الاجتماعى ذاته ، والعلاقات الاجتماعية ذاتها ، وتوفير ظروف انسانية حقا للانسان .

ان تحقيق هـذه الاهداف ليس بالامر الهين . اذ كانت ولا تزال وستبقى تعترض طريقه صعاب جمة ، وقد ارتكب على هذا الطريق وسيرتكب قدر لا يستهان به من الاخطاء ، ذلك ان البشرية لا تحوز بعد الخبرة فى مثل هذه التحويلات الاجتماعية الشاملة والواسعة النطاق . ولكن التحوط الى اقصى درجة لشتى الصعاب الموضوعيـــة وتقليل الاخطاء والهفوات المحتملة الى ادنى درجة يتطلبان من قوى المجتمع الطليعيـة الاسترشاد فى نشاطها بالعقيدة العلمية الطليعية التى ينبغى على اساسها تكوين وتطوير التفكير الجديد . وهذا بالذات هو ما يملى ضرورة دراسة اصول الفلسفة ، والفلسفة الماركسية اللينينية بالذات ، كونها تركم فى صلبها منجزات العلـــم المعاصر والتجربة التاريخية وممارسة البناء الاشتراكى . ولا يمكن الا بواسطتها معرفة مغزى وجوهر الوجود البشرى واهداف المجتمع وآفاقه التاريخية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محتويات

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتـاب ، وشكـل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لهـا عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ١٧
موسكو ـ الاتحاد السوفييتي


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دار التقدم

مكتبة الطالب

Bibliotheca Alexandrina
0347405